



# كلمة السر

مذكرات محمد حسني مبارك  
يونية ١٩٦٧ - أكتوبر ١٩٧٣





لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا



لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية  
انضموا لجروب ساحر الكتب

[sa7eralkutub.com](http://sa7eralkutub.com)

او زيارة موقعنا

كلمة السر ... مذكرات محمد حسني مبارك -

تقديم

بقلم  
محمد حسني مبارك  
نائب رئيس الجمهورية

لقد كانت في أكتوبر ١٩٧٢ سكا للتاريخ  
سكا للقدرة على التنظيم .. ومع إنشائه  
ولقد كتبت لكم لنا الكثير من عنده  
وسبلناه بمراتبنا .. وأرواحنا ..

ولقد كان دور الناب الموجهة هذه المرة .. بارزاً .. ولقد  
أروع أرواحها مع التاريخ كله .. وضع لها روحاً وضابطاً  
ومهندماً وكحل رجالها .. أروع الوثائق .. تنظيمية والطلوع  
والنفاذ ..

ولقد كان في شرف قيادتها هذا العهد العظيم .. وقيل  
صانها منيراً .. وفيها .. وان كان لها من سبقها  
للتيار .. فانه لعله أكتب احفظ لاجلهم .. وسيفه  
هذه الاجيال منيراً لاجل القبله ..

غير انه المرء من أكتوبر .. منذ البداية .. فتنه مع  
السياسات الفكرية والسياسية والشمسية .. وان كانت  
هذه اصداها خالين .. انه نيلها .. افراطاً .. طغى ..

وما زالت آمالنا معلقة بفنائق المسألة .. همة تكمل  
النزوات قيادة الرئيس بعفت الشريعة  
التيه .. سماء نور السادات  
وام .. ولي التوفيق

محمد حسني مبارك

نائب رئيس الجمهورية

# الهزيمة ليست قدرًا.. والنصر ليس صدفة

تقديم بقلم:

عبدالله كمال

قادتني إلى هذه الوثيقة التاريخية المهمة..  
صدفة سعيدة. للدقة وجدتني في طريقها، إذ  
لم أبذل جهدًا، ولم أخطط لمسعى كي أحصل  
عليها.. بل لم أكن أعرف بوجودها من الأصل،  
لم يذكر أحد من قبل أن محمد حسني مبارك  
نائب الرئيس أنور السادات قد كتب مذكراته،  
حتى مبارك نفسه لم يعلن ذلك وربما لم يكن  
يتذكره.

كان كل ما أعرفه أن الرئيس مبارك له  
مذكرات مسجلة تلفزيونيًا عن طريق إدارة

الشئون المعنوية بالقوات المسلحة فيما بعد عام 2000، وأنه ربما قد دَوّن مذكراته الأخيرة في الفترة بين تخليه عن منصبه في 11 فبراير 2011.. وقبل أن يتم التحقيق معه، ثم احتجازه ومحاكمته بعد ذلك.

الحكاية بسيطة للغاية: تعرفت إلى مخرج سينمائي وتلفزيوني شاب وواعد، كان واحدًا من بين مجموعة من الشباب الذين بدأت في التواصل معهم بعد 25 يناير 2011، كنت ولا أزال أحاول التقرب من جيل جديد لم أكن قد تواصلت معه بقدر كافٍ للاطلاع على أفكاره.

كان من المهم أن أستمع إلى هؤلاء الذين عبروا عن غضبهم ضد حكم آمنت بوطنيته وإخلاصه، مهما كان لنا من ملاحظات على أدائه، أن أقرب من آرائهم، وأعرف ما يفكرون فيه، ولماذا هم غاضبون. وكان من بين هؤلاء الفنان الشاب كريم الشناوي.

بعد حوارات مختلفة، بعضها فردي.. وبعضها جماعي، بعضها مباشر.. وبعضها عبر وسائل العصر على «دردشات الواتس اب».. كان أن دخل كريم مكتبي حاملاً هذا النص التاريخي الذي كان قد نسيه الرئيس مبارك نفسه قرابة 40 عامًا.

إن كريم هو حفيد المرحوم محمد الشناوي، الرجل الذي كتب تلك المذكرات بعد أن استمع لمبارك شهورًا طويلة، وتفرغ لتدوينها أشهرًا أطول. وبين الحفيد والجد كان الأب الذي بقيت المذكرات في حوزته طوال تلك السنوات، الأستاذ حازم الشناوي الإعلامي والمذيع المعروف بالتلفزيون المصري.

قبل سنوات طويلة كنا قد تعارفنا، أنا وحازم الشناوي، إذ كان يقدم في نهاية التسعينيات برنامجًا شهيرًا يذاع على القناة الثالثة اسمه «غداً تقول الصحافة»، بموازاة برنامج آخر أوسع شهرة اسمه «الكاميرا في الملعب».

كنا في مختلف الصحف القومية نسعى لأن نكون ضيوفاً في برنامج «حازم» الذي أصبح مشهوراً بحواراته مع الأستاذ الكبير مفيد فوزي رئيس تحرير مجلة «صباح الخير» في ذلك الحين، كان «مفيد» قد أضاف إلى نجوميته مقداراً جديداً بطريقة عرضه الجذابة للمجلة مع حازم الشناوي قبل صدور عددها الجديد بليلة، كل أسبوع.

وكان في داخل كل منا، نحن الصحفيين الشباب، أمنية صغيرة نرجو أن تتحقق بأن نقدم عرضاً لصحفنا من خلال هذا المذيع اللافت.. وكنت أرجو أن يأتي ترتيب الحلقات ذات يوم بحيث أعرض «مجلة روزاليوسف» باعتباري مساعد رئيس تحريرها مع الأستاذ حازم الشناوي، كنت أعتقد أنني يمكن أن أقترب من أسلوب عرض مفيد فوزي الناجح.

مرت سنوات طويلة منذ آخر لقاء، ربما خمسة عشر عاماً على الأقل، حين زارني

الأستاذ حازم مع ابنه كريم وفي يده «وثيقة أبيه» التي كتبها على لسان حسني مبارك، راويًا قصة القوات الجوية في حرب أكتوبر، وكيف صنعت هذا المجد العظيم. في هذا اليوم أولتني عائلة الشناوي ثقه تمنيت أن أكون على قدرها.

روى لي حازم الشناوي قصة أبيه مع تلك المذكرات. وقد كانت بدورها قصة بسيطة ولكنها شاءت أن تضيف إلى بساطتها بعضًا من الحكمة في وقائع التاريخ.. وادخرها الزمن بطريقة غير متوقعة لكي تكون ذات يوم شهادة موثقة عما تم إغفاله حينًا أو الغضب منه حينًا آخر.

كان المرحوم الرئيس محمد أنور السادات قد أصدر مذكراته الشهيرة «البحث عن الذات» في إبريل 1978، وقرأها كثير من المصريين. في مطلع شبابي ونهاية صباي كنت واحدًا من هؤلاء، النسخة كانت تباع بـ 25 قرشًا. وقد



كانت عامرة بتفاصيل كثيرة وسيرة رئيس  
حكى نفسه وروى عن نفسه. كان أهم ما يميز  
«البحث عن الذات» ما يتعلق بالوقائع  
التاريخية النابضة والحية وقتها.. تلك التي  
تخص سجل السادات الأعظم في حرب أكتوبر  
المجيدة.. فضلًا عن بدء مسيرته نحو السلام  
مع إسرائيل.

كان السادات واعيًا بأهمية الكتب، وضرورة  
أن يكتب هو بنفسه، وهو ما عرف عنه منذ  
سنوات طويلة، كان قد بدأ الكتابة خلالها في  
عديد من الصحف المصرية أبرزها «المصور»  
و«الهلال» في حدود عام 1948. ثم بعد ثورة  
1952 كان أن أصدر مجموعة من الكتب، هي:  
قصة الثورة كاملة، يا ولدي هذا عمك جمال،  
معنى الاتحاد القومي، 30 شهرًا في السجن،  
نحو بعث جديد، القاعدة الشعبية.. ثم في  
نهاية السبعينيات أصدر «البحث عن الذات»  
وفيه روى قصة حياته.

حين صدرت جريدة «مايو» في نهاية السبعينيات، ناطقة باسم الحزب الوطني الذي أسسه السادات بديلاً لحزب مصر العربي، وعقب بدء التعددية الحزبية، كان أن أملى مجموعة مقالات باسمه عنوانها «عرفت هؤلاء».. وكان معروفاً كذلك أنه يملى مباشرة أو بشكل غير مباشر على الأستاذ أنيس منصور كثيراً من المقالات التي تظهر في صور حوارات بمجلة «أكتوبر». وبنفس الأسلوب مع تفاصيل مختلفة في الطريقة كان أن كتب المرحوم الدكتور رشاد رشدي أستاذ الأدب والنقد الكبير مذكرات السادات «البحث عن الذات».

كان الرئيس الراحل مولعاً بالتوثيق، ومعنياً بالكتابة، ومهتماً بالكتب، حتى إن الدعاية اليسارية ضده قد رسخت في الذهنية العامة أنه لا يحب القراءة ويصيبه الملل من التقارير المكتوبة. واحدة من بين الترويجات غير

المدققة التي انتشرت في ثقافتنا دون أن تخضع لأي مراجعة، ولم يكن اليسار وحده مشاركاً في مثل تلك الترويجات، بل كان لدى الإخوان ماكينتهم الخاصة، كما لم يكن السادات الضحية الوحيدة لهذا، بل عانى مبارك ما هو أكثر وأعرض وأشد تأثيراً، لأن حكمه بالطبع كان أطول ولأنه تقاطع مع الاثنين معاً: اليسار والإخوان. ما لا يعرفه الكثيرون أن مبارك قارئ حقيقي، وأن عددًا من المثقفين المصريين كانوا يرشحون له الكتب، وبعضها كان يأتيه من وزراء.

عين الرئيس الراحل أنور السادات الفريق طيار حسني مبارك نائباً له في 1975. وقد كان هذا القرار مثيراً للجدل وقتها، حول أسباب الاختيار، ولماذا مبارك بدلاً من كل العسكريين المجايلين له، وفي صدارتهم قادة حرب أكتوبر زملاؤه، وفيهم من هم أقدم منه.

السادات وحده كان يعرف ماذا يفعل، كان القرار معبرًا بصورة واضحة عن اقتناعه بقدرات مبارك، والدور الذي قام به في حرب أكتوبر، وكان من الأكيد أن لدى السادات تقديرًا عميقًا للانتصار الخاص الذي حققته الضربة الجوية في بداية الحرب الضارية لاستعادة الكرامة وتحرير الأرض المصرية من الاحتلال الإسرائيلي.. تقديرًا لا بد من الانتباه إليه، بينما كان مبارك هو القائد الذي استشهد شقيق السادات الأصغر عاطف في الطلعات الجوية التي قررها يوم 6 أكتوبر.

ومن الواضح أن تقدير السادات كان قد شمل ما هو أبعد، إذ كان هو صاحب فكرة تلك المذكرات لكي يروي فيها نائب الرئيس حسني مبارك قصة ما حدث بعد هزيمة 1967 وصولًا إلى نصر 1973.

اتصل الرئيس السادات بالدكتور رشاد رشدي، وكلفه أن يكتب مذكرات قائد سلاح

الجو نائب الرئيس، وأن يستمع منه إلى قصة هذا المجد الذي يجب أن تضم تفاصيله دفئا كتاب للتاريخ، اعتقد السادات أن الدكتور رشاد باعتباره كاتب مذكراته الناجحة سيكون الأنسب لكي يخوض جولة نجاح إضافية بمذكرات حسني مبارك.

من المدهش - وإن كان من المنطقي - أن اعتذر الدكتور رشدي، أسبابه يمكن تفهمها. كان تبريره للسادات مبنياً على أساس أنه كتب مذكرات الرئيس ولا يمكنه أن يدون بنفس الأسلوب مذكرات نائب الرئيس. اقتنع الرئيس السادات وطلب منه أن يرشح بديلاً. كان هو الأستاذ محمد الشناوي.

كان الأستاذ الشناوي درعياً، حصل على ماجستير في علم النفس، وكان إذاعياً مرموقاً (1).. في زمن كانت فيه الإذاعة نجمة وسائل الإعلام، بينما شاشات التلفزيون لم تصل إلى كافة بيوت مصر كما هي الحال الآن.

كان قد قطع طريقًا طويلًا في خبرة العمل كإذاعي قدير، عمل مذيغًا لسنوات طويلة، وهو صاحب فكرة تأسيس الإذاعات المحلية، وأول مدير لمحطة «القاهرة الكبرى»، ومؤلف درامي في سجله ما لا يقل عن مائة سهرة وخمسين مسلسلًا، بخلاف التدريس في المعهد العالي للفنون المسرحية، وكلية ضباط الشرطة المتخصصين.

وفقًا لرواية حازم الشناوي عن والده الراحل فإن محمد الشناوي اجتمع مع نائب الرئيس محمد حسني مبارك عشرات المرات، روى له فيها كل تفاصيل ودقائق السنوات الست التي قضاها في عملية إعادة بناء القوات الجوية، منذ كان ضابطًا قياديًا، تلقى ضربة يونيو وهو لم يزل قائدًا لقاعدة بني سويف الجوية.. حتى أصبح مديرًا لكلية الجوية وإلى أن أصبح قائدًا للقوات الجوية محققًا النصر الجوي الأهم في تاريخ مصر.

وقد كتب محمد الشناوي النص في حدود 500 ورقة فلوسكاب بخط اليد، بعض صفحات منها كان قد دون عليها الرئيس مبارك ملاحظات بخط يده بقلم أحمر، خصوصًا فيما يتعلق بالمعلومات الفنية والعسكرية الدقيقة، لقد ساعدتني تلك الملاحظات في أن أتأكد أن هذا النص لمبارك قبل أن أطلع على التقديم الذي كتبه بخط يده. وتمثل هذه الأوراق الوثيقة الأهم حول تلك السنوات وهذا السلاح وذلك البطل.. إذ لا توجد تقريبًا غيرها بهذه الدقة وتلك الشمولية وهذا التنظيم، والأهم على لسان محمد حسني مبارك، صانع هذا التاريخ بين كل صناع التاريخ من الجيل البطل الذي حقق نصر أكتوبر.

ليس معروفًا على وجه الدقة ما هو السبب الذي منع نشر تلك المذكرات، وما الذي عطل عملية النشر بعد أن اكتملت الوثيقة، إذ لم أجد لدى الأستاذ حازم ما يمكن نقله عن والده في

هذا السياق، غير أن المؤكد أنه كان هناك حرص عائلي على الاحتفاظ بالوثيقة إلى أن يحين وقت تنفيذ وصية الوالد الراحل بالنشر، عندما يجد ابنه ذلك مناسبًا.

في بداية 2013 وضع الأستاذ حازم الشناوي ثقته في كاتب هذه السطور، وسلمني صورة من تلك «المذكرات- الوثيقة» لكي تجد طريقها إلى النور، وترك لي - مشكورًا- أسلوب ترتيب ذلك.. توثيقًا وتدقيقًا، وأرجو أن أكون على قدر ثقة العائلة الحائزة للوثيقة، وثقة صاحب المذكرات، وقبلهما ثقة القارئ الذي نقدم له هذا العمل التاريخي المهم.

للهمة الأولى، أثبتت قراءة تلك المذكرات - وبما لا يدع مجالًا للشك - أنها للرئيس مبارك، سواء من حيث الوقائع الشخصية القليلة التي يرويها، أو من حيث المعلومات الفنية والعسكرية التي تضمنتها، أو من حيث تنظيم المادة المروية عن طريقة إعادة بناء القوات



الجوية واستعدادها لحرب أكتوبر، ومن ثم تفاصيل ودقائق الضربة الجوية الساحقة لإسرائيل في أكتوبر 1973.. فضلًا عن الملاحظات الخطية التي وجدتتها على جانبي بعض الصفحات وهي بخط أعرفه عن خط الرئيس الأسبق لمصر.

في غضون الأشهر القليلة التي تلت وصول هذا النص إلى يدي، لم تتح فرصة مناسبة لإطلاع الرئيس أو أي من أفراد عائلته على المذكرات: ولديه علاء وجمال أو السيدة قرينته. كنت أرغب في أن تكون هذه الخطوة عملاً مزدوجًا: يحقق أولًا توثيق النص، وثانيًا السماح بنشره.

كان يمكن أن أمضي في إجراءات النشر، وسط مناخ مشغوف بأي شيء عن مبارك.. لكنني لم أجد أنه مطابق للمعايير الأخلاقية أن يتم النشر بدون إطلاع أي من أفراد عائلة الرئيس مبارك على المکتوب منسوبًا إليه، مع

كامل التقدير والثقة في أسرة الشناوي الحائزة للوثيقة نقلًا عن الأستاذ الراحل محمد الشناوي.

في أغسطس 2013.. بُعيد صدور الحكم بأحقية الرئيس مبارك في أن يتم الإفراج عنه إجرائيًا من الحبس الاحتياطي الذي قيد حرите لسنتين، كان أن أبلغت الأستاذ فريد الديب - المحامي الكبير والمدافع القانوني عن الرئيس مبارك - بالأمر.. وتكرم سيادته وعرض الأمر على الرئيس مبارك حيث كان في مقر إقامته الجبرية في مستشفى المعادي، وكان أن تذكر الرئيس الموقف الممتد بينه وبين المرحوم محمد الشناوي، وطلب أن يقرأ مذكراته.

وتكرم الأستاذ فريد مجددًا ونقل الخبر إليّ، فبدأت على الفور المرحلة الثانية من التعامل مع هذه المذكرات المهمة، تمهيدًا لعرضها على

صاحبها الرئيس مبارك، وكان أن عُرضت عليه بعد ذلك.

لم تقف المهمة التي كلفت بها نفسي عند مسألة توثيق النص، والتأكد من انتسابه التاريخي للرئيس مبارك، ولا عند تولي إدارة عملية نشره عبر الدار المحترمة «نهضة مصر».. ولا عند كتابة هذا التقديم النقدي الشارح للكتاب والراوي لملايساته. بل آليت على نفسي أن أجعله أكثر حداثة عما كان عليه وأن أحرره بما يلائم سنة صدوره في 2013، مع كل التقدير والاحترام للجهد الذي بذله الأستاذ المرحوم محمد الشناوي في نهاية السبعينيات من القرن الماضي، أي قبل نحو 40 عامًا.

لقد حافظت على روح الأسلوب، ولغة الكتابة، والاقتراسات التي أوردها محمد الشناوي من تلقاء نفسه كما يمكن أن أخمن

موقعها مهنيًا، أو تلك التي أوصى بها الرئيس مبارك كما أتوقع من خلال تحليل المضمون .  
 يمكن توقع أن محرر المذكرات الأول قد اهتم ببعض المأثورات والأحاديث النبوية وبعض المذكرات العسكرية، وضمنها الصفحات أثناء صياغته للنص المنقول عما سمعه من نائب الرئيس، كما يمكن أن يقودنا الحدس إلى أن (مبارك) قد اهتم بما ذكرته إسرائيل عن العمليات العسكرية وما ورد في كتبها وتصريحات مسؤوليها، وتوثيق ذلك عبر أدوات المؤسسة العسكرية التي كانت تهتم بذلك منذ زمن بعيد وتتابعه وتعرضه في تقارير دورية على قياداتها المختلفة.

بخلاف ذلك فإن تراتبية المذكرات، وتوالي تفاصيلها، ودور القوات والأفرع، ومهام الأفراد والقادة، وسجلات البطولات الشخصية، وغير ذلك هو من صميم شخصية القائد صانع النصر الجوي، الذي لم يكن يروي مذكراته الشخصية،

بقدر ما كان يملي مذكرات القوات الجوية في السنوات الست التي سبقت أكتوبر 73 وقادت إليه.

في هذا السياق قمت ببعض الجهد في عملية تحرير إضافي لهذه المذكرات، يمكن أن أوجزه وفق مقتضيات الأمانة المهنية والتاريخية فيما يلي:

\* الاحتفاظ بعنوان النص «كلمة السر.. صدام» - من يونية 1967 إلى أكتوبر 1973» مع إضافة عبارة «مذكرات حسني مبارك» لها، ويمكن فهم لماذا اختار الأستاذ الشناوي عنوانه الأول تخليدًا لاسم العملية الهجومية القتالية التي قامت بها القوات الجوية المصرية في أكتوبر 1973.

\* قمت بعدد من عمليات التكثيف والاختصار التي لا تخل بقيمة النص، ولا روح السياق الذي قام به الأستاذ الشناوي. وكان سبب ذلك هو اعتقادي أن النص الذي وصل يدي كان قيد

المراجعة ولم يكن نصًّا أخيرًا، فضلًا عن أن الطبيعة الإذاعية للغة الأستاذ المرحوم محمد الشناوي كانت تميل به إلى أن يضع تكرارات من فصل لآخر مذكرًا بها، حسب أسلوب العمل الإذاعي، مقارنة بما هو غير معتاد في أساليب التحرير المقروءة.

\* قمت بإعادة التبويب عن طريق الدمج، وليس بإعادة الترتيب.. بمعنى أنني حافظت على درامية وتاريخية العمل كما دونه الأستاذ الشناوي، غير أنني ألغيت التوزيع بطريقة الأبواب الرئيسية المتضمنة لفصول داخلية فرعية، وجعلتها كلها فصولًا متتابعة، ما اقتضى دمج بعض الفصول.

كانت المذكرات موزعة كما يلي: مقدمة، وسبعة أبواب، تتوزع كلها على فصول، بعضها أربعة وبعضها خمسة، باستثناء الباب الرابع فهو كتلة واحدة، وخاتمة.

في تبويبها الجديد - وبعد دمج عديد من الفصول - صارت هذه المذكرات مكونة من مقدمة و13 فصلاً وخاتمة، بخلاف هذا التقديم.

\* قمت ببعض عمليات إعادة تنظيم الفقرات، وإعادة كتابة بدايتها، محاولاً أن يكون هذا أكثر تناسباً مع لغة تحرير عصرية مغايرة.. وبدون إخلال بالجهد المبذول قبل أربعين سنة.

\* حررت هذا التقديم التاريخي - التوثيقي، والنقدي، الإضافي والواجب.

إن صدفة العثور على تلك المذكرات هي نفسها بعض قيمتها، من حيث إنها وصلتني عبر شاب ينتمي إلى جيل رفض الكثير من أبنائه حسني مبارك، وخرجوا تائرين ضده، ذلك أن هذا الجيل لم يعرف مبارك، ولم يعرف الجيل الذي انتمى إليه كقائد عسكري.. مجدته الأغاني الدعائية ولم تشر إلى قيمة عمله

وإنجازة الحقيقي وثائق منضبطة وذات قيمة تاريخية وعلمية. هذه الوثيقة تكمن أهميتها في أنها تربط بين أجيال حققت وأنجزت وفعلت وأجيال لم تعرف.

ليست تلك مشكلة يتحملها الجيل الجديد وحده. حين تفرغ مبارك نفسه لذكر بعض ما فعل في هذه الحرب المجيدة حدث أن تعطل وصول رسالته مرات؛ لأنه كانت قد مضت سنوات طويلة، فلم يعد يسرد تفصيلاً متكاملًا عن الضربة الجوية، وكان يذكر بعض العناوين العابرة في حوارات سريعة غير مهمة بالدقائق والمكونات الصغيرة لحدث كبير، ومرة لأن هذه المذكرات لم تعرف طريق النشر. وقد أخذته السنوات وتفاصيل الحكم ومتغيرات الأيام، التي ربما بدا بعضها كما لو أنها حروب متكررة تتطلب عبورًا تلو آخر.. وترتيبًا لإعادة البناء مرة بعد غيرها.



وعلى الرغم من أنه توجد بعض الكتابات هنا أو هناك حول السنوات الثلاثين لحكم مبارك، فإن كثيرًا منها لم يهتم بالغوص في تفاصيل، واكتفى البعض بما يمكن اعتباره مجاملة لرئيس، ورأى فيه الجيل الجديد أنه نفاقات.. واهتم البعض الآخر بما يمكن اعتباره هجومًا سياسيًا على رئيس، رأى فيه مؤيدوه ظلمًا له. وحتى لحظة صدور هذا الكتاب فإنه لم توجد بعد مصادر واضحة ودقيقة وشاملة وموضوعية لا عن سنوات حكم مبارك، ولا عنه شخصيًا، لا عن سيرة السياسي الحاكم ولا عن تاريخ العسكري البطل.

هذا تناقض مريع تاريخيًا، بين حقيقة أن الرئيس مبارك قد حكم ثلاثين عامًا، وامتد مساره العملي لأكثر من خمسين سنة، وبين كونه الرئيس الذي لم تدون عنه تاريخيًا كثير من تفاصيل سيرته.. لا قبل أن يكون رئيسًا ولا

بعد أن أصبح رئيسًا ولا عقب تركه لمنصبه كرئيس.

لقد اكتفى مبارك وحكمه بالمادة الإعلامية السيارة التي كانت تغطي أنشطة يومية ووقائع إخبارية، للدقة هو لم يكتف، وإنما لم يسع. ولا يوجد بشأن سيرته كتاب تحليلي شامل، أو سيرة موثقة، أو أي منتج ثقافي متعمق آخر. إن الكتاب الذي يمكن أن تعثر عليه بشأن مبارك قد يكون دعائيًا أو ألبومًا مصورًا، أو كتابًا انتقاديًا هجوميًا رافضًا.

وبالموازاة لمبارك، فإن حرب أكتوبر، وهي تتخطى دور شخص بعينه، وتشمل بطولات ومواقف وأدوارًا لمئات الألوف من المصريين، كان بدورها أن لقيت ظلمًا تاريخيًا ولم تحظ بالقدر الكافي من الاهتمام التفصيلي والدقيق، حتى مع صدور عدد من مذكرات بعض من كبار قادتها، ربما لأسباب ودواعي السرية التي فرضت عليها وعلى تفاصيل حقوق المعرفة

العسكرية التي أحاط بها الكتمان عقودًا، وربما لأن النصوص التي صدرت لم تتضمن تفاصيل محددة بالطريقة الاستثنائية الواردة في هذه المذكرات على لسان نائب الرئيس محمد حسني مبارك.

باستثناء مذكرات الفريق محمد عبدالغني الجمسي فإن الصورة التي تصل عن حرب أكتوبر إلى الأجيال الجديدة تبدو غير مكتملة وتحتاج إلى مزيد من التفصيل.. بل إن قائدها الميداني الأهم، القائد العام للقوات المسلحة ووزير الدفاع المشير أحمد إسماعيل لم يمنحه الزمن فرصة لكي يروي تجربته ومسيرته وقصة الانتصار الذي سجل فيه اسمه.. وباستثناء كتاب تنشره دار «نهضة مصر» متضمنًا بعضًا من أوراق المشير أحمد إسماعيل، فإن قائد النصر ميدانيًا لم يكتب سيرته.

لقد مضت سنوات طويلة على حرب أكتوبر، وبمضي السنوات طوى النسيان مذكرات قادة حرب أكتوبر، الذين لم تشغل بهم تفصيلاً الحركة النقدية والأعمال البحثية، والعملية التي تبقى قيم تلك الحرب وأهميتها التاريخية يقظة في ذهن وعقل الأجيال التالية.. لا تحليل ولا دراسات ولا مراجعات، لم تعد حرب أكتوبر مدرجة أصلاً على الخطط البحثية للجامعات والمعاهد المصرية.

وبنفاد سنوات هذا الجيل صانع النصر، فإن الأعمال التي تتناول حرب أكتوبر ودقائقها انقطعت، ولا تضم المكتبات العربية والمصرية إلا مؤلفات نادرة عن الوقائع وتحليلها ودراستها وبحث تأثيراتها. ومن هنا فإن صدور تلك المذكرات التي أملاها نائب الرئيس محمد حسني مبارك يسقي تربة ذاكرة قد جفت، ويرطب اهتمامًا قد ذبل.

وليس بعيدًا عن هذا الظلم المتراكم أن حربًا معنوية وتاريخية وعلمية قد تم شنّها على قيمة حرب أكتوبر ومجدها، تشويهاً وتقليلاً وإضعافاً، بل وتحويلها - استسلامًا للرواية الإسرائيلية - إلى حرب متعادلة في أفضل الأحوال.. وفي أحوال أخرى وفقًا لروايات غير عربية بدت كما لو أنها هزيمة ناقصة أو نصر غير مكتمل.

هذا أمر جلال وخطير وجدير بالانتباه بالنسبة لاهتمامنا بأجيال صار عليها أن تستسلم لحمولات دعائية جعلت من الصمود الخاسر من قبل بعض التنظيمات في معارك عابرة نوعًا من الانتصار، وأصبح عليها أن تقتنع بأن الجيش المصري بلا مجد طالما أنه لم يخض حربًا منذ انتهت حرب أكتوبر 1973.

إن أهمية «المذكرات الأولى لحسني مبارك» لا تكمن فحسب في صاحبها، بقدر ما تكمن كذلك فيما ترويّه عن المؤسسة العظيمة التي

كان هو أحد أبطالها، وأبطال انتصارها في أكتوبر 1973، ويعزى ذلك إلى الطريقة التي روى بها مبارك تفاصيل عملية إعادة بناء القوات الجوية، باعتبارها الخاسر الأهم والأكبر في هزيمة يونيو 1967، ومن ثم باعتبارها صاحبة ضربة النصر الأولى في حرب أكتوبر 1973 المجيدة.

لا يمكن اعتبار هذا الكتاب «مذكرات شخصية»، وإن كان «مذكرات» بالتأكيد، ذلك أن نائب الرئيس محمد حسني مبارك لم يجعل من نفسه محورًا لها، ولم يتطرق إلى ذاته إلا في مرات نادرة. لقد جعل من الكتاب سجلًا لسنوات تطوير القوات الجوية، وانتقالها من الهزيمة إلى النصر، وبدا خلال تلك الصفحات شاهدًا غير معلن أكثر من تقديمه لنفسه على أنه فاعل رئيسي. من المدهش أنه لا يتوقف عند محطات تاريخية مهمة ليروي تفاصيل كيف أصبح مديرًا للكلية الجوية ومن ثم كيف

عين رئيسًا للأركان وكيف تم اختياره قائدًا للقوات الجوية.

مشهدان يركز عليهما حسني مبارك بشأن نفسه، الأول وهو مهزوم، يشعر بالظلم الفادح لأنه لم يقاتل، عاكسًا تلك الصورة على كافة الأفراد والقادة في القوات الجوية خصوصًا والقوات المسلحة عمومًا. والثاني وهو منتصر يؤكد بروايته لا بالحديث عن عمله الشخصي كيف أثبت المقاتل المصري جدارته وكيف تمكن من أخذ أسباب العلم والقوة لكي يثار لنفسه ولأمتة.

بدا مبارك حريصًا على عدم التفاخر في هذه الوثيقة، ليس لأنه أصر على أن يكون ملتزمًا إلى حد بعيد بالغرض الذي وجد أن الرئيس السادات قد استهدفه، أي أن يروي قصة الضربة الجوية، ومن ثم تباعد عن أن يكتب سيرة صاحب الضربة الجوية، ولكن أيضًا لأن تحليل المضمون يثبت أنه حاول أن يبتعد عن

منطق «التفاخر القومي»، وانتهج منذ الصفحات الأولى، وبإصرار، أسلوب التحليل العلمي والواقعي، وصولاً إلى نتيجة محددة وهي أن ما تحقق من القوات الجوية لم يكن «معجزة» أو «أسطورة».

كان منطق مبارك المعلن لتبرير ذلك، هو أنها إذا كانت «معجزة» أو «أسطورة» فإنها تكون بذلك حدثاً استثنائياً، منحة عابرة، بينما أراد أن يثبت طوال صفحات ذلك الكتاب - كما فعل توثيقاً - أن العملية الجوية «صدام» كانت نتاج تقييم وتخطيط ودراسات وتدريب وإصرار وإرادة، يمكن أن يتكرر إذا تكرر ذات الجهد الذي تم بذله من أجل الوصول إلى هذا النصر، وإذا تكررت المبررات الداعية لحدوثها.

لقد أخفى مبارك نفسه من مذكراته الأولى، من حيث إنه لم يكتبها بطريقة أنه في يوم ما استدعى أو قابل أو وجه بأمر معين، وفي يوم آخر اجتمع بهذا أو ذاك، ومن حيث إنه لم يقل



قابلت وسمعت وفكرت وقررت وقرأت، وإنما دونها بطريقة «مسيرة فريق» من الأفراد والقادة، في مختلف قواعد وألوية وأفرع القوات الجوية، وفي سياق منظومة القوات المسلحة برمتها.

في هذه المذكرات: لم يكتب مبارك عن مبارك، مباشرة، إلا ثلاث مرات تقريبًا، الأولى حين تحدث عن مشهد معاناته من الهزيمة، والثانية حين روى واقعة لجنة التحقيق التي فوجئ بأن شاهدةً أمامها قد ذكرت عنه رواية غير صحيحة دون أن تعرف أنه يرأس لجنة التحقيق التي تستمع إليها، وكانت الثالثة عندما روى كيف شارك في خطة الخداع الاستراتيجي لمفاجأة الحرب.

عوضًا عن هذا، جعل مبارك من تلك المذكرات مبارزة منهجية متصاعدة بينه وبين القائد الإسرائيلي الجنرال «مردخاي هود» مخطط وقائد الضربة الجوية الإسرائيلية التي

أوقعت الهزيمة بمصر في صباح يوم 5 يونيو 1967. وقد كان هذا الأسلوب اللافت مهمًا للغاية في التعبير عن فكرة الكتاب من حيث أنه جعل هذه المواجهة تحقق ما يلي:

1 - إكساب المذكرات بعدًا دراميًا صراعيًا، يمزج ما بين الشخصي والعام، من حيث إن المواجهة كانت بين قائدين، أحدهما كسب جولة والثاني يخطط للثأر، ومن حيث إنها كانت بين اثنتين من القوات الجوية المتحاربة، ومن حيث إنها كانت كذلك صراعًا بين بلدين وشعبين، بين مصر وإسرائيل.

2 - منحت هذه المواجهة التي صنعها مبارك لمؤلفه فرصة أن يحلل ما قام به خصمه، وأن يعطيه بداية الاعتراف بأنه قد حقق مكسبًا، ثم يسحب هذا الاعتراف ويهدم هذا المنهج بتأكيد كونه لا يعبر عن ابتكار خاص، ولا يمثل إنجازًا، ويفتقد إلى الشرف،

ويستند إلى عوامل مساعدة لولم تكن متوافرة ما أمكن لمردخاي هود أن يحقق نصره.

3 - أعطت المواجهة بهذا الشكل للقائد المصري حسني مبارك فرصة أن يأخذ قارئه خطوة تلو أخرى نحو إعلان انتصاره على القائد الإسرائيلي، بقصد إبلاغ رسالته الأساسية وهي أن «الإسرائيلي» وما يمثله ليست لديه أية ميزات استثنائية.. وأن «المصري» هُزم لأنه واجه عيوبًا نتجت عن «تقصير» وليس لأنه مهزوم بالفطرة، أو لأنه يعاني من «قصور» مولود به كما أرادت هزيمة يونيو - من جانب إسرائيل - أن تقول وتروج.

4 - استخدم مبارك هذه المواجهة بدهاء مبهر، لكي يؤكد جِدّة وحدائة الضربة الجوية التي خطط لها ونفذها، وكيف أنها كانت مبتكرة ومبدعة، ونتاج العقل المصري،

وتمثل إضافة حقيقية في تاريخ القتال الجوي.. مقارنةً بين أداء القوات المصرية في 1973 والقوات الإسرائيلية في يونيو 1976.

بمقاييس المقرئية العادية تبدو صفحات هذه المذكرات أقرب إلى أن تكون جافة، لأنها لا تتضمن مشهيات القراءة المتوقعة.. فهي لا تتضمن قصصًا وحكايات ومشاهد طريفة.. إلا حين تصل إلى فصلها الأخير، عندما يحرص مبارك على ذكر عديد من أمثلة البطولات التي قدمها الطيارون والمقاتلون في القوات الجوية، وكلها احتوت على قيم ملهمة ومآثر خالدة.

في النص الأصلي الذي حرره الأستاذ الشناوي كان أن ضم كل تلك القصص في فصول تحت الباب السابع، ووزع قصص الأفراد بحسب كل فرع في القوات الجوية.

تحريرياً كان يمكنني أن أوزع القصص الإنسانية والبطولات المميزة لأفراد وقادة القوات الجوية التي أوردتها الفريق طيار محمد حسني مبارك على مختلف فصول الكتاب.. كان هذا سيوفر فرصاً لمزيد من أساليب الإمتاع أثناء القراءة.. غير أن هذا كان سيخل بالترتيب الأصلي للنص المكتوب، والذي بني ترابطياً انتقالاً من محور إلى آخر، ومن مرحلة إلى غيرها، ثم توج في النهاية بالفصل الأخير الذي يحكي قصص الأمجاد الشخصية.. وبمنتهى الحرص على أن يبدو ذلك في سياق روح فريق واحد.

للباحثين عن المتعة - القراءة عندي لا بد أن تضيف انبساطاً يتوج المعرفة - تكتسب هذه المذكرات رونقها وإمتاعها من جوانب أخرى، إذ بخلاف هذه المواجهة المستمرة بين مبارك ومردخاي هود، كانت المهمة التي أولى مبارك نفسه بها هي أن يسقط في كل صفحة واحدة

من الأساطير التي روجتها إسرائيل عن نفسها بعد يونيو 1967، بأسلوب علمي وطريقة واقعية، لم تذهب نحو الحديث عن البطولات افتخارًا، بل نحت إلى التأكيد المستمر على منهج «الأخذ بالأسباب».

وفي صراعه هذا مع الجنرال مردخاي هود، وحتى وهو ينتقده، ويؤكد أن خطة ضربة يونيو 1967 منقولة عن الفكر الأنجلو فرانكفوني العسكري في حرب 1956، فإن مبارك كان يعطي لخصمه قدره، إذ على قدر الخصم وقوته كان حجم النصر وتاريخيته.

لقد نقل الفريق طيار حسني مبارك الحرب إلى صفحات مذكراته، كما لو أنه كان في غرفة عمليات القوات الجوية، يخطط، وينفذ، ويأمر بالتدريب، ويرقي مستوى التسليح، إلى أن حانت لحظة القتال، في كل صفحة، أو للدقة كل فصل، كان يسير بالتفاصيل عبر هذا المسار ونحو هذا الاتجاه.

إن الاطلاع على هذا النص لا يؤكد فقط جدارة مبارك بأنه كان طيارًا مقاتلاً تاريخيًا، ولكن - وهذا مهم للغاية - يحيي في ذاكرة الأمتين المصرية والعربية مدى وحجم هذا الإنجاز الذي تحقق، وكيف أنه يمكن لهما أن تمضيا في طريق مختلف نحو الحداثة إذا اتبعنا ذات المنهج وتصدتا للتحدي، وكان الهدف محددًا وطريق الوصول إليه كان عبر العلم والتدريب.

رسالة ومنطق الكتاب هو أن: الهزيمة ليست قدرًا، والنصر ليس صدفة، وفي سبيل ذلك، ووفق التزامه بمعايير السرية التي كانت مفروضة وقتها، حتى على نائب رئيس الجمهورية، فإن محمد حسني مبارك يشرح في فصول متتابعة كيف تحقق النصر.. وكيف تم التغلب على الهزيمة. وقبل ذلك فإنه بمنهج القوات المسلحة المصرية يقيم ما وقع وأسبابه

والدروس المستفادة منه، وطرق علاج الأخطاء، وكيف أمكن امتلاك أدوات الانتصار. لم يكن الطريق إلى النصر سهلاً ويسيراً، كما لم تمر السنوات من 1967 إلى 1973 بسلاسة، وبقدر ما تبدو مروية الأعوام المريرة عادية وبسيطة ونحن نقرأها الآن بعد أربعين عامًا من النصر، بقدر ما كمنت فيها عوامل قسوة المهمة وعبء الثأر وضخامة العمل وحجم التضحيات. وفي هذه الصفحات كان أن قدم حسني مبارك ذلك العمل التاريخي، وهو جانب من بين جوانب العملية العسكرية كلها في أكتوبر 1973 كما لو أنه يمكن لأي أحد أن يقوم به.. في حين أنه لم يكن كذلك على الإطلاق.. ولعلنا نلاحظ بالاطلاع على هذه المذكرات ما يلي:

1 - قبل بناء المقاتل بدنيًا وتسليحًا وتدريبًا كانت المهمة الأصعب والأهم هي إعادة بنائه نفسيًا ومعنويًا. في مذكراته أعطى



مبارك جهدًا عميقًا ومثابرًا لكي يشرح ذلك وأهميته ودوره في تأصيل وترسيخ عقيدة القتال، واستنهاض المصري من هزيمته، في ضوء أن الهدف الذي رأى مبارك أنه كان مخططًا من قبل إسرائيل في يونيو 1967 هو قهر المواطن المصري خصوصًا والعربي عمومًا نفسيًا وتنكيس ذاته بحيث لا تقوم لها قائمة من جديد.

2 - بخلاف البناء المعنوي، فإن المقاتل بني معرفيًا، ومن اللافت أن القائد حسني مبارك ركز على أن ردود أفعال المقاتلين وقراراتهم القتالية لا تكون متحصلة فقط من عمليات تدريبهم وتسليحهم وتجهيزهم معنويًا.. بل رأى أنها تعود في الأصل إلى تراكم حضاري يتجمع في لحظة المواجهة ويكون أن ينتج قرارات المقاتل التي تؤدي لانتصار.

أكثر من مرة يشير مبارك إلى الأسلوب الذي أنتجه أحد قادة التشكيلات بعد أن أنهى مهمته

القتالية ونفذت ذخيرته كلها هو وكل من معه من زملائه ثم واجه تشكيلاً مفاجئاً من الطيارين الإسرائيليين.. فكان أن ابتكر نوعاً فريداً من المناورة أوحى للعدو أنه بكامل قدرته مما أدى إلى فرار الآخرين. مثل هذه القدرة التي تم ابتكارها في لحظة وأصبحت بعد ذلك خبرة يثبت مبارك أنها نتاج تراكم معرفي يميز هذا المقاتل عن غيره من مقاتلي العدو أو غيره.

3 - لم يذهب المصريون إلى حرب أكتوبر فجأة، كما أنهم لم يكونوا قادرين عليها في وقت قصير.. ولم تكن التدريبات وحدها كافية لاكتساب المهارات ونمو القدرات.. وكان المقاتلون بحاجة إلى أن يواجهوا الطيارين الإسرائيليين ليعرفوهم قبل أن يقاتلوهم في معركة الثأر. ومن هنا تبدو في المذكرات أهمية وفلسفة حرب الاستنزاف التي يشرح مبارك مبررها

التكتيكي بطريقة لم تكتب من قبل،  
ويصفها بأنها «جامعة» كان لا بد من  
الالتحاق بها قبل التقدم إلى نصر أكتوبر.

4 - إن مشاركة أكثر من مائتي طائرة في أولى  
طلعات الضربة الجوية في الساعة الثانية  
وخمس دقائق يوم 6 أكتوبر لم يكن سوى  
قمة جبل الجليد، وحتى يسيطر المقاتل  
على عنان السماء وهو في مواجهة خصمه  
فإن عشرات من التفاصيل المعقدة على  
الأرض، وبين السماء والأرض لا بد أن تكون  
قد تمت.. بدءًا من إعادة بناء المطارات  
وتوزيعها وحمايتها وطريقة التجهيز الفني  
للطائرات وإعادة تطويرها وتحديثها  
وتدريب الأطقم المعاونة.. ومن أهمية هذه  
المذكرات أنها تشرح ذلك تفصيلًا.

لقد أعلى مبارك في مذكراته قيمة «الفريق»  
لا «الفرد»، وهنا تتجلى قيمته في الانزواء  
كقائد تاريخي للقوات الجوية حين طوى دوره

بين أدوار كافة أفراد وقيادات سلاح الجو،  
 وحين اهتم بأن يوزع كل فصول كتابه  
 ومرويته على كافة أفرع وأنساق القوات  
 الجوية. في أحد أهم الفصول يذكر تفصيلاً  
 دور كل من المقاتلات، والقاذفات،  
 والهيلوكوبتر، وعمليات الاستطلاع والنقل  
 والاتصال والإبرار والأطقم الفنية.

5 - لأول مرة يذكر مبارك تفاصيل الدور الذي  
 قام به علمياً في مرحلة توليه إدارة الكلية  
 الجوية.. ويوثق ما أنتجه الفكر العسكري  
 العلمي المصري خلال السنوات الست ظهيراً  
 للضربة الجوية وفي الطريق إليها. وعلى  
 الرغم من أنه اهتم في مواضع مختلفة من  
 تلك المذكرات بانتقاد الفكر العسكري القديم  
 والبالى الذي أدى إلى هزيمة 1967 فإنه  
 يدهش قارئه بذكر فائدة إعادة إحياء أفكار  
 عسكرية قديمة وتوظيفها في ضوء  
 الإمكانيات المحدودة لتحقيق أهداف

جديدة. مثال ذلك استحياء الدفاع الجوي بأسلوب البالون ودراسة ذلك في الكلية الجوية.

6 - يروي مبارك إسهامه في خطة الخداع الاستراتيجي، ومفاجأة الحرب، وبقدر أهمية تلك التفاصيل، فإن التحليل العلمي في حاجة إلى أن يستفيد مما يرويه مبارك وغيره من القادة العسكريين حول تلك الخطة وعملية التمويه القومية التي شاركت فيها مصر كلها - كما يقول مبارك- وليس الجيش وحده، لفهم طبيعة هذا المكون في الثقافة المصرية وتأثير المناورة على سلوك الأفراد والشعب برمته ومؤسسته العسكرية في لحظات بعينها، وأثناء مواجهة خصم ما.

وبخلاف ذلك، وغيره كثير، تكمن أهمية هذه المذكرات، حول القائد والقوات، في أنها تؤرخ للحظة التي غُيّت بها، وتكشف ما غاب بمرور

السنوات، وتمييط اللثام عن أسرار لم تعلن من قبل، وفي ذات الوقت تمثل وسيلة إضافية لفهم شخصية صاحبها، ومنهجه السياسي، والبعدين الوطني والقومي في أفكاره خلال سنوات الحرب وما تلا ذلك وقبل أن يكون رئيسًا.. وكيف يمكن أن يفسر هذا سياق مواقفه وسياساته بعد أن أصبح رئيسًا.

وبقدر ما تكشف المذكرات الأولى لحسني مبارك طريقة تفكيره، بقدر ما تطرح التساؤلات حول السنوات الثلاثين التي حكم فيها مصر، ومن ثم التحديات التي واجهها، وكيف تعامل معها، وإلى أي مدى استعان بالأساليب التي التزم بها وفرضها وطبقها في السنوات الست من 1967 إلى 1973، وما الذي يجده القائد العسكري المنتصر في الحياة المدنية عندما ينتقل إليها، وتمكنه أو لا تمكنه وقائع وملابسات مختلفة من تحقيق أهدافه.

حين وقعت بين يديّ هذه الوثيقة بالغة الأهمية، أدركت ما هو حجم هذا السبق التاريخي، وقيّمته، وتأثيره.. والأفق التي يفتحها، والمعلومات التي يوفرها، والمعاني التي يضيفها. وبقدر ما تمثله من حيث كونها عملاً علمياً وتاريخياً تعنى به اهتمامات مختلفة لأنواع وفئات متباينة من القراء.. فإنها تعتبر إنصافاً رتبته الأقدار لقائد مصري عظيم، كان أن تسببت تعقيدات السياسة في الطعن في مكانته العسكرية، وقيمة ما حققه في نصر أكتوبر المجيد.

هذا الإنصاف الذي قدمته الصدفة من أجل سيرة رجل.. يمثل إنصافاً أعظم أهمية للحقيقة والتاريخ والأجيال التي لم تعرف الكثير عن صاحب المذكرات، كما لم تعرف سوى النادر عن جيله وقيّمته في مسيرة مصر.

عبدالله

كمال

جاردن سيتي

- مصر الجديدة

سبتمبر

2013

---

(1). اقرأ السيرة الذاتية الكاملة لمحمد الشناوي ص 355.



# مقدمة: كلمة السر..

## «صدام»

أكتب هذه المذكرات انطلاقًا من شعوري بالمسئولية تجاه المواطن المصري، والقوات الجوية، والقوات المسلحة المصرية كلها. واستجابة لمسئوليتي تجاه التاريخ والحقائق التي يجب أن يطلع عليها الجميع.

وأشعر بفداحة تلك المسئولية منذ نبتت فكرة هذا الكتاب - الذي يحكي ملحمة الطيران المصري كاملة، بدءًا من ضربة الخامس من يونية عام 1967، حتى ضربة «صدام» التي استعاد بها الطيران المصري سمعته كمقاتل جريء ومقتدر، في الثانية من بعد ظهر السادس من أكتوبر عام 1973. إن المرجع الأساسي لذلك الإحساس هو ذلك الرصيد

الهائل من الإعلام الإسرائيلي، الذي امتزج فيه قدر محدود من الحقائق، بقدر لا محدود من الأكاذيب والخيالات التي صيغت بذكاء شديد.

لقد نجح هذا الإعلام في تحويل ضربة إسرائيل للطيران المصري صباح 5 يونية 1967 من مجرد خطة عادية- إذا قيست بالمقاييس العسكرية المحايدة والموضوعية - في إطار الظروف التي تمت خلالها الضربة على جانبي الصراع، إلى أسطورة خيالية، تروي أمجادًا خرافية لواضع الخطة «مردخاي هود» وهيئة عملياته العسكرية.

لقد عرفت تلك الضربة في الملفات السرية لوزارة الدفاع الإسرائيلية باسم «طوق الحمامة»، ويعود القدر الأكبر من النجاح الذي حققته إلى هذه الصدمة النفسية التي أصابت جماهير شعبنا المصري، وأمتنا العربية كلها، وهي ترى «أكبر قوة جوية ضاربة في الشرق الأوسط» - كما كانت القيادات العسكرية

المصرية السابقة تُصرح دائمًا - تتحطم وهي جاثمة على الأرض، في ضربة سريعة لم تتجاوز منذ بدايتها في الساعة 8.45 صباحًا إلى نهايتها نحو الساعة العاشرة، ساعتين فقط.

عامل آخر ساعد على إشاعة الجو الأسطوري حول ضربة إسرائيل للطيران المصري وهو الأقاويص والحكايات المبالغ فيها كثيرًا، والتي رواها الجنود العائدون - على أقدامهم - عبر سيناء، تنفيذًا لقرار الانسحاب الذي أصدرته القيادة العسكرية للقوات البرية في الوقت الذي فقدت فيه هذه القوات أي حماية جوية، فأصبحت خلال عمليات الانسحاب المتسرع غير المنظم، مكشوفة تمامًا للعدو الجوي، ومعرضة لطيرانه الذي أسكرته نشوة النصر المذهل - حتى بالنسبة لأكبر المتفائلين في قيادة الطيران الإسرائيلي - فمضى الطيارون الإسرائيليون يعربدون في سماء

سيناء، ويعبثون بالقوات البرية المصرية العائدة.. وهم في مأمن من أي حساب أو عقاب رادع.

ويُضاف إلى ذلك عامل أخير، لعله في تقديري، أخطر هذه العوامل جميعًا، وهو تلك الأعداد الهائلة من أبناء مصر - سكان مدن القناة - الذين تحولوا مع تصاعد العمليات القتالية على جبهة السويس إلى مُهجّرين، موزعين في معظم مدن مصر وقراها، وما حمله معهم هؤلاء الإخوة من قصص العدوان الإسرائيلي المتغطرس، والذي كان طيران إسرائيل يمثل رأس الحربة في كل عملياته.

إن رؤية المواطن المستقر في داره وعمله، وسط أهله وأصحابه الذين عاش عمره بينهم، لأخ له في الوطن، وقد أرغم على ترك مسقط رأسه ومسرح حياته العملية والاجتماعية، ثم تحول رغماً عنه - وتحت وطأة عمليات عسكرية عدوانية - إلى مُهجر يعيش في

معسكر أو مخيم، ويعيش على إعانة مهما تعاضم قدرها، فهي بالقياس إلى دخله الأصلي محدودة، ودون ما اعتاد أن ينفق على نفسه وذويه.. هذه الصورة القاسية، حين يشاهدها المواطن المصري - ويسمع بها أو يراها الإنسان العربي - بعد 5 يونيو 1967، كان لها فعل السحر الأسود في نفسه، وربما بعثت إلى ذهنه ووجدانه على الفور، بصورة مماثلة طالما قرأ عنها أو سمع بها عام 1948، حين نجحت إسرائيل عشية إعلان قيامها كدولة، في طرد الملايين من عرب فلسطين وأصحابها الشرعيين، وتحويلهم إلى لاجئين يعيشون في المخيمات، على صدقات المجتمع الدولي.

وقد تضافرت مع هذه العوامل في تحقيق الهدف النهائي، الذي سعى الإعلام الإسرائيلي عقب 5 يونيو إلى تحقيقه في نفسية الإنسان العربي، وهو التهويل لهذه العملية العسكرية التي لا تخرج في التحليل العلمي عن منهج

من الفكر العسكري الألماني والإنجليزي، مع بعض الإضافات اليسيرة التي تتفق مع طبيعة وتكوين العقلية العدوانية المسيطرة على قادة المؤسسة العسكرية الإسرائيلية. وحصيلة كل هذا، أن تحول الطيران الإسرائيلي إلى خرافة وتحول الطيار الإسرائيلي إلى شبح، تنسج مخابرات العدو حوله الأساطير، وتشيعها عبر أجهزة الإعلام العالمي.

وإذا كنا - نحن العرب بوجه عام والمصريين بوجه خاص - نعيب على الإسرائيليين.. عسكريين وساسة، تلك المستويات الرهيبة من الغرور والغطرسة التي لا تطاق، والتي استولت عليهم فكرًا وسلوكًا، عقب انتصارهم المفاجئ والمذهل، الذي حققوه بأبخس الأثمان، فإننا لا نرضى لأنفسنا - نحن المصريين بالذات - أن يؤخذ علينا ما عبناه على خصمنا.. فنستسلم لنشوة النصر الذي حققته قواتنا المسلحة - بجميع أفرعها - يوم 6 أكتوبر، بحيث قضت

في ست ساعات على أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يُقهر، فإذا به - بشهادة العدو قبل الصديق، وبعد ست ساعات فقط - يترنح من هول الضربات التي كالهالمة له المقاتل المصري جواً وبراً وبحراً.

ومع يقظتنا الكاملة لهذا المنزلق العاطفي الخطر، الذي يمكن أن يجرنا إليه الإحساس القوي بالنصر الساحق الذي زلزل كيان العسكرية الإسرائيلية، فإننا - مع كل التواضع الذي تمليه الثقة الكاملة بالنفس، والإيمان الراسخ بالقدرة القتالية الهائلة للجندي المصري - لا يسعنا إلا أن نشير إلى حقيقة مهمة، وهي أن إسرائيل تؤمن إيماناً راسخاً، بأن عدوها الأول، وخصمها الأخطر شأنًا، والأثقل وزنًا.. هو مصر.. وشعبها الأمين.. ذلك الشعب الذي ظل ثابتًا على أرضه كالطود الراسخ يحمي حضارته التي زرعتها في وادي النيل، وحماها ضد موجات الغزو الأجنبي، التي تكسرت على

شاطئ صلابة المصريين طوال عصور التاريخ القديم والوسيط والحديث.

منطلقان يدفعانني إلى الانتباه إلى ذلك العداء المتأصل:

**الأول عسكري بحت،** تمثل في تكثيف الضربة الموجهة إلى جيش مصر وطيرانها، بحيث أدى هذا التكثيف في حجم الضربة والعناصر التي استخدمت فيها - حيث أُلقت إسرائيل بكل ثقلها العسكري تقريبًا جواً وبراً على الجبهة المصرية - إلى إحداث شلل مفاجئ في القيادة المصرية. إن هذا أدى مع عنصر المفاجأة إلى ما أدى إليه من هزيمة ساحقة، وغير طبيعية في نفس الوقت، خرجت بها مصر مهزومة من معركة لم تقم في الواقع، وكانت النتيجة الحتمية بعد أن خلا مسرح العمليات من الوجود المصري الذي تحسب له إسرائيل ألف حساب، أن تفرغت العسكرية الإسرائيلية لباقي أطراف الصراع،



على الجبهتين السورية والأردنية، وهي واثقة تمامًا من تحقيق النصر بعد أن فرغت من خصمها الألد، وعدوها الأخطر.. مصر وجيشها.

**المنطلق الثاني** أخذ شكل الحرب النفسية المسعورة، التي شنّها الإعلام الإسرائيلي بلا هوادة أو رحمة، واستهدف بها تحطيم معنويات الإنسان المصري - باعتباره الركيزة الأولى في الصراع العربي - الإسرائيلي، فإذا نجح هذا الإعلام في زعزعة هذا الإنسان المصري، وخلخلة بنائه النفسي الصلب، فإنه يفقد ثقته بنفسه وثقته بقواته المسلحة، وبقدرة هذه القوات على شن هجوم مضاد، لتحرير أرضه المحتلة، وبالتالي ينهزم نفسيًا حتى النخاع، بعد هزيمة عسكرية لا مجال للتشكيك فيها.. ومن ثم سينطوي على نفسه، ثم تتجه حركته - إذا قدر له أن يتحرك - في اتجاهين مدمرين.. أولهما: فقدان الثقة في قيادته السياسية، التي انتهت به إلى هزيمة

ساحقة، وما يتبع فقدان الثقة من تمزق وانفجارات تؤدي في النهاية إلى انهيار الجبهة الداخلية التي أذهلت كل الخبراء والمحللين العالميين بصلابتها الأسطورية عام 1967 وما تلاها من سنوات الصمود.

إن الخطر الأكثر تدميرًا هو موقف الإنسان المصري في قضية الصراع العربي - الإسرائيلي - كان يكمن في احتمال عاشت إسرائيل ولعلها لاتزال تحلم به، بأن تؤدي الخسائر التي مني بها الشعب المصري كنتيجة حتمية لضربة 5 يونيو، إلى وقوفه موقف المتشكك المرتاب في القضية كلها، وأن ينتهي به هذا الموقف المتردد، إلى رفض كامل في النهاية، يعقبه انعزال مصر عن القضية برمتها، وتلك أعذب أمنيات الفكر الإسرائيلي، أن تنجح في الوقيعة بين الإنسان المصري وبين أمته العربية جمعاء، وقيعة تنتهي إلى انعزال مصر، وخروجها من حلبة الصراع نهائيًا، لكي يخلو الجو لإسرائيل،

تعربد فيه كما تشاء، وتصنع بالمنطقة ما تريد..  
وتعيد رسم خريطة المشرق العربي على  
هواها.

لعل هذا يفسر لنا ضراوة الإعلام الإسرائيلي  
في هجومه المخطط المدروس بإحكام ودقة  
بالغين، على عقل الإنسان المصري وعاطفته  
معًا، هجومًا استخدمت فيه كل وسائل الإعلام  
الحديث، وجندت له كل أساليب الحرب  
النفسية الحديثة.

عشرات الكتب والمؤلفات التي تتحدث عن  
«حرب الأيام الستة» - قدمت لها وزارات  
الدفاع والخارجية والإعلام الإسرائيلي كل  
الإمكانات والتسهيلات.. الوثائقية  
والمادية. وعشرات الأفلام - التسجيلية  
والروائية - التي تم إنتاجها ببذخ خرافي،  
وبحرفية سينمائية بالغة الدقة والذكاء، تصور  
كلها بطولات جيش الدفاع الإسرائيلي، وتتغنى  
بأمجاد «طيران إسرائيل».. ذراعها الطويلة

ذات المخالب الجهنمية القادرة على سحق أي هدف في أعماق الوطن العربي.. وخاصة في ربوع خصمها اللدود الخطير؛ مصر.. مئات - ولا نبالغ إذا قلنا آلاف - المقالات والأبحاث العلمية.. والندوات التي تنشرها - أو تذيعها وتعرضها - وسائل الإعلام يتغنى كتابها ومذيعوها «المحايدون» - كما يسمون أنفسهم - بأمجاد العسكرية الإسرائيلية، من ناحية، ويسخرون بهزال العرب وضعفهم وتخلفهم من ناحية أخرى.

ثم - أخيرًا وليس آخر - هذا السيل الرهيب من الأقاليم المصنوعة - داخل مكاتب المخابرات الإسرائيلية - عن بطولات رهيبة، وقدرات أسطورية لجيش «الدفاع» الإسرائيلي وطيرانه الرهيب. ولعل هذا اللون الأخير من ألوان الحرب النفسية التي شنّها العدو ضدنا، عقب 5 يونيو، كان أخبث وسائله على الإطلاق، لأنه كان يسعى إلى تحقيق هدفين

واضحين منذ البداية، غرس الفرع في نفس الإنسان المصري - مدنيًا كان أو عسكريًا - من هذه المقولة الخرافية « الذي لا يُهزم أبدًا ».. ثم قتل الثقة والاحترام اللذين يكنهما المواطن المصري لجيشه عن طريق سيل متلاحق من النكت المرة التي تسخر من المقاتل المصري ومن قدرته على الصمود في الميدان وعجزه عن مواجهة المقاتل الإسرائيلي، سواء تمت هذه المواجهة على الأرض أو في السماء.

من الحقائق المسلم بها - في الفكر العسكري قديمه وحديثه - أن العدو الذي ينجح، عن طريق الحرب النفسية في نشر الفرع في صفوف المدنيين على الجهة المعادية، ثم تصعيد هذا الفرع، إلى احتقار للجيش الوطني والسخرية منه وعدم الثقة به، يضمن في النهاية النصر الكامل والساحق لقواته عند أول مواجهة له مع الخصم الذي نجح في تدمير معنويات شعبه.

هذه الحقيقة التي جرت الآن مجرى  
 البديهيات في الفكر العسكري، كانت نقطة  
 البداية - كما سيتضح في تلك المذكرات -  
 عندما تحركت العسكرية المصرية بقيادتها  
 الجديدة بعد 5 يونية مباشرة لتحقيق الصمود  
 النفسي أولاً للمقاتل والإنسان المصري قبل أي  
 خطوة على الطريق الشاق الطويل الذي انتهى  
 إلى معارك السادس من أكتوبر المجيد.

ورغم ما حققه جيش مصر البطل - بكل  
 أنواعه وأسلحته - من بطولات في السادس  
 من أكتوبر، تعتبر كما قال الرئيس محمد أنور  
 السادات «معجزة عسكرية بأي مقياس من  
 مقاييس الفكر العسكري» فإن ضراوة الحرب  
 النفسية التي شنها علينا العدو عقب 5 يونية  
 وقبل 6 أكتوبر كانت مثار اهتمام كل مصري،  
 سواء في أعلى مستوى من مستويات القيادة  
 السياسية والعسكرية.. أو لدى المواطن  
 المصري العادي.

كنا كعسكريين نعرف جيدًا على الطبيعة -  
 ودون تأثير بعوامل التحامل أو التحيز الوطني  
 ضد عدونا، أو لصالح قواتنا المسلحة - أن ما  
 حدث في 5 يونية ليس معجزة مطلقًا، ولا هو  
 خارقة من الخوارق التي تستحيل مجاراتها أو  
 اللحاق بها، وكانت القيادة العسكرية المصرية -  
 التي تولت مسؤولية وشرف الإعداد للسادس  
 من أكتوبر - تعرف بحكم دراساتها العليا،  
 وتمكنها من فنون الفكر العسكري - سواء في  
 معاهد الغرب أو الشرق - أن ما حدث في  
 معارك 5 يونية، مجرد استغلال جيد لظروف  
 معينة وجدت على جانبي جبهة الصراع، وهو  
 أمر لا يشكل عبقرية عسكرية، ولا يستأهل كل  
 ما تُسج حوله من أساطير وخرافات، بلغ من  
 شيوعها، أن الإسرائيليين أنفسهم وهم الذين  
 صنعوها لكي يرفعوا بها العرب ويخدروهم عن  
 واقعهم، وقعوا في نفس المصيدة، والتقطوا  
 بغباء غريب عليهم فعلاً، نفس الطعم الذي

أجهدوا خبراءهم في صنعه واختلاقه لكي تلتقطه شعوب الأمة العربية، وفي مقدمتها شعب مصر.

ولقد وصل بهم خداع النفس القائم على الغرور والغطرسة والاستسلام دون وعي لنشوة النصر غير الطبيعي، بينما قادة إسرائيل يعرفون بينهم وبين أنفسهم أن نصرهم في 5 يونية كان غير طبيعي في مجمله، أقول: وصل بهم خداع النفس إلى الحد الذي دفع بأحد قادتهم العسكريين الكبار، رئيس الأركان دافيد أليعازر إلى أن يصرح قبيل 6 أكتوبر، للصحافة العالمية، بأن «البحر الأحمر قد أصبح - بفضل الطيران الإسرائيلي - ذراع إسرائيل الطويلة القوية - إلى بحيرة إسرائيلية.. وعلى العرب جميعًا أن يوطنوا أنفسهم على هذا كأمر واقع يتصرفون على ضوئه».

لو أننا وزنًا هذا التصريح لقائد عسكري كبير - مفروض فيه أنه يحترم نفسه ويحترم كلامه



- بموازين الفكر العسكري السليم وقواعده العلمية لوجدنا أنفسنا أمام احتمالين لا ثالث لهما:

**الأول:** أن يكون «أليعازر»، حين ألقى بهذا التصريح قد استوثق تمامًا من وصوله بقواته - بجميع أسلحتها - إلى المستوى الذي يستحيل معه أن تلحق بها أية هزيمة عسكرية، سواء من حيث مستوى الإعداد والتدريب، أو من حيث مستوى التسليح كماً وكيفاً.. كما أن عليه في نفس الوقت أن يستوثق - عن طريق استخباراته العسكرية - من أن قوة خصمه لم تتصاعد بأي حال، إلى المستوى الذي يُشكل لجيشه تهديدًا أو شبه تهديد عند حدوث أي اشتباك.

وإذا صح للقائد العسكري - الذي يحترم نفسه ويحترم عقل قواته - أن يفاخر بارتفاع قدراته القتالية، فإن مسؤوليته كقائد ومفكر عسكري، تفرض عليه أن يتناول كل ما يتصل

بخصمه بحذر شديد، لأن التجارب العملية أثبتت دائمًا، أن أي خصم مهما كان شأنه، عنده دائمًا ما يخفيه عن أكثر العيون قدرة على التلصص، وأكثر الآذان تدريبًا على التسمع. فإذا أغفل القائد العسكري هذه الحقيقة البسيطة، فقد وضع بنفسه أول طوبة في بناء بشع اسمه.. الفشل.

**الاحتمال الثاني:** الذي يُمكن تفسير كلام القائد الإسرائيلي على ضوءه، أن تكون أجهزة الحرب النفسية في إسرائيل، قد وصلت في ممارستها مهمتها ضد العرب عمومًا - ومصر وشعبها خصوصًا، إلى درجة التشبع، بحيث تحولت بمهامها الدعائية - دون أن تدري - إلى عقول القادة الإسرائيليين أنفسهم، فإذا بهم يصدقون الأكاذيب التي اختلقوها حول القوة الأسطورية لجيشهم الذي لا يُغلب.. وإذا بكبيرهم - في ذلك الوقت - «دافيد أليعازر» يدلي بتصريحه الغريب.

ولم يكن أليعازر وحده الذي أصيب بحمى الغرور، فقد كان هناك سباق عجيب بين قادة إسرائيل - العسكريين والسياسيين على السواء - في إلقاء مثل هذه التصريحات الخالية من أي تعقل، لو وزناها بأي ميزان فكري سليم على المستويين العسكري والسياسي.

إن «حاييم بارليف» - صاحب الخط الشهير الذي أنفقت إسرائيل على إقامته وتحصينه مئات الملايين من الدولارات، ثم انهار بعد ساعات ست من الضربات القاسية التي كالتها له المقاتل المصري الشجاع المدرب جيداً، المسلح جيداً - «حاييم» هذا، يصرح يوم 5 فبراير 1971 لوكالة الأنباء الفرنسية، بقوله: «ليست لدى المصريين أدنى فرصة للنجاح، إذا هم حاولوا عبور القناة، من المؤكد أن لديهم الوسائل اللازمة لمثل هذه المهمة، ولديهم خطط للعمل، ولكن ما ينقص مصر هو الجيش الذي يستطيع أن يخطط.. وينفذ.. ويقاقل».

ثم يعود في 8 مارس عام 1973 ليصرح بقوله: « أقول باختصار: إذا استأنفت مصر القتال، فإن إسرائيل لن تخسر موقعًا واحدًا». وقد كان «موشي ديان» فيلسوف المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، الذي تحطم هو وكل نظرياته عن «الأمن الإسرائيلي» فوق صخرة 6 أكتوبر، يؤكد دائمًا وفي كل مناسبة أن «مصر لن تحارب قبل عشر سنوات إذا هي فكرت في الحرب فعلاً».. وهو أيضًا القائل: «إن الجبهة المصرية لا تستحق من جهد جيش إسرائيل أكثر من ستين دقيقة».

أعود الآن إلى عدد من تلك التصريحات التي كان يكررها من حين لآخر، في سياق تعاليه وغروره. ففي الثاني والعشرين من نوفمبر عام 1969 أعلن ديان في مؤتمر صحفي: «إن خط بارليف منيع مستحيل اختراقه، إننا أقوياء لدرجة تكفي لكي نحتفظ به إلى الأبد، وأي عملية عبور مصرية - إذا حدثت - ستلقى الرد

الحاسم، ولن تؤثر على قبضة إسرائيل الحازمة على خط بارليف».

وفي 18 نوفمبر عام 1970، أعلن «ديان» أمام الكنيست الإسرائيلي بأنه «إذا فضل المصريون استخدام القوة وعبور قناة السويس، فإنني أعلن أن قواتهم ستتحول إلى رماد».

وفي 26 مايو 1971، أذاعت وكالة أسوشيتدبرس العالمية هذا التصريح الذي أدلى به موشي ديان: «إذا حاول المصريون الإقدام على مخاطرة العبور، فإن هزيمة دموية في انتظارهم، وحتى أصدقاؤهم يعلمون أنهم لم يصلوا إلى مستوى القتال».

وفي 19 سبتمبر عام 1971، أذاعت الوكالة الفرنسية برقية لوزير الدفاع الإسرائيلي: «إذا حاولت مصر عبور القناة، فسوف تتم إبادة قواتها.. و.. سيواجه الجيش المصري كارثة مؤكدة».

وفي الزيارة التي قام بها «ديان» للولايات المتحدة، في أوائل عام 1972، تناقلت وكالات الأنباء العالمية تصريحه الذي قال فيه: «إنني أحذر المصريين من الهلاك.. إذا أطلقوا النار..». وأخيرًا يأتي هذا التصريح الذي لا يحتاج إلى شرح أو تفسير لمدلوله، وهو التصريح الذي أدلت به «جولدا مائير»، رئيس وزراء إسرائيل قبيل وأثناء معارك السادس من أكتوبر، «إذا كان أنور السادات عاجزًا عن الحرب، وإذا كان يعلم تمامًا أن الهزيمة الساحقة المنكرة هي النتيجة المحتومة.. فلماذا لا يقبل المفاوضة مع إسرائيل؟».

هذا السيل المتلاحق من التصريحات - الذي بدأ كثمرة لتخطيط مدروس لقواعد وأسس الحرب النفسية، وانتهى كنتيجة طبيعية لاستسلام قادة إسرائيل وساستها لحمى الغرور التي أصابتهم عشية نصر 5 يونية، وتصاعدت حرارتها إلى درجة الهوس، هذه

التصريحات كانت قيادتنا العسكرية والسياسية - على السواء - تردّها إلى حجمها الطبيعي، انطلاقًا من معرفتنا الحقيقية بما عند العدو من إمكانيات، وثقتنا الكاملة في سلامة الطريق الذي كنا سائرين فيه، خطوة خطوة.. بحذر وتأنٍ، ولكن بإصرار وتصميم وتتابع، لا يعرف المستحيل، ولا يتوقف أمام الصعاب مهما تعاظمت.

ومن هنا.. لم تكن هذه التصريحات تعني عند العسكرية المصرية سوى معنى واحد.. أنه حدثت بالتدريج، وبدون قصد من العدو - وبقصد كامل من جانبنا - عملية تبادل للمواقع النفسية. وإذا سلمنا بأن السلوك البشري - كما هو في الواقع والتحليل العلمي - رد فعل عملي للدوافع النفسية والاقتناعات العقلية، فإن تصريحات قادة إسرائيل بكل صلفها وغرورها، كانت تعني بالنسبة لنا نحن المصريين، أننا - قبيل معارك 6 أكتوبر - قد نجحنا في تبادل

المواقع النفسية التي كنا نحتلها قبل 5 يونية، فتركنا موقع الغرور والتفاخر والمظاهرات السياسية الهوجاء للإسرائيليين، وأخذنا بدلاً منها موقع الحذر، والعمل الدائب في صمت، والتخطيط العلمي المدروس في الخفاء.

كانوا يدركون قوتهم، ويبالغون في إحساسهم بهذه القوة في الإعلام - بل الإعلان - عنها، وكنا نصمت غالبًا، وإذا اضطررنا للكلام، فبالقدر الذي لا يشيع اليأس في نفس المواطن المصري والعربي، ولكنه لا يساعد في نفس الوقت على تنبيه العدو إلى مستوى خطر - بالنسبة له - من مستويات التدريب أو التسليح، نكون قد نجحنا في تحقيقه.

وكانت حمى التصريحات التي انتابت قادة إسرائيل، متفقة تمامًا مع الأهداف الخفية للعسكرية المصرية، ولكن خطرنا الذي كنا نعمل له ألف حساب، هو تأثيرها على المواطن المدني الذي لا يعلم ما نعلمه نحن العسكريين،



سواء بالنسبة لقوة العدو، أو لقوتنا المتزايدة باستمرار.

ومن هنا كان الإحساس الخطير بالمسئولية، عن ضرورة نجاح إعلامنا العسكري بالذات في تحقيق المعادلة الصعبة التي تتمثل في الاستمرار في خداع العدو المغتر بقوته، المنتشي بنصره السريع في 5 يونية 1967، مع الحفاظ في نفس الوقت على الدعائم الضرورية لسلامة نفسية المواطن المدني، والاحتفاظ له بالقدر الكافي من الثقة في قواته المسلحة، ثقة تصد عنه الهجمات الضارية التي تشنها عليه أجهزة الحرب النفسية لدى إسرائيل.

وللحقيقة والتاريخ، فقد كانت تلك عملية شاقة على جميع الأطراف.. سواء بالنسبة لأجهزة الإعلام عامة، والإعلام العسكري خاصة.. أو بالنسبة للمواطن المصري الذي استمد من شجاعته وصلابته الأصيل، القدرة

على الصمود في مواجهة الحرب الدعائية للعدو، وعدم الاستسلام للسموم الخبيثة التي كانت أجهزة العدو المدربة تبثها في جميع الوسائل المستحدثة.

وأخيرًا... حلت ساعة الصفر التي استبعد العدو مجيئها، بينما عاشت الملايين في مصر والأمة العربية كلها، تتحرق شوقًا للقائها، وفي الساعة الثانية من بعد ظهر السادس من أكتوبر عام 1973، وتنفيذًا لأمر القائد الأعلى الرئيس السادات، عبرت مائتان وعشرون من طائراتنا القاذفة الثقيلة، والقاذفة، والقاذفة المقاتلة، عدا طائرات الحماية والاعتراض.. عبرت كلها وفي ثانية واحدة وطبقا للخطة «صدام» الخط «س» في نفس اللحظة، لتنطلق بعده إلى مواقع العدو شرقي القناة... كي ترد له الدين الذي فاجأها به منذ ستة أعوام في الخامس من يونيو عام 1967.

وفي الثانية والثلاث - وبعد مضي عشرين دقيقة تقريبًا، كنت في غرفة العمليات أستقبل «التمام» من مختلف القواعد الجوية، لكي أعيد إبلاغه في نفس اللحظة للقائد الأعلى في غرفة العمليات المركزية، لقد نجحت الضربة «صدام» في تحقيق أهدافها ضد العدو بنسبة تجاوزت 95% ولم تتجاوز خسائر قواتنا الجوية في هذه العملية المركزة نسبة 1% فقط، رغم أن عدد الطائرات المشتركة فيها قارب الثلاثمائة، وهي نتائج تعتبر وسام شرف لأية قوة جوية في العالم، لأنها حطمت جميع الأرقام القياسية العالمية السابقة، سواء في عدد الطائرات المشتركة في ضربة واحدة، أو في نسبة تحقيق الأهداف ضد العدو، أو هبوط نسبة الخسائر بين القوة المهاجمة.

وبمجرد أن تأكدت القيادة العليا، من نجاح الضربة الجوية المكثفة «صدام» دارت آلة الحرب الجهنمية، وتحركت جحافل المقاتلين

المصريين تعبر القناة، وتلتحم بجنود الجيش الذي كان لا يُقهر. وتتوالى المعارك لتؤكد بطولة وفعالية المقاتل المصري - الذي يشعر بالأمن والثقة لأن قواته الجوية، التي أخذت الدرس والعبرة من أخطاء 1967، قد صممت على الانتقام.. ولقد اعترف العدو نفسه، وشهد العالم أجمع.. المراسلون الحربيون والخبراء العسكريون، بأن الطيار المصري المقاتل أثبت وجوده بجدارة وفاعلية خلال معارك أكتوبر سواء في الضربة الأولى التي فاجأت العدو وحطمت له مراكز القيادة والسيطرة، ومراكز الإعاقة والتشويش، ومواقع بطاريات الصواريخ «هوك» المنتشرة شرقي القناة، أو في طلعات المعاونة الجوية للقوات البرية في زحفها المنتشر على أرض سيناء، أو في معارك الاعتراض والقتال الجوي ضد طيران العدو الذي حاول اختراق مجالنا الجوي طوال أيام القتال.

وفي كل هذه المجالات، كان الطيار المصري المقاتل حريصًا على أن يكتب بعرقه ودمه - بل وبحياته شهيدًا - لوحة جديدة في ملحمة الطيران المصري، التي كانت بدايتها صدمة 5 يونيو 1967، ونقطة الوصول السعيدة ظهر السادس من أكتوبر 1973.

وهنا أستطيع أن أجيب عن السؤال الذي طرحته في بداية هذه المقدمة.. هذا الكتاب.. لماذا؟!!

لقد عمدت أجهزة الإعلام الإسرائيلية عشية «حرب الأيام الستة» - كما سماها معارك 5 يونيو - إلى التهويل الأسطوري الذي يقترب من حد الخرافة، في حديثهم عن الضربة الإسرائيلية للطيران المصري، ولولا صلابته الإنسان المصري عقلاً وعاطفة، لانهار بناؤه النفسي أيام هذه الحرب النفسية الضاربة، وإذا كان الطيران المصري قد استطاع أن ينتقم لنفسه في 6 أكتوبر، وأن يرد الصفة بصفعات

أشد عنفًا وقسوة على العدو المتغطرس، فإن الواجب نحو الطيار المصري المقاتل الذي كتب خاتمة سعيدة ومشوقة لملحمة بدأت بداية حزينة في 5 يونية 1967، يحتم أن يعرف أهله وذووه، ماذا فعل لهم ومن أجلهم.. في معارك السادس من أكتوبر.

هذا الكتاب أيضًا يفرضه الواجب نحو المواطن المصري العادي الذي عاش سنوات وسنوات، وهو أسير خوف غامض من عدو أسطوري له ألف ذراع - اسمه الطيران الإسرائيلي... الذي صورته الدعاية الإسرائيلية على أنه تنين خرافي له مخالب لا نهاية لطولها، ولا راد لقوتها، ولا مُعقب لحكمها.. وإذا كان هذا المواطن المصري الشجاع الصلب الإرادة صلابة تحطمت على جدرانها كل دعايات العدو وسمومه - قد صمد فإن ما حققه الطيران المصري من نجاح في المعركة، يمثل جانبًا من الجزاء لصبر هذا المواطن..

ولكن جزاؤه الأوفى يتمثل في إطلاعه على الصورة الكاملة لملحمة طيرانه المصري، منذ لحظة القيام من الصدمة، إلى سنوات الإعداد الصامت «إلى لحظة» الصدام الخالدة التي تحطمت فيها أسطورة الطيران الإسرائيلي الذي لا يقهر.

من هنا، يأتي الإحساس بالمسئولية أمام المواطن المصري، بكل صبره وجلده، وبكل تضحياته الشجاعة في سنوات الإعداد للمعركة، وخلالها، وبعد أن توقف القتال في انتظار الحل الشامل العادل للقضية.

فحق هذا المواطن الذي ضحى أن توضع الصورة كاملة بين يديه، بلا تهوين من أمر العدو - كما فعل خصمنا الذي اعتز بنصره عام 1967 - وبدون تهويل في ملامح الصورة على جانبنا القومي.

الحقيقة.. والحقيقة وحدها، هي ما يحتاجه المواطن المصري إذا أردنا أن نضع أمامه

صورة ما جرى في 6 أكتوبر ومعاركه الخالدة. والتزام الحقيقة في الحديث عن إحدى حلقات الصراع مع عدو لم يلتزم طيلة حياته بالصدق لحظة واحدة، في كل ما كتبه عن معاركه ضدنا ليس بالأمر الهين على النفس، ولكننا نلتزم به إيمانًا بالمسئولية أمام الجيل الحالي من طياري مصر الشجعان الذين خاضوا التجربة باقتدار وفدائية منقطعة النظير، وهي مسئولية أمام الأجيال القادمة من طياري المستقبل، أذرع مصر المحلقة في سماء التضحية والبذل، فحقهم - حين يأتي دورهم في تحمل الأمانة أن يكون بين أياديهم سجل أمين، بالغ الصدق والدقة في تصوير ما كان.. حفزًا لهم نحو ما ينبغي أن يكون.

والتزام الصدق أولًا وأخيرًا، هو مسئولية أمام المواطن المصري الذي ضحى في شجاعة صامته، وحقه أن يعرف الحقيقة، وأن يستوثق تمامًا، من أنه لم ينخدع هذه المرة أيضًا، كما



خُذع من قبل في مواقف سابقة، كانت الهزيمة تتحول إلى نصر تعرف الدنيا كلها أنه نصر شعارات وهمية، بينما الإنسان المصري صاحب الحق الأول في معرفة الحقيقة، هو الوحيد الذي تخفى عنه الحقيقة.

وإذا كنت قد شاركت بحكم موقعي العسكري أثناء معارك أكتوبر المجيدة كقائد للقوات الجوية المصرية وأُتيح لي بحكم هذا الموقع أن أعرف من الحقائق ما ييسر لي تقديم الصورة الكاملة لملحمة الطيران المصري، فإنني سأحاول تقديم هذه الصورة برؤية جديدة، أكثر شمولاً، وأكبر عمقاً، في تفسير الأحداث والوقائع، بعد أن شرفني الرئيس القائد الأعلى محمد أنور السادات، بالعمل معه كنائب لرئيس الجمهورية.

إنني آمل أن يجد القارئ المصري خصوصاً والعربي عمومًا في هذا الكتاب، ما هو بحاجة إلى معرفته عن نسور مصر الشجعان،

والملحمة البطولية، التي بدءوا في كتابة سطورها، عقب ضربة الخامس من يونية 1967 بساعات.

كما أرجو صادقًا، أن يجد العدو في هذا الكتاب - وهو سيقراً بلا شك ما سأكتبه - تحليلًا دقيقًا لميدان من أخطر ميادين الصراع العربي - الإسرائيلي هو ميدان التسابق على السيادة الجوية في المنطقة.. وهو تحليل يكتبه طيار مقاتل، عايش التجربة بكل جوانبها المظلمة والمضيئة، ولعل العدو ينزع في النهاية من رأسه كل جذور الغرور وبذوره، حين يستوثق تمامًا أن الأمة العربية بوجه عام، والشعب المصري بوجه خاص، قد انتزع من براثن الهزيمة الساحقة، نصرًا مؤكدًا، وأنه لا يوجد في العصر الحديث شيء اسمه المستحيل، ما دامت هناك إرادة، وما دام هناك هدف محدد، وإصرار لا يعرف التراجع، سعيًا

إلى هذا الهدف، كما أرجو أن ينزع العدو من رأسه أحلام التفوق التكنولوجي.

لقد أثبتت معارك أكتوبر وهي أول حرب إلكترونية متكاملة في العالم، سواء في مجال الطيران أو الدفاع الجوي أن المقاتل العربي الجديد مقاتل مثقف عسكريًا مكتمل الثقافة القتالية، متمكن من فنية سلاحه مهما كان سلاحه بالغ التعقيد، وهذا الجيل الجديد من المقاتلين السلميين هو صيحة التحذير الحقيقية، التي يطلقها شعبنا والأمة العربية معه لكي يفيق العدو ويتراجع إلى حجمه الصحيح، متخليًا عن أحلام السيطرة والتوسع التي أوقعته في مأزق الحرب الرابعة التي وصفها الجنرال الأمريكي «إيثيل بانجر» حين قال في تعقيبه على معارك أكتوبر: «إن إسرائيل بقيت قائمة كدولة لأننا لم نخنّها، فبدون الأسلحة والنفقات الأمريكية، كان محتومًا أن تفنى إسرائيل».

إن شعبنا المصري، وأمتنا العربية جمعاء، يطلبان السلام العادل الذي لا يعرف الاستسلام، وشعبنا قادر بإذن الله وبصمود أبنائه وتكاتف أمته العربية على تحقيق هذا السلام العادل، ولقد شرب العدو في معارك أكتوبر من الكأس التي نستطيع أن نجرعها له كاملة، إذا هو لم يتراجع عن الغي، ويتوب إلى الرشاد.

والله ناصر من ينصره.. وما النصر إلا من عند الله.. هو نعم المولى، ونعم النصير..

من

حسني

مبارك

نائب رئيس

الجمهورية

"أكلني الغيظ  
 والكمد، كنت  
 أستغيث بجهاز  
 اللاسلكي في  
 طائرتي، ولكن  
 الجهاز لا ينطق. لا  
 أحد يسمعني، لا  
 أحد يسعفني.. حتى  
 ولو بأطيب  
 التمنيات.."

# دمروا وأخطاءنا طائراتنا..

في هذا اليوم الأشد حزنًا في مراحل حياتي وقعت أعظم هزائمي الوطنية والشخصية، فقدت سلاحي أمام عيني، وخسرت بلادي سلاحها الجوي ومُنيت بهزيمة عسكرية كبرى.. في هذا اليوم أيضًا تحقق أهم مكاسبنا وواحد من أكبر انتصاراتنا على أنفسنا.

- التاريخ: 5 يونية عام 1967.
- الوقت: الساعة السادسة من صباح الاثنين، الذي قُدر له أن يحمل فيما بعد ولبضع سنوات، على امتداد الوطن العربي كله، صفة «يوم الاثنين الحزين».

• **المكان:** قاعدة بني سويف الجوية.  
كانت حتى ذلك التاريخ مقر لواء  
القاذفات الثقيلة المكونة من طائرات «ت  
ي 16».

بعد ليلة من النوم المتقطع هاجمني خلالها  
أرق غريب، لم أدرك سببه على وجه التحديد.  
لقد أرجعت هذا الأرق إلى إحساس بتوتر  
الموقف العسكري بيننا وبين العدو، وما قد  
يؤدي إليه من تتابعات محتملة. كنت أشك أننا  
حسبنا بدقة ما سوف يُؤمّن قواتنا المسلحة  
عمومًا، وقواتنا الجوية بالذات إذا ما وقعت  
مفاجأة مؤسفة. لقد تحول هذا الشك فيما بعد  
إلى يقين أيدته الأحداث والوقائع .

كنت منذ عودتي من بعثتي الدراسية إلى  
الاتحاد السوفيتي، أتولى قيادة لواء القاذفات  
الثقيلة «ت ي 16» وهو منصب كان يجر عليّ  
الكثير من المتاعب التي تخلقها «الشلية»

التي كانت منتشرة بشكل مرضي على مستوى القيادة قبل 5 يونيو 1967. كان سلاحى الوحيد فى مواجهة هذا الوباء - الشللية - هو الانهماك فى العمل إلى الحد الذى لا يسمح لى أنا شخصياً بالوقت الكافى للتفكير فى تصرفات الشلل المحدقة بى، أو محاولة الرد على «المكائد» التى تُحاك ضدى، طمعاً فى الموقع القيادى الذى أتولاه.

إيجابياً، كان هذا الانهماك فى العمل من جانبى يؤدي بالضرورة إلى تحقيق نتائج عسكرية، لا يستطيع أشد الطامعين شغفاً إلى موقعى أن ينكر أثرها على الارتفاع بمستوى القدرة القتالية للواء الذى أتولى قيادته.

أذكر ، بينما أستعيد شريط الأحداث التى عبرتها فى تلك الفترة المؤلمة: أننى أمضيت على سبيل المثال، ستة أشهر كاملة فى بدء تشكيل اللواء وإعداده لا أأغار مقر قيادتى على الإطلاق، ولا أذهب إلى بيتى ولو لحظات



عابرة، وكنت أقضي ساعات النهار وجزءًا كبيرًا من الليل في عمل متواصل، لا أسمح خلاله لنفسي إلا بوقت محدود من النوم الخاطف، الذي يهيئ لي متابعة العمل من جديد.

رغم هذا الجهد المتواصل فإنني كنت أفاجا مع بالغ أسفي بأن الشلل التي تحاصرني في كل مكان أتواجد فيه، كانت تنتهز أي فرصة يتصورون خلالها بأنني غفلت لحظة واحدة عن الأعيبهم المعرقة.

في مثل هذا المناخ المؤسف، كنت أتابع بقلق بالغ، أخبار التطور السريع في الموقف العسكري، وبجهد كبير كنت أسيطر على القلق الذي لو استسلمت له فإنه يؤدي بالمقاتل إلى أوخم العواقب، خصوصًا إذا كان يتولى موقعًا قياديًا له أهمية خاصة. وبمواصلة العمل، لا أعتقد أن أحدًا قد فوجئ في مقر قيادة اللواء، عندما رأوني أباشر مهمتي بمكتبي في تلك

الساعة المبكرة جدًا من صباح الاثنين 5 يونية عام 1967.

كانت أمامي يوميًا مهمة قد يعتبرها غيري من الزملاء قادة الألوية الجوية، مهمة عادية، بل ودون مستوى اهتمام قائد اللواء شخصيًا، وهي مصاحبة مجموعة من الطيارين في طلعة تدريب عادية. في منهجي كان الأمر مختلفًا تمام الاختلاف: إن القائد الذي لا يُعنى بالتدريب المستمر، الذي يحفظ لرجاله مستوى دائم الارتفاع والتجديد من القدرة القتالية، ولا يُشرف بنفسه على هذه المسؤولية، ويتولى متابعتها شخصيًا، قائد مقصر في أداء واجبه.. أو هو لا يعرف حدوده ومسئوليته القيادية.

هكذا كنت في غاية السعادة وأنا أستقبل خمسة من طياري القاعدة في بني سويف جاءوا يعلنون رغبتهم في الطيران، لأنه مضى عليهم وقت طويل لم يطيروا. استجبت على الفور لرغبة المقاتلين الخمسة، ووعدهم

بالاشتراك معهم، وتحددت بالفعل الساعة 9.5 «التاسعة وخمس دقائق» من صباح الاثنين 5 يونية موعد الطلعة التدريبية المرتقبة.

كان كل شيء يبدو هادئًا وعاديًا في هذا اليوم. ولم يَلْخُ في الأفق العسكري على الأقل ما ينذر أو يشير مجرد إشارة إلى احتمال وقوع الكارثة أو ما هو قريب منها، ولم يرد للقاعدة من القيادة الجوية في القاهرة، أي توجيه بمهام غير عادية، لهذا مضت الأمور في مجراها الطبيعي بالنسبة لنا.

أقلعت الطائرة الأولى في الموعد المحدد تمامًا ودون تأخير أو تقديم ثانية واحدة. كان بعض الزملاء يعتقدون أن تلك الدقة نوع من «الحذقة أو الحنبلية».. لم يكن الأمر كذلك. وهذه الدقة الزائدة في احترام الجداول الزمنية للعمليات الجوية تعود إلى أن الحرب الحديثة أثبتت بتجاربها المتعددة، أن احترام الطيار المقاتل للجدول الزمني المحدد

لتفاصيل مهمته القتالية أمر لا فكاك منه، بل إن هذا الالتزام الحرفي هو الضمان الوحيد لنجاح المهمة التي عُهد للطيار إتمامها، وربما كان احترام الطيار المقاتل لهذا الجدول الزمني، هو مفتاح النجاة لا بالنسبة له وحده، بل بالنسبة لقواته الجوية بأسرها. لا أبالغ حين أقول إن تأخر الطيار دقيقة واحدة أو تقدمه عن الموعد المحدد له، قد يتسبب في حدوث كارثة على المستوى الاستراتيجي للشعب الذي سلم للطيار أمانة الدفاع عن سمائه ضد العدو الجوي.

في الساعة 9.15 كنا نصعد بطائرتنا الخمس، فوق سحب منخفض لم يتجاوز ارتفاعه ثلاثمائة متر، بعد خمس دقائق اهتزت أجهزة اللاسلكي في طائرتي، بخبر وقع عليّ كالصاعقة، حيث تم إبلاغي بأن القاعدة الجوية التي أقلعت منها منذ لحظات قد هوجمت. فعلتها إسرائيل إذن. قاعدتي الجوية

تضرب وأنا معلق في الجو، عاجز عن صنع أي شيء. وقاذفاتنا الثقيلة التي يعرف العدو جيدًا قدرتها التدريبية الرهيبة، تُدمر الآن وهي جاثمة على الأرض لا حول لها. وأبشع من هذا، تلك الصفوة من خيرة الرجال الذين أجهدت نفسي، وأجهدوا أنفسهم معي في تدريبهم تدريبًا متواصلًا للارتفاع بمستوى قدراتهم القتالية، استعدادًا للحظة اللقاء بالعدو، وها هي اللحظة قد حلت.. ولكن في غير وقتها المناسب، وفي الظروف التي اختارها العدو ورتب لها.. ثرى ما مصير هؤلاء المقاتلين الشجعان الذين فاجأتهم طائرات العدو وهم على الأرض؟

كان هذا بعد وقوع أول ضربة جوية معادية بخمس وثلاثين دقيقة كاملة. تساءلت: كيف ولماذا أضع مركز العمليات الرئيسي هذا الوقت الثمين دون أن ينذر باقي المطارات التي لم تكن قد تعرضت للقصف في أولى

موجات الضربة الإسرائيلية التي بدأت في التاسعة إلا الربع؟ خمس وثلاثون دقيقة بالكمال والتمام، كانت كافية لإنقاذ جزء لا يستهان به من قواتنا الجوية، بل كانت كافية مع حسن القيادة وسلامة التخطيط والتوجيه لتغيير نتيجة الضربة الجوية القاسمة، وبالتالي.. تغيير سير المعارك كلها، سواء في الجو أو على مسرح العمليات البري.

ياكلني الغيظ والكمد، وأستغيث بجهاز اللاسلكي في طائرتي، ولكن الجهاز لا ينطق. لا أحد يسمعني، لا أحد يسعفني حتى ولو بأطيب التمنيات. إن مركز العمليات صامت تمامًا، وبرج المراقبة في قاعدتي الجوية التي غادرتها مع رجالي الخمسة كان هو الوحيد الذي يرد عليّ محذرًا من الهبوط بسبب تدمير الممرات معلنًا عجزه عن إعطائي أية تعليمات بالاتجاه إلى مطار آخر يكون مازال صالحًا للهبوط.

مرت بنا لحظات من الصمت الكئيب، ونحن نطير بلا هدف.. إلى أين نذهب؟ وفي أي مطار يستقر بنا المطاف؟ لم نكن نعرف، ولم يكن أمامنا وقتها إلا أن نطير ونطير حتى يفرغ الوقود من طائرتنا.. فتقع كارثة أو معجزة.. وفجأة دبت الحياة في جهاز اللاسلكي.. اتصال من مركز العمليات... وكان يطلب طلبًا غريبًا، بدا لي وقتها وكأنه نوع من السخرية المرة، ونحن معلقون في الجو، بلا هدف نسعى إليه، وبلا مطار نثق في بقاء ممراته سليمة وصالحة للاستقبال.

كان مركز العمليات قد ظن أنه بدأ يستجمع شتات «قدرته» على السيطرة، أو لعله فقدتها نهائيًا، فإذا به يطلب منا تنفيذ الخطة «فهد»! كدت ألعن محدثي. أي «فهد» هذا الذي يطلبون مني تنفيذه، بعد أن ضربت قاعدتي الجوية وطائراتها على الأرض، وأنا معلق في الجو مع زملائي؟! ولم أجد في هذا الطلب

الهازل ما يستحق عناء التفكير في مجرد الرد عليه حتى بالرفض.

كان غضبي ساعتها هائلًا من هذه القيادة التي تذكرت فجأة ولكن بعد فوات الآوان أن هناك خطة اسمها «فهد» وأن هذه الخطة يُمكن تنفيذها، ويُمكن عن طريقها أن نلقن العدو درسًا قاسيًا.. ولكن متى؟ وكيف؟ لقد ضاع الوقت.

مجددًا، سيطرت على الغضب، وبتفكير فوري حسمت أمري.. هؤلاء الرجال الخمسة يجب الحفاظ على سلامتهم، والاحتفاظ بطائراتهم إن أمكن.. إن الضربة التي دمرت قاعدتنا الجوية في بني سويف تعني كذلك أن المطارات المتقدمة في القاهرة والدلتا وسيناء قد دمرت تمامًا.. ولكن لا مجال لليأس.. فلنسرع بالصعود إلى مصر العليا.. وأغلب الظن أن مطار الأقصر لا يزال سليمًا، فليكن هو محطة الوصول التي نلجأ إليها مؤقتًا، لكي



نتزود بالوقود والذخيرة اللازمة، ثم نعاود الطيران، أملاً في الإسهام بجهد في المعركة بهذه الطائرات الخمس.

أصدرت أمري بالاتجاه إلى الأقصر.. لأفاجأ بعد هبوطنا بتعذر إمدادنا بالوقود لعدم وجود المعدات اللازمة للتموين واستحالة إمدادنا بالذخيرة اللازمة، لأنه لا يوجد بالمطار ذخيرة، وضاع الوقت في محاولة استخدام وسائل بدائية لتزويد الطائرات بالوقود، وفي الاستعانة بمركز العمليات للبحث عن وسيلة لإمدادنا بالذخيرة اللازمة لاشتراكنا في المعركة، إن كانت لا تزال هناك فرصة للاشتراك فيها.

وبينما نحن في هذا الوضع المزري أقبلت الطائرات الإسرائيلية، وبدأت قصف المطار. كان هناك عدد من الطائرات المدنية التابعة لشركة مصر للطيران وبعض طائرات النقل الثقيلة التابعة للقوات الجوية، وقد بدأت

الطائرات المعادية بتدمير طائرتنا الخمس القاذفة الثقيلة لكي تُفَرِّغَ من قدرتها التدميرية ثم تحولوا إلى باقي الطائرات ومنشآت المطار لقصفها.

إن الحرب عمل مرير، مختلفة في واقعها عما يمكن أن يقرأه عنها إنسان في كتاب، أو يشاهدها في فيلم سينمائي. لقد عشت الحرب في تلك الساعة الكئيبة من صباح 5 يونية الحزين بطريقة سلبية بشعة على نفسي كطيار مقاتل.. رأيت بعيني طائرتي الخمس وهي سلاح في الحرب، تدمر أمامي.. على الأرض، وأنا عاجز عن استعمالها، عاجز عن حمايتها من الدمار.. كانت لحظة رهيبة لا تُنسى.. وأحسست ساعتها أن فؤادي يتمزق، تمامًا مثل الطائرات الخمس التي تمزقت أشلاء على أرض المطار.. إن الحزن الذي شملني أنا ورجالي الخمسة لا يقدر على وصفه أو

الإحساس به سوى طيار مقاتل فقد سلاحه مثلنا دون أن يتمكن من استعماله. بإرادة البقاء وحدها تحول الحزن الذي اجتاحني إلى غضب لا حدود له.. ثم إلى قسم على الأخذ بالثأر. كان احتراق طائراتنا أمام أعيننا، إهانة لا يغتفرها إلا الجبان.. ولا يمحوها إلا الثأر.. لا بد أن نسقي إسرائيل من نفس الكأس.. ولا بد لنا مهما طال المدى، أن نجرد طيارينا من سلاحهم قبل أن يتمكنوا من استعماله.. ولا بد أن تذوق على أيدينا مرارة تدمير طائراتها وهي جاثمة على الأرض.. في ضربة جوية قاصمة لا تعرف الرحمة ولا تسمح للخصم بالإفلات من مصيره المحتوم.

بينما تؤلمني هذه الذكرى، قد يكون مدهشاً أن أقول إن تلك الضربة المدمرة قد سببت لنا نحن الطيارين المصريين عكس ما اعتقدت إسرائيل أنه سوف يسبب لنا. تصور العدو أن هذه الضربة القاصمة ستؤدي إلى حالة من

اليأس، يعجز المقاتل المصري عن احتمالها، تؤدي به في النهاية إلى الإقلاع نهائيًا، أو مرحليًا، ولفترة طويلة عن التفكير في خوض مواجهة جوية مع هذا الشبح المخيف الذي تطلقه إسرائيل في الجو على هيئة شياطين لا يعرف أحد من أين تأتي، ولكنه يتعذب من وقع ضرباتها الملتهبة القاصمة.

هذا الحلم الإسرائيلي الكبير تحول إلى وهم أكبر، تبدد في نفس اللحظة التي تمت فيها الضربة المفاجئة للطيران المصري في جميع المطارات المصرية التي تلقت الضربة الجوية، كان جميع الطيارين الذين شاهدوا بأعينهم طائراتهم تحترق أمامهم وهي جاثمة على الأرض، يرددون نفس القسم الذي تعاهدت عليه مع رجالي الخمسة في مطار الأقصر.. الثأر.. ولا شيء غير الثأر يمحو الإهانة التي تلقاها نصور مصر الذين حُرموا من أجنحتهم في ذلك اليوم.

لم يكن الذي احترق يوم 5 يونيو هو الجزء الأكبر من سلاحنا الجوي وحده.. ولكن الذي احترق بالفعل وكما أثبتت عمليات أكتوبر المجيدة هو الأسلوب القديم في قيادة الطيران المصري، تخطيطًا وتنفيذًا على جميع المستويات التكتيكية والاستراتيجية.

لقد نسفت قنابل الطائرات الإسرائيلية، التي تساقطت فوق مطاراتنا يوم 5 يونيو «الشللية».. والأخطاء الكبيرة... والتستر على تلك الأخطاء.. كما أنها حرقت الجهل بفنون القتال الحديث.. لكي تفسح الطريق دون قصد منها طبعًا لجيل جديد من الرجال.. يملك العلم والقدرة المرتفعة على التخطيط والتنفيذ على أعلى مستوى قتالي معاصر.. ويملك قبل كل شيء.. الرغبة في الانتقام. ورب ضارة نافعة. وصدق الله عز وجل، حين قال في كتابه العزيز: (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ).

”... هكذا تحول  
الطيران الإسرائيلي  
إلى «وهم كبير» في  
عقول الإسرائيليين  
أنفسهم، قبل أن  
يكون وحشًا خرافيًا  
طائرًا بالنسبة  
للإنسان العربي..“

# معجزة ضخمة.. أم أكذوبة كبرى؟

قبيل بزوغ الفجر وطوال الساعات الأولى من صباح الاثنين 5 يونية 1967، شق عدد من السيارات المسرعة طريقه في الشوارع الهادئة في سباق غير مقصود نحو مكان التجمع.. كان كبار القادة وأعضاء هيئة الأركان في الجيش الإسرائيلي، حريصين على ألا تفوتهم اللحظة التي دبروا لها في الخفاء.. توالى وصولهم. كان على رأسهم وزير الدفاع جنرال ديان.. وكان كل شيء قد تم إعداده وأصبح جاهزًا للتنفيذ.. لم ينسوا شيئًا من التفاصيل الصغيرة.. حتى الحصول على بركة «النبى المسلح بن جوريون» حرص «موشي

ديان» أن ينالها قبل التنفيذ.. هكذا كانوا يصفونه وفق ما نقرأ.

قبل أن يستسلم للنوم - مساء الأحد 4 يونية - طلب من أحد مساعديه أن يمر على «بن جوريون»- ليعرض عليه دقائق الموقف عسكريًا وسياسيًا، وخطة ديان.. واستمع الرجل العجوز لرسول وزير الدفاع.. ثم سأله فجأة:

- «هل موشي ديان واثق من نفسه؟».

وأجاب رسول الجنرال:

- نعم يا سيدي..

وعلى الفور، أطلق بن جوريون العبارة التي كان ينتظرها تلميذه «موشي ديان».

- «في هذه الحالة.. أمنحه بركاتي».

قرأت عن ذلك المشهد فيما بعد حرب يونيو في بعض الكتب: أحاط قادة جيش إسرائيل بالجنرال «مردخاي هود» قائد الطيران



الإسرائيلي داخل قاعة عمليات السلاح الجوي، وعيونهم معلقة بالساعة.. وفي تمام الساعة وعشر دقائق بتوقيت إسرائيل «الثامنة وعشر دقائق بتوقيت القاهرة» كان توتر الأعصاب قد بلغ ذروته بين الحاضرين.. كانوا يستعدون للقيام بلعبة ضخمة، وأي خطأ مهما كان تافهًا، يمكن أن يؤدي بهم جميعًا إلى الهاوية.

وفجأة قطع عليهم هواجسهم صوت «هود» الذي انحنى على الميكروفون الموضوع أمامه - والمفتوح مباشرة على غرف العمليات الفرعية في جميع القواعد الجوية التي تقرر اشتراكها في العملية - وألقى قائد الطيران الإسرائيلي بكلمة السر المتفق عليها «موكيد - جو». وعلى الفور تنفس المجتمعون الصعداء ارتياحًا.. إن طائرات إسرائيل تحلق الآن في الجو.. في طريقها لتنفيذ العملية «كولوب» أو «طوق الحمامة» أو «ضربة صهيون» على اختلاف الأسماء التي أطلقت على الضربة

الجوية المركزة التي وجهتها إسرائيل ضد الطيران المصري في ذلك اليوم.

إن من واجبي الآن أن أحل بموضوعية كاملة دقائق هذه العملية الجوية، وأن أردّها إلى حجمها الصحيح، ومكانها الطبيعي من الفكر العسكري القائم على أسس علمية سليمة.. ثم نتعرف في النهاية حقيقة هذه الضربة.. وهل هي - كما قيل عنها وكما حاولت إسرائيل أن ترسب في وجدان أمتنا - معجزة عسكرية؟ أم أن الهالة الأسطورية التي نسجت حولها لا تعدو أن تكون أكذوبة ضخمة، استهدفت عقل ووجدان الإنسان العربي لتخديره وبث الذعر في نفسه.. كما استهدفت - في نفس الوقت - وجدان الفرد الإسرائيلي والسيطرة عليه، وتحويله إلى عابد لآلهة المؤسسة العسكرية الذين لا يأتيهم الخطأ أو القصور من بين أيديهم ولا من خلفهم؟

إن إسرائيل تعرف - بلا شك - أن كاتب هذه المذكرات طيار مقاتل، درس ومارس التخطيط والقتال الجوي، بالمستوى الذي يجعله قادرًا على الحديث عن أية خطة جوية، حديث من يعرف دقائق العملية وأسرارها، بكل ما فيها من نواحي الامتياز والقصور، وبكل ما حوت من تقليد أو تجديد.

وإذا كان هناك احتمال للتعصب من جانبي ضد خطة الجنرال الإسرائيلي - كما رُسمت ونُفذت - بحكم العاطفة الوطنية، فإن الضمان الوحيد لكشف الحقيقة، والحقيقة وحدها - في تلك الخطة التي تحولت بفعل الدعاية إلى أسطورة - هو الاتفاق منذ البداية على أسس موضوعية للتحليل، وقواعد ثابتة معترف بها في جميع مدارس الفكر العسكري ومناهجه، شرقية كانت أم غربية. ثم ننطلق من هذه الأسس والقواعد المتفق عليها علميًا، إلى

تطبيق صحيح لدقائق الضربة الإسرائيلية لطيران مصر.

إن التخطيط السليم لأية عملية قتالية، هو الذي يرسم للمقاتل - أيًا كان سلاحه - الطريق الموصل لتحقيق الهدف في أسرع حيز زمني، وبأقل قدر ممكن من الخسائر، واضعًا في الاعتبار الحلول المناسبة للمفاجآت المحتملة من جانب العدو، وهذا هو الحد الأدنى من المواصفات التي يجب توافرها في الخطة، لكي تُوصف بأنها «خُطة سليمة» قابلة للتنفيذ، دون أن تعرّض المقاتلين - القائمين بها - للهلاك، أو على الأقل للفشل أو الإحباط... فإذا سرنا خطوة أبعد - على طريق التقييم العلمي للخطة العسكرية - لكي نسمح لأنفسنا بوصفها بأنها عبقرية أو معجزة، يجب أن يكون واضح الخطة نفسه قد أعطانا المبرر العملي لهذا الوصف، وذلك بتحقيق شرطين أساسيين:

1 - الابتكار والتجديد في وضع عناصر العملية القتالية كلها، سواء من ناحية التوقيت للضربة الأولى، أو وسائل تجميع العناصر المشتركة في القتال.

2 - وضع الحلول الممكنة - والمبتكرة في نفس الوقت - للمشاكل القائمة على الجانبين، سواء بالنسبة لجبهة واضع الخطة نفسه، أو المشاكل الناجمة عن موقف جيد يتمتع به الخصم.

ويضاف إلى هذين الشرطين، عنصر مهم لا بد من توافره - في الخطة الممتازة، فضلاً عن العبقرية أو المعجزة - وهو الإعداد المسبق للحلول العاجلة والبسيطة، لجميع المواقف المعوقة التي يمكن أن يفكر الخصم في اللجوء إليها، عملاً بمبدأ عسكري متعارف عليه، وهو: أن القائد الناجح هو الذي يؤمن بأن العدو عنده دائماً ما يخفيه.

هدفنا من هذا التحليل الموضوعي المجرد أمران:

**الأول:** رد هذه الخطة إلى حجمها الحقيقي المتواضع بمقاييس الفكر العسكري، الخالي من التهريج الفوغائي، والمبالغات الدعائية، والمتاجرة السياسية بالنتائج الضخمة التي حققتها خطة بالغة التواضع لكي يطمئن المواطن المصري - والإنسان العربي عمومًا - أن ما حدث في 5 يونية 1967، لم يكن بأي حال من الأحوال معجزة عسكرية، ومن ثم فهو لن يتكرر مطلقًا.

**والأمر الثاني:** أن العقل العسكري المصري قادر تمامًا - كما أثبتت تجارب 6 أكتوبر - على مجارة عدوه، بل والتفوق عليه في مجال التخطيط والإعداد للعمليات العسكرية - جوية كانت أو برية أو بحرية - وأن المفكر العسكري المصري كالمقاتل المصري الذي ظلمته دعايات العدو، لم يكن ينقصه لإثبات وجوده في مجال الإبداع والخلق سوى توافر الإمكانيات العلمية والمادية، وحين توافرت له هذه الإمكانيات بهر

العالم - بالفعل المعجز وليس بالكلام - كما سيتضح من تحليل الضربة المصرية «صدام» لطيران العدو.

إن أصول «النقد الموضوعي» لأية خطة قتالية، تحتم علينا تطبيقًا لمبادئ الفكر العسكري السليم - أن نلقي نظرة فاحصة على الظروف السياسية والنفسية والعسكرية المتوافرة على الجانبين المتحاربين.. سواء قبيل العملية القتالية، أو خلال تنفيذها، أو بعد الفراغ منها.. واضعين في الاعتبار جميع الاحتمالات التي يمكن أن تؤدي إليها العملية القتالية موضوع الخطة.

وتطبيقًا لهذا الأساس سنعود إلى الوراثة - مايو عام 1967 - ومن واقع ما كتب في إسرائيل نفسها عن هذه الفترة الملتهبة التي سبقت العمليات. إن واحدًا من أبرز الكتاب الإسرائيليين الذين تخصصوا في الكتابة عن الصراع العربي - الإسرائيلي «ميشيل

بارزوهار» يبلور الظروف السياسية والنفسية للموقف في كتابه «التاريخ السري لحرب إسرائيل» في النقط التالية:

**في دمشق: إحساس مكثف بالخطر الإسرائيلي الموجه ضد النظام الحاكم في سوريا، خاصة بعد العمليات الانتقامية الواسعة التي قام بها الجيش والطيران الإسرائيلي ضد سوريا في نوفمبر 1966، ثم في إبريل 1967 ردًا على الغارات التي يشنها أعضاء منظمة «فتح» الفلسطينية.. وبناءً على هذا، سارعت سوريا بتوقيع اتفاقية دفاع مشترك مع مصر، ونتيجة لهذه الاتفاقية - التي فوجئت بها إسرائيل - قام رئيس الوزراء المصري آنذاك بزيارة مفاجئة لسوريا «يوم 5 مايو 1967» أعلن خلالها: أن المعاهدة العسكرية الجديدة سوف تطبق في حالة قيام إسرائيل بمهاجمة سوريا.. ذلك الهجوم الذي كان السوريون**



يتوقعونه في أية لحظة، وتأمينًا لأنفسهم منه عقدوا هذه المعاهدة.

**في القاهرة:** تتلاحق الأحداث بسرعة مذهلة، ويتصاعد الموقف بشكل لا يترك فرصة لالتقاط الأنفاس:

1 - رؤساء الوحدات وقادة الأسلحة المختلفة في الجيش المصري يتلقون الأمر اليومي رقم «1» الذي يقول: «أعلنت حالة الاستعداد القصوى ابتداءً من يوم 15 مايو، الساعة 1430، وتغادر الفرق والوحدات التي أعدت للعمليات مراكزها الحالية، وتتحرك نحو مناطق التجمع والانتشار التي حُصصت لها، وتستعد القوات المسلحة للانتقال للقتال على الجبهة الإسرائيلية، طبقًا لسير العمليات».

2 - قرار مصري بسحب قوات الطوارئ الدولية المتمركزة على الجانب المصري من الحدود الفاصلة بين مصر وإسرائيل، ثم إغلاق

مضيق تيران في المدخل الجنوبي لخليج العقبة - وهو شريان الحياة الوحيد للعلاقات النامية بين إسرائيل ودول إفريقيا والشرق الأقصى.. ومنابع البترول مصدر الطاقة الذي لا حياة لها بدونه.

3 - مؤتمر صحفي عالمي يعقده المرحوم الرئيس السابق جمال عبدالناصر، ويعلن فيه أمام المئات من الصحفيين ومراسلي وكالات الأنباء العالمية تهديده لإسرائيل بإلقائها في البحر، إذا نشبت الحرب بينها وبين مصر، أو إذا جازفت بالهجوم على سوريا.

4 - لقاء بين جمال عبدالناصر وبين أعضاء «اللجنة المركزية لاتحاد النقابات العربية» يعلن فيه أنه «إذا هاجمت إسرائيل سوريا أو مصر، فإننا جميعًا سندخل الحرب ضدها، وسيكون هدفنا الأساسي هو تدمير إسرائيل.. إنني لم أكن أستطيع أن أقول

مثل هذا الكلام منذ ثلاث سنوات أو خمس، وليس من عادتي أن أعد بشيء لست قادرًا على تحقيقه.. أما اليوم فإنني مقتنع بانتصارنا.. إن مصر تتوقع في كل لحظة هجوم إسرائيل الذي سيتيح لنا الفرصة لتدميرها».

**في عمان:** الملك حسين يسافر إلى القاهرة، في رحلة جوية مفاجئة وسريعة تنتهي بعقد معاهدة دفاع مشترك تنص على وضع القوات الأردنية تحت تصرف قيادة مصرية - أردنية مشتركة في حالة قيام الحرب.

هذا بإيجاز هو الموقف السياسي على الجانب العربي، كما صوره الكاتب الإسرائيلي «ميشيل بارزوهار» في كتابه «التاريخ السري لحرب إسرائيل» ونحن نستشهد به، لا من باب التسليم بكل ما ورد به من تحليل، بل إنه يعطينا صورة دقيقة «لوجهة النظر الإسرائيلية للموقف»، والتي نفترض أن «مردخاي هود»

قد وضعها موضع الاعتبار عند رسم خطته الجوية.

وننتقل هنا إلى الجانب الآخر من طرفي الصراع.. ماذا كان يجري على الجانب الإسرائيلي؟

- في تل أبيب: في الخفاء - ومن وراء ستار السياسة الرسمية المعلنة لإسرائيل كانت تدور رحي صراع عنيف على محورين أساسيين:

**المحور الأول:** ذلك الصراع التقليدي النابع من طبيعة الكيان الإسرائيلي القائم على مجموعة من التناقضات الحادة، أبرزها وأخطرها جميعًا التناقض القائم بين الديمقراطية كفكرة وجوهر الصهيونية كنظرية تقوم على مبدأ التمييز العنصري، وما يفرضه هذا المبدأ على حياة المجتمع الذي يتبناه من انعزال عمن حوله من شعوب الأرض وأجناسها، ثم التعصب ضد هذه الشعوب والإحساس بالتفوق عليها.

ويلي هذه المتتابعات الحتمية بالضرورة إحساس الشعب المتعصب بالخطر والعداء الذي يحاصره وجعله جزيرة بشرية معزولة تعيش على الكراهية، والنتيجة الطبيعية لهذا الموقف النفسي والاجتماعي الشاذ أن تسود العقيدة القتالية العدوانية في هذه المجتمعات المتحررة، على ما عداها من العقائد والأفكار.. لتسيطر المؤسسات العسكرية على غيرها من مؤسسات المجتمع.

لو أننا رجعنا لأحداث الفترة التي سبقت ضربة 5 يونية 1967 وألقينا نظرة فاحصة على الواقع السياسي لإسرائيل كما أبرز ملامحه الرئيسة كل من «ميشيل بارزوهاور» في كتابه «التاريخ المصري لحرب إسرائيل» و«إيجال آلون» في كتابه «بناء الجيش الإسرائيلي» و«شاؤول فريد لندر» في كتابه «مستقبل إسرائيل».. سنجد أنفسنا أمام مجتمع يسير معصوب العينين في اتجاه

الحرب، رغم هذا الصراع الظاهري بين الأحزاب السياسية «الديمقراطية» المتمثلة في مجلس الوزراء الذي يقوده ليفي أشكول - وبين العسكرية العدوانية وهي الأساس الحقيقي لنظرية التفوق العنصري الممثلة في رجال الجيش وعلى رأسهم موشي ديان، وقد انتهى الصراع المظهري، على هذا المحور، بانتصار فكرة العدوان، بعد أن اطمأن «السياسيون» إلى حصن استعداد «الإسبارطيين الجدد» من قائمة المؤسسة العسكرية، وقدرتهم على توجيه الضربة التي نفذت صباح الاثنين 5 يونية.

**فإذا انتقلنا إلى المحور الثاني:** من محاور الصراع الداخلي في إسرائيل، في تلك الفترة سنجد الأحزاب السياسية الإسرائيلية متفقة فيما بينها على ضرورة تحقيق «الحلم الأكبر» - من النيل إلى الفرات - ومتفقة أيضًا على أن الخطر الأكبر الذي يهدد هذا الحلم إنما يأتي

من «مصر» وقوتها المتزايدة.. عسكريًا واقتصاديًا وتكنولوجيًا.

ونقطة الخلاف الوحيدة بين أحزاب إسرائيل هي في تحديد الطريقة التي تذهب بهذا الخطر المصري وفي تحديد الوقت والظروف التي يتم فيها توجيه الضربة اللازمة لمصر وليس في مبدأ الضربة ذاتها.

لهذا سارعت «الدبلوماسية الإسرائيلية» - الممثلة للأحزاب السياسية في مجلس الوزراء - إلى التحرك لتهيئة المناخ السياسي الدولي المؤيد - أو على الأقل غير المعارض - للضربة القادمة.

وقد قُدر للتحرك الدبلوماسي الإسرائيلي - وقتها - أن يفشل فشلًا ذريعًا في محاولته المسعورة استقطاب فرنسا إلى جانب العدوان، بحيث انتهت زيارة «أبا إيبان» السريعة لباريس في 24 مايو 1967 وهو في طريقه إلى الولايات المتحدة، بصيحة التحذير

التاريخية الشهيرة التي أطلقها قائد فرنسا المحنك الشريف «شارل ديغول» في وجه الوزير الإسرائيلي «لا تشنوا الحرب.. لا تشنوا الحرب.. ولا تكونوا بأي حال البادئين بالقتال».

عن لندن نجد «ميشيل بارزوهار» يقول في كتابه «التاريخ السري لحرب إسرائيل» بالحرف الواحد: «من بين رؤساء الحكومات الذين اجتمع بهم إيبان خلال رحلته - التي سبقت ضربة 5 يونية - فان هارولد ويلسون رئيس وزراء بريطانيا آنذاك كان الوحيد الذي لم يحاول تهدئة إيبان أو صرف نظره عن الحرب».

أما في واشنطن، فقد استطاع الإسرائيليون أن يستفيدوا إلى أبعد مدى من التوتر المشحون بالعداء وسوء الظن المتبادل بين القاهرة والعاصمة الأمريكية، ورغم خوف الأمريكيين أن تؤدي الحرب بين العرب وإسرائيل إلى تورط أمريكي جديد في الشرق



الأوسط، بعد تورطهم الدامي الذي كلفهم الكثير في فيتنام، فقد استطاعت إسرائيل أن تضرب على وتر الخطر الشيوعي، وتغلغل النفوذ السوفيتي في المنطقة، وخطر هذا النفوذ الذي فتح له عبدالناصر - كما يقول بارزوهار - كل الأبواب التي لم يكن يحلم بطرقها، وتهديد هذا كله للمصالح الأمريكية في المنطقة.

ولم تكف إسرائيل بكل هذا.. بل سارعت بعزف لحن مبتكر، ركزت نغماته على هدف محبب للغاية لدى الولايات المتحدة وهو أن هزيمة مصر أمام إسرائيل في ضربة مفاجئة وخاطفة سيكون تأثيرها على المجتمع الدولي رائعًا - من وجهة النظر الأمريكية والغربية عمومًا - لأن انتصار السلاح الإسرائيلي وهو سلاح غربي الجنسية في الحرب.. يعني هزيمة للسلاح الروسي الأحمر.. وهي هزيمة سيتمد أثرها من ميدان القتال إلى نفسية المواطن

المصري - ثم الإنسان العربي من بعده - بحيث يفقد سكان المنطقة ثقتهم في كل ما هو سوفيتي.. سلاحًا كان أم فكرًا، وهي نتيجة محيبة إلى قلب السياسة الأمريكية.

ورغم عذوبة الإغراءات التي قدمتها إسرائيل لكي تورط أمريكا في التدخل السافر لصالحها، فقد تردد الرئيس الأمريكي في ذلك الوقت «ليندون جونسون» في اتخاذ قرار محدد.. وقد بدأ ترده الواضح في أكثر من تصريح خلال محاضر الاجتماعات واللقاءات لمناقشة تطورات الموقف المتصاعد، نثبت بعضها على سبيل المثال:

في اجتماع «جونسون - أبا إيبان»، قال الرئيس الأمريكي ردًا على طلب الوزير الإسرائيلي قيام الولايات المتحدة باتخاذ خطوة إيجابية ضد قرار مصر بإغلاق مضائق تيران: «أعتقد أننا نستطيع فتح المضائق.. ولكن الذي يهم، ليس هذا الذي يعتقده ليندون

جونسون. وإنما.. ما يقوله رسميًا رئيس الولايات المتحدة، والرئيس لا يستطيع أن يتكلم بدون موافقة الكونجرس.

عندما ارتفعت الأصوات المؤيدة لإسرائيل في الكونجرس بطلب التدخل السافر ضد مصر، علق الرئيس الأمريكي بقوله في سخرية لافتة: «إن هؤلاء الذين يطالبونني بعدم إرسال جندي أمريكي واحد بعد الآن إلى فيتنام يلحون عليّ في إرسال كل حاملات الطائرات الأمريكية إلى خليج العقبة».

وعندما حاول أبا إيبان إحراج «ليندون جونسون» بسؤاله الصريح «هل سنقاتل وحدنا، أم أنكم ستقفون إلى جانبنا؟ وما هو المدى الحقيقي لتعهداتكم نحونا؟».. لم يلتقط «جونسون» الطعم، بل عاجل إيبان برد وقع عليه كالصاعقة حين قال له تهربًا من الإجابة عن سؤاله: «يجب القيام بعمل قانوني ضد الحصار المفروض على مضايق تيران.. إنكم

تحدثون دائماً عن مجلس وزرائكم الذي سيجتمع يوم الأحد 4 يونية .. وليس هذا من شأني، وإذا كنتم تريدون أن نقف إلى جانبكم، فيجب أولاً أن نتجه إلى الأمم المتحدة».

ورغم أن وزارة الخارجية الأمريكية - وعلى رأسها دين راسك - كانت قد أكثرت من الحديث عن ضرورة «التصرف في الأزمة على ضوء رعاية المصالح الأمريكية في المنطقة العربية، والحذر من موقف متسرع يضر بهذه المصالح».. رغم هذا فقد كانت إسرائيل واثقة من أن الأصوات المعارضة للانحياز لها داخل الأجهزة التي تشارك في صنع السياسة الأمريكية الخارجية ستضطر إلى الصمت راضية أو مُكرهة، عندما يرتفع هتاف المؤيدين، بالفرحة لانتصار إسرائيل عقب ضربتها المفاجئة لمصر.

واستغلت أجهزة الإعلام الإسرائيلي - بذكاء شديد - المظاهرات السياسية المتسارعة، التي

قام بها الإعلام المصري في تلك الساعات الحرجة مرددًا بها نغمة التهديد بإبادة إسرائيل وإلقائها في البحر إذا ما نشبت الحرب.. كما استغلت المظاهرات العسكرية التي وصلت إلى حد غريب من السذاجة، حين سمحت القيادة المصرية بعمل استعراضات علنية مكشوفة للقوات المتجهة بأسلحتها إلى سيناء.. ووصلت السذاجة بهذه المظاهرات العسكرية إلى حد السماح بتصوير هذه القوات بأسلحتها في الصحف في تحقيقات صحفية ضخمة تناولت كل ما يتصل بهذه القوات عددًا وعتادًا وأماكن تجمع على الجبهة.

الأمر واضح إذن.. أصبحت مهمة الدبلوماسية الإسرائيلية، وإعلامها النشط، في منتهى السهولة.. وليس أمامها أكثر من أخذ ما تقوله مصر علنًا، ووضعها أمام الرأي العام العالمي وخاصة في الولايات المتحدة لكي

ينحاز إلى جانب إسرائيل.. هذا الحمل الوديعة المهدد بالفناء من الغول المصري الرهيب.. وهكذا تتضح معالم الخريطة السياسية للموقف على جانبي الصراع قبيل الضربة الجوية الإسرائيلية لمصر في 5 يونيو 1967.. حرص شديد على اجتذاب الأصدقاء والمؤيدين يوازيه تحرك سريع «لتحديد» من يشك في ولائهم، بالنسبة للجانب الإسرائيلي.. مع احترام مفتعل ولكنه مخطط ومدروس لاستقطاب مظاهر الرأي العام العالمي.. يقابله على الجانب المصري من الخريطة السياسية للموقف مظاهرات إعلامية بدائية في شكلها ومضمونها، تتوازي معها - بل وتسبقها أحياناً مظاهرات عسكرية ساذجة، يفرح بها الأطفال والسذج وحدهم.

وهنا يضع الناقد العسكري يده، على الخيط الأول في خطة الجنرال «مردخاي هود» وهو الخيط السياسي في الخطة.. وبعيداً عن أي

مبالغات دعائية، أو مزايدات سياسية. الدارس  
«المحايد» لهذا الخط السياسي في خطة  
الجنرال الإسرائيلي، سيجد نفسه أمام حكم  
واحد لا فكاك من إصداره وهو أن «مردخاي  
هود».. استنادًا إلى أقصى مدى ممكن من  
موقف مناسب له تمامًا، ومعاكس تمامًا للعدو  
من الواجهة السياسية وأكثر من هذا.. فإن ذلك  
الموقف الذي استفاد منه «هود» لم تخلقه  
إسرائيل، ولم يتحايل مردخاي لصنع شيء  
فيه، بل هو موقف جاهز من «صنع العدو نفسه  
ومن حصيلة أخطائه» التي أدت في النهاية  
إلى إعداد «مسرح العمليات» من الناحية  
السياسية لمصالح إسرائيل، ولم يفعل قائد  
الطيران الإسرائيلي أكثر من تقدمه لاستغلال  
أخطاء عدوه السياسية لصالحه.. وحركة  
الجنرال «هود» هنا حركة جبرية الاختيار ولا  
ابتكار فيها، بل إنه كان مرغماً عليها، إذا أراد أن

يضمن لخطته العسكرية الحركة التقليدية السلبية على الجانب السياسي. إن الجانب السياسي في خطة «مردخاي هود» كان بالنسبة له جانبًا قهريًا، لا فضل له في تحديد معالمه ولم يبعد دوره عن الاستفادة من خطأ قائم بالفعل، على الجانب المصري.. ومن ثم نسال: هل كان الجنرال الإسرائيلي يستطيع أن يحدد لتنفيذ خطته الهجومية - لضرب الطيران المصري - موعدًا يسبق 5 يونية ببضعة أشهر، أو يتأخر ببضعة أشهر وحتى بضعة أيام عن الموعد الذي نفذت فيه بالفعل؟

من المؤكد بحكم مجريات الأحداث قبل 5 يونية، حيث لم يكن الموقف في المنطقة قد أخذ هذا الشكل المتوتر العنيف، أن «مردخاي هود» لم يكن - ومن خلفه المؤسسة العسكرية الإسرائيلية كلها - ليفكر في تنفيذ ضربته، وهو مفتقر إلى المبرر المعقول لضربة قد تهدد



بالصدام المسلح بين قوى أكبر من مصر وإسرائيل.

ومن المؤكد أيضًا أن الجنرال الإسرائيلي، لم يكن يملك تأخير الضربة عن موعدها الذي نفذت فيه بضعة أيام من المحتمل أن تتسرب خلالها النوايا التي بينها لعدوه ، بحيث تفشل الخطة في تحقيق هدفها، وربما انقلبت ضده وضد قواته، إذا أخذت مصر حذرًا من الضربة المفاجئة.

في هذا الجانب السياسي من الموقف طرأ عامل جديد على الموقف، وأعطى الجنرال «مردخاي هود» فرصة العمر التي لم يكن يحلم بها، وكانت من الأسباب التي يسرت له القيام بتنفيذ خطته الهجومية ضد الطيران المصري.. كما ساعد استغلاله لهذه الفرصة على تضخيم حجم الضربة الإسرائيلية وفداحة الخسائر الناجمة عنها.

تمثل هذا العامل الطارئ في الرسالة المفاجئة التي التقطتها أجهزة اللاسلكي في السفارة السوفيتية بالقاهرة قبيل فجر السبت 27 مايو 1967، وعلى الفور أسرع السفير السوفيتي بالتوجه إلى منزل الرئيس الراحل جمال عبدالناصر ليوقظه من نومه في الثالثة صباحًا، ويبلغه فيها رسالة موسكو العاجلة: «نرجوكم عدم القيام بأي عمل عسكري».

وفحوى هذه الرسالة واضح تمامًا.. أن موسكو، بناءً على اتصالاتها التي لم تنقطع مع واشنطن - منذ فجرت الأزمة - قد اطمأنت إلى أن إسرائيل لن تكون البادئة بالعدوان.. وعلى مصر أن تعطي فرصة لالتقاط الأنفاس أملًا في الوصول إلى حل بديل للحل الساخن الذي خيم شبحه على المنطقة منذ بداية الأزمة.

ومن المؤكد أن إسرائيل قد علمت بهذه الرسالة، وتوقعت تأثيرها المهدئ على حرارة المظاهرة العسكرية - على الجانب المصري -

وما يتبع هذا الهدوء المؤقت من اطمئنان القيادة المصرية إلى عدم قيام العدو بضربة مفاجئة، ولو لبضعة أيام.

وقد استفاد الجنرال «هود» من هذه «البضعة أيام» إلى أبعد مدى، سواء في تحديده لوقت الضربة التي كان يتحتم تنفيذها خلال فترة الاسترخاء المؤقت الذي اطمأنت فيه القيادة المصرية.. أو في أسلوب العملية الهجومية نفسها والرسائل التي استخدمت في تنفيذها.

أنتقل الآن إلى الموقف العسكري نفسه لكل من طرفي الصراع، لنلقي نظرة فاحصة على هذا الجانب.. لأن التعرف على هذا الموقف، قبل العملية أو بعدها، ضروري لإصدار حكم منصف، سواء بالنسبة لقواتنا المسلحة - وخاصة قواتنا الجوية.. الهدف الأول لضربة 5 يونية - أو بالنسبة للعدو نفسه.

ونظرًا لاتساع رقعة «الموقف العسكري» - الذي يشمل عادة القوات البرية والجوية والبحرية والدفاع الجوي - فإننا سنتجه في هذا التحليل إلى موقف القوات الجوية وظروفها على جانبي جهة الصراع لتحليل عناصر الضربة الإسرائيلية للطيران المصري صباح 5 يونية، ورد هذه الخطة إلى حجمها الصحيح «المتواضع» للغاية من ناحية التخطيط العسكري السليم.

أتوجه بسؤال أولي ومهم للغاية، إلى واضع الخطة الإسرائيلية الجنرال «مردخاي هود».. وهو السؤال الذي لاشك أن الجنرال الإسرائيلي، قد ووجه به من خبراء القتال والتخطيط الجوي القائم على القواعد المتعارف عليها في الفكر العسكري بعيدًا عن كل ضوضاء ودعايات الحرب النفسية - التي شنتها إسرائيل ضدنا بضراوة لا تعرف الرحمة - والسؤال الذي أعنيه، يقول ببساطة:

إذا كان «مردخاي هود» يعرف بحكم منصبه كقائد لسلاح الطيران الإسرائيلي في عام 1967، كل شيء عن إمكانيات هذا السلاح عددًا وعتادًا وتدريبًا.. فماذا كان يعرف بالضبط عن قدرات العدو الذي يخطط لضربه؟ ثم ما هي البدائل التي كان من المحتمل عليه أن يعدها، أو - على الأقل - يُفكر فيها، لو فاجأه العدو الجوي - المصري - بما لم يتوقعه، عملاً بالقاعدة المعروفة التي تقول «إن العدو عنده دائمًا ما يخفيه»؟

توضيحًا لأهمية هذا السؤال، نطرح المبادئ الثلاثة الأولى في التخطيط لأية عملية قتالية وخاصة في القتال الجوي.. وهي:

1 - أن يطمئن واضع الخطة إلى أنه يملك القوات الضاربة التي تستطيع تنفيذ الخطة في أسرع وقت، وبدقة كاملة، وبأقل قدر من الخسائر.

2 - أن تكون لدى واضع الخطة صورة دقيقة - أو أقرب ما تكون للدقة - عن إمكانية العدو الجوي.. ودفاعاته، خاصة في الساعة «س» التي يحددها المخطط العسكري لتنفيذ عملياته الهجومية.

3 - التفكير في كل «البدائل» الممكنة في مواجهة جميع «الاحتمالات» المفاجئة، التي يُمكن أن يلجأ إليها العدو، سواء لتحويل الضربة عن هدفها، أو للتقليل من حجم الخسائر الناجمة عنها، أو ردها على العدو المهاجم، للإيقاع به في شرك خداعي لم يحسب حسابه.. والمبدأ الأخير بالذات يصرخ بالتحذير في أذن المخطط العسكري.. لا تستهن بالخصم مهما بدا لك من ضعفه - الذي قد يكون ظاهرياً، ولا تغتر بقوتك التي قد تؤدي بك إلى الهلاك.

هذه القواعد الأساسية في التخطيط القتالي، والتي تمثل في نفس الوقت.. لب السؤال

الخطير الذي وجه ولا يزال يوجه للجنرال هود - لا بد من تطبيقها على الجانبين المصري والإسرائيلي لتعرف حقيقة ما حدث في الساعة 8.45 من صباح الاثنين 5 يونية 1967 وهل كان معجزة كبرى.. أم أسطورة كبرى؟

ولكي نطبق تلك القواعد على الجانب المعادي، لا بد من نظرة سريعة على تاريخ نشأة السلاح الجوي الإسرائيلي، والظروف النفسية التي تأسس في ظلها، والعقيدة القتالية التي عاش أفراد هذا السلاح يستنشقونها كالهواء. وإلقاء هذه النظرة التاريخية، أمر حيوي في التحليل المنصف لعملية «طوق الحمامة» التي رسمها «هود»، سواء من حيث التخطيط أو التنفيذ.

وأول ما يطالعنا في تاريخ «الطيران الإسرائيلي» عبارة أطلقها ذات يوم أحد أدباء إسرائيل ووصف فيها طيران بلاده بأنه

«طيران يملك دولة» ورغم ما يبدو في هذه العبارة من «تهريج» ظاهري ودعاية لاذعة.. فإنها في حقيقة الأمر تعبر عن واقع مؤسف يعيشه الإسرائيليون، ويخضعون له طوعًا أو كرهًا.. لأنه نابع من طبيعة الظروف المكونة لإسرائيل كدولة ومجتمع، يقومان على تبني نظرية متعصبة تؤمن - من جهة - بتفوق الجنس.. وتحلم من جهة أخرى - بالتوسع والاستعمار الاستيطاني لأجزاء من الوطن العربي .

هذا التعصب العنصري، والإيمان بتفوق «الجنس» إلى جانب الحلم الأسطوري بانتزاع أجزاء من أراضي الدول العربية المجاورة جعل وضع إسرائيل منذ قيامها - كشعب ودولة - في حالة حصار دائم، تمارسه من حولها الدول العربية المحيطة بها.. ولما كانت إسرائيل من جانبها، وبحكم قلتها العددية بالقياس إلى الكثرة العربية الهائلة من حولها، غير قادرة



على رفع هذا الحصار عملياً فقد اتجهت إلى رفعه نفسياً.

بل إن إسرائيل تجاوزت هذا إلى التفكير في تحويل الحصار العددي المفروض عليها من العرب إلى حصار نفسي، تفرضه هي على الدول العربية مجتمعة، عن طريق إنشاء قوة ضاربة ذات قدرة قتالية مرتفعة، تستطيع عن طريقها أن تغرس الرعب في قلب الإنسان العربي، وتحقق بها في نفس الوقت التوازن النفسي بين أحلام التوسع العدواني التي تعشش في عقل الإسرائيلي، كما تصور هالة أبواق العسكرية الإسرائيلية، وبين الفرع الطبيعي الذي يهاجم هذا المواطن التعس - ليل نهار - وهو يحس برياح الخطر والعداء تهب عليه وتحاصره من كل جانب.

فإذا عرفنا أن سكان إسرائيل - بملايينهم الثلاثة المحدودة - لا يمكن أن يشكلوا - عددياً على الأقل - القوة «البرية» المسلحة التي لا

تفرق في محيط الكثرة السكانية العربية  
الرهيبه من حولها.. يتضح لنا السر الحقيقي  
في التركيز على الطيران بالنسبة للمؤسسة  
العسكرية الإسرائيلية - وهي بعقيدتها  
العدوانية.. تضمن العدوان على الغير كما  
تتوقعه من الغير بنفس الدرجة.

هكذا تحول الطيران الإسرائيلي إلى «وهم  
كبير» في عقول الإسرائيليين أنفسهم، قبل أن  
يكون وحشًا خرافيًا طائرًا بالنسبة للإنسان  
العربي.. بل إن واجب الإنصاف والأمانة  
العلمية - حتى بالنسبة لخصم لا يتوقف كثيرًا  
عند الأمانة إذا لم تخدم أهدافه العدوانية -  
يفرض علينا أن نقول إن الشخص الإسرائيلي،  
سواء أكان مواطنًا عاديًا أم واحدًا من أكبر  
قادة المؤسسة العسكرية في إسرائيل - هو أولًا  
وأخيرًا ضحية لخرافة «الوحش الإسرائيلي  
الطائر» قبل أن يكون صانعًا لهذه الخرافة أو  
مروجًا لها.

ذلك أن إحساس الإسرائيلي الكامن في أعماقه بأنه شخص عدواني، يفرض عليه الاستسلام لقوة أسطورية تضمن لوجوده العدواني الاستمرار.. وقد التمس هذه القوة في سلاح الطيران.. ولكي يُقنع نفسه قبل عدوه بخطورة هذا الوحش الطائر، أعطاه كل ما يطلب من مال ورجال.. وأخضع ما في الدولة لاحتياجات هذا الوحش الخرافي.. بحيث انقلب الوضع في مجتمع إسرائيل إلى حالة شاذة بالفعل، ولا مثيل لها في أي مجتمع آخر، فأصبح الطيران هو الذي يملك إسرائيل بدلاً من أن تملك إسرائيل سلاحًا للطيران.

إن كلامنا هذا عن سلاح الجو الإسرائيلي لا يعني أن كل حديث عن هذا السلاح وقوته عددًا وعتادًا محض خرافة أو مجموعة أكاذيب، لا أساس لها من الواقع.. لأن طيران العدو حقيقة مادية، لا سبيل إلى تجاهلها أو نفيها.. ولكن الذي ننفيه تمامًا هو هذه الهالة

الضخمة من القدرات الأسطورية التي نسجت حوله.. وهي أساطير نسجت بذكاء، ومزجت فيها الحقيقة بالخيال، تلبية لحاجة نفسية تكمن في قاع النفس الإسرائيلية المحكومة بمجموعة من العقد والتراكمات التاريخية التي لا ذنب للعرب فيها على الإطلاق.

في الفترة الواقعة بين مايو عام 1948 ويناير 1949 كان هذا السلاح الجوي الناشئ يقوم بدور لا بأس به في العمليات القتالية التي نشبت بين قوات الدولة الوليدة، وبين «الجيوش العربية» التي اشتركت فيما سُمي وقتها بـ «حرب التحرير لفلسطين العربية».. ورغم ضآلة حجم وقدرات الطيران الإسرائيلي آنذاك، فإن نشاطه بالذات ضد القوات المصرية - التي اقتربت أيامها إلى مسافة 35 كيلو مترًا من تل أبيب - كان ملحوظًا.

منذ ذلك التاريخ، استطاع «تولكوفسكي» - أول قائد لهذا السلاح - أن يقنع قادة إسرائيل -

مدنيين وعسكريين بضرورة العناية بالطيران، وتحويله من مجرد سلاح من أسلحة الجيش إلى وحش طائر.. قادر على حماية إسرائيل والدفاع عنها بعيدًا عن أرض إسرائيل ذاتها - والتي لا تسمح بحكم مساحتها الضئيلة بأية عمليات قتالية برية تدور على أرضها المحدودة، وتؤدي إلى اختراقها أو شطرها. ومعنى هذا.. ضرورة توفير عنصرين أساسيين في عملية تكوين هذا السلاح.

**أولهما: السرعة،** التي توفرها الأنواع الجيدة والأكثر حداثة والأكبر قوة توفر له في عالم الطيران المقاتل، بحيث تصل الطائرة إلى أبعد مدى في أسرع وقت ممكن.

**ثانيهما: الفعالية..** الناشئة عن التركيز الشديد، سواء في التدريب الجيد، أو في تناغم الأجهزة المختلفة المشتركة في عمليات هذا السلاح.

وجاءت حرب 1956 التي أخذت فيها إسرائيل دور الشريك الأصغر في العمليات الهجومية التي قامت بها القوات الإنجليزية والفرنسية ضد مصر وأثبتت هذه العمليات مرة ثانية، أهمية، بل وحيوية الطيران المقاتل لإسرائيل.. لأن الضربة «الأنجلوفرنسية» عام 1956 للطيران المصري، عجلت بإخراجه من المعركة، وكانت من أخطر العوامل التي دفعت القيادة المصرية العليا إلى اتخاذ قرارها بسحب القوات البرية المنتشرة في سيناء.

لقد أطلق «عيزرا وايزمان» - خليفة «تولكوفسكي» في قيادة سلاح الجو الإسرائيلي - شعاره المعروف «أن إسرائيل يجب حراستها على ارتفاع أربعين ألف قدم»، ثم أتبعه بشعار آخر أكثر صراحة يقول فيه: «إن الدفاع عن إسرائيل يجب أن يبدأ من سماء القاهرة».

وقد صادف الشعاران هوى في نفس  
المسيطرين من قادة المؤسسة العسكرية في  
تل أبيب، وسرعان ما استجابوا بسخاء غير  
محدود لطلبات سلاح الطيران، بحيث نمت  
قدرات هذا السلاح نموًّا زائدًا على المعدل  
الطبيعي لأي سلاح طيران آخر، بالقياس إلى  
حجم الجيش الإسرائيلي كله، وإلى إمكانيات  
إسرائيل ذاتها كدولة.

ومن نقطة الصفر عام 1948، وصلت  
إمكانيات طيران إسرائيل المعلنة عام 1967،  
وقبيل تنفيذ عملية «طوق الحمامة» التي  
خطط لها الجنرال «مردخاي هود» ونفذت  
بالفعل صباح 5 يونية، إلى الأرقام التالية من  
الطائرات، المختلفة الأنواع والتسليح  
والقدرات القتالية:

أولاً: طائرات القتال وعددها «246» طائرة بيانها  
كالاتي:

- 65 مقاتلة اعتراضية من طراز «ميراج - 3/س».
- 50 مقاتلة من طراز «سوبر / ميستير».
- 50 مقاتلة من طراز «ميستير - 1 / 4»
- 55 مقاتلة / قاذفة «طراز أوراجان».
- 26 مقاتلة / قاذفة «طراز نوتور».

ثانيًا: طائرات تدريب تم تسليحها، واستخدمت في المعاونة الجوية بعد الحصول على السيطرة الجوية الكاملة:

- 200 طائرة تدريب طراز «فولجا - ماجستير».

ثالثًا: طائرات النقل ويبلغ عددها إحدى وخمسين طائرة بيانها كالآتي:

- 5 طائرات من طراز «ستراتوكروزر».



- 32 طائرة من طراز «نورد».
- 14 طائرة من طراز «كومانوود أكوتا».

رابعًا: طائرات الهليكوبتر وعددها إحدى وخمسون طائرة.. منها ما يلي:

- 30 طائرة من طراز «سيكورسكي 55/58».
- 15 طائرة من طراز «الويت / 2 - ب / 47».

ومعنى هذه الأرقام ببساطة أن سلاح الطيران الإسرائيلي دخل الحرب عام 1967 وهو يملك - طبقًا للأرقام المعلنة - خمسمائة وثمانين وأربعين طائرة مختلفة الأنواع والأهداف والتسليح، وهي قوة لا يُستهان بها، بالقياس إلى حجم الدولة ذاتها، فضلًا عن أن

هذه القوة الجوية تستطيع القيام بعملية هجومية ناجحة، إذا توفر لها أمران:

**الأول:** تخطيط جيد يستفيد إلى أقصى حد من إمكانيات هذه القوة وقدراتها الهجومية والقتالية بوجه عام.

**والثاني:** حساب دقيق لإمكانيات العدو ووسائل دفاعاته، بحيث لا تفاجأ الأسراب المهاجمة، خاصة وهي محملة بالذخيرة، بكماثن غير متوقعة، سواء من طائرات العدو الاعتراضية أو وسائل دفاعاته الأرضية.

ويدخل في ضمان العامل الثاني، أن يكون واضع الخطة الهجومية على معرفة - شبه كاملة - بأخطر ما يهدد الطائرات المغيرة سواء أكانت قاذفة، أو مقاتلة قاذفة، وهو ما يملكه العدو من وسائل الإنذار المبكر، بل أجهزته الإلكترونية والبشرية، ويضع نصب عينيه ابتكار الأساليب التي تضمن تعطيل هذه «العيون» و«الآذان» البالغة الحذر والخطر،

قبل أن تدخل قواته الجوية المهاجمة في دائرة «تلصص أو تنصت» هذه الآذان والعيون. وإذا لم يكن واضح الخطة الجوية الهجومية واثقًا من قدرته على تعطيل أجهزة الإنذار المبكر التي يملكها العدو، فإن البديل الوحيد هو أسلوب تحاشي هذه الأجهزة والابتعاد بالقوة الجوية المغيرة، عن أوسع مدى يمكن أن تصل إليه وسائل الإنذار المبكر، خاصة في رحلة الذهاب.

إن نجاح أو فشل الضربة الجوية يتوقف بالدرجة الأولى على قدرة العدو الجوي المهاجم على امتلاك ناصية المفاجأة، والاستفادة إلى أقصى مدى ممكن من نتائجها الهائلة، سواء في القدرة على خداع دفاعات العدو وما ينتج عنه من هبوط نسبة الخسائر بين القوة المهاجمة، مع ارتفاع حجم الإصابة لدى العدو المستهدف بالضربة، وما يؤدي إليه من حدوث شلل مؤقت في مراكز قيادات

العدو، تفقده القدرة على التفكير السليم، وتضعف من سيطرته حتى على قواته التي نجت من الهجوم الجوي. وتتضاعف هذه النتائج الخطرة بالنسبة للعدو والمستهدف بالهجوم الجوي، إذا جاءت الإصابة مع الموجة الأولى للعملية الهجومية إصابة مباشرة فوق وسائل اتصالاته اللاسلكية، أو أجهزة السيطرة المركزية على باقي القوات، ففي هذه الحالة الفريدة يتحول الشلل المؤقت - الذي لا يستغرق في الأحوال العادية بضع دقائق تمثل الموجة الأولى من موجات الهجوم الجوي - إلى شلل ممتد، قد يطول لبضع ساعات، تمثل للعدو المهاجم فرصة العمر التي تتيح له توجيه ضربة قاصمة لعدو فقدت قيادته السيطرة على نفسها، وبالتالي على كل ما تملكه من قوات.

هذه بالتحديد هي القواعد المجردة لأية خطة تستهدف القيام بعملية جوية هجومية،

إذا كان المخطط العسكري على دراية بقواعد العلوم العسكرية حتى يبتعد بنفسه وبقواته التي سيطلقها في أجواء العدو، عن الفشل، وربما.. الدمار.

فماذا صنع الجنرال «مردخاي هود» بالضبط وهو يرسم خطوط عملياته الهجومية «طوق الحمامة» التي عُرفت في تاريخ الصراع العربي - الإسرائيلي، باسم ضربة 5 يونية 1967؟

إن ما كان من المحتم على الجنرال الإسرائيلي «هود» أن يضعه نصب عينيه، وهو يضع الخطوط الأولى لعملياته الهجومية، هو عنصر التأمين لقواته الجوية التي ستقوم بالتنفيذ، سواء في ذلك الطائرات القاذفة أو المقاتلة القاذفة، أو حتى طائرات الاعتراض والحماية، التي تصحب القوة القاذفة المكلفة بالهجوم على الأهداف الأرضية للعدو. والعناية المسبقة بعنصر التأمين أثناء تنفيذ عمليات

الهجوم الجوي - وهو العنصر الذي يُعرف علميًا باسم الدفاع السلبي المسبق - أمر حيوي يتوقف عليه نجاح أو فشل أية خطة جوية.

ومن المعروف أن التأمين الإيجابي للقوات الجوية أثناء قيامها بمهاجمة العدو الأرضي يعتمد على طائرات الحماية - المقاتلة - التي تصحب الطائرات القاذفة أثناء تنفيذها مهامها الهجومية والتي تمثل الجانب الإيجابي في عنصر التأمين، الذي يتوقف على ما تملكه الدولة من طائرات الحماية عددًا ونوعًا.

إلا أن الجانب السلبي في عنصر التأمين السابق لعمليات الهجوم الجوي أكثر خطورة على العدو المستهدف بالضربة الجوية، رغم أنه لا يكلف واضع الخطة عبئًا ماديًا، يثقل كاهل قواته الجوية، لأن التأمين السلبي يعتمد أولاً وأخيرًا على تعطيل أو تحاشي أجهزة الإنذار المبكر التي يملكها العدو المستهدف بالضرب، والتي يستطيع عن طريقها، أن يعرف

مسبقًا ولو لبضع دقائق تسبق الهجوم أن هناك عدوًّا جويًّا في الطريق إليه. هذه الدقائق القليلة التي تفصل بين صيحات التحذير التي تطلقها أجهزة الإنذار المبكر، وبين وقوع الضربة الجوية التي يتوقف عليها نجاح أو فشل العدو الجوي المغير من جهة، ونجاة أو دمار العدو المستهدف بالهجوم من جهة أخرى.

وفي خطة الجنرال «مردخاي هود» سنجد عنصري التأمين - الإيجابي والسلبي - موجودين.. ولكننا نترك الحديث عن الجانب الإيجابي في التأمين، لنتناوله بالعرض عند تحليلنا لتفاصيل العملية ذاتها. ونقصر حديثنا هنا على الجانب السلبي في عملية التأمين، وهو الدفاع السلبي الذي كان على الجنرال «هود» أن يوفره لقواته الجوية عن طريق تعطيل أو تحاشي أجهزة الإنذار المبكر على الجبهة المصرية، ضمانًا لمفاجأة وسائل الدفاع

الجوي المصري - الثابت والمتحرك منها على  
السواء، وهنا تتضح لنا الحقائق التالية:

**أولاً:** أن مساحة جمهورية مصر العربية تبلغ  
386 ألف ميل مربع من الرقعة الأرضية  
الثابتة، فإذا أضيفت إليها، طبقاً لأحكام القانون  
الدولي العام والقانون البحري الدولي،  
المساحات التي تخضع للسيادة المصرية من  
المياه الإقليمية في البحر الأحمر - الذي يشكل  
معظم الحدود الشرقية لمصر - والبحر الأبيض  
الذي يشكل ساحله الجنوبي الحدود الشمالية  
لمصر كلها، فإن المساحة الخاضعة لسيادة  
جمهورية مصر العربية ترتفع إلى ما يقرب من  
نصف المليون من الأميال المربعة تقريباً..  
ومثل هذه المساحة الهائلة تتطلب إمكانيات  
ضخمة من وسائل الإنذار المبكر، التي يجب  
انتشارها على الحدود الشرقية - سواء في  
سيناء أو على سواحل البحر الأحمر، شرقاً -  
وعلى امتداد الساحل المصري للبحر الأبيض



من حدود قطاع غزة شرقًا، إلى مطروح والسلوم غربًا - لقطع الطريق على أية عمليات هجومية مفاجئة يقوم بها العدو الجوي معتمدًا على هذا الامتداد الهائل لحدودنا الشرقية والشمالية.

**ثانيًا:** لكي يتوافر لهذه الحدود البالغة الطول حزام الأمان المحكم من أية عمليات هجومية جوية مفاجئة يجب تنويع وسائل الإنذار المبكر من أجهزة رادار متقدمة ووسائل إنذار بشري - تعتمد على الرؤية المباشرة - إلى جانب وسائل الإنذار المتحركة، الممثلة في مظلات طائرات الحماية والاعتراض التي يجب أن تظل أسرابها معلقة في الجو طوال الأربع والعشرين ساعة، خاصة في مواجهة عدو يهرب دائمًا من المواجهة، ويتحين الفرص باستمرار لاقتناص الفرص للضربات المفاجئة التي يقدر أنها تحقق له أكبر قدر من النجاح بأقل قدر من الجهد والخسائر.

**ثالثًا:** كان من الواجب على العسكرية المصرية - في عام 1967، وقد تحملت مسؤولية حماية الأرض المصرية - فضلًا عن التفكير في عملية ردع للغزو العسكري وجنون التوسع العدواني، الذي يمثل صلب العقيدة القتالية للمؤسسة العسكرية في إسرائيل.. أقول كان واجبًا على العسكرية المصرية في مواجهة كل هذه التحديات، التي تمثلت في حدود مصرية بالغة الطول، وفي حاجة ماسة للتأمين ضد الهجوم الجوي من عدو يفاخر بأنه يملك ذراعًا طويلة اسمها «الطيران الإسرائيلي» يعتمد عليها في تنفيذ مخططه العدواني.. أن تضع نصب عينيها، وهي تخطط للدفاع عن مصر، ما حققه الطيران الحربي في العالم، من خطوات واسعة المدى على طريق التقدم، سواء من حيث التسليح أو كمية الذخائر المحمولة بالنسبة للطائرات القاذفة - أو القدرة على المناورة والطيران على ارتفاعات

بالغة الانخفاض - بالنسبة لكل أنواع الطائرات الحربية بوجه عام.

لقد كان هذا يقتضي بالضرورة الاستماتة في الحصول على أحدث أجهزة الرادار القادرة على كشف الأهداف المعادية التي تتحرك على ارتفاعات منخفضة، ونشر هذه الأجهزة في أنساق متتالية على امتداد الحدود الشرقية والشمالية لمصر، التي يمكن أن يفكر العدو في اختراقها للقيام بضربة جوية مفاجئة.. وإلى جانب حزام أجهزة الكشف الراداري - القادرة على إرسال موجاتها على ارتفاعات منخفضة - كان من المحتم أيضًا، العناية بأسلوب الإنذار البشري بالعين المجردة، وهو - رغم ما قد يبدو من بدائيته أسلوب أثبت فعاليته في كثير من الأحوال، وقدرته على سد الثغرات في حزام الأمان الذي تكونه أجهزة الرادار الحديثة.

**الحقيقة الرابعة:** التي كان من الواجب وضعها في الحسبان، إذا أرادت العسكرية

المصرية في عام 1967 - أن تقي بها مصر جيشًا وشعبًا أية مفاجأة غادرة، خاصة مع تصاعد التوتر في الموقفين السياسي والعسكري مع العدو - قبيل ضربة الخامس من يونيو - هي المرونة في وضع خطط الإنذار المتحرك الخاصة بمظلات طائرات الحماية والاعتراض، التي أثبتت التجارب العملية نجاحها في التغلب على كثير من الصعوبات التي تواجه أجهزة الإنذار الأرضية الثابتة كعمليات التشويش والإعاقة والتمويه التي قد يلجأ إليها العدو ليعطل بها أجهزة الرادار، أو يصيبها بالعمى، فتعجز عن القيام بمهمتها الخطيرة في الإنذار المبكر باقتراب العدو الجوي.

ومن هنا كان وجود أسراب طائرات الحماية والاعتراض، معلقة في الأجواء المصرية - وعلى طلعات متفاوتة المواعيد طوال الأربع والعشرين ساعة - هو الضمان الحتمي،

لمواجهة أي احتمال لتعطيل أجهزة الرادار أو تضليلها.. ومعنى هذا بالضرورة.. هو المرونة في مواعيد إقلاع هذه المظلة الجوية وهبوطها.. وعدم ثبات هذه المواعيد، بحيث لا يأخذ العدو فرصة لالتقاط أنفاسه ولا يستطيع تحديد وقت معين تخلو فيه السماء المصرية من طائرات الحماية، يستطيع خلاله أن يضرب ضربته الجوية المفاجئة.

هذه الحقائق الأربع، التي كان من المحتم على العسكرية المصرية لو أنها أخذت بالقواعد العلمية في وضع خططها العسكرية للدفاع عن مصر جواً وأرضاً أن تعتبرها ركائزها الأساسية، هي نفسها الثغرات الأربع التي نفذ منها الجنرال الإسرائيلي «مردخاي هود» وهو يضع خطة عملياته الهجومية «طوق الحمامة» على الوجه التالي:

1 - بالنسبة للحقيقة الأولى المتمثلة في اتساع المساحة الخاضعة للسيادة المصرية، وهي

تقترب كما ذكرنا من نصف المليون من الأميال المربعة وجد الجنرال الإسرائيلي ثغرات بالغة الاتساع في حزام الأمان الذي تكونه أجهزة الكشف الراداري، ولم تكن القيادة المصرية تملك القدر الكافي من هذه الأجهزة سواء من حيث العدد أو النوع المتطور البالغ الحداثة الذي يبسر لها تغطية الحدود الشرقية والشمالية بالذات، وهي مكن الخاطر في أية عمليات هجومية جوية محتملة، ونظرًا لقلّة هذه الأجهزة فقد ركز معظم الموجود منها لخدمة هذا الغرض، وهذه حقيقة اعترف بها العدو نفسه فيما بعد.

وقد أدى تركيز المتوافر من أجهزة الكشف الراداري في مواقع معينة وخاصة في القطاع الشرقي من سيناء إلى خلق ثغرات بالغة الاتساع في حزام الإنذار المبكر، الذي يمثل صمام الأمن الأمامي للوقاية من

الضربات الجوية المفاجئة... وتمثل هذه الثغرات الخطرة في مساحات بالغة الطول من سواحلنا المطلة على البحر الأحمر، ومساحات أخرى ممتدة على الساحل الشمالي، بين بورسعيد والإسكندرية من جهة، ثم غرب الإسكندرية إلى مطروح والسلوم من جهة أخرى... وكانت هذه الثغرات في حزام الإنذار المبكر المصري، تمثل أول خطأ استفاد منه «هود» خاصة أن القيادة المصرية عام 1967 لم تحاول تلافي هذا القصور في أجهزة الكشف الراداري، بالاستعانة الجادة بأسلوب الكشف البشري بالعين المجردة، وفي أنساق متتالية، ومواقع متقاربة كانت قادرة على تخفيف حدة الخطر إن لم تتمكن من تلافيه.

2 - بالنسبة للحقيقة الثانية الخاصة بتنوع وسائل وأساليب الإنذار المبكر فقد تحولت

من ركيزة أساسية لخطط الدفاع المصري ضد الضربات الجوية المفاجئة، إلى ثغرة خطيرة أخرى استفاد منها جنرال «هود» وهو يضع خطته، لأن بعض القيادات المصرية في عام 1967 وما سبقه من أعوام كانت تعتمد على أسلوب غير علمي، سواء في وضع خططها العسكرية، أو في الحديث عن تصورها للموقف العسكري مع العدو.

إن أبسط دليل نسوقه على هذا الخطأ، أن هذه القيادات كانت تعتمد على عقد المقارنات العددية بين استعداد العدو واستعدادنا العسكري، متناسين عوامل أخرى لا تقل أهمية عند الممارسة القتالية عن العدو كتنوع العتاد والإمكانيات المتطورة، وكالتدريب، وكالمدى الذي يتحتم استخدام هذا العتاد لحمايته أو الدفاع عنه، وعلى سبيل المثال، فقد كان بعض القادة يعقد



مقارنات عديدة بين ما يملكه العدو الإسرائيلي من أجهزة الكشف الراداري وما تملكه مصر منها، ناسيًا أو متناسيًا أن مساحة الأرض التي تحتلها إسرائيل عام 1967 لم تكن تتجاوز 7978 ميلًا مربعًا، بينما يرتفع الرقم بالنسبة للمساحة الخاضعة للسيادة المصرية أرضًا ومياهًا إقليمية إلى نصف المليون من الأميال المربعة المصرية، ويعني هذا ببساطة أن ما تحتاجه إسرائيل من أجهزة وأساليب الإنذار المبكر إلكترونيًا وبشريًا يجب أن يتضاعف على الجانب المصري إلى أكثر من ستين مرة، إذا أردنا تحقيق التوازن العددي، الذي كان بعض القادة يتشددون بأنهم تخطوه، ووصلوا باستعدادهم إلى مرحلة التفوق العددي.

وحتى هذا لو فرضنا جدلاً أن قياداتنا السابقة كانت قد حققت هذا التفوق العددي في

أجهزة الإنذار المبكر ووسائله وهو أمر كان العدو نفسه يعرف عدم صحته فقد فاتهم الالتفات إلى نوعية هذه الأجهزة، واختلاف قدراتها الإنذارية من نوع إلى نوع، كما فاتهم أن ما يملكونه من أجهزة الكشف الراداري، يعتبر بالقياس إلى ما كان يملكه العدو وقتها متخلفًا، لأنه من الأنواع المعدومة القدرة على الكشف عن الأهداف المنخفضة، وحتى هذه الأنواع المحدودة القدرة والمدى من أجهزة الرادار لم يكن قد تم بعدُ استيفائها، وتدريب الأطقم الكافية لتشغيلها تدريبًا عاليًا، يسمح لهذه الأطقم بأن تعوض بمهارتها البشرية وقدراتها الخاصة ما في هذه الأجهزة من نواحي القصور.

أمر آخر ساعد على تأكيد الثغرة، وفتحها على مدى أوسع أمام «مردخاي هود» هو عدم الاهتمام بالقدر الكافي بأسلوب الإنذار

البشري بالعين المجردة رغم فعاليته في كثير من الأحوال، خاصة في حالات الطيران على ارتفاعات بالغة الانخفاض قد يعجز عن اكتشافه أغلب أجهزة الكشف الراداري، وحتى المتطور منها.

3 - وبالنسبة للحقيقة الثالثة: وهي التطور الهائل في مجال الطيران الحربي، سواء من حيث سرعة الطائرات أو مدى طيرانها، أو تسليحها وكمية الذخيرة التي تحملها الطائرة المهاجمة... أو من حيث الأجهزة الإلكترونية الحديثة التي زودت بها الطائرات الحربية وأعطتها قدرة شبه أسطورية، سواء على المناورة والإفلات من الهجوم المعادي، أو على دقة التنشين والتصويب على الأهداف، أو على الطيران على ارتفاعات بالغة الانخفاض تحاشياً للوقوع في دائرة انتشار موجات الرادارات.

هذه الحقيقة الأولى في التخطيط لأي دفاعات سليمة سواء أكانت متحركة أم ثابتة لم تأخذ القدر الكافي من عناية القيادة المصرية قبل عام 1967، وعندما تصاعدت أزمة المضايق الشهيرة في مايو من نفس العام بصورة تنذر بحتمية الصدام العسكري مع العدو، كان العدو نفسه واثقًا من قدرته على توجيه ضربة ناجحة وبأقل قدر من الخسائر لأنه يملك عبقرية عسكرية نادرة الوجود، بل لأنه كان مطمئنًا إلى ما كان لدينا من أجهزة الكشف الراداري، يقتصر مدى كشفه على الأجواء العليا فضلًا عن قلة هذه الأجهزة من حيث العدد، مما حتم تركيزها في أماكن معينة تركت باقي حزام الأمن الممتد لطول حدودنا الشرقية والشمالية مكشوفًا.

فإذا استطاع واضع الخطة المعادية، أن يحدد لأسرابه المهاجمة مسارات تبتعد عن أماكن تمركز هذه الأجهزة من ناحية وتحاشي

الاصطدام بهذه الأجهزة في طبقات الجو العليا من ناحية أخرى، فقد نفذ من ثغرة قاتلة، وضمن لأسرابه المهاجمة عملية هجومية ناجحة تمامًا.

4 - ونصل أخيرًا إلى الحقيقة الرابعة، والتي تمثل أخطر الثغرات، التي استفاد منها العدو إلى أبعد مدى، سواء في التخطيط لضربته الجوية أو تنفيذها، ونعني بها: تحجر الأسلوب العسكري وجموده عند بعض قياداتنا العسكرية السابقة، التي كانت تحتل مواقع بالغة التأثير على قواتنا المسلحة سواء على مستوى التخطيط أو التنفيذ.

ودليلنا على هذا أن تلك القيادات، ظلت حتى عام 1967 وبعد أن أخذت الإلكترونيات زمام المبادرة في أسلحة الحرب وعتاده وخاصة في مجال الحرب الجوية، ظلت هذه القيادات تتحرك على ضوء نظرية تقليدية من مخلفات الحرب العالمية الثانية تقول: إن

أنسب ساعات الهجوم الجوي هو «أول ضوء» باعتبار أن هذه اللحظات الدقيقة التي ينقشع فيها ظلام الليل، ويبدأ فيها ضوء النهار، تمثل للعدو المهاجم فرصة جيدة للتصويب المحكم على الأهداف في ضوء النهار الصافي.

كما أن هذه اللحظات نفسها تفصل عادة بين قوتين من الرجال، النوبة الأولى تكون في قمة الإجهاد بعد ساعات من السهر والحراسة، والنوبة الثانية تكون مشغولة في تسلم مواقعها، ولم تتمركز بعد، وبين إجهاد أفراد النوبة الأولى، وانشغال أفراد النوبة الثانية، تهبط القدرة القتالية لوسائل الدفاع الأرضي الثابتة من أجهزة إنذار أو مدفعية تقليدية أو صاروخية. ومن هنا تأتي فعالية الهجوم الجوي في «أول ضوء».

هذه النظرية التقليدية التي سيطرت على ميادين القتال في الحرب العالمية الأولى قللت من أهميتها إن لم تكن قد قضت عليها تمامًا

التطورات والابتكارات الإلكترونية الحديثة في أسلحة الحرب وعتاده في مختلف الميادين.. البرية والبحرية والجوية والدفاع الجوي، ورغم هذا فقد كانت خطط دفاعنا ضد العدو الجوي في عام 1967 تتحرك على ضوء نظرية تناساها الفكر العسكري تقريبًا، وانتهى الاهتمام بها مع نهاية الحرب العالمية الثانية.

ولهذا نجد أن حالة الاستعداد عندنا سواء بين أجهزة الإنذار، أو وسائل الدفاع الثابتة والمتحركة من مدفعية مضادة تقليدية أو مدفعية صاروخية، أو طائرات حماية واعتراض كانت تبلغ مداها الأقصى، في تلك اللحظات التي كانت بعض قياداتنا تتصور أنها لحظات الخطر، من أول ضوء إلى الثانية صباحًا.. ثم تبدأ مرحلة من الاسترخاء، تهبط فوقها طائرات الحماية والاعتراض إلى الأرض، بحيث تخلو أجوائنا من وسائل الدفاع المتحرك، ويتبع هذا بالضرورة حدوث فراغ

رهيب في دفاعاتنا يمكن أن يؤدي إلى إحداث ضربة قاتلة، إذا أحكم العدو استغلال هذا الفراغ.

هنا نجد أنفسنا أمام أخطر سؤالين طرحهما خبراء التخطيط للعمليات الهجومية الجوية في معاهد الدراسات الاستراتيجية العالمية، كما طرح نفس السؤالين على الجنرال «هود» ومعاونيه الملحقون العسكريون الأجانب في تل أبيب، عقب ضربة 5 يونية 1967:

**السؤال الأول:** لماذا حددت إسرائيل ساعة الصفر لتنفيذ عملياتها الجوية لضرب الطيران المصري في الساعة الثامنة إلا الربع بتوقيت تل أبيب التاسعة إلا الربع بتوقيت القاهرة مثلاً لم يبدأ الهجوم قبل ذلك الموعد أو بعده بساعة؟

**السؤال الثاني:** يتناول جانبين مهمين من العملية الهجومية الإسرائيلية، وهما: تحقيق عنصر المفاجأة الكاملة تقريباً لسلاح الجو



المصري، ثم ارتفاع عدد الطلعات التي قامت بها الطائرات المغيرة في اليوم الواحد يوم 5 يونية بحيث حققت سلسلة متصلة الحلقات من الغارات شبه المستمرة على المطارات المصرية، جعلت منها طوقًا، أشبه بطوق الحمامة، وهو نفس الاسم الكودي للعملية الإسرائيلية.

وبالنسبة للسؤال الأول الخاص بتحديد ساعة الصفر في التاسعة إلا الربع بتوقيت القاهرة فقد اضطرت قيادة سلاح الجو الإسرائيلي وبعيدًا عن كل الدعاية وأساطير الحرب النفسية إلى الاعتراف بالحقيقة، وهي أن الجنرال الإسرائيلي «هود» استفاد من خطأ القيادة المصرية التي كانت طبقًا للنظرية العسكرية المتخلفة التي أشرنا إليها من قبل تحدد ساعة الخطر المرتقب «بأول ضوء».

لم يكن على «هود» سوى الابتعاد عن هذه الساعة الخطرة من وجهة النظر المصرية،

والتي تبلغ فيها الدفاعات المصرية الثابتة والمتحركة أقصى مدى لها... وهذا ما فعله بالضبط، فقد ابتعد عن تلك اللحظة الحرجة بالنسبة لطياريه، والتي يحتمل أن يواجهوا فيها طائرات الحماية والاعتراض التي تحلق في الأجواء المصرية عقب أول ضوء ثم تهبط إلى قواعدها عند زوال الخطر كما تتصوره قياداتنا السابقة، كما أن الجنرال الإسرائيلي، استفاد من تقارير الأرصاد الجوية التي أكدت أن الممرات التي كان قد حددها كمسار لطائرات الموجة الأولى من موجات الضربة الجوية، وتقع في المدخل الشمالي للدلتا من ناحية البحر الأبيض ستكون مغطاة بضباب لن ينقشع قبل الساعة الثامنة صباحًا، وسيكتمل انقشاع هذا الضباب بعد ذلك بنحو نصف الساعة، فإذا بدأت الموجة أولى هجومها في التاسعة إلا الربع، فإن طياريه سيضمنون رؤية واضحة تمامًا لأهدافهم من ناحية، واسترخاء

مداهم الجوي الذي تحكم قياداته نظرية بالية من مخلفات الحرب العالمية الثانية من ناحية أخرى.

بالنسبة للسؤال الثاني الخاص بتحقيق الطيران الإسرائيلي للمفاجأة الكاملة لسلاح الجو المصري، وارتفاع عدد الطلعات التي قامت بها الطائرات الإسرائيلية في اليوم الواحد فإن الأمر لم يكن بحاجة إلى كل هذه الأساطير التي نسجتها أبواق الدعاية وأجهزة الحرب النفسية الإسرائيلية، لتضخم ما حدث يوم 5 يونية. ذلك أن نجاح الطيران الإسرائيلي في مفاجأة الطيران المصري في ذلك اليوم، لا يرجع إطلاقاً إلى عبقرية عسكرية فذة، وليس معجزة يستحيل تكرارها.. الأمر أبسط من هذا وأكاد أقول أكثر سذاجة مما صورته الدعايات الإسرائيلية.. وهو لا يخرج عن استفادة جيدة من الإمكانيات المتاحة للجنرال «هود» وسلاحه الجوي من

ناحية، واستغلال الخطأ في التفكير العسكري، والقصور في العتاد، وخاصة في أجهزة وأساليب الإنذار المبكر على الجانب المصري من ناحية أخرى.

ولو أننا استعدنا تفاصيل العملية الهجومية ذاتها كما خطط لها «هود» ونفذها طياروه لوجدنا أمامنا الدليل القاطع، الذي لا يقبل المناقشة على صحة ما ذهبنا إليه من بساطة وتقليدية خطة العملية الإسرائيلية، وخلوها من أي ملامح من ملامح العبقرية والإعجاز العسكري، إلا إذا جاز لنا أن نصف التلميذ الذي يحفظ جدول الضرب بأنه عبقرى معجزة، إذا استطاع أن يعرف أن الرقم 144 مثلاً هو حاصل ضرب الرقمين 12 في 12.

إن «مردخاي هود» في تخطيطه لعملية 5 يونية، كان تلميذاً مجداً للعسكرية الأنجلوفرنسية، التي خططت لضرب سلاح الجو المصري عام 1956 الذي عرف باسم

العدوان الثلاثي.. والذي أخذت فيه إسرائيل دور الشريك الأصغر، الذي تعلق بذيل العربة التي يقودها الشريكان الأكبر سنًا، والأكثر ثراءً ومقدرة.

ففي العملية الأولى التي نفذها الطيران الإنجليزي بالاشتراك مع الطيران الفرنسي، أتت الطائرات المغيرة من البحر الأبيض، ودخلت الأجواء المصرية من شمال الدلتا، لتهاجم المطارات المصرية، التي كانت معروفة تمامًا، بكل تفاصيلها وتجهيزاتها للطيارين الإنجليز، الذين لم يكن قد مضى على مغادرتهم لهذه القواعد الجوية سوى فترة زمنية قصيرة لم تكن تسمح بتغيير معالم هذه المطارات، أو إنشاء مطارات أخرى غيرها، تكون مجهولة تمامًا للعدو المغير.

وقد ساعد الطيران الفرنسي والإنجليزي على إحداث عنصر المفاجآت عام 1956 لسلاح الجو المصري، عملية التخدير السياسي التي

لعبتها السياسة البريطانية، على عهد «إيدن» بإحكام ومهارة، بحيث رسّبت عند القيادة المصرية على أعلى مستوى سياسي وعسكري في ذلك الوقت، إحساسًا قويًا، باستبعاد قيام الدولتين الشريكتين، إنجلترا «إيدن»، وفرنسا «جي موليه» بأي عمل مسلح لعرض وجهة نظرهما بالقوة في قضية تأمين القناة التي تفجر الصراع المسلح بسببها.

وكنتيجة لهذا الاطمئنان السياسي، حدث نوع من الاسترخاء العسكري امتد أثره بالضرورة إلى سلاح الجو المصري الذي لم تكن عنده أوامر بالدخول في حرب أو احتمال دخولها بسرعة.. هذا هو ما حدث بالضبط في عام 1956، وبتخطيط سياسي وعسكري من العسكرية الأنجلو فرنسية... وكانت النتيجة ما نعرفه جميعًا، من إصابة سلاحنا الجوي بضرية قاصمة، وطائراته جاثمة على الأرض.

ماذا حدث في 5 يونية.. وبتخطيط وتنفيذ إسرائيلي بحت.. نفس الشيء تمامًا ونفس الخطة نجدها كاملة، ونفس المسارين السياسي والعسكري بلا أدنى إضافة توحى بعبقرية، أو حتى بتجديد ذكي.

والدراسة المقارنة لكل من الضربتين اللتين وجهتا لسلاح الجو المصري في عام 1956، ثم في عام 1967 تؤكد أن الإسرائيليين لم يكونوا أكثر من تلامذة مجتهدين حفظوا الدرس الذي لقنه لهم أساتذتهم من قادة العسكرية البريطانية والفرنسية في عملية 1956 التي عرفت في المراجع العسكرية ومعاهد الدراسات الاستراتيجية باسم حرب أو عملية السويس.

وقد أعاد الإسرائيليون تنفيذ هذه العمليات الأنجلوفرنسية بحذافيرها.. وبلا أدنى محاولة للخلق أو الابتكار تخطيطًا أو تنفيذًا، مع فارق واحد بين العمليتين، هو أن طياري بريطانيا

وفرنسا في عملية 1956 كان يملؤهم الغرور والثقة بالنفس، لأنهم الأجنحة الطائرة لدولتين من أكبر دول أوروبا الغربية من ناحية، ولأنهم يعرفون دقائق وتفصيل المطارات المصرية التي يقصفونها، والتي كانت إلى عهد قريب، قواعد جوية بريطانية، حتى وقعت اتفاقية الجلاء في يونية عام 1954.

أما التلامذة الجدد «مردخاي» وطياروه فقد كانوا عند تنفيذ عملياتهم الهجومية، أو بمعنى أدق، عندما كانوا يعيدون تنفيذ نفس العملية في 5 يونية 1967 كانوا يدركون تمامًا، أن اللعبة أكبر بكثير من حجمهم، وأكبر بكثير من حجم إسرائيل ذاتها، وأن أي احتمال للفشل في إعادة تنفيذهم للخطة الأنجلو فرنسية يعني شيئًا رهيبًا بالنسبة للمؤسسة العسكرية الإسرائيلية التي تتحكم في كل شيء في تل أبيب. وقد أخذوا أنفسهم بمنتهى الجدية في التدريب الشاق على تنفيذ العملية التي



شاهدوا أساتذتهم ينفذونها عام 1956 واتبعوا نفس التخطيط السياسي والعسكري للتمهيد للعملية ثم تنفيذها.

ولعل المقارنة التالية التي تقوم على حقائق ثابتة لا يستطيع جنرال «هود» إنكارها تكشف للجميع حقيقة هذه الضربة التي طنطنت بها إسرائيل سنوات وسنوات... كما أن هذه المقارنة المدعمة بالحقائق التاريخية الثابتة، ستفضح إلى الأبد، حقيقة المزاعم الخبيثة التي حاولت أن ترسب في وجدان الإنسان العربي، أكذوبة ضخمة اسمها عبقرية التخطيط العسكري الإسرائيلي، وهذه هي الأدلة:

1 - في 26 يولية عام 1956. أعلن المرحوم «جمال عبدالناصر» قراره بتأميم قناة السويس، وكان رد الفعل لدى حكومتي الدولتين صاحبتَي المصلحة في عدم تنفيذ قرار التأمين عنيفًا، وعلى الفور بدأت

الحكومتان البريطانية والفرنسية في «التشاور» لاتخاذ التدابير اللازمة لحفظ حقوق المساهمين في الشركة المؤممة، وكانت هذه التدابير اللازمة كما تكشف الأمر فيما بعد تعني التآمر في الخفاء والإعداد لعملية غزو مسلح للأراضي المصرية، يتم بمقتضاها احتلال قناة السويس، وإعادة الأمر إلى ما كان عليه قبل التأميم.

وحتى تتم إجراءات الإعداد العسكري لعملية الغزو المبيتة بدأت على الفور عملية تمويه سياسي في غاية الذكاء، وعلى الفور سعت الحكومتان إلى إنشاء ما سُمي وقتها بـ «جمعية المنتفعين بقناة السويس» وحضر إلى القاهرة «نزيس فرانس» رئيس وزراء أستراليا مبعوثاً لهذه الجمعية للتفاوض مع الحكومة المصرية في «الحلول السلمية» التي تكفل المحافظة على حقوق جميع الأطراف.

كانت تلك عملية تخدير سياسي متعمد، رُسمت بذكاء لاشك في حدته، لكي تؤدي إلى نتيجة واحدة لا بديل لها، وهي خلق نوع من الاطمئنان لدى القيادة السياسية المصرية بأن حكومتي بريطانيا وفرنسا، تفكران في اتخاذ الوسائل السياسية، وأنها لم تحسما أمرهما على اللجوء لاستعمال القوة العسكرية، ومثل هذا الاطمئنان المؤقت من الناحية السياسية سينتقل تأثيره بالضرورة إلى الجانب العسكري، وسيؤدي إلى نوع من الاسترخاء بين القيادات العسكرية المسئولة عن إعداد القوات المصرية بجميع أسلحتها لعمليات عسكرية عاجلة. ومع وجود هذا الاسترخاء بين كبار القادة العسكريين، فإن من السهل على العدو يعد لعملية هجومية منذ زمن طويل أن يقوم بضربة مفاجئة تحدث رد فعل عنيفًا لاشك في تأثيره المدمر.

2 - ونفس المنهج اتبعته القيادة السياسية الإسرائيلية، وهي تمهد لعملية 5 يونية... فعقب تفجر أزمة المضائق الشهيرة في مايو 1967، سارعت الحكومة الإسرائيلية بالتحرك الدبلوماسي على جميع الجبهات، وفي جميع العواصم، وكانت نغمتها واحدة لا تتغير.. إسرائيل في خطر.. والعرب وفي مقدمتهم مصر يستعدون لتدمير الدولة الصغيرة المسكينة.

وحتى في اللقاء الأخير الذي تم في واشنطن بين «أبا إيبان» وزير الخارجية الإسرائيلية وبين «ليندون جونسون» الرئيس الأمريكي وقتها كان الوزير الإسرائيلي يسير على نفس الدرب الذي سار عليه «إيدن» و«جي موليه» في عام 1956 من التظاهر بالرغبة في الوصول إلى حل سلمي عادل لقضية المضائق، ويؤكد أن إسرائيل لن تبدأ بالعدوان.. ما دفع بجونسون إلى نقل التأكيد

الإسرائيلي إلى موسكو، ومن عاصمة الاتحاد السوفيتي طارت في نفس الليلة برقية عاجلة إلى القاهرة.. سارع السفير الروسي بإبلاغها في الفجر إلى جمال عبدالناصر... لن تكون إسرائيل هي البادئة بالعدوان.

ومن المؤسف أن القيادة المصرية صدقت هذا الوعد على المستوى السياسي ثم سرت عدوى التصديق والاسترخاء من المجال السياسي إلى المجال العسكري، وأحدثت أثرها الطبيعي الذي رتبت له إسرائيل، واستفادت منه عندما حلت ساعة الصفر.

والأمر هنا واضح لا يحتاج إلى تفسير أو حتى إلى تعليق.. لقد نقلت إسرائيل الجانب السياسي من عملية 1956. ونفذته بالحرف في التمويه السياسي لضربة 5 يونية 1967. مجرد تقليد حرفي من تلميذ لا يتمتع بأدنى قدر من العبقرية، لدرس سمعه من

أستاذه، فحفظه عن ظهر قلب، وأعاد تقديمه..  
 بلا إضافة.. بلا ابتكار.. بلا إعجاز كما زعموا.  
 وعلى الجانب العسكري لكنا العمليتين، نجد  
 نفس التقليد الحرفي، يقوم به التلميذ  
 الإسرائيلي «مردخاي هود» لخطة أساتذته من  
 قادة الطيران الأنجلوفرنسي الذين خططوا  
 لضرب سلاح الجو المصري في عملية 1956:

1 - في الساعة الخامسة من بعد ظهر الحادي  
 والثلاثين من أكتوبر عام 1956 أقلعت  
 الطائرات البريطانية والفرنسية المخصصة  
 للعملية، من قواعدها محلقة شرقًا فوق  
 البحر الأبيض المتوسط، وعندما وصلت إلى  
 محاذاة وسط الدلتا انحرفت جنوبًا  
 واخترقت المجال المصري في المنطقة  
 الواقعة بين غرب بورسعيد، وشرق دمياط،  
 وهي المنطقة التي تمثل بتكوينها  
 الجغرافي، ثغرة طبيعية في حزام الأمن  
 الذي تقيمه أجهزة الإنذار المبكر.. بسبب

بحيرة المنزلة التي تمتد شمال الدلتا وتغطي مساحة ضخمة لا يفصلها عن مياه البحر الأبيض سوى شريط ساحلي بالغ الضيق.

ومن هذا الممر الآمن، شقت الطائرات المغيّرة طريقها في سماء مصر، لتصل بعد لحظات إلى قواعدنا الجوية المحدودة في ذلك الوقت في كل من منطقة القنال والدلتا والقاهرة، وهي قواعد ومطارات معروفة جيدًا للطيارين الذين تولوا تنفيذ العملية الهجومية حيث كانوا يقيمون بها قبل أن يرحلوا منها عقب تنفيذ اتفاقية الجلاء التي وقعت عام 1954.

في إطار هذه الملابس والظروف العسكرية والسياسية المواتية، كان من المحتم أن تحدث الضربة المفاجئة أثرها الرهيب بالنسبة لسلاح الجو المصري، خصوصًا إذا تذكرنا ضالة حجم ما كان متوافرًا لدينا من

وسائل الدفاع الجوي الذي يتصدى لمثل هذه الضربات المفاجئة لإحباطها أو للتخفيف قدر المستطاع من آثارها التدميرية.

2 - وفي صباح 5 يونية 1967.. حدث نفس الشيء تمامًا، بلا زيادة أو نقصان... ونفذ «مردخاي هود» نفس الخطة بالحرف الواحد.. من مختلف المطارات الإسرائيلية، أقلعت طائرات الموجة الأولى، متجهة غربًا فوق مياه البحر الأبيض وعندما وصلت إلى محاذاة الدلتا، انحرفت جنوبًا فوق نفس الثغرة في حزام الأمن المصري.. لتضرب المطارات والقواعد الجوية في منطقة القناة والدلتا، ثم في القاهرة.

وقد يثور هنا سؤال: إذا كان الإسرائيليون قد نفذوا في عام 1967 نفس العملية الهجومية التي قام بها الإنجليز والفرنسيون



عام 1956.. فهل قاموا بهذا العمل بلا أدنى تجديد، سواء في تخطيط العملية أو تنفيذها؟ وللحقيقة والتاريخ والتزامًا بالموضوعية الكاملة التي التزمت بها منذ البداية أمام المواطن المصري والإنسان العربي بصفة عامة؛ فإنني أسجل هنا كطيار مقاتل يعرف أسرار المهنة وي جيد أسس التقييم العلمي للعمليات الجوية قتالية كانت أم هجومية الملاحظات الموضوعية التالية:

**أولاً:** إنني أنفي نفياً قاطعاً، أي أثر للعبقرية أو الإعجاز العسكري، في عملية «طوق الحمامة» التي خطط لها «مردخاي هود» ونفذها طياروه صباح الإثنين الخامس من يونيو عام 1967. فهي عملية تقليدية تمامًا ليس فيها أي ابتكار، أو خلق، ولكنها تجميع جيد لجميع الأخطاء والقصور على الجانب المصري، واستفادة كاملة من الإمكانيات المتاحة لوضع الخطة والمشرف على تنفيذها.

**ثانيًا:** إنها تقليد حرفي سواء في التخطيط أو التنفيذ لخطة مماثلة سبق تنفيذها ضد نفس العدو سلاح الجو المصري وبنفس الأسلوب وفي نفس الظروف، وهي بهذا التقليد، عملية خالية من أي ابتكار أو تجديد.

**ثالثًا:** إن ما قد يبدو للوهلة الأولى، وكأنه ابتكار أو إضافات خلاقة أضافها واضع النسخة الإسرائيلية من الخطة البريطانية الفرنسية لعملية ضرب الطيران المصري وهو جاثم على الأرض لا يخرج في حقيقته عن استفادة جيدة من ظروف مواتية، أو ابتكارات استحدثت في مجال الطيران الحربي، ولم تكن موجودة أثناء تنفيذ الأصل الأنجلوفرنسي للعملية عام 1956.

وهذه هي بعض الأمثلة الإضافية لمزيد من التوضيح :

1 - في 13 أكتوبر عام 1956، قامت الطائرات الأنجلوفرنسية بضرب المطارات المصرية

بعد أن شقت طريقها في المجال المصري، وهي مقلعة على الارتفاعات التقليدية للطيران العسكري الذي يقوم بمثل هذه العمليات الهجومية، وهي نفس الارتفاعات التي كانت سائدة وقت تنفيذ الضربة.

وفي 5 يونية 1967، قام سلاح الجو الإسرائيلي باختراق المجال الجوي المصري من نفس الثغرة الموجودة في حزام الأمان المصري، ولكن على ارتفاعات منخفضة، وطننت الدعايات الإسرائيلية بأن هذا الطيران المنخفض أثناء تنفيذ العملية كان معجزة من معجزات العقل الإسرائيلي في المجال العسكري تخطيطًا وتنفيذًا، ونشر مروجو هذه الدعاية الكاذبة أو لعلهم تناسوا حقيقتين مهمتين، تنفيان تمامًا أي أثر للعبقرية في هذا العمل التقليدي البحت:

**الحقيقة الأولى:** أن السنوات الإحدى عشرة التي تفصل بين عملية 1956

الأنجلوفرنسية والنسخة الإسرائيلية المكررة لنفس الضربة عام 1967، هذه السنوات الطويلة، حدث فيها تطور هائل في مجال الطيران العسكري، واستحدثت خلالها ابتكارات شبه أسطورية في تصميم وبناء الطائرة الحربية وأعطتها إمكانيات هائلة، وقدرات قتالية لم تكن تخطر على بال أحد.. وأبسط هذه الإمكانيات قدرة الطيران المقاتل على التحكم في طائرته وهو يُحلق على ارتفاعات بالغة الانخفاض، وهو آمن تمامًا من أي مفاجآت، لأنه يطير في حماية أجهزة إلكترونية معاونة، تيسر له التحكم في طائرته على أي ارتفاع وتحاشي الاصطدام بأي نتوءات تصادفه أثناء طيرانه المنخفض، وكأجهزة الإنذار الموجودة بالطائرة والتي تنبه الطيار إلى وجود خطر يلاحقه أو يهدده.

**الحقيقة الثانية:** أن التطور الذي لحق طوال السنوات التي تفصل بين العمليتين الأصل الأتجلو فرنسي والتقليد الإسرائيلي استحدث في مجال الإنذار المبكر، خاصة في أجهزة الكشف الراداري، ابتكارات متلاحقة، جعلت من هذه الأجهزة خطرًا ساحقًا يهدد الطائرات المغيبة، بحيث لا تكون هناك فرصة للطيار المقاتل لكي يفلت من هذه الأجهزة إلا بالاستفادة من الفرصة الوحيدة، المتاحة أمامه، وذلك باستغلال قدرات طائرته على المناورة والطيران المنخفض.

من هاتين الحقيقتين، يتضح لنا أن اتخاذ أسلوب الطيران المنخفض الذي لجأ له طيارو إسرائيل في 5 يونية، ليس دليلاً على عبقرية فترة في التخطيط أو التنفيذ، بل هو استفادة من إمكانيات أتاحت لهم وقت تنفيذهم لعملية خططها أساتذتهم الإنجليز والفرنسيون، ولم

تكن متاحة من قبل.. بل هو رضوخ حتمي اضطروا إليه، ولكي ينجوا بأنفسهم وبطائراتهم من الوقوع في مصيدة الكشف الراداري الذي يرسل نبضاته المتلصصة على ارتفاعات عالية، ومن ثم اضطروا للطيران المنخفض في المستوى الذي يعرفون أن مصر لا تملك أجهزة الكشف الراداري القادرة على اكتشافهم فيه.

2 - مثال آخر ينفي عن إضافة إسرائيلية للخطة الأنجلوفرنسية صفة الابتكار والتجديد، فضلاً عن العبقرية أو الإعجاز العسكري.. وهو ما قيل ونشر عقب ضربة 5 يونية من دقة تصويب للطيارين الإسرائيليين على الأهداف المصرية بحيث نجحوا في تدمير الجزء الأكبر من سلاح الطيران المصري، وهو جاثم على الأرض.. وقد أرجعت أبواق الدعاية وأجهزة الحرب النفسية المعادية هذه الدقة في التصويب إلى ما أسمته «بالقدرة الأسطورية للطيار

الإسرائيلي على تحديد هدفه والمناورة الشعبانية للوصول إلى هذا الهدف مهما كانت العوائق التي يضعها الخصم في طريقه». وتجاهلت هذه الدعايات أن ما أبداه طيارو «مردخاي هود» من دقة تنفيذهم لعملية الحمامة إنما يرجع بالدرجة الأولى إلى تزويد طائراتهم بأجهزة مستحدثة للإنذار بالخطر الذي يحدق بالطائرة أو يتهددها وأجهزة تحكم بالغة الحداثة وأخرى لإحكام التصويب والإطلاق على الهدف بطريقة لا فضل للطيار فيها تقريبًا.

وبدلاً من أن تعترف أجهزة الدعاية الإسرائيلية بكل هذه الحقائق المعروفة، عمدت إلى التفاخر بأن ما حدث يوم 5 يونيو، إنما يرجع إلى ما أسمته «بالقدرة الأسطورية للطيار الإسرائيلي على تحديد هدفه.. إلخ».

ولا شك في أن هذه العبارة التي صُنعت بمهارة شديدة، توحي بوصف لبطل أسطوري،

يفوق في قدراته الخرافية أبطال الأساطير الشعبية، وحكايات ألف ليلة الشهيرة.. ولكننا لو وضعناها على مائدة التشريح العلمي القائم على حقائق ثابتة لا يستطيع العدو نفسه إنكارها، لوجدناها، مجرد خيال جميل.. ولكننا نرفضها رفضًا قاطعًا، ونحن في مجال التقييم العلمي لعملية عسكرية، تخضع لقواعد وأسس التخطيط المتعارف عليها.. وهذا الرفض لا يصدر عندنا عن تحيز قوي ضد الطيار الإسرائيلي كخضم نحاربه.. ولكنه رفض تمليه مجموعة من الحقائق حاول العدو إخفاءها أو التهوين من أثرها؛ لكي يستمر في مباحاته بقدرات طياريه، والارتفاع بهم بلا وجه حق فوق مستواهم الحقيقي كطيارين مدربين، ولكنهم ليسوا بأية حال عباقرة أو معجزة في مجال الطيران الحربي.

إن أبرز الحقائق التي سعت عمليات الدعاية الإسرائيلية إلى إخفائها في ذلك الوقت عديدة،



ومنها:

1 - أن أجهزة ووسائل الدفاع الجوي الثابتة التي كانت تملكها مصر وقت الضربة كانت من القصور، بحيث أعطت للطائرات المغيرة خاصة طائرات الموجة الأولى التي قامت بضرب المطارات المصرية في التاسعة إلا الربع من صباح الاثنين 5 يونية حرية في الحركة، لم تكن لتتاح لهذه الطائرات، لو أن المطارات والقواعد الجوية المصرية التي لم تكن تزيد وقت الضربة على بضعة عشر مطارًا كانت تملك القدر الكافي من وسائل الدفاع المضاد للطائرات، خاصة الأنواع الحديثة منها.

وعلى سبيل المثال، فقد كان أحدث سلاح تملكه مصر من أسلحة الدفاع في ذلك الوقت ضد الطيران المهاجم، هو الصاروخ «سام 2: أرض جو»، وهو رغم قدرته التدميرية، كان عاجزًا عن حماية الطائرات

المصرية الجائئة على الأرض وقت تنفيذ العملية، لسبب بسيط، وهو أنه لا يعمل عمله المؤثر إلا ضد الطائرات المحلقة على ارتفاعات عالية، أما الطائرات الحديثة القادرة على التحليق على ارتفاعات منخفضة كطائرة «الميراج/ 3 الفرنسية» التي استخدمتها إسرائيل في الموجة الأولى لعملية 5 يونية فإن الصاروخ «سام 2» يقف عاجزًا تمامًا عن إصابتها، لأنها تطير على ارتفاع منخفض خارج قدرته التدميرية في الارتفاعات العالية.

ومن القواعد المعروفة في مجال الحرب الجوية أن الطيار الذي يهاجم وهو مطمئن إلى ابتعاده عن مجال الدفاعات الأرضية للعدو من صواريخ أو مدفعية مضادة تقليدية مع معرفته المسبقة بأن الدفاعات المتحركة من طائرات اعتراضية أو مقاتلة تجثم على الأرض، يتجه إلى هدفه وهو في أقصى حالات

سيطرته على أعصابه، وبالتالي فلا عذر له إن لم يحسن التصويب على الأهداف المطلوب قصفها، خصوصًا إذا كان هذا التصويب يتم آليًا بواسطة أجهزة حديثة بالغة الدقة زودت بها الطائرة التي يقودها..ومثل هذا الطيار عندما يصيب هدفه، قد يُوصف بأنه طيار مدرب أو حتى جيد التدريب لكن وصفه بالإعجاز والعبقرية نوع من المبالغة.

2 - مثال آخر يؤكد أن ارتفاع نسبة الخسائر التي أصيب بها سلاح الجو المصري في 5 يونية 1967 خاصة في الطائرات التي ضربت على الأرض لا يرجع إلى قدرات خارقة للطيارين الإسرائيليين، وأن سببه الفعلي حقائق وأخطاء كانت موجودة على الجانب المصري، واستفاد منها العدو المهاجم ببساطة، ثم حاول إخفاءها، لكي يضيفي على طياريه قدرات أسطورية.

مثال ذلك أن الأغلبية الساحقة من الطائرات المصرية، كانت ترقد على أرض مطاراتنا وقواعدنا الجوية.. في العراق.. مكشوفة تمامًا، كهدف ظاهر للعين المجردة حتى على ارتفاعات عالية، فضلًا عن طائرات معادية اتخذت في هجومها تكتيك التحليق على ارتفاعات منخفضة... وترك الطائرة الحربية مكشوفة ومتراصة على أرض المطار، بلا غطاء يحميها، بل وبلا تمويه فعال، يضل الطيار المغير عن حقيقتها، غلطة قاتلة وقعت فيها القيادات المصرية عام 1967، ودفع ثمنها سلاح الجو المصري غالبًا.

ولو أن هذه الطائرات كانت ترقد بمحركاتها الساكنة داخل دشم حديثة مجهزة قوية البنيان، لتغيرت الصورة عما حدث صبيحة 5 يونية، ولعادت طائرة الموجة الأولى للهجوم الجوي الإسرائيلي، دون أن تحقق عُشر ما حققته من نتائج تدميرية، ضد طائرات تُركت

في العراق، صيدًا ثمينًا وسهلاً، بلا غطاء يحميها شر التدمير وهي جاثمة على الأرض بلا حراك.

ولو أن هذا حدث فعلاً، وكانت هناك الدشم القوية ووسائل الدفاع القادرة على حماية طائراتنا من هول الضربة الأولى، لنجت الأغلبية الساحقة من طائراتنا الحربية، وهو أمر كان سيغير نتيجة العمليات العسكرية كلها، تغييرًا جذريًا؛ لأن العدو الذي ينجح في امتصاص الضربة الأولى دون أن يفقد توازنه، أو يفقد سيطرته على قواته، وقدرته على تحريك هذه القوات بأعصاب ثابتة وفكر هادئ متزن، يكون أقدر على توجيه الضربة المضادة المميتة، التي تنجح في تكبيد العدو خسائر أفدح بكثير مما تكبد هو في الضربة الأولى التي نجح في امتصاصها ونجح في النجاة من رد فعلها العنيف وتأثيره على الروح المعنوية

لقواته، وهو تأثير قد يكون أعنف من التأثير التدميري للضربة ذاتها.

وإذا عرفنا أن طائرات سلاح الجو المصري كانت يوم 5 يونية مكشوفة في العراق تمامًا للطيار الإسرائيلي المهاجم على ارتفاعات منخفضة، وهو آمن من قدرة الصاروخ «سام 2» على التعامل معه، مع التسليم بأثر المفاجأة ذاتها على أطقم الدفاعات الأرضية بوجه عام، وعلى القيادات المصرية على أعلى مستوى وكل هذه حقائق ثابتة لا يستطيع العدو الإسرائيلي أن ينكرها فهل يُوصف مثل هذا الطيار الذي يهاجم في هذه الظروف المواتية تمامًا، بأنه طيار عبقرى ومعجزة، عندما ينجح في إصابة أهداف مكشوفة، بلا حماية ذات فعالية من الدفاعات الأرضية.

3 - حقيقة ثالثة لا أظن أن كثيرين يعرفونها، رغم أنها ثابتة في ملفات سلاح الطيران الملكي البريطاني، وهي أن «عيزرا

وايزمان» ثالث الجنرالات الإسرائيليين الذين تولوا قيادة سلاح الطيران الإسرائيلي بعد «أهارون ريمز» و«دان تولكوفسكي» عمل أثناء الحرب العالمية الثانية وقبيل قيام إسرائيل كدولة، كواحد من رجال سلاح الطيران الملكي البريطاني في القواعد الجوية التي كانت تحتلها القوات البريطانية في منطقة قناة السويس.

وحتى لا تسارع المؤسسة العسكرية في تل أبيب بالإنكار كعادتها وخاصة عندما تواجه بكشف حقيقة مؤلمة كانت تحرص على بقائها في حيز الكتمان فإنني أحدد آخر مطار خدم به «الجنرال الإسرائيلي وايزمان» على الأرض المصرية أثناء خدمته بسلاح الطيران البريطاني وهو مطار «فايد». والحكم بيننا هو سجلات الخدمة بسلاح الجو الملكي في لندن.. وبالتالي كان يعرف هذه المطارات التي خدم

بها وآخرها مطار فايد حق معرفة، ويعرف تفاصيل المنشآت بكل مطار خدم به. ومثل هذه الحقيقة الرهيبة، حين نزنها بوزنها الصحيح في مجال التأثير على موقع الصراع على السيادة الجوية في المنطقة بين سلاحنا الجوي المصري، وسلاح إسرائيل الجوي، ستعطينا التفسير المنطقي، والسبب الحقيقي، لدقة الطيار الإسرائيلي في إصابة الأهداف المصرية من طائرات جاثمة على أرض المطارات، أو منشآت المطار وأبنيته المعاونة نفسها.

لقد طنطنت أجهزة الحرب النفسية الإسرائيلية «عقب 5 يونية» بأن سلاح الجو الإسرائيلي كان قد بنى نماذج مجسمة لتفاصيل ومنشآت المطارات المصرية، وقام الطيارون الإسرائيليون بالتدريب المتواصل على مهاجمتها وقصفها على ارتفاعات متباينة بين الارتفاع والانخفاض، وفي أوقات مختلفة



تتراوح بين ضوء الظهيرة الساطع، ومنتصف الليل بظلامه الدامس.

ووصل الغرور ببعض من كتبوا عن ضربة 5 يونية من أبواق الدعاية إلى حد القول بأن الطيار الإسرائيلي لكثرة ما تدرب على قصف نماذج المطارات المصرية، أصبح يعرف تفاصيلها كاملة، وبحيث كان بوسعه صباح 5 يونية أن يؤدي عمله على أكمل وجه حتى وهو معصوب العينين.. وقد أرجعت دعايات إسرائيل هذا إلى مهارة طياري الاستطلاع الإسرائيليين الذين تمكنوا من التقاط صورة كاملة للمطارات المصرية من ناحية كما أرجعوها إلى نبوغ مخابراتهم العسكرية التي أكملت باقي المهمة بوسائلها الخرافية من ناحية أخرى.

ونسي هؤلاء جميعًا أو تناسوا الحقيقة الرهيبة، التي لم تعطها قياداتنا المصرية قبل 1967 حقها من الاهتمام.. الخاصة بسابق

خدمة «عيزرا وايزمان» قائد الطيران الإسرائيلي من 28 يولية عام 1958، إلى إبريل عام 1966 في مطار «فايد». لقد حمل «وايزمان» معه عند ذهابه لإسرائيل كل ما استطاع حمله من رسوم وخرائط تفصيلية لمنشآت وتجهيزات المطارات الواقعة في المنطقة كلها.

وأخطر من هذا، أن «وايزمان» بالذات تولى قيادة سلاح الجو الإسرائيلي في أخطر سنوات تكوينه الحقيقي، الذي انتقل هذا السلاح خلالها بالفعل من عصر الطائرات المروحية والطائرات ذات السرعة نصف الصوتية إلى عصر الطائرات النفاثة ذات السرعة فوق الصوتية، وأنه لم يترك قيادة سلاح الطيران إلا في عام 1966، ليتولى منصب رئيس عمليات الجيش الإسرائيلي، بعد أن ترك إكمال باقي المهمة التي أعد كل شيء لتنفيذها لتلميذه

وخليفته في قيادة هذا السلاح الجنرال «مردخاي هود».

فإذا عرفنا أن المطارات والقواعد الجوية التي تسلمها الطيران المصري من سلاح الطيران البريطاني، بعد جلاء الإنجليز من مصر طبقًا لاتفاقية عام 1954، كانت تمثل أكثر من ثمانين في المائة من المطارات المصرية التي ضربت صباح 5 يونية عام 1967، وأن هذه المطارات التي عمل بها الجنرال «وايزمان» ظلت كما هي منذ تركها. ولم تُفكر القيادة المصرية مع بالغ الأسف في مجرد تغيير معالمها، حتى بعد أن ثبت من العملية الأنجلو فرنسية عام 1956 أن هذه المطارات بكل تفاصيلها ومنشآتها ليست سرًا حربيًا قوميًا.. وأن هناك دولة أجنبية واحدة على الأقل هي إنجلترا تعرف كل أسرار هذه المطارات.

بقيت نقطتان لا بد من الإشارة إليهما، لكي نستكمل تحليلنا العلمي لحقيقة ما حدث صباح

الاثنين 5 يونية عام 1967، ورده إلى حجمه الطبيعي في مجال التخطيط والتنفيذ :  
 النقطة الأولى: تتمثل في ظاهرة لفتت الأنظار في ذلك اليوم المشؤوم وكانت مثار الكلام كثيرًا في كل ما كُتب عن «حرب الأيام الستة» كما سُميت عمليات 1967.. وهي تتابع موجات الهجوم الجوي الإسرائيلي على المطارات المصرية، من الثامنة إلا الربع بتوقيت إسرائيل حين وصلت طائرات الموجه الأولى فوق مطاراتنا، وبدأت في قصفها إلى أن رفع «مردخاي هود» سماعة التليفون، في مكتبه برئاسة عمليات السلاح الجوي الإسرائيلي، لكي يقول لإسحاق رابين رئيس أركان جيش إسرائيل عام 1967 «لقد تمت المهمة... لم يعد الطيران المصري قادرًا على القيام بأي عمل».

ثم يستطرد «هود» وقد أصابه النجاح الذي حققه بأبخس الأثمان، بأعلى درجات الغرور

والاستخفاف بعدوه.. فيقول ساخرًا: « سأترك فرصة لتحليق ما تبقى من الطائرات المصرية، للاستهزاء بطياريتها».. كان هذا التمام الذي قام بإبلاغه «مردخاي هود» لرئيس الأركان الإسرائيلي في الساعة العاشرة والنصف من صباح نفس اليوم، الخامس من يونية.

إذا رجعنا إلى تقارير عمليات الطيران والدفاعات الجوية على الجانبين، المصري والإسرائيلي في ذلك الوقت، فسنجد أن هذه المساحة الزمنية البالغة القصر والتي لا تتجاوز خمسًا وستين ومائة دقيقة قد تخللتها موجات متتابة من الهجمات الإسرائيلية فوق الأهداف الحيوية لسلاح الجو المصري من طائرات ومطارات ومنشآت معاونة، وأن هذا التتابع في موجات الهجوم لم ينقطع لأكثر من عشر دقائق إلى ربع الساعة على الأكثر بين هجمة وأخرى في بعض الحالات، وأن بعض المطارات المهمة خاصة المطارات المتقدمة، أو

القواعد الجوية لأنواع ذات تأثير استراتيجي من الطائرات المصرية قد تعرضت لموجات هجومية وصلت في بعض الحالات إلى عشر موجات متوالية، بينما هبطت موجات الهجوم بالنسبة لبعض المطارات ذات الأهمية الثانوية من وجهة نظر العدد إلى موجة أو موجتين فقط.

بهذا نجد أن جموع الموجات الهجومية التي قام بها الطيران الإسرائيلي في ذلك اليوم تصل إلى عدد يلفت النظر، ويستحق الوقوف عنده بالتساؤل.. هل كان هذا التابع والاستمرار في موجات هذه العملية الهجومية راجعًا إلى عبقرية فذة في التخطيط، أم أن هناك سببًا آخر لهذا التابع المنتظم في موجات الهجوم، من بدء العملية إلى نهايتها، وأن هذا السبب لا صلة له من قريب أو من بعيد بعبقرية التخطيط، أو الإعجاز في التنفيذ؟

إجابتي عن هذا السؤال، ستتجه منذ البداية إلى حقيقة لا سبيل إلى إنكارها... وهي استنطاق «الأرقام» التي لا تعرف الكذب أو الخداع أو التضليل.

الأرقام تقول: إن الجنرال الإسرائيلي «مردخاي هود» كان تحت تصرفه، وهو يضع اللمسات الأخيرة للعمليات الهجومية ثلاثمائة وخمس طائرات حربية، ما بين قاذفة، ومقاتلة قاذفة، وطائرات اعتراضية، تصلح للقيام بمهام العمليات الهجومية المطلوب تنفيذها.

وإذا كانت المطارات المصرية المطلوب قصفها في ذلك اليوم تتراوح من حيث البعد والقرب عن قواعد الطائرات الإسرائيلية المكلفة بتنفيذ العملية، كما تتراوح هذه المطارات أيضًا، من حيث أهميتها أو عدم أهميتها من وجهة نظر الجنرال «هود» فإن لغة الأرقام التي لا تعرف الكذب تقول: إنه كان يملك يوم 5 يونية، اثنتين وسبعين طائرة من

طراز «ميراج / 3» المقاتلة الاعتراضية حاملة الصواريخ «جو أرض» و«جو جو» وأربعين مقاتلة قاذفة من طراز «أوراجان» وأربعًا وعشرين مقاتلة من طراز «وتور» وأربعًا وعشرين مقاتلة من طراز «سويز / مستير» وأربعين مقاتلة من طراز «مستير / 4»، بالإضافة إلى ستين طائرة من طراز «فوجا / ماستير» تم تسليمها واستخدامها في نفس العملية.

كما أن المطارات المصرية التي تعرضت للقصف في هذه العملية هي على وجه التحديد، وبترتيب قريبها أو بعدها بالنسبة لقواعد إقلاع الطائرات المهاجمة: مطارات العريش، وبيير تمادة والمليز، والسر، وفايد، وكبرى، وأبوصوير، ثم أنشاص، وألماظة، وغرب القاهرة، ثم المنصورة ثم بني سويف، فالأقصر وأخيرًا مطار الغردقة تقريبًا.



وبمقارنة عدد المطارات المطلوب قصفها في عملية «طوق الحمامة» بعدد الطائرات المتاحة وخاصة الطائرات ذات السرعة فوق الصوتية فإن الأمر يخرج تمامًا من نطاق العبقرية أو الإعجاز، ليتحول إلى نتاج طبيعي لشيء اسمه التدريب الجيد، سواء بالنسبة للطيار المقاتل، أو للأجهزة الأرضية المعاونة له، كأطقم الصيانة التي تتولى الكشف الدقيق السريع على الطائرة بين الطلعة والطلعة، والإسراع بإصلاح ما يكون قد لحق بها من أعطال، وأطقم التموين بالوقود، والإمداد بالذخيرة، التي يتوقف على نجاحها أو فشلها في تحقيق سرعات قياسية لتحقيق مهامها المعاونة نجاح أو فشل الطيار في تحقيق العدد المطلوب من الطلعات المتتالية، وهو أمر يعرفه الطيار العادي سواء أكان طيارًا مدنيًا أم مقاتلًا، فضلًا عن خبراء وأساتذة التخطيط الجوي في كل المعاهد الاستراتيجية العالمية.

هؤلاء جميعًا، يجمعون باستثناء أبواق  
الدعاية على أن تتابع الموجات في أية عملية  
جوية هجومية لا صلة له على الإطلاق  
بالعسكرية أو الإعجاز العسكري، ولكنه يتوقف  
أولًا وأخيرًا على مجموعة من العوامل، هي  
على وجه التحديد:

**أولًا:** العدد المتاح من الطائرات المخصصة  
للعملية الهجومية، مُقارنًا بعدد المطارات  
المطلوب قصفها.

وفي هذه الناحية نجد أن عدد المطارات  
المصرية التي تعرضت للهجوم باستثناء  
مطاري الأقصر والغردقة اللذين تأخر قصفهما  
حتى الساعة الحادية عشرة والنصف ثلاثة  
عشر مطارًا، بينما يرتفع عدد الطائرات  
المخصصة للهجوم إلى رقم يزيد على  
الثلاثمائة طائرة طبقًا للأرقام المعلنة.. هذا مع  
استبعاد طائرات الهليكوبتر، وطائرات الإمداد  
والنقل.

**ثانيًا:** بُعد أو قُرب المطارات المطلوب قصفها، عن قواعد إقلاع الطائرات المغيّرة مُقارنًا بالسرعات المتباينة التي تتمتع بها هذه الطائرات، وكبر أو صغر حجم كل مطار، وما يتطلبه من كم معين من القذائف اللازمة لتدميره.

وبالنسبة لهذا العامل البالغ الحيوية في تنفيذ العمليات الهجومية، نجد أن معظم المطارات المصرية المطلوب قصفها طبقًا لخطة «مردخاي هود» تقع على مقربة من قواعد إقلاع طائراته المغيّرة، مثل مطارات المليز، وبيير تمادة، وفايد، وكبرى، وأبوصوير، بل إن بعض هذه المطارات كمطار العريش لم يكن يبعد عن قواعد إقلاع الطائرات المهاجمة بأكثر من بضعة كيلو مترات، وأكثر هذه المطارات بعدًا كمطاري المنصورة وبني سويف لم يكن يستغرق في الوصول إليه أكثر من بضع عشرة دقيقة، خاصة بالنسبة للطائرات

ذات السرعة فوق الصوتية كطائرة «الميراج/3».

**ثالثًا:** قصر أو طول الفترة الزمنية التي تستغرقها الأجهزة المعاونة من صيانة وإمداد وتموين في إعداد الطائرة، بين كل طلعة وأخرى، واختزال هذه الفترة الزمنية إلى أضيق حيز ممكن، لا صلة له أبدًا بالعبقرية أو الإعجاز؛ لأن العمليات المعاونة كما هو معروف تعتمد على مهارات معينة تكتسبها الأطقم المكلفة بها، عن طريق الممارسة المستمرة، والتدريب المتواصل، فضلًا عن استخدام الوسائل الآلية والإلكترونية الحديثة في هذه العمليات.

والزعم بأن تشغيل أجهزة الإمداد والمعاونة الأرضية للطائرة، قبيل إقلاعها، يحتاج إلى عبقرية، قول سانج يدعو للسخرية، أو هو مغالطة جريئة ومعتمة لتحقيق أغراض تدميرية في نفس العدو.

**رابعًا:** التدريب الجيد، الذي يحصل عليه الطيار المقاتل، لكي يستوعب كل الإمكانيات المتاحة، التي تُوفرها له الطائرة التي يعمل عليها، بحيث يستطيع وقت اللزوم، أن يستفيد من كل ما لديه من إمكانيات وقت قيامه بتنفيذ المهام القتالية أو الهجومية التي يُكلف بها.

باستعراض العوامل الأربعة، المؤثرة في عدد وتتابع موجات الهجوم الجوي، نجد أنها جميعًا كانت في صالح الجنرال «مردخاي هود» وطياريه الذين قاموا بتنفيذ عملية «طوق الحمامة» ويتكشف لنا بالتالي من واقع الحقائق المادية التي لا سبيل لإنكارها، ومن واقع الأرقام التي لا تعرف الكذب أو المجاملة أن نجاح سلاح الطيران الإسرائيلي، في القيام بهذا العدد من الموجات الهجومية المتتابة، على مطاراتنا يوم 5 يونيو لم يكن معجزة ولا إعجازًا، بل هو نتاج طبيعي لإمكانيات متاحة

على الجانب الإسرائيلي، مضافًا إليها محصلة أخطاء على الجانب المصري.

والنقطة الأخيرة التي نختم بها تحليلنا لما حدث صباح 5 يونية 1967، هي تأخر قياداتنا المصرية في ذلك الوقت في امتصاص الضربة الأولى، والتغلب على رد فعلها العنيف، سواء بين الأفراد في المواقع القتالية، أو بين القيادات في مراكز القيادة والسيطرة، ثم هذا الارتباك الواضح في تصرفات القيادة المصرية، وأكاد أقول الشلل التام الذي أصابها من هول المفاجأة، وما أدى إليه كل هذا، من عجز هذه القيادة عن استعادة ثققتها بنفسها، وثقتها في القدرة على عمل شيء تعيد به تصحيح الموقف العسكري المختل، وتستعيد به سيطرتها على ما بقي لديها من إمكانيات السلاح الجوي المصري، الذي أصيب في ذلك الصباح المشؤوم بضربة عنيفة، هو بريء تمامًا منها، ومما سبقها من مقدمات أدت إلى وقوعها

ونتائج ترتبت عليها وأدت إلى تغيير حاد في مجرى الأمور على مسرح العمليات العسكرية بصفة عامة.

والسؤال المطروح الآن، هو ببساطة: لماذا حدث كل هذا الذي جرى صباح الاثنين الخامس من يونية عام 1967 سواء على الجانب الإسرائيلي، أو على الجانب المصري؟ الجانب الإسرائيلي أوفيناه حقه من التحليل العلمي، الذي يرد كل ظاهرة إلى مسبباتها الحقيقية، بدون استسلام للأساطير. كذلك حرصنا في تحليلنا للأصول والمنايع التي استقى منها الجنرال «مردخاي هود» خطته الهجومية بخطوطها العريضة وتفاصيلها الدقيقة على السواء، أن نبتعد تمامًا عن الوقوع في مصيدة الغرور، الذي كان من الممكن أن يصيبنا بعد النجاح الساحق الذي حققه سلاح الجو المصري في حرب أكتوبر المجيدة، بدءًا من الضربة المصرية القاصمة

«صدام» التي وجهناها للعدو ظهر السادس من أكتوبر، وطوال العمليات التي امتدت أيام القتال.

أمر آخر حرصنا عليه في تحليلنا، وهو عدم الاستسلام لإغراءات التحيز الأعمى، أو التعصب القومي، ضد خصم يتغذى مقاتلوه من عصارة نظرية متخلفة تقوم على التعصب الممقوت للجنس، وتؤمن بتفوق قلة قليلة من البشر، على من عداها من عباد الله جميعًا.

وقد التزمنا بكل موضوعية في منهجنا هذا ونحن نحلل ما حدث على الجانب المعادي لضربة 5 يونية، قبل أن ننطلق لتحليل ودراسة ما حدث يوم 6 أكتوبر وما بعده من أيام مجيدة في تاريخ العسكرية المصرية خاصة، والتاريخ العسكري لأمة العرب بصفة عامة لأننا نؤمن أولاً: بأنه لا يصح إلا الصحيح وبأن التضليل والخداع قصير العمر دائماً، ومصير المخادع والمضلل إلى الافتضاح في



النهاية. ونحن نؤمن ثانيًا بأن هذا الشعب المصري ومن ورائه أمتة العربية قاطبة من حقه أن يعرف كل شيء.. ما حدث من العدو من نواحي التفوق أو القصور وما حدث عندنا كذلك انطلاقًا من معرفة الحقيقة العارية، إلى تعميق أسباب التفوق والامتياز وتأصيل جذورها في أرض الواقع المصري والعربي، وتلافياً لأسباب العجز والقصور، واقتلاعاً لجذورها من حياتنا إلى الأبد.

ومن هنا.. وشعورًا مني بخطورة الشق الثاني من السؤال الذي تتطلب الإجابة عنه، معرفة ما حدث على الجانب المصري - صباح 5 يونية 1967 - وهل كان - كما زعمت الدعايات - بسبب عجز الإنسان المصري وقصور العقل العربي عمومًا عن مجاراة خصمه الإسرائيلي في مجالات التخطيط والتنفيذ العسكري.. وأن هذا العجز المزعوم، قدر مؤبد لا فكاك منه، وعلى المواطن المصري، وشقيقه العربي بصفة

عامة، أن يستسلما له استسلام الإنسان لقدره المحتوم؟

أم أن ما وقع على الجانب المصري في ذلك اليوم كان نتاجًا طبيعيًا لأخطاء البشر وتقصير القيادات، ولا دخل للقدر المؤبد، أو المصير المحتوم، في نسج خيوط هذه الهزيمة البغيضة التي ألفت بظلالها السوداء في حياة أمتنا بشكل مفاجئ، كان من الممكن أن يؤدي إلى نتائج بالغة الخطر على الوجود العربي كله في المنطقة، لولا ما أثبتته الإنسان المصري - في قمة أيام المحنة - من صلابة معجزة، وصمود أسطوري، وقف أمامه كبار المحللين السياسيين والعسكريين في العالم، وهم في حالة ذهول تام وعجز كامل عن فهم هذا الإنسان المصري الأسطورة.

إن واجب الأمانة والحياد العلميين - اللذين التزمنا بهما منذ البداية - يحتم علينا الآن أن نفرّد فصلًا خاصًا للإجابة عن السؤال، ورد ما

وقع على الجانب المصري - يوم 5 يونية - إلى أسبابه الموضوعية الكاملة.. وهل كانت هذه الأسباب في حقيقتها قصورًا قدريًا محتومًا، أم تقصيرًا بشريًا مرحليًا؟

”... إن الصواريخ  
 والقنابل الإسرائيلية  
 لم تدمر فقط  
 طائراتنا، بل دمرت  
 وأحرقت أيضًا كل  
 ما يعوق سلاحنا  
 الجوي من فكرٍ  
 عسكري متخلف  
 وأخطاء  
 التخطيط وإهمال  
 في التنفيذ..“

# أبطال في بحر الأخطاء

نحن أمام سؤال واضح محدد: هل وقع ما وقع في 5 يونية على الجانب المصري بسبب القصور أم بسبب التقصير؟ هل يعود إلى قصور في العقل المصري خصوصًا والعربي عمومًا، كما روجت الدعاية الإسرائيلية.. أم إلى التقصير الذي تسببت فيه قيادتنا؟

ورغم ما في الإجابة عن هذا السؤال من مرارة على الناس، فإن واجبنا أمام الحقيقة، وواجبنا أمام المواطن المصري الذي صمد في شجاعة أسطورية، سواء للضربة أو لمتتابعات الحرب النفسية الشرسة التي أعقبته، وواجبنا أمام شجاعة الرجال من مقاتلي الأمة العربية، الذين لا ذنب لهم في الواقع في كل ما حدث، ثم.. واجبنا نحو الأجيال القادمة، والتي ستتحمل مسؤولية وشرف الدفاع عن سلام

الحضارة العربية في المنطقة، كل هذا يلزمنا بأن نقول كل شيء، وأن نكشف الحقيقة - مهما كانت قسوتها.. لأنها في النهاية - والله الحمد سبحانه - لا تداين المواطن المصري، ولا تلحق بالإنسان العربي - عارًا - نقيصة العجز، أو عارًا لقصور، بقدر ما تكشف خطأ من وقعوا في الخطأ، وتعلن عن تقصير من قصرُوا في واجبات، لو أنهم التزموا بأدائها على الوجه الأكمل، لسحبوا البساط من تحت أقدام العدو، ولتغيرت الصورة عام 1967، عما وصلت إليه تغييرًا جذريًا.

منذ البداية، نقولها صريحة وبشكل قاطع، إن ما حدث على الجانب المصري يوم 5 يونية وما تلاه - من هزائم سريعة، بدأت بضرب سلاح الجو المصري وانتهت بقبول وقف إطلاق النار يوم 9 يونية، بعد انسحاب غير منظم للقوات البرية من سيناء... كل هذا العناء

الذي عشناه وقاسينا منه أيامًا طويلة، سببه الأول والأخير تقصير بعض القيادات. ولن نستشهد على صحة هذا الحكم القاطع، بما حدث في حرب أكتوبر، منذ إشعال شرارتها الأولى بضربة الطيران المصري الساخنة للعدو، في الساعة الثانية من بعد ظهر السادس من أكتوبر، وحتى نهاية العمليات... وما أثبتته هذه الحرب - بشهادة أعظم خبراء التخطيط العسكري العالميين، وأكبر الأساتذة والمحللين في معاهد الدراسات الاستراتيجية في العالم - من عبقرية في التخطيط، لا مجال لإنكارها، وإعجاز مشرف في التنفيذ المتقن، لأدق التفاصيل.

لن نلجأ لعمليات أكتوبر التي قدمت للفكر العسكري العالمي، مقاييس عديدة، تمثل معجزة حقيقية على جميع المستويات، وبجميع الموازين، حتى أشد الموازين خصومة وعداء... ولكننا في ردنا على الدعوى الكاذبة -

التي روجها الخصم - عن قصور العقل العربي،  
سنتجه إلى عمليات 5 يونية ذاتها، وعن طريق  
التحليل العلمي الهادئ.

إن فكرة ضرب سلاح الطيران المصري،  
وإخراجه من مسرح العمليات، قبل الدخول في  
أية معارك تصادمية مباشرة مع الجيش  
المصري - قد نشأت في ذهن قادة المؤسسة  
العسكرية في تل أبيب عشية حرب 1956 -  
التي عرفت باسم «حرب السويس»، والتي  
قامت فيها إسرائيل بدور التابع النهم، الذي  
يتفرغ لجمع الأسلاب والغنائم، دون أي جهد  
حقيقي، يكون قد بذله مع شركائه الكبار في  
معركة هي - في الواقع وبحكم مقاييس عام  
1956 - أكبر من حجم هذا التابع الصغير،  
وحجم قدراته الهجومية والقتالية على  
السواء.

لقد اعترف «مردخاي هود» بنفسه قبيل  
عمليات 1967، لكل من «بن يورا» و«يوري



دان»- مؤلفي الكتاب الإسرائيلي «الميراج ضد الميج»، بقوله: «لن أندم قط على ذلك الاتفاق الشهير، الذي تم عقده في سبتمبر عام 1956، بين دافيد بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل في ذلك الوقت وسلومن لورد وزير خارجية إنجلترا في حكومة إيدن في مدينة «سيفر» بشأن العمليات الجوية في حملة السويس».

ويستطرد «مردخاي هود» ليفسر سبب اعتزازه بهذا الاتفاق فيقول: «لقد كان ذلك الاتفاق يضمن لنا الغطاء الجوي، من جانب سلاح الطيران البريطاني.. كما أنه في نفس الوقت يحرم علينا اجتياز قناة السويس بطائراتنا».

ومع ضمان إسرائيل للغطاء الجوي الأنجلو فرنسي - خلال حملة السويس - دون أن تتحمل عبء الاشتراك في المعارك الجوية - تفرغ طيارو «مردخاي هود» تمامًا، لدراسة أسلوب ونتائج الضربة الجوية، التي وُجِهت

للطيران المصري الجاثم على الأرض، وكانت النتائج مشجعة للغاية - من وجهة النظر الإسرائيلية - التي تؤمن بعدم قدرتها - عددًا على الأقل - على تكوين جيش بري، قادر على الصمود - فضلًا عن الاندفاع والتقدم - في مواجهة الجيوش العربية التي تتمتع بحماية جوية فعّالة لو ظل طيرانها سليمًا.

وزاد من اقتناع العسكرية الإسرائيلية، بأهمية - بل وحتمية - إخراج الطيران المصري من مسرح العمليات، قبل أية معركة قادمة مع مصر، ذلك التقارب الذي كان واضحًا بين تل أبيب وبين باريس، ذلك التقارب الذي خلق نوعًا من الإعجاب الفكري الذي تملك قادة العسكرية الإسرائيلية والعسكرية الفرنسية وفكرها، وقد دفع هذا الإعجاب بقيادة إسرائيل العسكريين إلى الإيمان الكامل «بمبدأ بوفر» - أستاذ الاستراتيجية الشهير - المعروف في

الفكر العسكري العالمي باسم «السيادة الجوية».

خلاصة مبدأ «بوفر»: أن العدو الذي ينجح في تدمير أجهزة ووسائل دفاعات عدوه الثابتة منها والمتحركة على السواء يضمن لطيرانه الحربي حرية جوية مطلقة، تمكنه من تحقيق الأهداف التالية:

**أولاً:** إخراج طيران العدو من المعركة حتى قبل أن تبدأ، مع مداومة ضربه، حتى بعد الضربة التدميرية الأولى، ضماناً لاستمرار شلله، عملاً بقاعدة توالي الصدمات التي تحرم العدو من فرصة التقاط أنفاسه بعد الضربة الأولى.

**ثانياً:** تمزيق دفاعات العدو الثابتة - من مدفعية تقليدية وصواريخ - بعد أن فقدت هذه الدفاعات الأرضية الثابتة أي معونة تساندها، من الدفاعات الجوية المتحركة،

المختلة في الطيران الذي تم تدميره من قبل،  
وعقب نجاح الضربة الأولى المركزة.

**ثالثًا:** انطلاق الطيران المعادي بحرية كاملة  
بعد تحقيق هذين الهدفين الخطيرين، إلى  
تدمير باقي الأهداف الاستراتيجية للعدو التي  
يمكن أن تعينه على الصمود في المعارك  
البرية.

**رابعًا:** تحطيم معنويات الجيوش البرية  
المعادية، بإمطارها بوابل من الغارات المكثفة،  
التي تمزق أوصالها، بعد أن فقدت الحماية  
الجوية التي ضاعت منها بضياح طيرانها  
الحربي وخروجه من المعركة.

وقد خرجت إسرائيل عقب معارك 1956  
وهي مؤمنة إلى أبعد مدى، بمبدأ «السيادة  
الجوية»، وزاد من اقتناعها بحتمية الإعداد  
لضربة قاصمة لسلاح الجو المصري، تلك  
الواقعة التي سنرويها، نقلًا عن أعتى خصوم

مصر عام 1956 «سير أنطوني إيدن» رئيس وزراء إنجلترا خلال حملة السويس.

لقد سجّل في مذكراته هذه الواقعة المشرفة للطيار المصري المقاتل: «لقد خرجت طائرات الكانبيرا الأربع وقت الفجر، وكانت تطير على ارتفاع كبير، يصل إلى ثلاثين ألف قدم، وكانت مهمة هذه الطائرات الأربع، أن تحدد مواقع قوات العدو - يقصد مواقع القوات المصرية - وتُصوِّرها إذا أمكن ولقد ذهبت الطائرات الأربع إلى مهمتها، ولكنها رغم ارتفاعها الضخم، وجدت أن أمرها قد انكشف، وأن مواقعها هي قد تحددت، وأن الطائرات المعادية من طراز الميج - المصرية - قد خرجت لمطاردها وأطلقت عليها نيرانها، ولقد عادت الطائرات الكانبيرا الأربع إلى قواعدها سالمة ولكن إحداها أصيبت بعطب، ولقد كانت المطاردة عملاً رائعاً، وعندما علمت بتفاصيلها في اليوم التالي لم أتمالك نفسي من القلق والتفكير... ولقد دعوت

مجلسًا لمناقشة الموضوع، فربما كان طيارون من دولة أخرى هم الذين يقودون الطائرات الميج التي تعرضت لطائراتنا في الفجر، أثناء قيامها بعملية الاستكشاف».

والذي لم يعترف به «إيدن» عند تسجيله لهذه الواقعة أن اكتشاف الطائرات الكانبرا الأربع، والمطاردات المصرية لها، قد أحدث ارتباكًا هائلًا في مركز قيادة القوات الأنجلو فرنسية التي كانت تستعد لغزو مصر عام 1956 واحتلال قناة السويس بالقوة، وأدى هذا الارتباك المفاجئ، الذي أحدثته براعة الطيارين المصريين في مطاردة طائرات الكانبرا البريطانية وإصابة إحداها - إلى تأجيل ساعة الصفر، المحددة لبدء العمليات الحربية ضد مصر بحيث تأخرت اثنتي عشرة ساعة كاملة، وبدلاً من أن تبدأ أولى موجات الهجوم الجوي ضد المطارات المصرية، كما كان مقرراً لها في الخامسة من صباح 31 أكتوبر عام

1956 مع أول ضوء، طبقًا للنظرية التقليدية في اختيار ساعة الهجوم. لقد بدأت الموجة الأولى بالفعل في الخامسة من بعد ظهر نفس اليوم، بسبب هذا العامل الجديد الذي فاجأ قوات الغزو المشتركة، وأوقعها فريسة لتساؤل حائر، مؤداه أن هذه المهارة في استخدام الطائرة الميج، والقدرة على المناورة بها، والنجاح في مطاردة طياري الكانبيرا البريطانيين - ينبئ عن وجود طيارين أجانب يعملون في خدمة سلاح الطيران المصري، ويستطيعون بالتالي تهديد أي غزو جوي لمصر بالفشل.

إنه نفس المعنى الذي سجله الملحق العسكري الإسرائيلي في باريس، في البرقية العاجلة التي وصلت إلى تل أبيب ظهر نفس اليوم وما زالت صورتها ترقد في الملفات السرية لحرب 1956، بشهادة فخرٍ للطيار المصري المقاتل حين يعترف العدو بقوله في

هذه البرقية: «رغم رجاء الفرنسيين، قرر الإنجليز تأجيل الغارات الجوية إلى الساعة الخامسة بعد الظهر؛ والسبب هو أن دورية استطلاع بريطانية من طائرات الكانبرا، قوبلت فوق القناة بنيران مضادة قوية من الطائرات المصرية، التي أثبتت مستوى أرفع مما كان منتظرًا، وهذا يشير في رأي الإنجليز إلى وجود طيارين أجانب في مصر».

الوثيقة الثالثة الخاصة بنفس الواقعة المشهورة في تاريخ حرب 1956، هي البرقية التي بعث بها «شمعون بيريز» بأمر وِبِاسْمِ بن جوريون الذي كان يلزم الفراش - ردًا على برقية الملحق العسكري الإسرائيلي في باريس: «إن تفوق المصريين قائم أيضًا بالنسبة لقواتنا نحن.. وهذا الأمر يضع وحداتنا في موقع خطير، وإننا نعتبر تأجيل الغارات عملاً تخريبياً خطيراً، ونطالب بشدة بإصدار الأمر بالعمل فوراً».



هذه الوثائق الثلاث تعلن بوضوح لا يقبل الجدل الحقائق التالية:

**أولاً:** أن الطيار المصري - المقاتل - نجح في وقت مبكر جدًا، في إثبات مهارته القتالية والهجومية، نجاحًا أربك القيادة الإنجليزية نفسها، وأرغمها على تأجيل بدء عملياتها الهجومية ضد الطيران المصري.

**ثانيًا:** القدرة الفائقة التي أبدتها الطيارون المصريون وبسرعة غريبة في استيعاب وفهم أسرار طائرات الميج الجديدة عليهم في ذلك الوقت من عام 1956 خاصة إذا تذكرنا أن مصر لم تكن قد قررت كسر احتكار توريد السلاح للمنطقة العربية، قبل عام 1954.

**ثالثًا:** أن العدو الإسرائيلي - على لسان رئيس وزرائه بن جوريون - يعترف بتفوق المقاتل المصري عليه، ويعتبر تأخر الإنجليز في ضرب المطارات المصرية عملاً تخريبياً.. ويطالب بالإسراع بإخراج الطيران المصري من

مسرح العمليات؛ حتى لا تضطر إسرائيل إلى الدخول في معركة مع جيش مصر، وهو متمتع بحماية سلاحه الجوي الذي يقوده طيارون مهرة، أربعوا طياري سلاح الجو الملكي البريطاني، بكل خبراتهم القتالية الطويلة.

في ضوء هذا فإننا نتقدم لوضع النقاط فوق الحروف بشأن التقصير في ضربة 5 يونية 1967 من الجانب المصري على الوجه التالي:

أولاً: بالنسبة للأخطاء التي وقعت فيها القيادة: بعض هذه الأخطاء، كان قديماً، وسابقاً على عمليات 5 يونية، ولم تظهر نتائجه المخربة إلا في ذلك الصباح المشؤوم.. كما أن هذه الأخطاء لم تكن كلها من نوع واحد، بل تنوعت في أشكالها وأحجامها، لكي تشترك كلها في صنع الهزيمة السريعة، التي استمتع العدو بنتائجها البالغة السهولة بالقياس إلى ما قدمه من تضحيات، أو تعرض له من مخاطر.

والنظرة الفاحصة لهذه الأخطاء ستكشف عن أن بعض هذه الأخطاء كان سياسيًا، وبعضها الآخر كان عسكريًا بحثًا، وقد تنوعت الأخطاء العسكرية بين الأخطاء الاستراتيجية، والتعبوية والتكتيكية.

إنني أرصد هنا بعض الأمثلة لكل نوع من الأخطاء، وحتى تأخذ أجيالنا القادمة عبرة من التجارب القاسية البالغة المرارة، وتعي درس التاريخ الذي كافح جيلنا لكي يعبر سنواته الصعبة.

### 1 - في مجال الأخطاء السياسية:

سنجد المثل الواضح في تلك النظرية المريضة، التي سادت حياتنا السياسية زمنًا طويلًا، وتضاعف تأثيرها الهدام في مختلف أنشطة العمل الوطني في الداخل، بسبب تفشيها وانتشارها بشكل وبائي، لم يكن يسلم منه جهاز أو مؤسسة من مؤسساتنا القومية، ونعني بها نظرية «أهل الثقة وأهل الخبرة».

ومؤدى هذه النظرية الفاسدة التي تقترب في تحجرها من نظريات التعصب الجنسي الممقوت - المفاضلة غير العلمية، بين الإنسان الكفاء الذي يتمتع بالخبرة والكفاءة في مجال ما، وبين آخر لا ميزة لديه ولا كفاءة عنده، سوى ما قد يظهره أو يتظاهر به من ولاء صادق أو أكاذيب لمن بيده الأمر، ولاء يكتسب به ثقة هذا المسئول، الذي يكون هو نفسه - وانطلاقاً من نفس النظرية المخربة - قد وصل في أغلب الأحوال إلى المنصب أو الموقع الذي يشغله، بالاستفادة من منطق النظرية العجيبة: «أهل الثقة أم أهل الخبرة».

ولن نتعرض الآن ونحن بسبيل التحليل العسكري لعملية هجومية محددة هي ضربة 5 يونية لتحليل الأسس الفلسفية لنظرية «أهل الثقة وأهل الخبرة»، كذلك لن نتعرض لتاريخها العسكري، والأصل الذي انحدرت عنه، وهل هو أصل ديمقراطي متطور أم فاش متحجر ومعادٍ

للحرية والديمقراطية، ولكنني أقصر حديثي الآن على التأثير المدمر لهذه الظاهرة في مجال العسكرية المصرية.

النتيجة هي أنه قفز كثيرون إلى مواقع بالغة الخطر، دون أن يكونوا أهلاً لتولي مسئوليتها، وتجميد بعض المواقع البالغة التأثير على مصير قواتنا المسلحة، بقصرها على أفراد معينين. في ذات الوقت الذي كان العدو دائم التجديد في قياداته ليضمن تطعيم قواته المسلحة باستمرار الدم الجديد، الذي يضمن لها الحيوية والشباب الدائمين، أسوة بما هو متبع في العالم أجمع.

ومن هنا، فلم يكن غريباً أن نشاهد بعض القيادات الكبيرة يستمر الواحد منهم في تولى منصبه البالغ الخطورة أو بمعنى أدق يستمر في تجميد هذا المنصب لسنوات عديدة، يتجمد معها الموقع كله بما يتبعه من جيوش وفرق وألوية.

**2 - وإذا انتقلت من مجال الأخطاء السياسية إلى الأخطاء العسكرية المباشرة، بالنسبة لقواتنا المسلحة عمومًا، وبالنسبة للسلاح الجوي خصوصًا، وعلى جميع المستويات الاستراتيجية والتعبوية والتكتيكية - فإننا نجد الأمثلة مع بالغ الأسف عديدة، ولكننا نكتفي ببعضها، لنُدلل على ما ذهبنا إليه، من أن ما حدث من خسائر فادحة على الجانب المصري صباح 5 يونية كان نتيجة للتقصير، وليس للقصور.**

فعلى مستوى الأخطاء الاستراتيجية: نجد أن بعض القيادات السابقة ممن كانوا يتمتعون بأعلى مستويات الثقة يقعون في أخطاء فادحة، لا يتردى فيها أي دارس يعرف أولويات الاستراتيجية العسكرية المتطورة، فضلًا عن ملاحقة الابتكارات الخلاقة المستمرة في فنون الحرب وعلومها.. هنا أكتفي بإطالة على بعض ما كان يجري في سلاح الجو المصري.

بعض القادة مثلاً، كانوا يرفعون تقاريرهم لأعلى مستوى عن دراستهم للموقف العسكري مقارنةً بموقف العدو على أساس من الأرقام والأعداد وحدها.. عندنا كذا طيار.. وعند العدو كذا.. نمتلك كذا طائرة.. ويملك العدو كذا وكذا... لدينا كذا جهاز كشف راداري، ولدى العدو كذا.. دون أن يتوقف هؤلاء القادة عن شيء أولي اسمه نوعية الطائرة وسرعتها ومداهها وتسليحها وأجهزتها المعاونة.. إلى آخر المعلومات التي يتحتم على القائد الدارس أن يضعها في حسبانها، قبل أن يسمح لنفسه بمثل هذه المقارنات العددية الجوفاء التي لا تجدي شيئاً عند المواجهة الفعلية على مسرح العمليات.

ولو أن الأمر اقتصر في مجال الخطأ على التقارير التي كانت ترفع للاسترضاء والحصول على المزيد من «الثقة» لهان الأمر وتضاءل الخطر.. ولكن الكارثة اكتملت عناصرها عندما

تحول هذا الأسلوب الانتهازي في التفكير العسكري، إلى نهج ثابت تقوم على أساسه الخطط الاستراتيجية للسلاح الجوي، السري منها والمعلن على السواء، بحيث وصل الاقتناع الخاطيء عند بعض هؤلاء القادة بجدوى المقارنات العددية في مجال الحروب الفعلية إلى حد التصريح بل والطنطنة بأننا «نملك أكبر قوة جوية ضاربة في الشرق الأوسط، تستطيع تهديد الأسطول السادس الأمريكي ذاته».

ومن هنا كان عنف الصدمة في نفس المواطن العادي، بل والطيار المقاتل حين فوجئ الجميع بحدوث ما حدث صباح 5 يونيو، ولم يكن من الممكن تفسير هذه الضربة التي تحولت إلى كارثة في نفس المواطن العادي، إلا بأحد أمرين يستطيع بهما تبرير ما حدث تبريرًا يقنعه عقليًا:



فإما أن تكون قياداته غير دقيقة في تقديراتها حين أعلنت ما أعلنته على الملأ، من أنها تملك أكبر قوة جوية ضاربة في المنطقة، تستطيع ردع العدو الإسرائيلي، بل وتمتلك القدرة على إرهاب وتهديد الأسطول السادس بكل حاملات طائراته الضخمة، وبالتالي فإن عدم الدقة لدى هذه القيادات هو الذي دفعها إلى أن تعطي للمواطن، ومن خلفه العالم كله، صورة غير واقعية لإمكانات سلاح الجو المصري، وإذا فقدَ المواطن ثقته في قيادة قواته، فقد ثقته في قواته ذاتها، ثم يفقد ثقته في نفسه وهذا أكبر البلاء.

والتبرير الثاني الأكثر خطورة على نفسية المواطن إذا أحسن الظن ببيانات قياداته وتصريحاتها عن قدرات جيشه الوطني، هو أن قياداته الوطنية لم تكذبه القول، عندما طمأنته عن مدى فعالية قواته، ولكن قوة العدو التي كشفت عنها التجربة العملية أثبتت أنها أكبر

من كل ما كان لديه من سلاح وعتاد وهنا أيضًا خطأ في التقدير.. وهنا يجتاح اليأس قلب المواطن وعقله، وتلك كارثة الكوارث.

وننتقل الآن إلى مجال الأخطاء التعبوية التي تردت فيها قيادات 1967، وسهلت للعدو الجوي أن يحقق أهدافه ضد سلاحنا الجوي، في أسرع وقت وبأقل قدر من التعرض للمخاطرة.. وفي هذا المجال نجد أمثلة غريبة.

لقد ألمحت في الفصل السابق إلى أن أبسط مبادئ الدفاع السلبي عن الطائرات توفير الحماية لها وهي جاثمة على الأرض، عاجزة عن الدفاع عن نفسها، فضلاً عن حماية غيرها، على أن تستمر حماية الطائرة إلى أن تدور محركاتها، وترتفع عن الأرض ثم تأخذ سرعتها في الجو.. وهذه القاعدة البسيطة التي لم تعد تقبل الجدل أو المناقشة تقتضي وجود بضعة عناصر مهمة، لتوفير الأمن والحماية اللازمة

للطائرة وهي جاثمة على الأرض وعاجزة عن الدفاع عن نفسها، وهي:

- 1 - وضع الطائرة في دشمة قوية التسليح، تحميها من القصف الجوي المعادي.
- 2 - وجود دفاعات أرضية قوية، تعمل بالتناغم الكامل مع شبكة إنذار شديدة الحساسية، وقادرة على العمل بسرعة قبل فوات الأوان.
- 3 - التمويه الجيد واستخدام الطائرات «الهيكلية» التي تضلل الطيار المعادي، وتحرمه من تركيز ضرباته فوق الطائرات الحقيقية.

فإذا أضفنا إلى هذا، أن السنوات التي تلت حرب 1956، كانت سنوات ملتبهة وملاى باحتمالات تفجر الصراع المسلح مع العدو الإسرائيلي في أية لحظة، إلى جانب الدروس المستفادة من العملية الأنجلوفرنسية، فقد كان من الواجب على قيادة سلاحنا الجوي، أن

تتصرف قبيل 5 يونية 1967 على ضوء  
الاعتبارين التاليين:

1 - إن معظم المطارات والقواعد الجوية  
المصرية، ليست سرًا حربيًا مصونًا على  
المستوى القومي، ولكنها قبل تفاصيلها  
وأدق منشآتها معروفة لدولة أجنبية واحدة  
كانت تحتل هذه المطارات وهي إنجلترا،  
وإن هذه الدولة الأجنبية كانت شريكًا للعدو  
الإسرائيلي في حرب 1956 كما سبق أن  
شرحت.. وهذا أمر - من المفروض - أنه كان  
معروفًا لمخابراتنا العسكرية عمومًا،  
ولمخابرات السلاح الجوي على وجه  
الخصوص.. وهنا كان من المحتم على  
القيادة المصرية، أن تسارع بالتخلي عن  
هذه المطارات، وإنشاء بديل لها تتوافر له  
السرية الواجب توافرها للمطارات الحربية،  
أو على الأقل - وهذا أضعف الإيمان كما  
يُقال - الإسراع بتغيير معالم ومنشآت هذه

المطارات، بحيث يتعذر على العدو أن ينال منها بسهولة، لو سولت له نفسه مهاجمتها.

2 - إن عملية ضرب الطيران المصري الجاثم على الأرض - التي تمت بنجاح ساحق عام 1956 - كانت تحتم على قياداتنا أن توفر لهذا الطيران وسائل الحماية السلبية، أثناء تواجده على الأرض، سواء بالدعم أو بالتمويه.

ولكن هذه الدروس وغيرها، مرت دون أدنى استفادة منها لضمان الحماية اللازمة للطيران المصري، وتأمينه من تكرار نفس الضربة التي تعرض لها من قبل، ولنفس الأسباب التي كان من السهل تلافيها.

ونصل أخيرًا إلى الحديث عن الأخطاء التكتيكية التي تمتزج فيها أخطاء التخطيط القتالي، بأخطاء التخطيط المعنوي للقوات المسلحة عمومًا والقوات الجوية بالذات.. لقد تردت القيادة المصرية - وعلى أعلى مستوى

مع الأسف - في هاوية. خطأ غريب كان تأثيره من الناحيتين العسكرية والبحثة والنفسية بالغاً، سواء على نفس المقاتل المصري، أو المواطن المدني.

يتمثل هذا الخطأ في التظاهر بالاستعداد للهجوم لردع العدو، مع تبييت النية في واقع الأمر، ومن واقع الخطط الفعلية على الاكتفاء بإرهاب العدو، والتصدي له بالدفاع، إذا أقدم هو على الهجوم.

وقد يتصور بعض المتفائلين، أن هذا التناقض بين ما فعلته القيادة والتظاهر بالاستعداد للقيام بعمليات هجومية لردع العدو، فضلاً عن تدميره كما قيل أيامها.. وبين تبييت النية على الاكتفاء بالدفاع - كان تناقضاً ظاهرياً فقط، هدفه القيام بحرب نفسية ضد العدو، لإرهابه وإرغامه على التراجع عن مواقفه العدوانية ضد سوريا التي كانت تتعرض وقتها لغارات مستمرة من العدو

الإسرائيلي ولكن الحقيقة الفعلية لا تتفق مع الأسف مع هذا الافتراض الحسن النية الذي تنفيه الحقائق التالية:

1 - في بداية تفجر الأزمة - في مايو 1967 - تلقت قيادات الوحدات والأسلحة المختلفة الأمر اليومي رقم «1» الذي يعلن حالة الاستعداد القصوى ابتداءً من يوم 15 مايو، وطالب هذه الوحدات بأن تتجه إلى مناطق التجمع والانتشار المخصصة لكل منها، استعدادًا للقتال على الجبهة الإسرائيلية، طبقًا لسير العمليات.

وفي الوقت الذي يصدر فيه هذا الأمر اليومي، الواضح الدلالة على الاستعداد للقيام بعمليات هجومية، تصدر الأوامر لهذه الوحدات بأخذ مواقع انتشار هجومية، مما يضع هذه القوات من الناحية النفسية - على الأقل - في حالة تعبئة لا مجال لتفريغ شحنتها طبيعيًا، إلا بدفعها ضد العدو، إذا

أردنا حماية هذا المقاتل من صدمة نفسية تفقده الثقة في نفسه، وفي سلاحه، وفي قيادته على السواء.

2 - لم تكتف القيادة بهذا الأمر اليومي - السري - بالاستعداد وأخذ مواقع الهجوم، بل حولت الأمر إلى مظاهرة علنية، سواء في التصريحات التي تهدد العدو بالفناء، أو في استعراض القوات الذاهبة إلى الجبهة، وكأنها ذاهبة إلى مهرجان أو عيد، وليست متجهة لمواجهة تصادمية مع العدو.

3 - في الوقت الذي أخذت فيه القوات - البرية على الأقل - وضع الانتشار للهجوم، كانت الأوامر العليا السرية - بناء على الاتصالات السياسية الدائرة وقتها سواء مع سكرتير الأمم المتحدة، أو مع الاتحاد السوفيتي - تقضي بالوقوف موقف الدفاع، وعدم البدء بالهجوم.. والفرق رهيب، بين مقاتل يأخذ موقف الهجوم وقيادته تبين النية على



الدفاع فقط، وبين مقاتل يأخذ موقف الدفاع فعلاً؛ لأن قيادته لا تبيت النية على البدء بالهجوم.

4 - وحتى لا يكون هناك أدنى شك في صحة ما نذهب إليه من حدوث هذا التناقض بين إعلان الاستعداد للهجوم، وتبيت النية على الاكتفاء بالدفاع، فإنني أقرر هنا - للحقيقة والتاريخ وحدهما وكشاهد على 5 يونيو وما جرى فيه من أخطاء، إنني كقائد للواء القاذفات الاستراتيجية الثقيلة، وحتى الساعة 9.20 من صباح الاثنين 5 يونيو 1967 - لم يكن عندي أي إخطار أو حتى مجرد تلميح من غرفة العمليات المركزية للقوات الجوية المصرية، باقتراب الحرب، أو مجرد احتمال نشوب العمليات في وقت قريب، ولو كانت قيادة القوات الجوية - في ذلك الوقت - عندها أي تصور لهذا الاحتمال، لما أعطتني التصريح بالطلعة التدريبية

التي صحبت فيها خمسة من طياري اللواء في التاسعة والرابع من ذلك الصباح المشؤوم حينما فوجئت بعد خمس دقائق من مغادرة طائراتنا للقاعدة اللواء التي انطلقنا منها، بخبر ضرب الطائرات الإسرائيلية لها.

وقد يحاول البعض أن يرجع تلك الهزيمة غير الطبيعية إلى عوامل القصور في الإمكانيات المتاحة - وهو ما أسلفنا الحديث عنه - كالنقص العددي الملحوظ في وسائل الدفاعات الأرضية الثابتة كالمدفعية المضادة للطائرات، أو نقص الإمكانيات في الأسلحة الحديثة التي تم تزويد هذه الدفاعات بها، كالصاروخ أرض - جو «سام/2» الذي كان عاجزًا بحكم تصميمه عن التعامل مع الطائرات ذات الارتفاعات المنخفضة، مع العجز المتوفر من أجهزة الكشف الراداري عن اكتشاف الأهداف المتحركة التي تقترب من ارتفاعات

منخفضة، كما فعلت طائرات الموجهات الأولى في ضربة 5 يونية.

ورغم ما في هذا الدفاع من صدق وواقعية، لا نستطيع معها أن ننكر أنه كانت هناك عوامل قصور في الإمكانيات والمعدات المتاحة صباح 5 يونية - فإن هذا العجز في الإمكانيات لا ينفي الحقيقة الأساسية التي تقول:

إن السبب الأول والرئيسي في هزيمة 5 يونية، هو ضخامة حجم الضربة التي تعرض لها سلاح الطيران المصري في ذلك الصباح.. وأن هذه الضربة كان من الممكن توقيفها، أو على الأقل حصر آثارها التدميرية في أضيق الحدود، بحيث يستطيع سلاح الجو المصري أن يمتص الصدمة الأولى، وينهض بسرعة للرد عليها بعنف مميت.. لو أن قيادات 5 يونية، كانت جميعها على مستوى المسؤولية التي تصدت لحملها.. سواء من ناحية قدراتها الفكرية البحتة، وتسلحها بأحدث نظريات

الفكر العسكري المعاصر، أو من ناحية أدائها الكامل للواجبات الملقاة على عاتقها واعتبار هذه الواجبات وأدائها بالصورة الصحيحة بلا تواكل أو تقصير - حتى في أدق التفاصيل - هي الدرع الوحيدة التي تحمي هذه القيادات، وتضمن لها الاستمرار المؤثر في مواقعها القيادية الخطيرة.

ولكن هذه القيادات السابقة لم تقم بواجبها، على الوجه الذي يحمي سلاحنا الجوي المصري من الوقوع فريسة لضربة هجومية مفاجئة - كما حدث صباح الإثنين الخامس من يونية عام 1967 - وبدلاً من أن تسعى هذه القيادات إلى الارتفاع بمستوى ما لديها من إمكانيات بشرية وعتاد، عن طريق التدريب المستمر، والتسلح بأحدث نظريات الفكر العسكري الحديث، مع التزام الدقة الكاملة سواء في التخطيط، أو في التقارير التي تُرفع إلى

المستويات الأعلى في القيادتين العسكرية والسياسية..

بدلاً من كل هذا وجدنا بعض القادة يحرصون على رضا المستويات الأعلى - ضماناً لاستمرارهم في مواقعهم - ولو كان ثمن هذا الرضا تقديم البيانات غير الدقيقة، حتى في أخطر اللحظات وأكثرها حرَجًا بالنسبة لقواتنا المسلحة عمومًا، وسلاحنا الجوي على وجه الخصوص.

أسترجع الآن ما ورد في كتاب «حرب الأيام الستة» الذي نشره الصحفي الإنجليزي «راند دلف تشرشل» - ابن السياسي البريطاني الشهير ونستون تشرشل، حيث قال «موشي ديان» بأن من «أكبر أخطائه التي كان من الواجب عليه ألا يتردى فيها عدم عبور قواته لقناة السويس، والاندفاع في صحراء السويس نحو القاهرة».

إن إقرارى المرير بعداد من الأخطاء التي وقعت من جانبنا، لا يعنى أبداً أن أقبل ما في هذا القول من تفاخر كاذب، أساسه المبالغة المفضوحة، التي يعرف ديان نفسه عدم صحتها، وعدم قدرة قواته على التقدم شبراً واحداً وسط الأرض المصرية المأهولة بالسكان، خشية أن تغرق هذه القوات في بحر الكثافة السكنية لأبناء مصر، القادرين على التعامل جيداً مع العدو، دفاعاً عن أرضهم.

تلك حقيقة أثبتتها معارك أكتوبر المجيد، عندما اندفع «آرييل شارون» بقواته غرب القناة في الثغرة التي اخترقها بمعركته التليفزيونية الشهيرة - كما أسماها بحق جنرال بوفر أستاذ الاستراتيجية الفرنسي الشهير - حيث واجه الجنرال الإسرائيلي المغامر مقاومة ضارية من أبناء الشعب، جعلت من المستحيل على قوات إسرائيل أن تقتحم مدينة السويس، بل إن هذه المقاومة الشعبية

في معارك أكتوبر، أثبتت لجنرالات إسرائيل أن هذه الثغرة التي كانوا يفاخرون بها، هي أكبر خطأ عسكري فادح ارتكبهوه في حرب أكتوبر، واضطروا للهروب من نتائجه الرهيبة التي كانت تنتظرهم، أن يسرعوا بالانسحاب إلى الشرق من القناة.

ومن هذه الحقيقة العظيمة التي أكدها أبناء شعبنا الذين تصدوا للقوات الإسرائيلية - التي ارتكبت حماقة الغرق في بحر الكثافة السكانية - في أكتوبر 1973، نقول للجنرال ديان: إن الخطأ الحقيقي الذي وقعت فيه المؤسسة العسكرية بتل أبيب في عمليات 5 يونية 1967 ليس هو الوقوف على الضفة الشرقية، وعدم عبور القناة ثم الاندفاع في طريق القاهرة؛ لأن هذه حماقة لو تمت كانت كفيلاً بتحويل النصر الرخيص الذي حصلت عليه إسرائيل عام 1967 إلى هزيمة منكرة حين تغرق قواتها في بحر الكثافة السكانية

المصرية سواء في مدن القناة، أو في الطريق إلى القاهرة.

إن الخطأ الحقيقي الذي تردت فيه العسكرية الصهيونية في 5 يونية هو تنفيذها الحرفي للخطة الأنجلوفرنسية لضرب الطيران المصري عام 1956.. مع الفارق الشاسع بين أهداف الخطة الأصلية، وأهداف التقليد الإسرائيلي للخطة الأوروبية المستعارة.

ولو أننا استعدنا في الذاكرة الظروف والملايسات السياسية التي سبقت حرب 1956 سنجد أنها بدأت بصدد قرار تأميم شركة قناة السويس، وما تلاه من ثورة حكومة إيدن الإنجليزية وحكومة جي موليه الفرنسية، على قرار التأميم، تلك الثورة التي وصلت إلى ذروتها بالعمليات العسكرية التي كانت بدايتها ضرب سلاح الطيران المصري مساء الحادي والثلاثين من أكتوبر عام 1956 .



وهذا يوضح لنا طبيعة الهدف الكامن وراء العمليات العسكرية التي شنتها القوات الأنجلوفرنسية ضد مصر في ذلك الوقت، وهو إلغاء قرار تأمين الشركة الفرنسية بالقوات المسلحة، أو على الأقل الوصول إلى ضمان المصالح البريطانية والفرنسية السابقة في القناة، باعتبار الدولتين من أكبر المساهمين في الشركة الفرنسية المؤمنة.

هو إذن هدف اقتصادي وسياسي بحت، ولا صلة له باستعمار استيطاني لقطعة من الأرض المصرية، أو اقتطاع جزء من التراب المصري، وابتلاعه إلى الأبد في جوف الجنسية الغازية. ونحن لا نقول هذا الكلام مجاملة أو تخفيفاً من وقع العمل العدواني الذي قامت به جيوش الحكومتين في ذلك الوقت؛ فالعدوان عدوان مهما كانت دوافعه، والعدوان أسلوب مُدان، سواء في التعامل على مستوى الأفراد، أو الجماعات أو الدول، ولكننا للحقيقة والتاريخ لا

نتردد في الاعتراف بأن الهدف الأول لعمليات 1956 العسكرية كان هدفًا تكتيكيًا وهو إرغام الحكومة المصرية على التراجع عن قرار اتخذته تحقيقًا لمصالح وطنية بتأميم شركة قناة السويس الفرنسية، وهو هدف اقتصادي بحت.

أما بالنسبة للمؤسسة العسكرية في تل أبيب، حين أقدمت على تقليد الخطة الأنجلوفرنسية، ونفذتها في 5 يونيو 1967، فإن الهدف الاستراتيجي كان مختلفًا تمامًا، وإسرائيل كانت تستهدف بالدرجة الأولى تحقيق مزيد من التوسع على حساب الأرض العربية وانتزاع أجزاء جديدة من الوطن العربي، وسلخها تمامًا وضمها للجسم السرطاني الذي سعت الصهيونية العالمية إلى إقامته حول تل أبيب.

وهذا الاختلاف البين في الهدف الاستراتيجي لكل من العمليتين الأنجلوفرنسية عام 1956، وتقليدها

الإسرائيلي عام 1967، كان يحتم على العسكرية الإسرائيلية وهم ينفذون عملية «طوق الحمامة» ألا يكتفوا بضرب الطائرات والممرات، ثم يسرعوا بالعودة واثقين من أنهم نجحوا في التخلص إلى الأبد من عقدة «ماسادا» الشهيرة، ونقلوها إلى الوجدان العربي الذي أصيب بصدمة دامية سببتها المفاجأة أكثر مما سببتها الضربة ذاتها صباح 5 يونية.

كان على طياري «هود» في ذلك الصباح، لو أنهم كانوا على مستوى فهم الموقف الذي وضعوا أنفسهم أمام تحديده، وتمشيًا مع الطبيعة الدموية للهدف العدواني المرسوم لهم، أن يضربوا تجمعات الطيارين والفنيين المصريين في المطارات التي قاموا بقصفها في ذلك الصباح.. ولو أنهم تنبهوا إلى أهمية هذا الهدف، ودرسوا البيانات الدقيقة التي سُربت لهم لاستطاعوا بالفعل أن يقتربوا من

تحقيق الهدف الاستراتيجي لعمليات 5 يونية الجوية والبرية على السواء؛ لأن إبادة العنصر البشري المدرب - في أية قوات جوية في العالم - تعني شللاً رهيباً لهذه القوات، لا تستطيع النهوض منه، إلا بعد سنوات وسنوات، إذا قدر أن تقوم لها قائمة بعده أصلاً.

فإذا تذكرنا أن سلاح الجو الإسرائيلي هو - كما تسميه دعايات العدو - ذراع إسرائيل الطويلة القوية، فإن إبادة القوة البشرية المعادية التي تعد العماد الأساسي في أي سلاح جوي، تعتبر فرصة العمر التي لا تُعوّض لإسرائيل، ولو أن طياري «مردخاي هود» كانوا على مستوى التحدي الذي واجهوه صباح 5 يونية، وتصدوا لإبادة الطيارين والفنيين المصريين وهم على الأرض، لأُصيب سلاحنا الجوي بضربة العمر فعلاً، ولتأخرت صحوته سنوات لا يعلم إلا الله وحده مداها، وهي سنوات كانت كافية لكي تدع لسلاح إسرائيل

الجوي أن يفرض على الإنسان العربي من حوله، كل ما تريد المؤسسة العسكرية بتل أبيب، أن تفرضه من قرارات التوسع والاستعمار الاستيطاني الذي لا حدود لجشعه. إنها غلطة العمر، وقع فيها - لحسن الحظ - «هود» وطياروه لقصور في الخيال العسكري الإسرائيلي.

ولو أن الجنرال «هود» كان على مستوى الموقف من ناحية الفهم السياسي والعسكري لأهداف عملية «طوق الحمامة» وعرف أنها عملية إبادة ضد قوات العدو الجوية - بشرًا وعتادًا - وليست كالعلمية الأنجلوفرنسية، مجرد عملية تعطيل لقدرات العدو القتالية، تمهيدًا لانتزاع قرار اقتصادي وسياسي محدد.. لو عرف هذا الفارق الجوهرى، وسعى للحصول على البيانات اللازمة الضرورية وأمر طياريه بضرب الطيارين والفنيين المصريين، قبل الاهتمام بضرب الطائرات والمعدات، لكان 5

يونية نهاية مؤلّمة لسلاح الجو المصري،  
كسلاح فعّال في الحرب، وبداية لعقدة عربية  
رهيبة، تتوارثها أجيال الطيارين العرب إلى  
الأبد.

ولو لم يرتكب جنرال الجو الإسرائيلي  
«هود» وطياروه هذا الخطأ القاتل بالنسبة لهم،  
ونجحوا في ضرب الطيارين والفنيين  
المصريين - لكان في وسعهم بعد أن تخلصوا  
من هؤلاء الرجال الشجعان أن يكذبوا ما شاء  
لهم الكذب، ويدعوا ما شاء لهم الادعاء عن  
بطولات رهيبة، يبذرونها في عقل الإنسان  
العربي يصنعون بها «ماسادا» عربية رهيبة.

لقد زعم العدو الإسرائيلي وقتها أنه نجح في  
القضاء على سلاح الجو المصري في عام  
1967 - بعد إصابته بضربة 5 يونية - وأنه  
نجح بهذا في إخراج الطيران المصري من  
المعركة تمامًا، بعد أن عجز الطيار المصري عن  
مواجهة خصمه الإسرائيلي. هذه أيضًا إحدى

الأكاذيب الضخمة التي صاحبت 5 يونية وانتشرت في ضبابه الذي صنعتها أجهزة الحرب النفسية الإسرائيلية؛ إذ لم يحدث إطلاقاً أن اختفى الطيران الحربي المصري عن المعركة، وحتى في يوم 5 يونية بالذات - وهو اليوم الذي يمثل قمة المفاجأة وذروة الصدمة لسلاحنا الجوي - أثبت الرجال الشجعان أنهم أجنحة مصر القوية، القادرة على التحليق حتى في مواجهة أشد العواصف عنفاً وغدراً.

وحتى نكون ملتزمين بأصول الفكر العسكري، في حديثنا عن هذه النقطة بالذات، فإننا نشير إلى أن تعبير «اختفاء الطيران من المعركة» معناه العلمي والعملية على السواء «شلل القوات الجوية شللاً تاماً يؤدي بها إلى توقف جميع العمليات الجوية هجومية كانت أم قتالية؛ بسبب عجز السلاح الجوي عن القيام بأية طلعات تقتضيها العمليات العسكرية، سواء طلعات الحماية والمعاونة

للجيوش البرية، أو طلعات الهجوم لتدمير أهداف العدو الثابتة أو المتحركة».

وعلى هذا المستوى العلمي لتعريف اختفاء الطيران، فإن سجلات غرف العمليات على الجانبين - المصري والإسرائيلي على السواء - تقطع بأن الطيران المصري لم يختف عن المعركة عام 1967. رغم عنف الضربة المفاجئة التي تلقاها سلاحنا الجوي صباح 5 يونيو، ورغم ارتباك القيادات المصرية في ذلك الوقت، وتأخرها في استعادة قدرتها على التفكير السليم واستعادتها للسيطرة على قواتها، ورغم قلة العدد في غرف العمليات الفرعية للقوات الجوية بكل تجهيزاتها البدائية في ذلك الوقت، ورغم تأخر هذه القيادات في إخطار المطارات التي لم تكن قد تعرضت للقصف الجوي، ببدء العمليات الهجومية المعادية في التاسعة إلا الربع من صباح 5 يونيو.



لقد أثبت الطيار المصري المقاتل أنه جدير بالثقة التي منحها له الشعب، وأنه قادر فعلاً على تأكيد وجوده، وإثبات قدراته القتالية والهجومية في ظروف لو تعرض لها خصمه الإسرائيلي لأسرع بالهرب بعد أن يلقي بحمولته من الذخيرة بعيداً عن الهدف، كما كان الطيارون الإسرائيليون يفعلون في حرب أكتوبر، نجاة بأنفسهم من جحيم الدفاعات المصرية الثابتة والمتحركة على السواء.

ولو أننا عكفنا على حصر كل ما ورد في سجلات العمليات الجوية في 5 يونيو، من عمليات شجاعة قام بها طيارونا الأبطال لاستغرقنا العديد من المجلدات المليئة بصفحات الفخار، ولكننا نكتفي بتسجيل بعض الأمثلة لشجاعة هؤلاء الرجال الذين سجلوا بعملياتهم سطور ملحمة بالغة الروعة بأي المقاييس العسكرية، حتى أشد هذه المقاييس عداوة للمقاتل المصري الشجاع:

1 - رائد طيار «محمد سعيد شلش» وزميله النقيب طيار فتحي سليم كانا يعسكران بمطار فايد - القاعدة الرئيسية لطائرات البيج 19 في ذلك الوقت - وكانت مظلة الحماية الجوية قد هبطت إلى أرض المطار في تمام الساعة 8.15 صباح 5 يونية، بعد أن زال الخطر - طبقًا لنظرية الهجوم مع أول ضوء التقليديّة!! وفجأة وفي الساعة 8.47 بدأت الطائرات الإسرائيلية تقصف المطار.

ويسرع الرائد «شلش» والنقيب «فتحي» كل إلى طائرته - اللتين نجتا من التدمير - لكي يقوموا بعمليات قتالية شجاعة يومي 5 و6 يونية.. وفي يوم 7 يونية - حيث كانت القيادة السابقة قد استعادت توازنها - يصدر الأمر للطيارين الشجاعين (شلش وفتحي) بالقيام بطلعة اعتراضية بالغة الخطورة.

إن إسرائيل تحاول إسقاط قوات مظليين في منطقة الممرات بسيناء، بواسطة طائرات «نور أطلس» تصاحبها مظلة حماية ضخمة من طائرات الميراج الحديثة.. وعلى الطيارين «شلس» و«فتحي» أن يعترضوا هذه العملية فورًا.

ويسرع البطلان بتنفيذ الأمر، ويشتبان مع طائرات العدو، وينجح الرائد سعيد شلس في إسقاط طائرة نقل بحمولتها من الرجال المظليين بمعداتهم، كما يسقط طائرة ميراج. أما زميله النقيب «فتحي سليم» فيوقف في إسقاط ثلاث طائرات، واحدة من طراز ميراج، واثنان من ناقلات المظليين، ثم يستشهد عند عودته إلى قاعدته - بعد أن أدى مهمته على أكمل ما يؤدي الرجال مهامهم شجاعة ومقدرة - ويكون استشهاده أثناء نزوله إلى مطار فايد، بسبب حفرة في الممر.

ما رأي الجنرال الخصم «مردخاي هود» في هذين البطلين.. يقومان بما قاما به من عمليات إثر ضربة جوية قاصمة مُني بها سلاحهما الجوي صباح 5 يونية؟! هل يستطيع رغم خصومته وعدائه الشديد لكل ما هو مصري، أن ينكر شجاعة وبطولة مثل هذين البطلين من أبناء شعبنا الأصيل؟ وهل يجرؤ الجنرال الخصم على الادعاء بأن بين طياريه من يستطيع إبداء مثل هذه البطولة في مثل هذه الظروف التي تهزم أشجع الرجال؟

لسنا في حاجة إلى رد الجنرال فنحن نعرف رجالنا وقدرهم، ونعرف أيضًا أن طياريه يعرفون الحقيقة التي حاولت أبواق الجنرال أن تغطي عليها.

2 - الرائد طيار «مدحت المليجي» تنجو طائرته من الضربة الأولى صباح 5 يونية، فيقلع البطل بطائرته - السوخوي - ليقوم بأكثر من طلعة في نفس اليوم.. وفي

الصباح المبكر من يوم 6 يونية، يندفع بطائرته إلى عمق إسرائيل، ليقصف أحد المطارات الإسرائيلية، فيدمر طائرتين جاثمتين على أرض المطار، وعددًا من السيارات والمنشآت، ثم ينجح في الإفلات من مطاردة الطائرات المعادية التي تعقبته، حتى يصل سالمًا إلى الأجواء المصرية فوق قاعدته الجوية في مطار فايد، ولكنه يستشهد في اللحظة الأخيرة؛ لأن وقود طائرته نفذ وهو في الجو قبل هبوطه بلحظات.

3 - رائد طيار «حشمت» وزميله الملازم أول طيار «سعد» يشتبكان بطائرتيهما - الميج 19 - مع دورية إسرائيلية مكونة من اثنتي عشرة طائرة من طراز الميراج، قرب مطار المليز - يوم 8 يونية - وينجح البطلان المصريان في إصابة ثلث القوة الإسرائيلية، ويضطران الطائرات الثماني الباقية للفرار،

بعد معركة جوية شرسة، وعندما ينفذ وقود الطائرتين المصريتين يهبط «حشمت» وزميله «سعد زغلول» بالمظلة.

ويتمكن «حشمت» من العودة وهو جريح - بعد قصة هرب تفوق قصص السينما في براعتها وروعتها - أما «سعد» فيقع في الأسر، ويقوم الإسرائيليون بتقسيم الأسرى الذين كان بينهم «سعد» إلى مجموعتين متساويتين بالعدل والقسطاس..على أن تُجرى عملية اقتراع بين المجموعتين.. بحيث تعدم المجموعة الأولى وتنجو المجموعة الثانية - بعد أن يُفرج عنها - ليعود أفرادها حاملين معهم قصص العدو القادر الذي لا حدود لقدرته.. أملاً في خلق عقدة في عقل ووجدان الإنسان المصري.

ويشاء القدر أن يكون نصيب الطيار سعد في المجموعة المحظوظة التي تقرر الإفراج

عنها.. وبضربة حظ لا أكثر عاد البطل  
«سعد» إلى زملاء السلاح.

4 - نقيب طيار «عروض» كان يقود إحدى  
طائرات الميج 21، وكانت قاعدته الجوية  
في مطار أبوصوير، ورغم عنف الصدمة  
النفسية التي أصيب بها كغيره من الرجال،  
وهو يرى طائرات العدو تضرب قاعدته  
الجوية - بعد أن زال وقت الخطر، كما  
صورت لهم قيادات 1967 - فإنه استعاد  
قدرته على التفكير السريع، ليمتطي طائرته  
الميج 21، ويسارع إلى الاشتباك مع  
الطائرات المهاجمة.

وينجح البطل في إسقاط طائرة ميراج في  
الطلعة الأولى، وينزل إلى أرض المطار  
ليتزود بالوقود والذخيرة، ليكون على  
استعداد لمواجهة العدو في الموجة التالية،  
ويشتبك فعلاً مع طائرات الموجة الثانية،  
ويصيب إحداها.. ولكن طائرته تصاب وهي

على ارتفاع منخفض لا يتجاوز الخمسمائة متر - أثناء قيامه بمناورة عدوه - ويشاء القدر أن يهبط البطل إلى أرضه الغالية حيًّا، ورغم أنه أصيب بعجز بالغ فإنه أصر على الاستمرار في الخدمة، وقَدَّر له سلاح الجو المصري بطولته وإصراره على الاستمرار في خدمة الطيران الحربي، فتقرر بقاءه في الخدمة حتى اليوم.

5 - الرائد طيار «جلال» وزميلاه: النقيب طيار «شحاتة» والنقيب طيار «خميس»: يصدر الأمر للثلاثة يوم الأربعاء 7 يونية، بالإقلاع بطائراتهم السوخوي، لضرب المغارز المتقدمة من قوات العدو في سيناء على القطاع المواجه للإسماعيلية - شرقي القناة - وفجأة وهم فوق مدينة الإسماعيلية - بعد أن أقلعوا من قاعدتهم الجوية - يصدر لهم الأمر وهم في الجو، بالتوجه إلى العريش لضرب أهداف معادية حُدِّت لهم.



ماذا يصنع الرجال وهم في هذا الموقف؟  
الوقود الذي جُهزت به طائراتهم - السوخوي  
أعد أساسًا لرحلة محددة شرقي الإسماعيلية..  
والأمر الصادر صريح التوغل بعيدًا إلى الشرق،  
والوقود لا يكفي.

لقد سارع الشجعان الثلاثة إلى تلبية الأمر  
الصادر لهم من قيادتهم، وتوجهوا على الفور  
لضرب الأهداف التي حددها لهم الأمر الجديد  
حول العريش، وفجأة ظهرت أمامهم مظلة  
ضخمة من طائرات الميراج، واشتبك الشجعان  
الثلاثة مع الدورية المعادية التي تفوقهم عددًا،  
في معركة جوية رهيبة أصابوا فيها، وأصيبوا  
ولم يتخلوا عن أداء واجبهم، حتى آخر نقطة  
في وقود طائراتهم، وحتى آخر طلقة يملكون  
توجيهها إلى صدر عدوهم، الذي عاش عمره  
يهرب من المواجهة ولا يُفكر أبدًا في الدخول  
في عملية عسكرية تضطره إلى القتال  
الحقيقي، رجلًا لرجل، وسلاحًا لسلاح.

ونصل أخيرًا إلى مثل أعتقد أنه لا يزال حيًا - وبشكل بالغ الإيلام - في ذهن العدو الإسرائيلي، وأعني به العمليات الهجومية البطولية، التي قام بها سلاحنا الجوي المصري في معارك 14 و15 يولية عام 1967، وهي المعارك التي بددت إلى الأبد أحلام المؤسسة العسكرية بتل أبيب، في إمكانية شفاء الوجدان الصهيوني المخرب من عقدة ماسادا القديمة، مع زرع هذه العقدة الرهيبة في الوجدان العربي.

ففي ذلك اليوم الذي أثبت صلابه البناء النقي للمقاتل المصري، كان الصلف الإسرائيلي قد بلغ ذروته، وكانت نشوة النصر السهل الذي حصلت عليه إسرائيل في 5 يونية قد وصلت إلى قمة عبثها بالعقل العسكري الإسرائيلي، فتفتق ذهن قادة إسرائيل عن لعبة جديدة يتسلى بها جنودهم الذين كانوا يستحمون في مياه القناة.

وخلال يومي 12 و13 يولية عام 1967 -  
 وجرح الهزيمة في قمة إيلامه للنفس المصرية  
 - أحس رجالنا الرابضون في قطاع السويس،  
 بأن شيئًا غير عادي يجري على الضفة الشرقية  
 التي يحتلها العدو.

كانت عمليات التشوين للمؤن والذخائر  
 وجلب العتاد من الخطوط الخلفية للمقدمة،  
 مستمرة طوال هذين اليومين.. ومعنى هذا  
 ببساطة أن العدو يعد نفسه لعملية جديدة  
 ستكشف الساعات القادمة عن طبيعتها، وفجأة  
 وبدون مقدمات فوجئ الرجال الذين تغلبوا  
 على جرح الهزيمة بشجاعة أسطورية، بالعدو  
 ينزل إلى مياه القناة بقارب به عَلم إسرائيل،  
 وحبس رجالنا أنفاسهم في انتظار ما يقصده  
 العدو بهذه الحركة المسرحية، وإذا بالقارب  
 الصغير يتجه إلى إحدى الشمندرات العائمة  
 التي تتوسط مياه قناة السويس، ليتوقف

بجوارها، بينما يحاول أحد جنود العدو تثبيت العلم الإسرائيلي بالشمندورة.

لقد وضح الأمر إذن أن العدو في قمة اعتزازه بقوته العسكرية، يحاول أن يفرض بالقوة - على طريقته - أمرًا واقعيًا جديدًا وهو تثبيت علمه في منتصف مياه القناة إعلانًا لملكيته لهذه المياه، ورغم ما في هذا التصرف الاستفزازي من سلوك طفولي، لا يقوم عليه فكر عسكري متزن، مهما كان إحساس أصحابه بقوتهم وتفوقهم على العدو الذي يواجهونه، فإن رجالنا لم يطبقوا مشاهدة هذا العبث وهم يقفون موقف المتفرج، ورغم أن قواتنا المسلحة بجميع أفرعها، كانت تجتاز أخطر مراحل إعادة بنائها بعد هزيمة يونية بحجمها الهائل فإن أن أبطال مصر لم يترددوا لحظة واحدة في التعامل مع العدو، رغم معرفتهم الكاملة بالفارق الهائل بين الإمكانيات المتاحة من العتاد والذخيرة على كلا الجانبين.

ومع اندلاع نيران القتال الضاري، كان لا بد  
لسلاحنا أن يسارع بمد يد العون لمقاتلي مصر  
الشجعان، رغم أن هذا السلاح كان يمر في  
الأيام الأولى بفترة نقاهة عصبية، بعد ضربة 5  
يونية الساحقة، وكان ظهور طيراننا الحربي  
في ذلك الوقت هو مفاجأة المفاجآت للعدو.

وبدأ طيارونا ضرباتهم الهجومية المركزة  
على قوات العدو شرقي القناة وفي ذهن كل  
منهم هدف محدد لا بديل له أن يكون لمصر  
سلاح جوي قادر على إثبات وجوده،  
أو لا يكون. وفوجئ العدو الذي كان يفاخر بأنه  
يملك ذراعًا طويلة قادرة، اسمها الطيران  
الإسرائيلي، بأن في مواجهته ذراعًا أخرى لا  
تقل قوة وبطشًا، بل لعلها أكثر قوة واقتدارًا -  
إذا راعينا الظروف العصبية التي كان سلاح  
الجو المصري قد واجهها صباح 5 يونية - وإذا  
بهذا السلاح الذي كان العدو يحلم بأنه قضى

عليه أو أصابه بالشلل، يظهر إلى الوجود بشكل مفاجئ، كما يحدث في القصر السينمائية. مائتا طلعة هجومية - تقريبًا - تمت كلها بنجاح، ودمر فيها طيارونا الشجعان آلاف الأطنان من الذخائر والمؤن، وعشرات النقط الإدارية ومواقع المدفعية والصواريخ والدبابات ونقط الإنذار، تم تدميرها بالكامل؛ بحيث استمرت الحرائق مشتعلة في مواجهة قطاع السويس لبضعة أيام، استمتع بمشاهدتها أبناء المدينة الباسلة أيامًا عديدة.

وكانت النتيجة الحتمية لهذا الجحيم الذي صبّه الطيران المصري على العدو في هذه المعارك - لكي يعاون قواتنا البرية في صمودها الباسل - أن عرفت إسرائيل لأول مرة في تاريخها شيئًا اسمه طلب إيقاف القتال، بعد أن وجدت نفسها في مواجهة نيران ضارية لم تكن تتوقعها، ولأول مرة في تاريخ إسرائيل تستنجد بمراقبي الأمم المتحدة ليسعفوها

بطلب إيقاف القتال بعد أن اضطر جنودها إلى الانسحاب شرقًا من سيناء كلها تقريبًا؛ حتى وصلوا في انسحابهم إلى العريش، هربًا من ضراوة النيران التي صبها عليهم المقاتل المصري جواً وبراً.

الذي نستطيع أن نؤكد الآن، أن هذه النيران التي صبها رجالنا على العدو في هذه المعركة، لم تدمر ذخائر العدو ومعداته فحسب، ولم تحرق رجاله وما يمتلكونه من سلاح فقط، ولكنها أحرقت ودمرت قبل كل شيء، جنون العظمة الذي كان قد استبد بجنرالات المؤسسة العسكرية في تل أبيب.. واستطاع رجالنا بشجاعتهم الأسطورية وسيطرتهم الكاملة على ما كان متاحًا لهم في ذلك الوقت من طائرات، أن يبددوا حلم جنرالات تل أبيب في شفاء الوجدان الصهيوني من عقدة ماسادا الشهيرة، كما أثبتت هذه المعارك بلغة ضارية أن

الوجدان الأصيل للمقاتل المصري الشجاع يستعصي على الانهيار.

هناك كلمة حق لا بد أن نقولها في ختام هذا الجزء، بعد أن قمنا بتحليل لعملية «طوق الحمامة» تحليلًا علميًا هادئًا، بعيدًا عن ضجيج الدعايات المغرضة، واستطعنا بهذا التحليل الموضوعي - القائم على قواعد الفكر العسكري الحديث المعترف به منا ومن العدو - أن نكشف الأصل الأنجلوفرنسي الذي نقل عنه الجنرال «مردخاي هود» عملياته الهجومية نقلًا حرفيًا، ووقع خلاله في غلطة لا تغتفر، حين غفل عن الفارق الهائل بين الهدف الاستراتيجي للأصل الأنجلوفرنسي والتقليد الإسرائيلي.

إن واجب الإنصاف - حتى للخصم - يفرض علينا الآن، أن نقول كلمة حق لا مجال لإنكارها؛ لقد كان للجنرال «مردخاي هود» - وطياريه الذين نفذوا عملية 1967 دور بالغ الأهمية في



النجاح الساحق الذي حققه سلاح الجو المصري في العملية الهجومية «صدام» التي نفذها طيارونا المقاتلون بإحكام بالغ ظهر السادس من أكتوبر عام 1973 .

ونحن لا نقول هذا الكلام من باب السخرية بالعدو، ولا نسوق هذا القول من باب الشماتة بخصم نلنا منه في 6 أكتوبر، في اللحظة التي وصل فيها هذا الخصم إلى قمة غروره وتعالیه وتطاوله على مقاتلينا، بالسخرية التي تجاوزت حدود السفه، فضلاً عن حدود الاتزان التي يجب ألا يتخطاها عدو عاقل يؤمن بأن الخصم عنده دائماً ما يخفيه. ولكننا نسجل للحقيقة والتاريخ، أنه لولا ضربة 5 يونية الإسرائيلية بكل مرارتها على نفس المقاتل المصري، لما تحقق النجاح الساحق الذي تحقق لنا في ضربة 6 أكتوبر الهائلة.

نقولها الآن صريحة وبلا مواربة: إنه كان من المستحيل أن يبقى سلاح الجو المصري إلى ما

لا نهاية، خاضعًا لسيطرة النظريات العسكرية البالية التي سادت الحرب العالمية الثانية، وانتهت من الوجود بانتهاء تلك الحرب.

وكان من المستحيل أيضًا، أن يظل سلاحنا الجوي أسير النظرية المفاضلة بين «أهل الثقة وأهل الخبرة» التي فرضتها على مجتمعنا مراكز القوى، بكل ما جرته هذه النظرية من حظوة من لا يستحق، وتجاهل من يستحق، وما سببته تلك النظرية من مخاطر وكوارث وصلت إلى ذروتها صباح 5 يونية.

وكان لا بد من نار هائلة تحرق هذه الأخطاء، وتزيح كل ما يعوق الطريق، لكي يتابع شعبنا مسيرته بلا أخطاء وبلا معوقات.

لم يكن طيارو «مردخاي هود» يتصورون أنهم صباح 5 يونية عام 1967، يقدمون لسلاح الجو المصري - بل لشعب مصر كله - خدمة العمر. لم يكن طيارو مردخاي هود يتصورون أن مئات الصواريخ وقنابل الممرات

التي ألقوا بها على المطارات المصرية، كانت تفسح الطريق أمام جيل جديد من القادة، وأمام فكر عسكري جديد، طال بسلاحنا الجوي انتظار وصوله.

إن الصواريخ والقنابل الإسرائيلية لم تدمر فقط طائراتنا، بل دمرت وأحرقت أيضًا كل ما كان يعوق سلاحنا الجوي، من فكر عسكري متخلف، وأخطاء في التخطيط، وإهمال في التنفيذ، وإذا كانت الحياة لا تنشأ من عدم، ولا تعيش في فراغ، فقد فرض الأمر الواقع نفسه، وفتح الباب على مصراعيه لجيل جديد من القيادات المسلحة بالفكر والموهبة والممارسة.

جيل كان قد استوعب تمامًا درس النكسة بكل مراراتها، وتقدم ليسير في الطريق الطويل طريق الألف ميل، الذي كان محتمًا أن يصل به إلى ملحمة 6 أكتوبر الرائعة، ملحمة كانت مقدماتها الرائعة في سنوات الإعداد والبناء،

التي سماها قائدنا الأعلى - الرئيس محمد أنور  
السادات: سنوات الصبر والصمت.

”... إن أقسى ما  
 تواجهه النفس  
 البشرية هو  
 الاعتراف بالخطأ.  
 وما نرجوه من وراء  
 هذه العملية القاسية  
 على النفس أن نضع  
 أمام الأجيال المقبلة  
 من مقاتلينا، خريطة  
 دقيقة وأمينة  
 لأحداث يوم لن

# يتكرر في حياة الأمة العربية..“

## كشف حساب الهزيمة

قال الرئيس أنور السادات في ورقة أكتوبر: «ليكن واضحًا أننا نبني ولا نهدم، نصحح ولا نحطم، نطور وندعم كل ما هو إيجابي، بقدر ما نصفي ما هو سلبي، نكشف الأخطاء في غير مغالاة، ونرفض كل محاولة لتركيز الأضواء كلها على الجوانب السلبية، حتى تختفي من الصورة كل الجوانب المشرقة».

والدارس المحقق لعبارة الرئيس السادات يجد فيها المعنى الذي تأكد في سنوات الصمود والإعداد قبل المعركة، أو خلال المعركة نفسها أو بعد إيقاف القتال. إن الأمم العظيمة لا تبنيتها إلا الآلام العظيمة.. والخيط الدقيق - الوحيد - الذي يفصل بين صفار الأمم وكبارها، هو كيفية اجتيازها للمحن الكبيرة، والروح التي تواجه بها الآلام العظيمة، التي

تمتحن بها الأمم في المواقف الحاسمة من تاريخها.

إن بعض الأمم تنهار عند أول نازلة تلمُّ بها، لكن البعض الآخر يستعصي على الانهيار، ويتأبى على التحلل والضياع. والأمة ذات الأصل العريق الضارب في أعماق التاريخ تمد الفرد أولاً وأمته من بعده، بالدرع التي تقي الفرد والأمة على السواء بأسباب البقاء وتسلحه بعناصر المقاومة اللازمة لاجتياز المحنة مهما عظمت، وتخطي الهزيمة مهما اتسع حجمها.

التاريخ البشري مليء بالأمثلة الحية على هذه الظاهرة الفريدة.. ويكفي أن نذكر شعوباً كاليابان والألمان، اجتازت أخطر ما يواجه الشعوب من محن، وهو الهزيمة الساحقة في حرب لا تتوقف إلا بالاستسلام الكامل لشروط الخصم المنتصر.. ورغم قسوة هذه الشروط فإن اليابان أو ألمانيا سرعان ما استعادت



نفسها، وضممت جراحها، لتنتقل من جديد مؤكدة وجودها المادي والحضاري كقوة ثالثة أو رابعة لعالمنا المعاصر.

إن ظاهرة التفوق على المحنة، واجتياز الهزيمة السريعة - شبه الساحقة - تحققت كذلك على أرضنا المصرية بصورة رائعة أكثر إعجازًا، وأكثر اقتربًا في حجمها المضيء، من جو الأسطورة التي يصعب على العقل تصديقها، لو أخضعنا الحوادث والمقدمات لمقاييس النتائج المنطقية المترتبة عليها.

ولعل بداية التفوق المبكر على المحنة التي حدثت بسبب ضربة 5 يونية، كان هو المواجهة الصريحة مع النفس، التي بدأت بالتغيير الجذري الذي تم في أعلى مستويات القيادة العسكرية يوم 12 يوليو 1967 وبعد ثلاثة أيام فقط من قبول القيادة السياسية المصرية لقرار وقف إطلاق النار، الذي كان مجلس الأمن قد أصدره.

إن تغيير القيادة - في أي مجال من مجالات العمل البشري مدنيًا كان أم عسكريًا - يعني بالضرورة تغييرًا حتميًا في الفكر الذي تنتهجه القيادة الجديدة، وما يؤدي إليه تغيير الفكر من تغيير في مناهج التخطيط وأساليب التنفيذ معًا. والتغيير الجذري الذي تم في القيادة العسكرية المصرية على أعلى مستويات هذه القيادة - بدءًا من القائد العام للقوات المسلحة كلها، إلى قادة الأسلحة المختلفة، ورؤساء الأركان وغرف العمليات - أدى إلى ظهور روح جديدة طال بقواتنا المسلحة الشوق إليها، وتجلت هذه الروح الجديدة الشابة في وضع خطة عاجلة لمواجهة المهمة الخطيرة، التي ألقته الحوادث والظروف على كامل القيادة الجديدة.

كان شعب مصر - ومن ورائه الأمة العربية - يعيش أفظع محنة واجهها في تاريخه الحديث.. كانت هزيمة يونية أبشع من أن

تُحتمل، وتكفلت أجهزة الحرب النفسية لدى العدو بتضخيم حجم الهزيمة بشكل رهيب، ما دفع بالرئيس الراحل «جمال عبدالناصر» - إلى إعلان تخليه عن موقعه كرئيس للجمهورية، متحملاً وحده - كما أعلن في بيان تنازله مساء الجمعة التاسع من يونية - مسؤولية الهزيمة الراهية.

كان هول الصدمة قد أشاع الضباب الذي تضيع فيه الرؤية الصحيحة، بحيث لم يجد المرحوم الرئيس السابق «جمال عبدالناصر» في ذلك الوقت - أمامه من طريق للخروج بمصر - وبالأمة العربية سوى قرار الاستقالة، ليفسح المجال أمام رئيس جديد قد تلوح له فرصة الخروج - بشكل أو بآخر - بالشعب من هذا الطريق المسدود.

إلا أن الشعب المصري - بكل أصالته العريقة، وبصلابة أسطورية معجزة أذهلت الخبراء والمحللين - رفض هذا الحل، وأعلن الشعب -

وشاركته الأمة العربية في مظاهرات تاريخية لا تُنسى - أن استقالة عبدالناصر ليست الطريق السوي الموصل إلى الحل الصحيح؛ لأن أي تغيير داخلي في شكل الحكم وقيادته، وفي هذه الظروف العصيبة، يعني قبول الشعب لحل أجنبي فرضه العدو بقوة السلاح.

هذا الشعب المصري بكل عناده وبكل صلابته التي تحطمت على شواطئها كل موجات الغزو الأجنبي طوال عصور التاريخ، ليس بالرخو الذي يقبل الهزيمة، أو يستسلم لحلول أجنبية تفرضها الهزيمة مهما كان اتساع حجمها. وكان رد الشعب المصري في يومي 9 و10 يونية حاسمًا وقاطعًا.. لا قبول للهزيمة، ولا اعتراف بها، ولا استسلام لنتائجها، وبالتالي.. فلا رضا بالأسباب التي أدت إلى وقوع الهزيمة وحولتها إلى ما يشبه الكارثة.

استجابت القيادة السياسية المصرية لقرار الشعب، فتراجع عبدالناصر عن قرار الاستقالة

من جهة، وأسرع باتخاذ الخطوات الضرورية لتلافي أسباب الهزيمة من جهة أخرى، وكانت أولى هذه الخطوات.. قرار إعفاء القيادات العسكرية السابقة، وفتح الطريق أمام جيل جديد من القيادات، ليتولى المسؤولية في أخطر الساعات التي واجهها شعب مصر في تاريخه الحديث.

لقد أدى الشعب واجبه، فرفض الهزيمة، ورفض الحلول الأجنبية التي كان يتحتم عليه أن يقبلها لو أنه استسلم لتلك الهزيمة.. وعلى القيادة الجديدة أن تقوم هي الأخرى بواجبها بنفس الشجاعة والصلابة.. وواجب القيادة العسكرية الجديدة كان يتلخص في عبارة بسيطة في كلماتها، رهيبة في معناها ومدلولها العملي.. وهي «إعادة بناء القوات المسلحة»... عملية كانت تقتضي بناءً سليماً وعلى أساس صحيح، يؤمن بالفكر الحديث ومناهجه في بناء الجيوش بذاً وبحراً وجواً.

كان على الجيل الجديد من قادة العسكرية المصرية إذا أراد النجاح في مهمته الصعبة، أن يُنفذ في حربية صارمة القواعد التي ينادي بها الفكر العسكري الحديث، عند إعادة بناء الجيوش التي خرجت من هزيمة مرة، أملاً في وضع هذه الجيوش على الطريق الذي يؤدي بها إلى النصر، وتتلخص هذه القواعد في النقاط التالية:

**أولاً:** تحديد الأخطاء التي أدت إلى وقوع الهزيمة، تحديداً دقيقاً يخلو تماماً من أي أثر للمجاملة التي تدفع أحياناً إلى إخفاء بعض الأخطاء إخفاء تاماً - كما كان يحدث قبل 5 يونيو - أو التهوين من خطرها لو تم عرضها بسرعة وإيجاز.

كما يجب أن تخلو عملية تحديد الأخطاء - وحصرتها - من الوقوع في براثن المغالاة والتضخيم - سواء بدافع الكراهية للقيادات التي تسببت بأخطائها في وقوع الهزيمة، أو

بدافع الإحساس المدمر بالذنب، الذي يتحول في كثير من الحالات إلى عقدة نقص رهيبة تدمر نفسية الإنسان المهزوم - مدنيًا كان أم عسكريًا - وتدفعه لا شعوريًا إلى التضخيم من حجم أخطائه بنفس القدر الذي يتضخم به حجم انتصار الخصم.

هذا المنزلق الخطر - الذي تعرضت له بعض الشعوب المهزومة يؤدي بها في النهاية إلى الاستسلام الكامل للهزيمة، والقبول بمنطقها الظالم، الأمر الذي ينتهي بمثل هذه الشعوب في الغالب إلى فترة ركود حضاري، قد تمتد إلى ما لا نهاية، وقد تصل بالشعب الذي أسلم نفسه - عقب الهزيمة - لعقد الإحساس بالذنب إلى التحلل والضياع في بحر الوجود البشري الواسع.

**ثانيًا:** الانتقال من تحديد الأخطاء - سواء في التخطيط أو التنفيذ إلى تحديد حجم الخسائر الناتجة عن الأخطاء التي تردت فيها

القيادات المهزومة، وهذه العملية بالذات تعتبر من أخطر العمليات التمهيدية التي تسبق مباشرة الانطلاق في عملية البناء العسكري للجيش التي اکتوت بنار الهزيمة.

والسبب في أهمية عملية حصر الخسائر، وتحديد حجمها بدقة أنها تضع أمام القيادة العسكرية الجديدة - التي تتصدى لإعادة البناء خريطة شاملة لموقفها العسكري، وتساعد بالتالي على تحديد حجم الجهد المطلوب من هذه القيادة، وبمعرفة المساحة الزمنية المتاحة أمامها لتحقيق البناء الجديد لقواتها.

ومن هنا فإن عملية «حصر الخسائر وتحديد حجمها» - عقب الهزيمة - يجب أن تسير في مجموعة من الخطوط المتوازية، التي تتحرك كلها في وقت واحد، وفي اتجاه واحد، يؤدي إلى نتيجة لا بد من الوصول إليها، وهي.. معرفة ما حدث بالضبط وعلى وجه الدقة.. وتحديد ما ضاع.. وما بقي بين يدي القيادة



الجديدة. وكل هذا يحتم أن تشمل عملية حصر الخسائر النوعيات التالية:

1 - الخسائر المادية في المعدات العسكرية من سلاح وذخيرة وحجم الخسارة في كل نوع بالتحديد.

2 - الخسائر البشرية في المقاتلين - استشهادًا أو إصابة - مع تحديد نسبة الخسائر في كل نوعية من المقاتلين.

3 - الخسائر الاقتصادية، التي تعرضت لها الوحدات الاقتصادية والإنتاجية - داخل الوطن - وتحديد أثر هذه الخسائر على حركة الاقتصاد الوطني وقدرته على الوفاء باحتياجات القوات المسلحة، وخاصة في مرحلة إعادة البناء العسكري.

4 - وأخيرًا - وليس آخرًا - يتحتم القيام بعملية تحديد بالغة الدقة لحجم الخسائر المعنوية التي أصابت نفسية المواطن - مدنيًا كان أم عسكريًا - من أثر الهزيمة العسكرية.

إن المدارس التقليدية - في الفكر العسكري - لا تُعنى العناية الكافية بعملية حصر الخسائر المعنوية الناتجة عن الهزيمة، سواء أكانت هزيمة استراتيجية شاملة، أم هزيمة تكتيكية مرحلية، لكن المدارس الحديثة تعطي لهذه العملية المعنوية أهمية قصوى تتوازي تمامًا مع حجم الضربة العسكرية المعادية، إيمانًا من الفكر المعاصر بخطورة الحرب النفسية الحديثة وقدرتها التدميرية الفائقة التي تفوق في كثير من الأحيان قدرة أخطر الأسلحة على الفتك والتدمير.. لأن هذه الحرب النفسية البشعة لا تستهدف تدمير ما أقامه الإنسان على أرضه من مظاهر الحياة ومؤسساتها، ولكنها تتجه مباشرة إلى هذا الإنسان ذاته تقتل روحه، وتدمر نفسه، وتتركه حطامًا مشلولًا، لا نفع فيه لنفسه ولا خوف منه ولا خطر على خصمه.

**ثالثًا:** تحديد الهدف المقصود تمامًا من عملية إعادة البناء العسكري. ورغم أن هذه الخطوة قد تبدو في ظاهرها خطوة سياسية بحتة، وخارجة على نطاق العمل العسكري التقليدي لأية قيادة حربية؛ لأنها مرتبطة بالرسالة والهدف الاستراتيجي القومي للجيش، وهو هدف ترسمه القيادة السياسية العليا للدولة، وتستوحيه من ضمير الأمة ورسالتها الحضارية التي تؤمن بها على المستويين: الإقليمي المحلي، والإنساني العالمي.

فإن هذا المظهر السياسي الخارجي لرسالة الجيش يحوي في حقيقته مضمونًا عسكريًا خالصًا، ويضع على كاهل القيادة العسكرية أخطر مهامها من الناحيتين - الاستراتيجية والتعبوية - لأن تحديد المهمة المطلوبة من أي جيش، سواء أكانت هذه المهمة دفاعية أم هجومية، هو الذي يرسم الخطوط العريضة

التي يتحتم أن تسير فيها عملية بناء هذه الجيوش، إعدادًا وتدريبًا وإمدادًا. كما أن تحديد الهدف من إعادة بناء الجيوش، هو الذي يضع خريطة الموقف العسكري الذي يحدد للقيادة الجديدة مسرح العمليات المحتملة، وحجم هذه العمليات واحتياجات القيادة التي تضع الخطط المستقبلية من العتاد والرجال كمًّا ونوعًا.

**رابعًا:** تأتي مرحلة إقامة البناء المستهدف بعد كل هذه الدراسات الدقيقة، وهي مرحلة التنفيذ وتحويل الخطط إلى واقع ملموس ينتقل بالأرقام المجردة على الورق إلى أعداد هائلة من الرجال والنساء، تلك القدرة - كمًّا ونوعًا - على فرض الإرادة الوطنية على العدو، وتحول الهدف القومي الذي ضحى المواطن العادي من أجله إلى واقع مشرف لهذا المواطن، يعطيه الإحساس بالأمن على أرضه،

والثقة بنفسه وبقواته المسلحة، والرضا الكامل عن كل ما بُذل وقُدِّم من تضحيات.

وإذا كانت المراحل الثلاث السابقة - القائمة على التخطيط البحت - تستلزم الدقة الكاملة في إعطاء البيانات، ورسم الخطط المستهدفة، فإن المرحلة الرابعة والأخيرة - وهي مرحلة التنفيذ العملي لكل ما سبق رسمه من خطط وأهداف - تحتاج في نجاحها إلى ثلاثة عوامل مهمة لا بد من توافرها، لكي تتم مرحلة التنفيذ بأكبر قدر من النجاح، الذي يحول عملية إعادة البناء العسكري من مجرد حُلْم قومي، إلى واقع عملي يسعد به الشعب، ويكتوي الخصم بناره المحرقة، وهذه العوامل الثلاثة هي على وجه التحديد:

1 - الدقة الكاملة في تنفيذ الخطط الجزئية ومشروعات التدريب دقة لا تعرف التساهل، ولا تتغاضى حتى عن أبسط الأخطاء خاصة ما نشأ عن الإهمال أو التقصير.. وهذه مهمة

القيادة على جميع المستويات، ابتداءً من قائد الجماعة الصغيرة، وانتهاءً برؤساء الأركان وكبار القادة.

2 - الصبر - الذي لا يعرف الملل - على مشاق التدريب ومصاعبه طوال مراحل إعادة البناء، وهذه مهمة كل الرجال.. القادة والمقاتل العادي سواء بسواء.

3 - المرونة التي لا تتوقف أمام المشاكل الطارئة التي تتكشف أثناء التنفيذ العملي للخطط والمشاريع التدريبية.

عامل المرونة من أخطر العوامل في عملية إعادة البناء العسكري للجيش؛ لأن القائد المرن - مثل المقاتل المرن - لا يعترف بالمستحيل، ولا يتعلل حتى أمام نفسه بالمصاعب، بل يعمل جهد طاقته على تخطي كل ما يواجهه إن كان فردًا مقاتلاً أو يواجهه رجاله من عقبات إن كان قائدًا مسؤولًا، والفرق الجوهرى بين المقاتل الجامد الفكر - الذي يقع

أسير الواقع المحدود، أو فريسة لنظرية تقليدية جامدة - وبين القائد المرن، المتحرر فكراً وممارسة، أن الأول يستسلم لمنطق العجز عندما يواجه بما لم يكن يتوقعه ولم يحسب حسابه، سواء في مشاريعه الميدانية وقت السلم، أو عند مواجهته الصدامية مع الخصم على مسرح العمليات.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: إلى أي مدى نجحت القيادة الجديدة للعسكرية المصرية في القيام بالمهمة التي كُلفت بها عقب 5 يونية 1967؟

الإجابة عن هذا السؤال - على إطلاقه - تقتضي توسيع دائرة البحث، لكي نقدم صورة شاملة لما جرى داخل أسوار العسكرية المصرية كلها - برًا وبحرًا وجوًّا - وتلك مهمة بالغة الشمول والاتساع، والتصدي لها يخرج عن دائرة هذا الكتاب الذي اتجهنا فيه إلى قواتنا الجوية على وجه التحديد، ورغم ما في الصورة الشاملة - لإعادة بناء الأسلحة

المختلفة لقواتنا المسلحة - من جمال وروعة وشموخ، فإن اقتصرنا على رسم صورة أمينة لعملية إعادة البناء في سلاح الجو المصري - بعد ضربة 5 يونية - سيعطي مثلاً مكثفاً لما جرى في باقي أفرع القوات المسلحة المصرية خلال سنوات الصبر والصمت - التي أعقبت 5 يونية، ومهدت للسادس من أكتوبر - وهو مثال مشرف للعسكرية على أي مستوى عالمي.

بعد هذا الإطار النظري، أنتقل إلى الجانب العملي. إن أقسى ما تواجهه النفس البشرية هو الاعتراف بالخطأ.. وما نرجوه من وراء هذه العملية القاسية على النفس أن نضع أمام الأجيال المقبلة من مقاتلينا خريطة دقيقة وأمينة لأحداث يوم لن يتكرر في حياة الأمة العربية.. لكي يأخذوا منها عبرة التاريخ ودرسه الذي يُحدد لهم معالم الطريق إلى مستقبل بلا أخطاء وبلا تقصير، وبلا أيام ظالمة لهم ولأمتهم كيوم الخامس من يونية عام 1967.



كانت النكسة باعتراف الجميع بمثابة جرس الإنذار الهائل الذي أفاقت على دقاته الأمة العربية بعد سُبُبات طويل، كما انهالت بطرقاتها المدوية على أرض الواقع العربي، فغطى دويها على ما يتردد من أصداء الخلاف المفتعل بين أبناء الأمة الواحدة. وفتح العرب أعينهم على حقيقة مرعبة لم تكن تخطر لهم على بال... لقد انتهز العدو فرصة الإغفاءة العربية، فسرق منهم نصرًا هائلًا في حجمه، رخيصًا في ثمنه وفي التضحيات التي بُذلت لتحقيقه.

ولسنا من السذاجة بحيث نصدق ما زعمته إسرائيل عشية الخامس من يونية 1967، من أنها كانت تستهدف بضربتها الغادرة تحطيم القوات المسلحة العربية، وتقليم أظافرها الناتجة على الجبهات الثلاثة.. المصرية والسورية والأردنية. لقد كان هذا تبريرًا دعائيًا كاذبًا، أرادت به أجهزة الحرب النفسية الإسرائيلية أن تقنع العالم كله أنها قامت بما

قامت به دفاعًا مسبقًا عن النفس، لا من قبيل العدوان على جاراتها العربيات.

وإذا كان المجتمع الدولي سواء بدافع من التغافل عن حقيقة العدوانية الإسرائيلية، أو بدافع المجاملة، أو الخضوع لسيطرة أجهزة الدعاية الصهيونية قد صدق الأكذوبة وابتلع الطعم، فإن أمتنا العربية عامة وشعبنا المصري خاصة كانا أكثر ذكاءً من أن يغفلا عن حقيقة الهدف الذي أحكمت إسرائيل إخفاءه وتمويهه وراء ضربتها المفاجئة عام 1967.

لقد أدرك العرب والمصريون بحكم أصالتهم الحضارية، وبدافع من معرفتهم بحقيقة الدعوة - إسرائيل ومكوناتها العنصرية، وعقدها القديمة أنها حين قامت بما قامت به صباح 5 يونيو، لم تكن تريد إجهاض القوة العربية النامية، أو تقليص أظافرها، ولم تكن تريد تأمين حدودها كما زعمت، إنما كانت تستهدف أولاً وأخيرًا تدمير الشخصية العربية من الداخل

تدميراً نفسياً شاملاً يحول الإنسان العربي إلى كائن مشوه عقلياً ونفسياً ويجعل منه مخلوقاً ضعيف الإرادة، مهزوز الفكر، تحكمه عقد نقص هائل، وإحساس مميت بالخوف من عدوه الذي لا يُقهر.

ويؤدي هذا الهدف ببساطة إلى أن ينزع العرب من المنطقة بأسرها إذا أمكن هذا.. أو يتحولوا إلى قطيع من الكائنات شبه الإنسانية المشوهة، لها من الإنسان شكله وصورته، وليس لها من عقله ووجدانه السوي أدنى نصيب، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى خلق «جيتو عربي» ينعزل فيه الإنسان العربي عن حضارة العصر انعزالياً يؤدي به في النهاية إلى التحجر ثم الانقراض؛ لتخلو منطقة الشرق الأوسط بأسرها لإسرائيل.

يؤكد تحليلنا هذا للأسباب الكائنة وراء ضربة 5 يونية، أن صقور تل أبيب رفضوا كل الفرص التي أُتيحت لهم وهم في موقع المنتصر

تدميراً نفسياً شاملاً يحول الإنسان العربي إلى كائن مشوه عقلياً ونفسياً ويجعل منه مخلوقاً ضعيف الإرادة، مهزوز الفكر، تحكمه عقد نقص هائل، وإحساس مميت بالخوف من عدوه الذي لا يُقهر.

ويؤدي هذا الهدف ببساطة إلى أن ينزع العرب من المنطقة بأسرها إذا أمكن هذا.. أو يتحولوا إلى قطيع من الكائنات شبه الإنسانية المشوهة، لها من الإنسان شكله وصورته، وليس لها من عقله ووجدانه السوي أدنى نصيب، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى خلق «جيتو عربي» ينعزل فيه الإنسان العربي عن حضارة العصر انعزالياً يؤدي به في النهاية إلى التحجر ثم الانقراض؛ لتخلو منطقة الشرق الأوسط بأسرها لإسرائيل.

يؤكد تحليلنا هذا للأسباب الكائنة وراء ضربة 5 يونية، أن صقور تل أبيب رفضوا كل الفرص التي أُتيحت لهم وهم في موقع المنتصر

لتحقيق سلام عادل، كما يؤيد رأينا ذلك الصلف والغرور الذي انتاب العسكرية الإسرائيلية عشية الخامس من يونيو، ما دفع بعض جنرالات تل أبيب إلى التفاخر بأن المقاتل الإسرائيلي أعظم مقاتل في العالم، وأنه مقاتل من نوع خرافي لا قبل لأحد بالوقوف أمامه.

إن التهديد الخفي الذي يكمن وراء الأساطير التي نُسجت حول القرارات الخرافية للمقاتل الإسرائيلي لم يكن موجهاً للإنسان الروسي أو الأمريكي مثلاً، ولكن مخططى الحرب النفسية في تل أبيب كانوا يستهدفون به أولاً وأخيراً، نفسية المقاتل العربي خاصة، ونفسية أمتة العربية عامة، ومن هنا.. كان من المحتم أن تتجه الشخصية العربية سريعاً للدفاع عن النفس ضد ما يراد لها من تفكك وتحلل، وبما يدبره لها من ضياع وهوان.

كانت القوات المسلحة المصرية هي عنصر الامتصاص الرئيسي الذي حول ضربة 5 يونية من بداية «عقدة عربية» كما كان العدو يتمنى إلى نهاية غير مأسوف عليها لعصر الارتجال والأخطاء في تاريخ العسكرية المصرية.

إن الضربة التي وُجِهُت إلى المطارات المصرية عام 1967 بكل ما أحاط بها من ظروف وملايسات على الجانبين المصري والإسرائيلي، لم يكن ليقدر على صدها أقل من مائة طائرة معلقة في الجو كدوريات حراسة، فضلاً عن عدد هائل من أجهزة الإنذار المبكر ووسائل الدفاع الأرضي الثابت لم يكن مُتاحاً وقتها؛ وهذا العدد الضخم من الطائرات الاعتراضية يتعذر توافره في وقت واحد في الجو، حتى للدول الكبرى.

وفي إطار السرية التي تفرضها دواعي الأمن القومي لقواتنا المسلحة عمومًا، وقواتنا الجوية على وجه الخصوص، نستطيع القول

بأن القيادة المصرية الجديدة التي أخذ عنها الأسلوب العلمي في إعادة بناء الجيوش وجدت نفسها على المستوى العسكري البحت، وبصرف النظر عن الأخطاء السياسية أمام الأخطاء التالية التي عجلت بوقوع النكسة، وساعدت على تضخيم حجمها بشكل غير طبيعي:

**أولاً:** مغالاة بعض القيادات في تقدير قوتنا العسكرية في مختلف مجالات التسليح بالنسبة لقوة العدو، اعتمادًا على بعض المؤثرات والمقارنات العددية السطحية، التي دفعت ببعض المسؤولين إلى التصريح بأنه أصبح لدينا سلاح جوي يعتبر أكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط.

هذه التصريحات المبالغ فيها كان من نتيجتها المحتممة إشاعة نوع من الثقة الزائدة بالنفس، يمكن أن تؤدي في كثير من الأحوال إلى نوع من الاسترخاء بدرجة أو بأخرى ينشأ

عن اغترار القوي بقوته، واستهانته بخصمه... وهو الخطأ الذي استفدنا منه بعد 1967، بينما نجد أن العدو وقد تردى فيه بشكل قاتل.. وفي الوقت الذي أخذت فيه القيادة المصرية الجديدة جانب الحذر سواء في تقديرها لقوتها، أو لقوة الخصم... كان العدو مستسلمًا تمامًا لدواعي الغرور بقوته والاستهانة بقوتنا، حتى استيقظ فجأة على ضربة السادس من أكتوبر.

إن القائد العسكري الذي يباهي علنًا بقوته لا يفعل أكثر من أن يسيء إلى قواته دون أن يدري؛ لأنه بعقد هذه المقارنات الهوجاء يستفز مخابرات العدو لكشف ما عنده من رجال وعتاد، وهو خطأ استفادت منه القيادة المصرية الجديدة، فلم تكرر أبدًا طوال سنوات الإعداد والبناء العسكري، بل إنها على العكس أتقنت نقيضه تمامًا، ونجحت في تسريب المعلومات المضللة المصوغة بعناية



كاملة بحيث اقتنع العدو، قبيل المعركة أن سلاح الجو المصري يعاني من الهزال والضعف بسبب عجز الإمكانيات ونقص قطع الغيار بصورة تجعله غير قادر على التصدي لأية عملية هجومية يقوم بها سلاح الجو الإسرائيلي ضده، فضلاً عن مجرد التفكير في الإقدام على حماقة الهجوم على قوات إسرائيل التي تحتل سيناء في مواجته.

**ثانياً:** عدم حساب قدرات العدو القتالية على أساس الدراسة العلمية والعملية لأساليب التدريب المتبعة في سلاح الجو الإسرائيلي، وما تتيحه هذه الأساليب للطيار الإسرائيلي، من إتقان لفنون القتال ليلاً أو نهاراً، والتمرس على الطيران في الأجواء المنخفضة بنفس القدرة على الطيران المرتفع.. وإهمال هذا الجانب من التعرف على القدرات الفعلية للطيار المعادي، خطأ لا يُغتفر.. لأن العبرة في حساب الفرد المقاتل والطيار المقاتل بالذات

ليست بحساب الحكم العددي، بل بحساب القدرات والمهارات التي يتقنها المقاتل ويجيد استخدامها على مسرح العمليات.

وقد أثبتت عمليات السادس من أكتوبر المجيدة أن الطيار المصري المدرب تدريباً عالياً، والمتمرس على كل فنون القتال الجوي، قادر على ضرب أرقام قياسية معجزة، سواء في عدد الطلعات الجوية التي يقوم بها، أو في الكفاءة القتالية البالغة الارتفاع التي يدير بها عملياته القتالية والهجومية على حد سواء، الأمر الذي جعل المحصلة النهائية لجهود هؤلاء الطيارين الشجعان تفوق بكثير الحساب العددي المجرد لهؤلاء المقاتلين كأفراد.

ولو أن جانب الكفاءة القتالية للطيار المعادي، كان موضع اهتمام قبل 5 يونيو، لما وقعنا في خطأ المقارنات العددية المجردة، وحساب قدرة العدو الجوية بعدد طياريه، بصرف النظر عن طبيعة التدريبات التي تلقوها والأساليب

القتالية التي أتقنوها، وخاصة في مجال القتال الليلي والطيران المنخفض.

ومن هنا كان على القيادة الجديدة لسلاح الجو المصري أن تضع في اعتبارها ضرورة التعرف على خطط التدريب التي يمارسها الطيار المعادي، والأساليب القتالية المستحدثة في تدريبه.. ونستطيع مع احتفاظنا بالسرية التي تقتضيها دواعي الأمن أن نقول عن يقين أكدته معارك أكتوبر المجيدة إن سلاح الجو المصري استطاع بعد 5 يونيو أن يتعرف بدقة كاملة على خطط وأساليب التدريب المتاحة للطيار الإسرائيلي المقاتل، وأن يضع على ضوئها وفي مواجعتها خطط التدريب المضادة التي تتيح للطيار المصري المقاتل اكتساب المهارات القتالية التي تجعل منه خصمًا شرسًا يحسب له العدو الجوي ألف حساب، قبل أن يفكر في الدخول ضده في معركة تصادمية في الجو.

ولا يفوتنا أن نشير في هذا الصدد، إلى «حرب الاستنزاف» التي يمكن اعتبارها بداية حقيقية لصراع المواجهة بين سلاح الجو الإسرائيلي، وبين قواتنا الجوية التي استفادت إلى أقصى حد ممكن من معارك هذه الحرب في التعرف على القدرات القتالية الفعلية للطيار الإسرائيلي، والأساليب التي اتبعت في تدريبه، والمهارات التي أتقنها.

ولا أفشي سرًا، إذا قلت الآن إن كل معركة قتالية دخلها طيارونا خلال حرب الاستنزاف مع طياري العدو كانت بكل ما دار فيها بنتائجها، موضع الدراسة والتحليل الكامل من جانبنا، بحيث نخرج منها بالدروس المستفادة التي توضح جوانب القصور والتفوق، سواء من جانبنا أو من جانب العدو، الأمر الذي جعل من هذه المعارك بالنسبة لطيارينا «مدرسة ممارسة»، استطاعوا أن يتعرفوا خلالها على أساليب عدوهم، ومهاراته، وأن يعرفوا هذا

العدو معرفة كاملة، يَسَّرت لهم عندما حلت ساعة الصفر في السادس من أكتوبر أن يلقنوه درس العمر، الذي أعاد له صوابه ونزع من رأسه إلى الأبد أحلام السيادة الجوية على المنطقة.

**ثالثًا:** انطلاقًا من النقطة السابقة، وضعت القيادة المصرية بعد الخامس من يونية يدها على خطأ المقارنات العددية المجردة بين ما يملكه العدو من عتاد وسلاح، وما نملكه نحن بالفعل.. وفي مجال السلاح الجوي بالذات، يتضح لنا خطأ المقارنة العددية المجردة، التي تعتمد على حساب قوة العدو بعدد ما يملكه من طائرات، دون النظر بعين الاعتبار إلى نوعية هذه الطائرات ومدى طيرانها، وتسليحها، والأجهزة المعاونة التي تجهز بها الطائرة لتيسر للطيار المقاتل أن يقوم أو يعجز عن القيام بمختلف المهام القتالية والهجومية التي يُكلف بالقيام بهما.

ودون أن ندخل في تفاصيل تخل بدواعي الأمن، يكفي أن نشير إلى أن المقارنة العددية بين ما كان يملكه العدو من طائرات حربية قبل 5 يونيو وما كان متاحًا لنا.. أغفلت تمامًا أن سلاح الجو الإسرائيلي كان يملك وقت هذه المقارنات العددية الساذجة، عددًا لا يُستهان به من أحدث طائرات القتال البعيدة المدى، كالميراج 3/س «65 طائرة» والسوبر مستير «خمسين طائرة»، والمستير 4/1 «خمسين طائرة»، فضلًا عن خمس وخمسين طائرة من طراز أوراجان فوست وعشرين طائرة من طراز فوتور وذلك طبقًا للأرقام المعلنة، وهي في مجموعها طائرات تمثل في ذلك الوقت أحدث ما أنتجته مصانع الطيران الحربي في العالم، من حيث بعد المدى، أو كمية التسليح أو الأجهزة المعاونة التي تيسر للطيار المقاتل القيام بالمهام الموكولة إليه بيسر وسهولة.

**رابعًا:** من القواعد المسلم بها في الفكر العسكري قديمه وحديثه على السواء أن القائد الناجح هو الذي يؤمن بأن العدو عنده دائمًا ما يخفيه.. كما ذكرت سابقًا. والالتزام بهذه القاعدة يستوجب الحرص في وضع الخطط العسكرية تكتيكية كانت أو استراتيجية حرصًا يدفع بالقائد الذكي إلى توقع المفاجأة من خصمه، وافترض البحث عن البدائل والحلول السريعة والممكنة في نفس الوقت، التي تيسر للقائد الناجح عدم الوقوع في مصيدة المفاجآت التي يضعها الخصم في طريقه على مسرح العمليات.

وتبينت القيادة المصرية الجديدة، أن هذه النظرية لم تكن قد أخذت حظها من العناية اللازمة وأثبتت ضربة الخامس من يونية، أنه في الوقت الذي كان العدو يؤمن فيه بعنصر المفاجأة ويرسم خطط عملياته الجوية والبرية على السواء على أساس من المفاجأة الكاملة

للقوات العربية.. كانت العمليات العسكرية في الجانب العربي عمومًا تغفل هذا الجانب تمامًا. إن توقع المفاجأة من العدو يثير خيال المخطط العسكري ويلهب قدرته على تصور كل الاحتمالات الممكنة على مسرح العمليات حتى لو كانت بعيدة الاحتمال، الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى نبذ الأساليب النمطية البالية في التخطيط والتسلح بالمرونة اللازمة لامتناع أية صدمة تحدثها مفاجآت الخصم وألاعيبه المستحدثة على مسرح العمليات.

أما إغفال عنصر المفاجأة، وعدم توقعها من الخصم في أية لحظة، سواء في ساعة الصفر التي تبدأ فيها العمليات، أو في الأساليب والوسائل التي يستخدمها الخصم أثناء قيامه بتنفيذ عملياته الهجومية، فإنه يوقع القائد العسكري ويوقع هيئة أركانه وغرف عملياته كلها فريسة للشلل الذي تحدثه الصدمة.



وكلما كانت المفاجأة التي يلجأ إليها الخصم غريبة أو مستحدثة، سواء في التخطيط لها أو في تنفيذها، طالت مدة الشلل الذي يستولي على القيادة التي لم تحترم عنصر المفاجأة ولم تضعه في حسابها... وطول مدة الشلل الذي تقع فيه القيادة أو قصرها هو الذي يحدد مصير هذه القيادة، ويرسم لها طرق النجاح في امتصاص صدمة المفاجأة أو الفشل في اجتيازها.

يكفي على سبيل المثال، أن نذكر الأثر الذي أحدثته استخدام العدو لسلاح مستحدث في ذلك الوقت هو «قنبلة الممرات».

وحتى لا يفهم كلُّ منا خطأ، فإن احترام عنصر المفاجأة لا يعني أن يتحول المخطط العسكري إلى «ضارب ودع» أو ساحر يستلهم ظهر الغيب، ويسخر الشياطين في قراءة أفكار عدوه، وكشف ما يخفيه من خطط وما يخبئه من مفاجآت وإنما نعني أولاً وأخيراً باحترام

عنصر المفاجأة وتوقعها من الخصم: أن على المخطط العسكري الذي يريد أن يحمي نفسه ويحمي قواته من صدمة المفاجأة أن يسأل نفسه سؤالاً افتراضياً محددًا:

ما المفاجأة الغربية التي يصعب توقعها، والتي يمكن أن يلجأ إليها الخصم لشلّ قواتي، وتقييد حرّيتها على التحرك لمواجهته، بحيث تستطيع قوات هذا الخصم أن تتحرك في حرية كاملة، وتنطلق نحو تحقيق أهدافها التكتيكية أو الاستراتيجية وهي في مأمن تمامًا من أي ردع أو عقاب؟

لو أن هذا السؤال البسيط كان قد طرح للبحث على الساحة المصرية قبل 5 يونيو، مع التصاعد المستمر في الموقفين السياسي والعسكري الذي كان يؤكد قرب وقوع المواجهة الساخنة مع العدو، لوجد المخطط العسكري نفسه في مواجهة الاحتمالات الآتية التي لن تخرج صورة العمليات المقبلة وخاصة

في مجال الحرب الجوية، على واحد منها بالتأكيد:

1 - الاحتمال الأول: هو قيام العدو بعمليات هجومية مفاجئة تستهدف ضرب الطيران المصري وهو جاثم على الأرض ضربة مكثفة يعجز عن امتصاصها، ثم يحرك قواته البرية بعد ذلك لضرب القوات المصرية المنتشرة أمامه في سيناء، بعد أن تفقد الحماية الجوية اللازمة.

2 - والاحتمال الثاني: أن يكتفي العدو الإسرائيلي بالوقوف موقف المراقب المتحفز في مواجهة انتشار القوات البرية المصرية على طول الحدود البرية المشتركة، وما يؤدي إليه هذا التحفز من الجانبين من احتمالات الصدام البري الذي يؤدي إلى اشتعال الحرب الجوية بين الجانبين بعد ذلك.

ومن المؤسف أن ما حدث في 5 يونية، أكد بما لا يدع مجالاً للشك، أن القيادة المصرية العليا على المستويين السياسي والعسكري كانت قد رجحت هذا الاحتمال الساذج اعتماداً منها على ما كانت قد تلقت من تأكيدات خارجية بأن إسرائيل لن تكون هي البادئة بالعمليات.

3 - **والاحتمال الثالث:** والأكثر خطورة هو الذي نفذته إسرائيل بالفعل... هو قيام العدو بضربة جوية مفاجئة، تستهدف كل المطارات المصرية في وقت واحد، لشل حركة سلاح الجو المصري، في نفس الوقت الذي تتحرك فيه قوات الجيش الإسرائيلي لضرب القوات المسلحة المصرية العارية من أي غطاء جوي، مع البحث عن وسيلة تضمن لها أن يمتد تأثير الضربة الأولى التي يتلقاها سلاح الجو المصري إلى أطول ساحة زمنية ممكنة، بحيث يظل الجيش

المصري فريسة سهلة لعبت الطيران الإسرائيلي بها، وتحدد مصيرها على أرض المعركة، وفقًا لما خططته المؤسسة العسكرية الإسرائيلية.

هنا.. لعبت.. قنبلة الممرات.. دورها الخطير الذي حسم المعركة جواً وبراً لصالح إسرائيل لمدة طويلة نسبياً ولكنها كافية بقياس الحرب الحديثة، لكي تحصل إسرائيل على نصر حاسم في المجال الجوي.. ثم في العمليات كلها رغم توفر أعداد كبيرة من الطائرات المصرية التي لم يصبها التدمير، ولكنها كانت عاجزة عن الاشتراك في المعركة اشتراكاً مؤثراً في سير العمليات لعجزها عن الإقلاع فوق الممرات التي تم تدميرها بواسطة «قنبلة الممرات» المستحدثة.

حتى لا يتصور البعض أننا نبالغ في تقدير الدور الذي لعبته «قنبلة الممرات» في العمليات الهجومية التي قام بها سلاح الطيران

الإسرائيلي ضد المطارات المصرية صباح 5  
يونية.. نشير إلى حقيقة معروفة في الفكر  
العسكري، وهي أن العدو الذي ينجح في  
امتصاص الضربة الأولى التي يوجهها له  
الخصم، ويصمد في مواجهة آثارها المادية  
والنفسية، يستطيع أن يوجه لهذا الخصم  
المعتدي ضربة مضادة تكون في أغلب الأحيان  
أشد فتكاً وأكثر ضراوة من الضربة المفاجئة  
التي تلقاها هو في البداية ونجح في  
امتصاصها.

ومن المؤكد أن هذه الحقيقة كانت موضع  
اهتمام من العدو الإسرائيلي، وهو يخطط  
لعملياته الغادرة في 5 يونية، ومن هنا اتجه  
تفكيره إلى البحث عن وسيلة مستحدثة تؤخر  
استعادة القوات الجوية المصرية لتوازنها بعد  
الضربة الأولى، وتعطل قدرتها على امتصاص  
هذه الضربة، وتمنعها بالتالي، من القيام بضربة

مضادة قد تكون أكثر ضراوة وفتكًا من ضربتها المفاجئة.

وإذا كانت الحاجة، كما يقول المثل العربي القديم، هي أم الحيلة، فقد وجد العدو الإسرائيلي فرصته النادرة للنجاة من الضربة الجوية المصرية المضادة في «قنبلة الممرات» التي عطلت معظم الطائرات المصرية التي نجت من التدمير، وجعلتها عاجزة عن الحركة والإقلاع للاشتراك في المعركة بعد أن تم تدمير ممراتها بفعل القنبلة المستحدثة.

وقد يتساءل البعض: وما الذي كان بوسع الجانب المصري أن يقوم به إزاء سلاح مستحدث، يتم استخدامه لأول مرة في تاريخ الحروب الجوية كقنبلة الممرات المذكورة؟ ورغم ما في هذا السؤال من منطقية وبساطة إلا أن الإجابة عنه لا تقل بساطة ومنطقية عن السؤال نفسه.

كان على الجانب المصري أن يضع في حساباته الدقيقة الاحتمالات الممكنة والحيل المفاجئة التي يمكن أن يفكر العدو في القيام بها للحيلولة بين سلاح الجو المصري وبين القيام بضربة مضادة تعقب قيام إسرائيل بالضربة الأولى التي كانت واردة كاحتمال متوقع عند نشوب العمليات.

التفكير في هذه الاحتمالات كان كفيلاً بأن يفرض على الجانب المصري سؤالاً محددًا عن الأسباب التي يُمكن أن تمنع أي سلاح جوي من التقاط أنفاسه بعد تلقيه الضربة المضادة لخصمه الجوي الذي يادره بالاعتداء المفاجئ، هذه الأسباب لا تخرج بأي حال من الأحوال عن واحد من ثلاثة:

1 - نجاح العدو المهاجم نجاحًا أسطوريًا في القضاء على كل أو معظم طياري الخصم الذي توجه ضده الضربة الأولى، بحيث يعجز عن توفير العدد اللازم من الطيارين



للقيام بالضربة المضادة الانتقامية.. وهو احتمال بعيد الوقوع إن لم يكن مستحيلًا، إلا إذا افترضنا أن العدو المهاجم كان يملك قبل قيامه بالضربة الأولى الوسائل والمعلومات الكاملة، التي تيسر له تحديد أماكن تواجد طياري الخصم تحديدًا كاملاً، يضمن له التخلص منهم جميعًا أو من أغلبيتهم الساحقة خلال ضربته المفاجئة، بحيث لا يستطيع العدو الذي يقع فريسة للضربة الأولى أن يفكر، مجرد تفكير، في القيام بعمليات هجومية مضادة قبل انقضاء فترة زمنية طويلة، يتم خلالها إعداد جيل جديد من طياري القتال الذين يتصدون للخصم، ويحاولون الثأر للجيل السابق من الطيارين الذين قضت عليهم تلك الضربة الأسطورية.

2 - الاحتمال الثاني: الذي يمكن أن يؤدي إلى تعذر القيام بالضربة الجوية المضادة أن

ينجح العدو المهاجم خلال ضربته الأولى في تدمير كل ما يملكه الخصم من طائرات حربية تدميرًا كاملاً، بحيث يتركه بلا سلاح جوي تمامًا، سواء بالشراء أو التصنيع، وهذا الاحتمال لا يقل استحالة عن سابقه.

3 - الاحتمال الأخير: هو أن ينجح العدو المهاجم سواء خلال قيامه بالضربة الجوية الأولى أو عقبها مباشرة في إحداث الوسائل التي تكفل إعاقة طيران الخصم المستهدف بالضربة المفاجئة ومنعه من امتصاص الصدمة الأولى والانطلاق بعدها للقيام بالضربة الانتقامية المضادة... وهو الاحتمال الأقرب إلى الواقعية وإمكانية التنفيذ، وهو نفس الأسلوب الذي اتبعه العدو ضدنا في عمليات الخامس من يونيو.

فرغم نجاة الأغلبية الساحقة من طيارينا المقاتلين من آثار الضربة الأولى في ذلك اليوم ورغم نجاة العديد من الطائرات المصرية من

الإصابة بالصواريخ والقنابل التي صببتها الطائرات الإسرائيلية على مطاراتنا في ذلك الصباح.. فإن قيادة الجو المصرية عجزت عن القيام بتوجيه الضربة الانتقامية المضادة، وكان العامل المرجح في تلك الساعات الحاسمة، هو «قنبلة الممرات» التي أحدثت استخدامها تدميرًا رهيبًا في الممرات اللازمة لإقلاع الطائرات المصرية لكي تشترك في المعركة اشتراكًا مؤثرًا، يكفل الحماية الجوية اللازمة للقوات المسلحة المصرية التي كانت تتعرض منذ الساعات الأولى من صباح 5 يونيو لضربات مركزة من طيران العدو، أفقدتها القدرة على الصمود في مواجهة القوات البرية الإسرائيلية التي كانت تتحرك تحت حماية جوية كاملة.

ومع التسليم بأن قنبلة الممرات كانت تستخدم في عمليات 5 يونيو لأول مرة في الحروب الجوية ومع الاعتراف بأنه ليس من

العدل مع أنفسنا ولا مع الخصم أن نحاسب القيادة المصرية لأنها لم تكتشف سر هذه القنبلة قبل استخدامها لأن مثل هذا الرأي يفترض في الخصم السذاجة وعدم الحرص على إخفاء سر خطير بالغ الحداثة كسر هذه القنبلة الجديدة، كما أنه يفترض في القيادة المصرية أن يتحول رجالها إلى سحرة يسخرون الشياطين وأبالسة الجحيم في قراءة أفكار الخصم وابتزاز ما عنده من خطط ومفاجآت.

ولم يكن خصمنا ساذجًا، ولم يكن قادة الجو المصريون سحرة.. ولكنهم بلا شك عسكريون دارسون، والفكر العسكري في أبسط قواعده يعترف بشيء بدائي اسمه عمليات التخريب لإعاقة الخصم وعرقلة مجهوده الحربي.. والتخريب المتوقع في مجال الحرب الجوية يتجه إلى الطائرات الحربية كسلاح أساسي في المجهود الحربي للدولة، وفي مقدمتها

ممرات الإقلاع.. التي بدونها تتحول الطائرة إلى جسم هامد لا نفع فيه للصديق، ولا ضرر فيه على العدو.

ومن المعروف أن أبسط وسائل التأمين ضد عمليات تخريب الممرات، إعداد وسائل الصيانة وإعادة إصلاح هذه الممرات إصلاحًا فوريًا يختزل فترة تعطّلها عن العمل إلى أقصر حيز زمني ممكن.

ولو أننا أخذنا في الاعتبار قبل 5 يونيو ما تحتمه بدهيات الفكر العسكري الحديث في مجال الحرب الجوية من ضرورة توفير الأطقم الفنية المدربة تدريبًا عاليًا على صيانة الممرات ضد عمليات التخريب المحتملة أثناء العمليات الحربية، ووفرنا لهذه الأطقم البشرية الوسائل الآلية المستحدثة في مجال الخدمة الأرضية للطيران المقاتل.. لاستطعنا أن نشل فاعلية هذه القنبلة المستحدثة ونردها إلى حجمها

الطبيعي كوسيلة من وسائل التخريب قد تكون متطورة.

هذا الخطأ الذي دفعنا ثمنه غاليًا عام 1967 تنبّهت لخطورته قيادة الجو الجديدة، وهي تتصدى لإعادة البناء العسكري، وعملت على تلافيه تمامًا وبشكل حاسم ظهرت نتائجه المشرفة في عمليات 6 أكتوبر وهو ما سنعود إليه عند الحديث عن أسرار العملية «صدام» وما سبقها من إعداد في جميع المجالات، وخاصة في مجال التجهيزات العسكرية والمعدات الهندسية التي تقدم الخدمات الأرضية المعاونة للطيار المقاتل، على أحسن وجه وفي أسرع وقت قياسي ممكن.

**خامسًا:** وضعت قيادة الجو المصرية الجديدة، وهي بسبيل الدراسة الموضوعية لحقيقة ما حدث في 5 يونيو أسبابه ونتائجه، يدها على ذلك التناقض العجيب الذي أسلفنا الإشارة إليه، وهو: أن الخطة العسكرية للقوات

المسلحة المصرية قبل 5 يونيو كانت خطة هجومية بشكل عام، وكتطبيق عملي لهذه الخطة الهجومية فقد كانت القوات المسلحة بمختلف أسلحتها موزعة توزيعًا يسمح لها بالهجوم، وهذا.. في الوقت الذي كان كبار القادة وحدهم.. وبناء على قرارات سياسية محضة تنزع إلى موقف الدفاع، لتلقي الضربة الأولى عند وقوعها، وامتصاصها.

لقد كان لهذا التناقض أثر بالغ في النتائج التدميرية للضربة المفاجئة التي قام بها العدو ضد قواتنا المسلحة - بجميع أفرعها وأسلحتها - بالقياس إلى حجم الجهد العسكري الذي بذله العدو في تنفيذ هذه الضربة. وقد عاد هذا إلى حقيقتين عمليتين مهمتين:

- الحقيقة الأولى: مستمدة من أحدث ما توصل إليه علم النفس الحربي من نتائج سبقتها دراسات مستفيضة على

نفسية الفرد المقاتل في مختلف الظروف والأحوال التي يمكن أن يتعرض لها فرد القوات المسلحة، وخاصة في مجالي التقدم للهجوم، والتمركز أو الارتداد استعدادًا لأخذ مواقع دفاعية أفضل.

لقد أكدت جميع الدراسات النظرية، والتجارب العملية أن فرد القوات المسلحة - ضابطًا كان أو جنديًا - إذا أُعد نفسيًا بشكل علمي سليم لموقف الدفاع في الحرب عن طريق المصارحة الكاملة بظروف الموقف العسكري في الموقع الذي يتواجد فيه، وفي إطار - الاحتفاظ بالسرية الواجبة.. فإن إحساس هذا الفرد بثقة قيادته فيه، وإيمانه بالمسؤولية الملقاة على عاتقه ثمنًا لهذه الثقة، يخلق لديه من الناحية النفسية كفاءة قتالية غير عادية، تجعله قادرًا على تحمل أية مشاق



مهما عظمت وهو يخوض معركة يعرف أنها دفاعية منذ البدء.

هذه الكفاءة النفسية المرتفعة - هي ما يُسمى إعلاميًا بارتفاع الروح المعنوية لدى الفرد المقاتل - وهي الكفاءة النفسية التي يعتمد عليها القائد الذكي، في صمود رجاله وصددهم للعدو، مهما ارتفعت موجات الهجوم.. وعلى هذه الكفاءة النفسية التي ولدتها الصراحة واحترام عقلية الفرد المقاتل يرتكز القائد الناجح، حين ينتقل من مرحلة صد الهجوم وامتصاص موجاته، إلى مرحلة الهجوم المضاد، الذي تكسبه الكفاءة النفسية المرتفعة ضراوة وعنفاً يحولان الدفاع الصامد إلى هجوم ناجح.

ومن الثابت علميًا وعمليًا، أن ارتفاع الكفاءة النفسية لدى الفرد المقاتل يؤدي إلى ارتفاع كفاءته القتالية، ويزيد من قدرته على التعامل مع سلاحه والتحكم فيه بنسبة الضعف على

الأقل. على العكس من ذلك فإن الفرد المقاتل الذي يتحول فجأة من موقف الهجوم إلى موقف المدافع الذي يطلب منه صد هجمات لم يتوقعها، ولم تنبهه قيادته إلى احتمال تعرضه لها، فإنه يصاب بانخفاض مفاجئ في كفاءته النفسية، يؤدي بالضرورة إلى تدهور كفاءته العسكرية كمقاتل.. ما يشبهه أساتذة «علم النفس الحربي» بالصدمة التي يُصاب بها الإنسان أحيانًا في غرفة العمليات الجراحية، فتؤدي إلى انخفاض مفاجئ في الضغط، يهدد حياة المريض، وقد تعقبه الوفاة، إذا لم يكن المصاب قوي البنيان بشكل غير عادي.

### • الحقيقة الثانية التي توضح العلاقة

بين تناقض القرارات - هجومًا ودفاعًا - وبين تزايد حجم التدمير الذي تحدثه الضربة المفاجئة، مستمدة من أولويات الفكر العسكري، التي تقول إن هناك

فروقًا هائلة بين القوات التي تصدر لها الأوامر بالاستعداد للهجوم، وبين قوات تعد نفسها منذ البداية لأخذ مواقع دفاعية، تستطيع خلال تمرکزها فيها أن تصمد للضربة الأولى وتنجح في امتصاص موجاتها الهجومية.

هذه الفروق تشمل نوع الأسلحة المطلوبة في كل من الهجوم والدفاع، وكمية ونوع الذخائر المستخدمة، وأماكن انتشار القوات أو تمرکزها، وتجمعات إمدادها بالذخائر وبالمؤن ونقطها الإدارية، وأسلحة الخدمات المعاونة.

كما أن أوليات الفكر العسكري تفرق أيضًا بين قوات أُعدت للدفاع حين تنجح في صد الضربة الأولى وامتصاصها ثم الانتقال من الدفاع إلى الهجوم المضاد وبين قوات تصدر لها الأوامر بالانتشار وتوزيع قواتها استعدادًا للهجوم، ثم تفاجأ بضربة ساحقة، تضطرها

تحت تأثير الصدمة إلى الانتقال المفاجئ من الاندفاع والتقدم إلى التراجع والانسحاب غير المنظم.

كما كان من العوامل التي ساعدت على زيادة حجم الخسائر في مجال القوات الجوية بالذات، أن بعض القادة قد وقعوا في محظور المبالغات غير المقبولة علميًا ومنطقيًا، حين قدروا الخسائر المحتملة في القوات الجوية، إذا قامت إسرائيل بالضربة الأولى ضد الطيران المصري، فزعموا أن خسائر هذه الضربة الأولى لا يمكن أن تزيد بحال من الأحوال عن عشرة في المئة فقط.

وأكبر الظن عندي، أن هذا التهوين في نسبة الخسائر المحتملة إذا كانت إسرائيل هي البادئة بالضربة الجوية الأولى، هو الذي سهل للقيادة السياسية الاستمرار في إصرارها على الوقوف موقف الدفاع ما دامت هذه الضربة الأولى لن تزيد خسائرها عن عشرة في المائة،

تنطلق بعدها التسعون في المائة التي تبقى سليمة من طائرات سلاح الجو المصري - لتقوم بالضربة الانتقامية المضادة، التي تؤدب إسرائيل، وتثبت لها وللجميع أن أكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط، مازالت قادرة على فرض سيطرتها وإثبات وجودها وتأكيد سيادتها الجوية على المنطقة.

هذه التقديرات غير المستساغة عن نسبة الخسائر التي يمكن أن تؤدي إليها ضربة جوية معادية ضد سلاحنا الجوي، لو وُضعت أمامي وأنا جالس بغرفة العمليات المركزية بقيادة القوات الجوية في عام 1973، لترددت كثيرًا في تصديقها، مع الفارق الهائل بين وضع وظروف سلاحنا الجوي في عام 1967 وبين الإمكانيات التي كانت متاحة أمامي، سواء في مجال الطائرات الحربية نفسها، كمًّا وكيفًا، أو في مجال الدفاعات الثابتة والمتحركة عن مطاراتنا، أو حزام الأمن المحكم حول مجالنا

الجوي، والمتمثل في أجهزة الإنذار المبكر بكل وسائله، أو في وسائل تأمين الطائرات وحمايتها من القصف، ثم في وسائل الصيانة والإصلاح العاجل في حالة وقوع الإصابة، سواء للطائرة، أو للمطار بممراته العديدة، وأبنيته وأجهزته المعاونة.

رغم الفارق الهائل بين موقف قواتنا الجوية عام 1973 - بعد أن كانت قد استوعبت درس النكسة، وأعيد بناؤها على أساس علمي بالغ السلامة - وبين موقف هذه القوات عام 1967، بكل ما كانت تعانيه من نقص في السلاح والعتاد والأجهزة المعاونة، فإنني لم أكن مستعدًا لكي أقبل ببساطة نسبة العشرة في المائة كخسائر محتملة لضربة جوية مفاجئة يقوم بها العدو الجوي على كل مطاراتنا وفي وقت واحد، في الوقت الذي تكون فيه قواتنا - بحكم الأمر السري الصادر لقاداتها الكبار - في

وضع دفاعي بحت، وغير مهياً نفسياً، ولا مُجهز عسكرياً للهجوم.

لقد كان هذا التقدير الجزافي واحداً من الأخطاء الكبيرة التي استفاد منها العدو إلى أبعد حد، وهو يشعل حربته النفسية التي قادها ضدنا عقب 5 يونية، بشراسة ووحشية لا تعرفان الرحمة، ولولا صلابة الإنسان المصري - مهما اختلف موقعه جندياً بسيطاً كان، أم قائداً كبيراً - لانهار تماماً، حين يصدم بالفارق الرهيب بين نسبة العشرة في المائة التي قيل إنها الحد الأعلى الذي يمكن أن تصل إليه خسائر الضربة الأولى وبين الواقع المؤسف الذي حققته هذه الضربة.

من هذا الخطأ، أخذت القيادة الجديدة - التي تحملت أمام الشعب المصري، وأمام الأمة العربية كلها مسؤولية إعادة البناء العسكري على أساس علمي سليم - درس العمر، والتزمت

بالدقة الكاملة في كل ما تتصدى له من عمل عسكري تخطيطًا وتنفيذًا.

رب ضارة نافعة، وقد يأتي الخير من الشر، وصدق الله العظيم حين قال في كتابه العزيز: ( إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ).

ولقد كانت القيادة المصرية الجديدة، عازمة على إحداث التغيير المطلوب في حياة العسكرية المصرية كلها، إعدادًا، وتخطيطًا، وتنفيذًا، وكان أول ما استحدثته من تغيير، هو الصراحة مع النفس، والمواجهة الشجاعة مع الحقيقة مهما كانت قاسية، والاعتراف بالخطأ.

ومن هنا.. بدأت بتحديد الأخطاء، لا من باب الشماتة بمن وقع في الخطأ، بل من باب كشف المرض، وتحديد مكنم الداء. ومن تحديد الخطأ، بدأت القيادة الجديدة خطواتها على طريق الألف ميل.. الذي كانت نقطة الوصول السعيدة في نهايته، هي الساعة الثانية بعد ظهر السادس من أكتوبر المجيد.



..” كنا مملوئين  
 بطاقة الأحرار في  
 استعادة ما فقدناه،  
 وبينما كانت الروح  
 تعود، فإننا لكي  
 نعيد بناء أنفسنا،  
 كان أن تجاوزنا  
 إحدى أهم نقاط  
 التقصير التي  
 تسببت في هزيمة 5

# يونية، بأن نتسلح بالمعرفة..“

## عودة الروح والمعرفة

إذا كانت دراستي المهنية المتخصصة كطيّار مقاتل لم تُيسر لي التعرف الكامل على أدبنا العربي، إلا أنني - ولحسن الحظ - لم أُغفل الاطلاع على بعض الأعمال الأدبية، التي يُمثل كل منها ملمحًا خاصًا من ملامح أدبنا الحديث، وهو ما أنصح به زملائي المقاتلين في الجو والأرض والبحر؛ لأن الأعمال الأدبية الجيدة تعطي المقاتل صورة أمينة ودقيقة لآمال أمته وأحلامها، وتضع يده على نبض هذه الأمة التي حمّلتها أمانة الدفاع عن سلامة حدودها، والذود عن كرامة وشرف أبنائها.

تلك ليست رومانسية مغرقة في الخيال، لا يتسع لها وقت المقاتل عمومًا، والطيّار المقاتل على وجه الخصوص.. ذلك أن تجربتي الشخصية - وبالذات في الأيام العصيبة التي

تلت 5 يونيو - أكدت لي أن المقاتل المسلح بثقافة عصره، والمطلع على تاريخ أمته وثقافتها، وأديها في حدود ما يسمح به وقته يكون في العادة أقدر على التعرف على الشعب الذي ينتمي إليه، والاستجابة السريعة لنبض أمته، خاصة في الأزمات وأوقات المحن، التي تستدعي الترابط بين أبناء الوطن الواحد، جسديًا، وفكريًا، ووجدانيًا.

إن قراءة رواية «الأيام» لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين أعطتني في الأيام العصيبة التي كنا نجتازها معنى عظيمًا.. وكشفت أمامي عن صلابة الإنسان المصري، ونقاء معدنه وقدرته على الصمود أمام أقصى المحن، وقدرته على تحويل الظلام إلى نور، واليأس القاتل إلى أمل عريض في الحياة.. وفي مستقبل الإنسان.

بصورة ما كان ما يحدث في قواعدهنا ومطاراتنا بعد الهزيمة قهراً لليأس، كما أنه كان

بمثابة «عودة الروح» التي رسمها الأستاذ الكبير توفيق الحكيم.. عودة الروح المصرية إلى النهوض وإلى الحركة البناءة، التي ترفض الهزيمة، وتصر على عبورها، سعيًا إلى تحقيق النصر العظيم الذي قُدر لها أن تحققه في السادس من أكتوبر المجيد.

وكما فعل بطل «الأيام» حين انطلق إلى هدفه البعيد، الذي كادت الظروف والمحن الطارئة أن تحجبه عنه... تخلص الإنسان المصري داخل القوات الجوية من الإحساس بمرارة الهزيمة التي فُرضت عليه صباح 5 يونيو، وبدأ يعيد تنظيم صفوفه، وتحديد هدفه، ثم رسم الخطوات المؤدية إلى تحقيق هذا الهدف الذي كاد يضيع في ضباب الحوادث.

بعد تفنيد الأخطاء، ومن ثم حصر الآثار التدميرية للضربة وحساب الخسائر بدقة، تبين للقيادة الجديدة للقوات الجوية أنه رغم

فداحة ما تكبدناه من السلاح والمعدات أن ما تبقى بين يديها كان كافيًا لصنع نقطة البداية في إعادة بناء السلاح، بل كان كافيًا - مع التوجيه السليم، والتخطيط العلمي - للقيام بضربات مؤثرة ضد المجهود الحربي للعدو، كما حدث في معارك 14، 15 يوليو 1967 وبعد شهر واحد تقريبًا من ضربة 5 يونية حين قامت قواتنا الجوية بتوجيه ضربات شرسة ضد العدو، بحيث اضطرت قواته إلى الانسحاب المفاجئ غير المنظم وإخلاء سيناء كلها والهرب شرقًا حتى وصلت إلى مشارف العريش.

تبين أيضًا أن الخسائر في الأفراد سواء أكانوا طيارين أم فنيين كانت محدودة إلى أبعد مدى، الأمر الذي وضع بين يدي القيادة النواة الحقيقية التي ساعدت القوات الجوية المصرية على استعادة روحها القتالية بسرعة فائقة بسبب توفر الكوادر الفنية في مختلف

التخصصات القتالية، والتخصصات الفنية المساعدة، بحيث اقتصر جهد القيادة على إعادة توزيع ما وجدته متوفرًا لديها من الرصيد البشري على التشكيلات الجديدة، والانطلاق بها في مجال التدريب السريع على أحدث مناهج الحرب الجوية، استعدادًا للمعركة التي يثار فيها الرجال لسلاحهم الجوي، الذي ظلم مرتين متتاليتين، بسبب أخطاء لا دخل للرجال فيها.

أما الجانب الثالث، والأكثر أهمية - أي المجال النفسي والمعنوي - فإن عملية رصده تستوجب وقفة تأمل واعية تستبطن دقائق الأمور، وتبحث عن الجذور البعيدة، ولا تكتفي بالوقوف أمام المظاهر السطحية لآثار 5 يونية على الشخصية المصرية. إنني أستطيع أن أؤكد وبدون أي استسلام لدوافع التعصب للقومية المصرية أو القومية العربية أنه إذا كان التدمير الإسرائيلي قد أحدث خسائر

كبيرة على المستوى العسكري فإنه فشل في الوصول إلى هدفه الاستراتيجي المختفي وراء عملية «طوق الحمامة»، وهو كما شرحت سابقًا: تحطيم معنويات المقاتل المصري والإنسان العربي عمومًا والهبوط بمعنوياته هبوطًا فجائيًا يشبه الصدمة العصبية فتؤدي إلى انعدام مقاومته، ثم إلى نهايته.

لقد تجلى فشل العدو في هذا المجال النفسي والمعنوي سواء على المستوى العسكري المحدود أو المستوى المدني الشامل في النقاط التالية:

**على المستوى العسكري:** لم ينجح العدو في إصابة المقاتل المصري بالذعر من عدوه، وفشل تمامًا في إصابة المقاتل بعقدة النقص أمام عدوه الذي قال إنه لا يُقهر. وكان الإحساس الوحيد الذي نجح العدو في إشعال ناره في نفوس مقاتلينا، هو الرغبة الملتهبة في الثأر، والشوق المتأجج لمواجهته في معركة



تصادمية، تعلن بنتائجها الواضحة، أي الخصمين أقدر على خوض المعارك وأي الخصمين أكثر شجاعة وأطول صمودًا، وأبعد صبرًا، وأقوى تحملًا.

كانت ضربة الخامس من يونية من وجهة نظر المقاتل المصري الشجاع إهانة ظالمة لقدراته أكثر منها طعنة غادرة في الظهر، وكان على هذا المقاتل المصري - وقد استرد روحه، واستعاد لياقته النفسية والقتالية بسرعة فائقة - أن يُعد نفسه مهما طالت سنوات الإعداد، ومهما تحمل من مشاق الإعداد ومصاعب التدريب، ليوم المواجهة المحتومة مع خصم عاش حياته يهرب من المواجهة الصريحة ويجنح دائمًا، لضربات الظلام، يحقق بها نصرًا سريعًا خاطفًا في مدته، رخيصًا في ثمنه، ولكنه في النهاية نصر يجيد المتاجرة به دعائيًا، واستغلاله نفسيًا.

وفي كل مكان وجدت فيه قاعدة جوية كبرى أو مطار صغير على امتداد الوادي شماله وجنوبه كان أبناء القوات الجوية يتحركون بإصرار مذهل نحو الهدف.. وياقبال حماسي على استيعاب الفكر العسكري الحديث الذي فتحت أمام أعينهم أبوابه وتحمل أسطوري لمشاق التدريب المستمر على فنون القتال الجوي، وخططه وأساليبه المستحدثة.

وفي كل مكان كنت أذهب إليه، كنت أحس بأن هناك خيطًا غير منظور يربط بين قلوب الرجال، وأقرأ في عيونهم عهدًا صامتًا، أقسم الجميع على الوفاء به مهما كان الثمن.. الثار.. علنًا.. وفي وضح النهار، ثارًا شريفًا لا خسة فيه ولا استخفاء؛ لأنه ثار الرجال الشرفاء.

أما الجانب المدني من شعبنا، فقد كان موقفه من ضربة 5 يونية، يدعو إلى العجب والإعجاب معًا. ففي الوقت الذي كان العدو الإسرائيلي يأمل فيه، أن يرى انهيار جبهتنا

الداخلية، وتفككها تمامًا، في هذا الوقت بالذات، بدا المواطن المصري في الداخل أكثر ما يكون صلابة، وأقوى ما يكون تحملاً في مواجهة أقسى المحن والشدائد.

وتجلت صلابة الإنسان المصري في مواجهة أحداث 5 يونيو في مظهرين، قد يبدو أحدهما مناقضاً للآخر تمامًا، ومغايرًا له كل المغايرة.

1 - مظاهرات يومي «9، 10» يونيو 1967، التي عبّر بها شعبنا بعفوية أصيلة عن رفضه للهزيمة، وإصراره على عبورها وتخطي محنتها، واستعداده الكامل لدفع ثمن الصمود حتى النصر.

2 - المظهر الثاني الذي يبدو مغايرًا للمظهر السابق في شكله ومضمونه معًا فهو موجة «النكت» التي سادت أيامها، والتي استغل فيها شعبنا قدرته الخارقة على صنع النكتة وتذوقها، إلى أبعد مدى ممكن.

نتوقف أمام تساؤل مهم: إذا كان الشعب المصري قد نجا بالفعل من المصير التعس القاتم الذي أراده له العدو الإسرائيلي بضربة 5 يونية فكيف استسلم هذا الشعب للأحزان التي جرتها الهزيمة بهذا الشكل الذي عبرت عنه موجة النكت القاسية بل... الجارحة التي سادت أيامها؟ وما تعليل هذا التناقض غير المفهوم، بين رفض الشعب المصري للهزيمة، كما أعلنت مظاهرات 9، 10 يونية، واستسلام هذا الشعب نفسه لدواعي الهزيمة استسلامًا محزنًا، عبرت عنه النكت المؤلمة، التي كان الإنسان المصري يعذب نفسه بإلقائها أو سماعها؟

هذا التناقض الظاهري بين الموقفين كان يحيرني كما حير غيري في البداية على الأقل.. ولكن المعرفة الواعية بحالة شعبنا، وبروحه الصلدة ذوبت تلك الحيرة. وهنا أعرض لوجهة نظر مطولة حول ذلك التناقض.

في يقيني أنه لم يحدث في تاريخ الحروب - وبكل ما حفلت به سجلاتها من هزائم وانتصارات - أن ظلم مقاتل ما كما ظلم المقاتل المصري بصفة عامة، والمقاتل الطيار على وجه الخصوص. ولو أننا تتبعنا تاريخ المواجهة بين المقاتل المصري وخصمه الإسرائيلي، منذ بداية الصراع، لوجدنا أن المحصلة النهائية للحروب التي اشتعلت بين طرفي الصراع - في أعوام 48، 56، 1967 - كانت في صالح إسرائيل تمامًا. وذلك نتيجة للظروف التي أحاطت بهذه المعارك وكانت في مجملها مضادة للمقاتل المصري.

في عام 1948، كان الرأي العام العالمي منحازًا تمامًا لفكرة قيام إسرائيل - كحل ظالم لعقدة الذنب التي نجحت الصهيونية العالمية في غرسها في الضمير العالمي - نتيجة لما أنزلته النازية بيهود ألمانيا، ولقد وجد الرأي العالمي في مسانده لقيام إسرائيل، الحل

السعيد - من وجهة نظره - لهذه المشكلة، دون أدنى تفكير في أن مساعدة الصهيونية العالمية على انتزاع فلسطين من أصحابها العرب، ومنحها دون وجه حق لهم يحل مشكلة اليهودي التائه ليخلق مشكلة الفلسطيني المشرد.

ولا يجوز الاستهانة بانحياز الرأي العام العالمي لأحد طرفي الصراع في مشكلة معاصرة؛ لأن هذا الانحياز يمثل - على أرض الواقع - قوة سحرية لا حدود لقدرتها على المعاونة المادية وقت اشتعال الحرب، الأمر الذي أكدته نتائج حرب 1948، حين استغلت القوتان العظمتان: الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفيتي، مباركة الرأي العام العالمي لقيام إسرائيل، واندفعتا في سباق مؤسف لاستقطاب الدولة الوليدة - إسرائيل - وتقديم جميع المساعدات العسكرية والاقتصادية والسياسية التي يَسِّرَت للوكالة اليهودية، أن

تتحول إلى دولة، وسهلت لعصابات  
«الهاجاناه» و«الأرجون زفاي ليومي»  
و«شتيرن» أن تتحول إلى جيش حديث منظم  
مسلح بأحدث ما وصل للجيش المتحالفة -  
في الحرب العالمية الثانية- من أسلحة الدمار  
التي سحقت جيوش المحور المتكبرة.

في مواجهة هذه الظروف بالغة الصعوبة،  
كان من المحتم على الجيش المصري، أن  
يبطئ في زحفه المنتصر - الذي بدأ به معارك  
15 مايو 1948 - ثم يتحول هذا الزحف  
البطيء، إلى عجز عن الحركة لينقلب إلى  
ارتداد فانسحاب من معظم الأراضي التي كان  
قد حررها من فلسطين وكل هذا بفعل الظروف  
العالمية المعادية له، والظروف الداخلية الأكثر  
عداءً، سواء في الساحة المحلية في مصر،  
التي كانت تعاني من فساد القصر والأحزاب أو  
في الساحة العربية التي كانت تمزقها  
الخلافات والأهواء.

إذا انتقلنا إلى الحريين اللتين خاضهما  
المقاتل المصري عام 1956، حيث كان يواجه  
بالدرجة الأولى العسكرية الأنجلوفرنسية  
المتحالفة مع إسرائيل، وعام 1967، بكل ما  
أحاط بمعاركها من ظروف سيئة، سنجد أنفسنا  
أمام حقيقة مؤكدة، لا مجال للتشكيك فيها،  
حتى من أشد المحللين انحيازًا ضد المقاتل  
المصري وهي: أن هذا المقاتل الشجاع، ظلم  
دائمًا في كل حلقات الصراع العربي -  
الإسرائيلي.

ظلمته الظروف المواتية لخصمه، والظروف  
المعادية له، وظلمه خصومه حين أشاعوا ما  
أشاعوا من نقص في قدراته القتالية، وفي  
الوقت الذي كانت أجهزة الحرب النفسية  
المعادية تنسج فيه الأساطير والقصص التي  
تقترب من الخرافات حول بطولات وهمية  
للمقاتل الإسرائيلي الذي لا يُقهر.. تفتق  
الوجدان المصري الأصيل عن حيلة بالغة



الذكاء والبراعة، يبرر بها - بينه وبين نفسه على الأقل - ما لحق بمقاتله المصري من هزائم غير مقبولة ولا معقولة.. تمثلت في موجة النكت التي اجتاحت الشارع المصري - عقب هزيمة الخامس من يونية، والتي اجتر بها الإنسان المصري إحساسه المؤلم بهذه الهزيمة، وغضبه الساحق ممن تسببوا في إلحاقها به، كما تمثلت هذه الحيلة - التي لجأ إليها الإنسان المصري ليررر بها هزيمة مقاتله - في موجة القصص التي انتشرت حول «أخطاء بعض القيادات وتقصيرها في أداء واجبها».

ورغم ما في كثير من هذه الأقاصيص من مبالغات وقسوة، فإنها في النهاية تؤكد أحدث ما وصلت إليه دراسات علم النفس الاجتماعي من نتائج، وتؤكد في نفس الوقت سلامة البناء النفسي للمجتمع المصري، وأصالته وعراقته.

إن المجتمعات البشرية، حين تواجه بأزمة حادة تهدد وجودها كجماعة بشرية بالخطر،

تتجه لا شعوريًا إلى تحميل الأخطاء التي تسببت في وقوع الأزمة والأضرار التي نتجت عنها، لأشخاص بعينهم في الجماعة البشرية، باعتبارهم الخطأة الذين يحملون وحدهم ووزر ما حدث، وعليهم دون غيرهم من أفراد الجماعة، أن يدفعوا ثمن ما ارتكبوه من أخطاء.. وكان عقاب الجماعة البشرية لهؤلاء الخطأة يصل أحيانًا - في المجتمعات البدائية - إلى حد الإحراق بالنار، وتقديم أجسادهم قربانًا للآلهة الغاضبة، إطفاءً لنار غضبها على الجماعة.. أما المجتمعات المتحضرة، فإنها تتجه عادة إلى تقديم من يخطئون في حقها أخطاء مصيرية إلى المحاكمة العلنية، ليعرف الشعب كيف ولماذا حل ما حل به من هزائم أو أزمات.

والنتيجة النهائية - التي يصل إليها علم النفس الاجتماعي في مثل هذه الحالة - أن الجماعة البشرية حين تحاسب الخاطئين فيها،

لا تفعل هذا عن حقد شخصي عليهم، ولكنها حين تحملهم وحدهم وزر ما حل بها من كوارث، إنما تدافع عن كيائها، وعن أصالة مقوماتها كجماعة بشرية جديرة بالبقاء، وهو دفاع غريزي عن النفس، يعرفه الكائن الحي - نباتًا كان أم حيوانًا أم إنسانًا - ويعرفه الفرد الواحد، كما تعرفه الجماعة المتعددة الأفراد، وهذا الإحساس الغريزي بأحقية الجماعة للبقاء، هو الذي يحمي المجتمع الأصيل من التفكك ويقيه من عوامل التحلل والبقاء.

والدارس المحلل لموجة القصص التي انتشرت - عقب هزيمة يونية - سيجد فيها ملامح بارزة لموجة دفاع غريزي عن النفس، كان المجتمع المصري البالغ الأصالة يقوم بها بضراوة وإصرار، وكأنه يقول - من خلال هذه القصص الشبيهة في مبالغاتها وقسوتها - إننا نحن الشعب المصري الشجاع، لا نعرف الضعف ولا نعرف الخوف من المواجهة الصريحة مع

الخصم، ولهذا فإننا أبرياء من هذه الهزيمة التي حلت بمقاتلينا؛ لأنها فرضت عليهم بسبب تقصير من قصرُوا وأخطأ من وقعوا في الخطأ.

لقد تعرضت شخصيًا لمثل هذا النوع من القصص التي أطلقت شعبيًا.. ففي صباح أحد الأيام العصبية - التي أعقبت ضربة الخامس من يونية - أخطرت بقرار تعييني رئيسًا للجنة التحقيق العسكرية، التي شكلتها القيادة الجديدة لسلاح الجو المصري، لمعرفة ما حدث في «قاعدة أنشاص الجوية - مساء الأحد 4 يونية» - أي في الليلة السابقة مباشرة لعملية 5 يونية ضد المطارات المصرية.

وكان أمر الحفل الساهر الذي أقيم في «قاعدة أنشاص» في تلك الليلة، قد انتشر بين جماهير الشارع المصري، بشكل روائي مثير، وتلقفته أجهزة الحرب النفسية المعادية بذكاء بارع، ونسجت حوله ما شاء لها خيالها الخبيث

من مزاعم، وصلت - في الكتاب الذي نُشر خصيصًا حول هذا الموضوع - إلى حد الزعم بأن هذا الحفل الساهر، كان السبب الرئيسي في النجاح الذي حققته الضربة التي وجهها ضدنا طيارو «مردخاي هود» وأن هذا الحفل أُقيم بتدبير محكم من المخابرات الإسرائيلية، نفذه تاجر صهيوني، استطاع أن يكسب ود كبار القادة في سلاح الجو المصري، واستطاع إقناعهم بإقامة هذا الحفل الساهر، الذي دعا إليه جميع قادة المطارات والقواعد الجوية المصرية - كما زعم كتاب المخابرات الإسرائيلية.

ويمضي الكاتب الإسرائيلي فيقول: إنه في هذا الحفل الصاخب، الذي سهر فيه الجميع وسكروا حتى مطلع الفجر، نجح العميل الإسرائيلي في أن يحرم معظم الطيارين المصريين الذين احتشدوا جميعًا كما زعمت سطورهم من لياقتهم للطيران، ولو ليوم واحد

فقط هو يوم 5 يونية، بحيث تلقوا الضربة الإسرائيلية الساحقة، وهم عاجزون تمامًا عن مقاومتها، فضلًا عن التفكير في ردها.

كان من الطبيعي - بل من المحتم - ومرارة الإحساس بالهزيمة تملأ النفوس، أن تسارع القيادة الجديدة لسلاح الجو المصري، بتشكيل لجنة تقوم بالتحقيق الموضوعي العاجل، لمعرفة حقيقة ما حدث في تلك الليلة، وشرفتنى القيادة برئاسة هذه اللجنة، وعلى الفور بدأت المهمة الشاقة.

ولم يكد التحقيق يبدأ - سواء مع العسكريين أو المدنيين من الفنانين الذين حضروا الحفل للترفيه عن رجال القاعدة الجوية - حتى تأكد لي بما لا يدع مجالاً للشك، أن الصورة لم تكن بالسواد الذي لونتها به الدعاية المعادية - وأن الصورة المصاحبة المزعومة، لم تخرج عن حفل ترفيهي عادي، تقوم به أفرع التوجيه

المعنوي والشئون العامة، في مختلف وحدات القوات المسلحة وأسلحتها.

وبالتدريج، ومع تقدم التحقيق، وتوالي الشهود، بدأت اللجنة ترى الصورة على حقيقتها، وأخذت الأقاليم المخترعة، والأساطير الفلكلورية التي نُسجت حول الحفل، تتهاوى واحدة تلو أخرى.. حتى جاء ذلك اليوم الذي وقفت فيه عاجزًا عن تحديد مشاعري وأنا أستمع لإحدى الشهادات وقد تملكنتني الحيرة، بين الإحساس بالسخرية لسذاجة القصة التي روتها الشاهدة، وبين الحزن لقسوة القصة وضاوة نسيجها ضد الضحية الذي حيكت القصة حوله.

كانت واحدة من المطربات، إحدى الشهادات اللائي استدعتهن اللجنة لسماع أقوالهن في التحقيق، باعتبارها، من الفنانات اللائي اشتركن في إحياء حفل «أنشاص» الشهيد.. وفوجئت بالمطربة المثقفة، تقول في نهاية

أقوالها في التحقيق، وقد بلغ بها الانفعال  
قمته:

- إنني واثقة من أن ما حدث لنا في 5 يونية،  
لم يحدث نتيجة لضعف المحارب المصري أو  
عجزه عن مواجهة عدوه.

سألتها بهدوء: وما هو السبب إذن - من  
وجهة نظرك - في حدوث ما حدث لنا من  
هزيمة، إذا كنت واثقة إلى هذا الحد من  
شجاعة المحارب المصري وقدرته على  
مواجهة عدوه؟ وأجابت الشاهدة بأسف وحزن  
واضحين: ماذا يصنع أشجع الرجال، إذا لم تكن  
لديهم القيادة القادرة على مواجهة الموقف  
والارتفاع إلى مستوى المسؤولية؟

عدت أسأل الشاهدة بنفس الهدوء، لكي  
أدفعها للإفصاح عن مشاعرها وتفصيل ما  
أجملت:

- ماذا تقصدين يا سيدتي بحديثك عن  
انتقاد القيادة؟



وعاودت الشاهدة الإحساس بالأسف والحزن وهي تستطرد: إذا كان ما حدث في حفل أنشاص - وقد شاهدته بنفسي وشاركت في إحيائه - أمرًا عاديًا، فإن طيارينا في مختلف المطارات والقواعد الجوية، كانوا مع الأسف تحت قيادة رجال أقل من الموقف، وأدنى من المسؤولية التي كانوا يواجهونها.

وكتمت غيظي لهذا التعميم القاسي، وقلت للشاهدة:

- أريد مثالًا محددًا.. هذا التعميم في الحكم على القيادات، فيه قسوة بالغة، وهو مرفوض تمامًا.

ونظرت إلى الشاهدة في دهشة، وقد امتزج في عينيها الإشفاق عليّ والشك في مدى جديتي وأنا أرفض اتهامها الذي أسقطته على رأس الجميع دون أن تدري. وأحسست أن في نفس الشاهدة ما تريد أن تُدلي به، ولكنها حائرة بين التصريح به، والسكوت عنه..

فأسرعت أقول لها بإخلاص لا شك أنه حرك  
أنبل مشاعرها كمواطنة مصرية:

- أرجوك أن تصارحي اللجنة بكل ما عندك  
من معلومات قد تساعدنا في كشف الحقيقة،  
ولا تنسي أنك فنانة مثقفة، ومسئولة عن كل  
ما تقولينه.. ثم.. إن هذا الحكم الشامل لكل  
القيادات، فيه إهانة وظلم للشخصية المصرية  
لا ترضاه مواطنة مثلك، مفروض فيها بحكم  
دراستها الجامعية للقانون، أن تلتزم بميزان  
العدالة الصارم، وحين تلقي باتهام معين، يجب  
أن تحدد المقصود به بالذات، ولا تتركه معلقًا  
فوق رءوس الجميع.

وأجابتنني الشاهدة بغضب، وقد عذب  
ضميرها القومي، دفاعي عن الشخصية  
المصرية:

- إذا كنت يا سيدي تريد مثالاً محددًا،  
فيكفي أن تعرف ما حدث في قاعدة بني  
سويف الجوية، صباح 5 يونية.

حبست أنفاسي، وتغلّبت على مشاعر الدهشة التي تملكنتني وأنا أسمع الشهادة تتحدث عن قاعدة بني سويف، وسألتها بهدوء مفتعل:  
- وما الذي حدث في بني سويف في ذلك اليوم؟

فاندفعت تقول في عبارات أقرب إلى الصراخ:

- تصور يا سيدي، أنه في الوقت الذي كانت كل الدلائل تشير فيه إلى قرب اشتعال الحرب بيننا وبين إسرائيل، الأمر الذي يُحتم على كل قائد أن يعيش بين رجاله ليل نهار، يدرس معهم الموقف، ويستعد لكل احتمال، كان قائد مطار بني سويف ينام ليلة 5 يونية في شقة خاصة استأجرها بعاصمة المحافظة، بعيدًا عن رجاله، وعندما وقعت الكارثة في الصباح، استيقظ القائد على صوت القنابل والصواريخ التي وصل صوت انفجارها المدمر، إلى المدينة، وبدلاً من أن يستجمع شجاعته

ويسارع بالذهاب إلى قاعدته الجوية التي أحرقها العدو، ليحاول عمل شيء، إذا به يفقد صوابه، ويندفع جاريًا في الشوارع «بجلاية النوم»، مما اضطر المسؤولين في محافظة بني سويف إلى الجري وراءه في الشوارع للإمساك به ووضعه في سيارة ابتعدت به بسرعة عن الجماهير التي أذهلها وأثار غضبها هذا المنظر المؤلم لواحد من قادة الطيران كان من المفروض في تلك الساعة، أن يكون في مقر قيادته الجوية ليقوم بتوجيه رجاله لرد اللطمة للعدو، الذي صنع بنا ما صنع؛ لأنه يوجد بيننا مثل هذا القائد...

وقبل أن تنطق الشاهدة باللفظ الجارح، الذي كان من المحتم أن تقذف به في أسماع اللجنة، بعد أن استبد بها الغضب، أسرعت أسألها:

- هل شاهدت هذه الواقعة بنفسك..؟!!

وأجابت الشاهدة في إصرار:

- لقد شاهدتها كل سكان مدينة بني سويف يا سيدي، وهي منتشرة ومعروفة لكل مواطن في مصر.. صدقني يا سيدي، أعرف طبعًا أنها قصة مؤلمة ولكنها حقيقية.

وتبادلت ابتسامة سريعة مع أعضاء اللجنة، ثم عدت أسأل الشاهدة وقد انتابني نوبة مفاجئة من المرح والرغبة الأصيلة التي تملكنا نحن المصريين في إلقاء النكتة، كلما وجدنا أنفسنا أمام موقف نعجز عن التعبير عنه بغير النكتة التي اشتهرنا بها:

- وهل تعرفين اسم هذا القائد، الذي يجيد الجري في الشوارع أكثر مما يجيد قيادة رجاله؟

ولعل الشاهدة لم تلاحظ نبذة السخرية في سؤالتي، أو لعلها تجاهلتها عن عمد، واعتبرتها نوعًا من الدفاع السلبي عن بطل الأسطورة التي نسجها الوجدان الشعبي ليبرر بها تدمير

قاعدة بني سويف؛ ولهذا لم أفاجأ حين اندفعت الشاهدة تقول في غضب:

- وماذا يعني اسم هذا القائد يا سيدي؟! المهم عندي كمصرية، أنه ترك قاعدته تُضرب وهو بعيد عنها، وحين فاجأه العدو فقد صوابه، ولم يفكر في تصرف ينقذ به ما يمكن إنقاذه، بل سارع إلى الجري في الشوارع بملابس النوم بشكل مؤسف ومحزن.

ووجدت نفسي - ربما دون قصد مني - أقول للشاهدة في عتاب هادئ:

- ولكنني أؤكد للشاهدة، أن قائد قاعدة بني سويف، مظلوم تمامًا، وبريء تمامًا من كل ما ألصق به من تهمة.. فلم يحدث أن كانت له شقة في المدينة، ولم يحدث أن ضربت قاعدته وهو بعيد عنها، ولم يحدث أن جرى في الشوارع بملابس النوم حين ضربت قاعدته، والذي أعرفه عنه وتعرفه كل قيادات الطيران أنه متزمت إلى حد الصرامة، في تنفيذ قواعد

الضبط والربط العسكريين بين رجاله، وأنه على سبيل المثال لم يكن يسمح لرجاله من طياري قاعدة بني سويف بالنزول إلى المدينة إلا في حالات الضرورة القصوى، فضلاً عن إصراره الحاسم على عدم السماح لأي منهم باستئجار سكن في عاصمة المحافظة، ولو لقضاء إجازته الأسبوعية، وليس من المعقول أن يتمكن من فرض هذه التعليمات على رجاله، إلا إذا كان يُنفذها على نفسه بصرامة أشد.

ولم تستسلم الشاهدة بسهولة وعاجلتني بالسؤال في سخرية سخيفة.

- هل وجد الجرأة ليُكذب ما حدث.. وهل صدقته يا سيدي؟

وقلت لها بهدوء وأنا أبتسم في إشفاق وأسف وعتاب حزين:

- نعم يا سيدتي صدقته.. لأنني أنا هذا القائد الذي تتحدثين عنه.

فغرت الشاهدة فمها دهشة وذهولاً لهول المفاجأة، ولكن الذي ضاعف ذهولها حقاً، هو ما سمعته بعد ذلك، وعرفت منه، أن قائد قاعدة بني سويف، الذي قالت الأسطورة عنه ما قالت، لم يكن نائماً في مدينة بني سويف بعيداً عن مقر قيادته ولم يجر في الشوارع هلعاً وقت تدمير قاعدته الجوية، لسبب بسيط وهو أن هذا القائد المظلوم - الذي هو أنا...!! - كان مُعلقاً في الجو ضمن الطائرات الخمس من طراز «ت/ي/16 القاذفة الثقيلة» التي تقرر قيامها بطلعة تدريب بطياريتها الخمسة كما ذكرت.

الذي يعنيني هنا: هو تحليل أمثال هذه القصص المختلفة من أساسها، والتي أعمل فيها الوجدان الشعبي كل قدراته على التخيل والاختراع.. لكي نصل إلى نتيجتين مهمتين:

- الأولى: تحديد الأساطير الشعبية التي حاكها الوجدان المصري الخالص، كتعبير



عفوي عن رفضه للهزيمة التي فُرضت على الجيش ثم على الشعب كله بعد ذلك.

- **الثانية: استخلاص القصاص المسمومة** - التي دستها أجهزة الحرب النفسية المعادية وسط موجة الأساطير الشعبية - لكي تزيد من بلبلة المواطن العادي، وتزرع في نفسه الشك في قدرة قواته على مقاومة هذا العدو الأسطوري الذي لا يمكن مقاومته.

والملاحظ بصفة عامة، أن الخيط الأساسي الذي يربط بين الأقاويص التي تنسجها أجهزة الدعاية المعادية، هو المزج الذكي بين قدر محدود من الحقيقة، يعرفه الرأي العام الذي توجه ضده الحرب النفسية، ولا يستطيع أحد إنكاره، وبين قدر غير محدود من الأكاذيب والسموم النفسية التي تُنسج ببراعة شيطانية

تجعل من الأكذوبة المخترعة، كيانًا رهيبًا يسيطر على عقل الرأي العام الذي تستهدفه الأكذوبة، ويستحيل على أجهزة الإعلام القومية أن تقاوم تأثيره الهدام؛ لأن الأساس الذي بُنيت عليه الأكذوبة معروف أساسًا، ولا سبيل إلى إنكاره.

والتحليل العلمي لمدلول هذه الأكذوبة وهدفها، يصل بنا إلى نتيجة واحدة لا مجال للهرب منها وهي:

أن هذا الحفل المزعوم - لو كان قد أُقيم بالفعل بالصورة التي رسمتها المخابرات الإسرائيلية في كتابها - يعني أن كل طياري سلاح الجو المصري من القاعدة إلى القمة، غير أمناء على المسؤولية التي حملها لهم الشعب، وغير جديرين بشرف الدفاع عن سماء مصر، لأن قاداتهم سمحوا بإقامة مثل هذا الحفل الصاخب الذي لا يُقام مثله في أكثر أوقات السلم هدوءًا واستقرارًا؛ ولأن باقي الطيارين

استسلموا لإغراء الخمر بهذا الشكل الصبياني البعيد عن أدنى إحساس بالمسئولية بحيث أصبح صباح 5 يونية وهم سكارى لم يفيقوا بعد من تأثير العشرات من صناديق الويسكي التي وزعها عليهم قادتهم المتهورون.

ولا تكتفي الأسطورة الإسرائيلية بهذا السواد الذي رسمته لصورة «حفل أنشاص» بل تزيد الصورة سوادًا في عيني المواطن المصري حين يشير الكتاب المزيف - الذي وردت به هذه الأكذوبة الضخمة - إلى أن فكرة الحفل، نبتت أساسًا في مقر المخابرات الإسرائيلية بتل أبيب، ونقلها ببراءة أحد العملاء من اليهود، نجح في اكتساب الحظوة لدى قادة سلاح الجو المصري.

فإذا انتقلنا من الأكذوبة الإسرائيلية الذكية، التي يمتزج فيها قدر بسيط ومعروف من الحقيقة، بقدر هائل من الأكاذيب والافتراءات، إلى الأقاصيص الشعبية، التي صاغها الوجدان

الشعبي دفاعًا عن الشخصية المصرية وحماية لها من الإحساس بمرارة الهزيمة، فإن السمة المشتركة التي نراها تربط بين هذه الأقاليم هي الدفاع الضمني عن الجماعة، والاتجاه بملامح البطل الشرير، وتركيزها كلها حول شخص واحد فقط، تحمله الأسطورة الشعبية كل الخطايا والأوزار، وكأن الوجدان الشعبي يقول: إننا نحن الشعب المصري أبرياء من مثل هذا البطل الشرير؛ لأن مجموعنا خير لا يميل للشر، وشجاع لا يعرف الجبن، ومقدام لا يقبل الفرار.

إن أقل الناس دراية بعلم النفس الاجتماعي ونظرياته، حين تطرح أمامه هذه الأسطورة الشعبية البسيطة، سيحني رأسه إعجابًا وتقديرًا لهذا الشعب العظيم، الذي تفتق خياله الأصيل عن هذا الدفاع القوي عن أصالته كشعب، ليحمل الوزر في كل ما حدث صباح 5 يونية لأفراد قلائل، لولا تقصيرهم، لاستطاعت

الجماعة المصرية النبيلة أن تؤدي واجبها في إيقاف العدو عند حده، ثم إعطائه درس العمر. نعم.. أنا مدين لأسطورة قائد مطار بني سويف - الذي قيل إنه هرب في الشوارع صباح 5 يونية - بالإيمان العميق وبلا حدود، بعظمة شعبنا المصري وأصالته، ورفضه القاطع للهزيمة، ولكل الأخطاء التي تسببت في وقوع الهزيمة أو عجلت بها، ثم ضاعفت من حجمها حين حلت ساعتها النكراء. وأنا مدين لهذه الأسطورة، بالإيمان العميق - وبلا حدود - بأصالة الشخصية المصرية، وبقدرتها على أن تصنع المستحيل، إذا تهيأت لها الظروف المواتية، والقذوة الحسنة.

وأنا مدين لهذه الأسطورة - قبل كل شيء وبعد كل شيء - بالإيمان العميق وبلا حدود بأهمية العلم والمنهج العلمي، في بناء سلاح جوي عصري، وإعداد مقاتل طيار بالغ العصرية والحدثة. وقد يتساءل البعض قائلًا: وما صلة

الأسطورة التي روتها الشاهدة أمامك، عن هرب قائد مطار بني سويف، بإيمانك العميق بالعلم والمنهج العلمي في بناء قوات جوية عصرية. والإجابة عن هذا التساؤل، نستمدّها من نسيج الأسطورة الشعبية نفسها، حين نتذكر أن الخيال الشعبي جعل الرجال المرابطين في القاعدة الجوية يتلقون وهدفهم ضربة العدو المفاجئة، دون أن يكون معهم القائد الذي يلم شملهم ويقودهم ويوجههم نحو ما كان يجب أن يوجهوا إليه من رد على العدو، وانتقام.

ومعنى هذا، أن شعبنا يُعلن - خلال الأسطورة التي دافع بها عن نفسه ضد الهزيمة- أن الإنسان المصري في مجموعته مخلص وقوي وقادر على صنع الكثير، إذا تهيأت له الظروف والقدرة.. وهنا، يثور أمامي هذا السؤال، يلح على ذهني، ويطاردني بقوة: ما هي هذه الظروف المواتية التي رمزت إليها

الأسطورة، لكي تبرز في الإنسان المصري أحسن ما فيه، ليكون مقاتلاً طياراً عصرياً بمعنى الكلمة؟

هل هي المظهرية في الأعداد؟ أم هي الشعارات العريضة نملاً بها رءوس طيارينا ونحشو بها أدمغتهم عن قوتنا الجوية، التي أثبت 5 يونية أنها لم تعد - وربما لم تكن أبداً - أكبر قوة جوية ضارية في الشرق الأوسط.

إن واجب الأمانة مع نفسي كطيار مقاتل، ومع شعبي المصري وأمتي العربية من ورائه - يضعني أمام إجابة حتمية لا بديل لها لأنها الإجابة الصحيحة الوحيدة عن كل هذه التساؤلات.. إنه العلم ولا شيء غير العلم، هو السبيل الوحيد والشاق الذي يُمكن أن يصل بسلحنا الجوي إلى العصرية التي تجعله ندّاً قوياً لما يُسمى بذراع إسرائيل الطويلة الطائرة.

لقد كنا في القوات المسلحة مملوئين بطاقة الإصرار، وبكل الإرادة الراغبة في استعادة ما فقدناه، أرضًا وعسكريًا ومعنويًا وحضاريًا.. وقد كانت كل المظاهر حولنا تضيف إلينا طاقة جديدة. وبينما كانت «الروح تعود»، فإننا لكي نعيد بناء أنفسنا كان أن تجاوزنا أحد أهم نقاط التقصير التي تسببت في 5 يونية بأن نتسلح بالمعرفة، باعتبارها السلاح الأمضى القادر على تحقيق النصر الذي نريده.

ولعل خير ما وصفت به معارك أكتوبر المجيدة، أنها - كما كتب أحد المراسلين الحربيين الأجانب في بدايتها - «لم تكن مجرد صراع بين عدوين، يهدف كل منهما إلى إخضاع الآخر لسيطرته، وليست مجرد صدام مسلح بين خصمين، يريد كلاهما أن يفرض سلطانه وينفذ إرادته.. ولكنها كانت في الحقيقة صراعًا فريدًا بين نظريات علمية بالغة التطور، وعلى أساسها أخرجت أكبر المصانع



الحربية أحدث ما عرفه العالم من أسلحة الحرب الإلكترونية والكيميائية.. والشيء المؤكد أن النصر النهائي في هذه الحرب سيفوز به الطرف الذي يثبت مقاتلوه تفوقًا في استيعاب السلاح الرهيب المعقد الذي بين أيديهم؛ ويؤكدون بسيطرتهم على هذا السلاح تعمقهم في فهم النظريات العلمية التي تكمن وراء تصميمه وإنتاجه».

وإذا كان هذا المراسل الحربي الذكي، قد تنبأ تقريبًا بالنتائج المشرفة التي حققها المقاتل المصري في حرب أكتوبر - كنتيجة حتمية لسيطرة هذا المقاتل على سلاحه، سيطرة نابعة من فهمه للأسس العلمية التي تحكم عمل هذا السلاح وتوجهه - فإن هذه النتائج الباهرة، التي خرجت إلى حيز الوجود في أكتوبر 1973، كواقع مشرف للمقاتل المصري، كان التخطيط لها قد بدأ في عام 1967 وعقب هزيمة الخامس من يونية مباشرة.

إن القيادة الجديدة لسلاح الجو المصري، التي تولت مسؤولية إعادة بناء القوات الجوية المصرية، وضعت نصب عينيها هدفًا محددًا، لا بد من الوصول إليه مهما كان الثمن ومهما كانت التضحيات، وهو استرداد شرف الطيار المصري المقاتل، الذي ظلم مرتين في عملية غادرة نفذها العدوان الإنجلوفرنسي عام 1956 - وأعاد تنفيذها «مردخاي هود» صباح الخامس من يونية عام 1967.

وكانت تلك القيادة تعرف جيدًا أن عصر الحروب العنترية ذات الشعارات العريضة الجوفاء لن يؤدي بها إلا لمزيد من الهزائم المتلاحقة، والطريق الوحيد أمامها هو الأخذ بالأسلوب العلمي - الذي يقترب من الجفاف في حياده وموضوعيته - والتخلي إلى الأبد عن كل ما ليس علميًا، سواء في التخطيط أو التدريب أو التنفيذ النهائي للعمليات.

والواقع أن إيمان الجيل الجديد من قادة العسكرية المصرية - بالعلم - لم يكن مجرد تعبير ضمني عن رفض أسلوب قديم أثبت فشله مرتين متتاليتين، ولكنه كان تعبيرًا عن إدراك ذكي للتطور الهائل الذي لحق بعلوم الحرب وفنون القتال الحديثة، بعدما استفادت هذه الفنون إلى أبعد مدى من معطيات العلم الحديث في مختلف مجالاته وأبحاثه.

وإذا كان القائد الناجح في العصور القديمة والوسيطة - هو القائد الذي يجيد إشعال حماسة رجاله، ويستثير روح القتال فيهم بخطبه الرنانة وكلماته الملهبة، فإن مواصفات القائد الناجح في العصر الحديث تختلف عن هذا اختلافًا كبيرًا، ربما يصل إلى حد التناقض، بالقياس إلى مواصفات القائد القديم؛ لأن القائد المعاصر يحتاج أول ما يحتاج للنجاح في مهامه تخطيطًا وتنفيذًا إلى الإحاطة الكاملة بعلوم فنه القتالي، كما يحتاج أيضًا إلى

الإمام بالعلوم المكملة لمادة تخصصه العسكري.

ولعلي لا أبالغ إذا قلت إنه ما من مهنة يحتاج صاحبها إلى ما يحتاجه المقاتل - بزا وبحرا ووجوا - من إحاطة واسعة بشتي ألوان المعرفة، سواء اتصلت هذه المعرفة بطبيعة عمله بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

والسبب في هذا، أن المقاتل هو الإنسان الوحيد الذي يتحمل أقصى تجربة يتعرض لها البشر في الأوقات العصيبة وساعات الخطر.. لأن هذا المقاتل يتحتم عليه وهو يواجه الموت، واحتمالات الفناء، أن يتماسك، ويحكم السيطرة على أعصابه وتفكيره، ليصل إلى اتخاذ القرار المناسب، الذي يرى بحكم خبرته، وبحكم علمه ومعرفته، أنه القرار المؤدي إلى النجاة والفوز في معركة قد يكون خطها سائرا في الاتجاه المضاد لأهدافه.

ومن المعروف علميًا أن الإحساس بالخطر، يحرك في الإنسان العادي غريزة حب البقاء، وكلما كان هذا الخطر سريعًا مفاجئًا من جهة، وعنيفًا ساحقًا من جهة أخرى، كان رد الفعل الغريزي الذي يقوم به الإنسان للدفاع عن نفسه وحمايتها عشوائيًا وأقرب إلى التخبط وعدم الإحكام؛ بسبب عدم قدرة الإنسان في ظروف الخطر المفاجئ على التركيز، وإحكام التفكير.

هكذا تتضح خطورة المسؤولية الملقاة على عاتق المقاتل، الذي يتحتم عليه الإسراع باتخاذ القرار وهو يواجه الموت في ساحة القتال، ويزيد حجم هذه المسؤولية، إذا كان المقاتل مسئولًا كقائد عن غيره من الأفراد، وعليه أن يتحمل أمام ضميره، وأمام الوطن والتاريخ، مسؤولية القرار الذي يتحتم عليه اتخاذ وسط المعركة، وبسرعة لا تيسر للإنسان العادي أن يحكم تفكيره خلالها، ورغم كل هذه الظروف القاسية ينبغي على القائد أن

يقول كلمته وبسرعة.. هل يصمد رجاله ويقاثلون حتى النصر أو الشهادة.. أم يتراجعون إلى حيث يمكنهم أن يتخذوا مواقع أفضل في مواجهة العدو.

هذه اللحظات المتناهية في الصغر من حيث مساحتها الزمنية بقياس الساعات والأيام والسنين تبدو أمام المقاتل الذي يخوض المعركة دهرًا لا آخر له، ولا حدًا لطوله، ورغم قسوة هذه اللحظات البالغة الخطر، فإن على المقاتل أن يجتازها بسرعة ليصل إلى قرار يتحمل وحده مسؤوليته، وهنا تبدو حاجة المقاتل العصري إلى التزود بالعلم والمعرفة سواء في علوم الحرب وفنونها، أو في غيرها من المعارف، وكلما زاد نصيب المقاتل - خصوصًا القائد المسئول عن غيره - من المعرفة الإنسانية، كانت سرعته في اتخاذ القرار الصائب.

إن المقاتل العصري (في لحظة الإحساس بالخطر والحاجة إلى اتخاذ القرار) يسترجع مخزونه من المعرفة والعلم كما تقول أحدث دراسات علم النفس الحربي بسرعة تفوق سرعة العقل الإلكتروني في استرجاع مخزونه من المعلومات عشرات المرات.

هذه الحقيقة النفسية التي قد تبدو غريبة للبعض، تفسر لنا السر الحقيقي وراء الابتكارات المذهلة، التي يتوصل بعض المقاتلين لاكتشافها، خصوصًا في مجال المعارك الجوية، حين يكون الطيار المقاتل معلقًا بين السماء والأرض، لا يفصله عن الحياة أو الموت، سوى القرار السريع الحاسم، الذي يتعين عليه إصداره وتنفيذه في جزء من الثانية، مهما بدأ هذا القرار في الظروف العادية غريبًا، بل غير مقبول.

مثالًا على هذا أسوق واحدًا من أوسمة الشرف العديدة التي وضعها الطيار المصري

المقاتل على صدر أمته العربية، خلال معارك السادس من أكتوبر.. تأكيدًا على أننا خلال سنوات الصبر والصمود قد استعدنا الروح ورفضنا ما علق بمخزوننا من آثار منعت استرجاعه، واكتسبنا المعرفة التي ينبغي أن تكون حاضرة في لحظة القرار العصيب.

في يوم الأحد السابع من أكتوبر عام 1973 وهو ثاني أيام حرب رمضان أقلع تشكيل جوي، بقيادة المقاتل طيار «نجيب...» لمهاجمة قُول إسرائيلي مدرع، كان يتحرك على الطريق الشمالي بأقصى ما يملك من سرعة، مستهدفًا نجدة القوات الإسرائيلية البرية المشتركة في معركة دامية مع قوات الجيش الثاني التي كانت تتقدم في زحفها المنتصر شرقًا، بعد أن تمكنت بنجاح ساحق من إقامة رءوس الكباري والمعابر اللازمة للتدفق إلى سيناء.

في هذه المرحلة المبكرة من المعركة، كان طوق النجاة الوحيد أمام العدو الإسرائيلي، هو



تدعيم الأنساق الأولى من قواته التي تواجه الضربات الساحقة التي تكيّلها له قواتنا الزاحفة، خصوصًا بعد أن انهارت الخطوط الإسرائيلية الأولى، وتمزق معظمها.

أدرك الطيارون المصريون بحسبهم الصادق أن حرمان العدو من وصول النجدة إليه، يحتل رأس القائمة في المهام التي سارعوا للقيام بها. ولم يكد القول الإسرائيلي المدرع ينكشف، حتى هاجمته طائرات التشكيل الذي يقوده المقاتل «نجيب» بضراوة، وبكل حمولة الطائرات من القنابل والصواريخ، بحيث قضى على معظم القول المعادي.

وعندما لاحظ قائد التشكيل أن بعض وحدات القول لا تزال سليمة لم تدمر، وهي مستمرة في السير غربًا أملًا في نجدة الخطوط الإسرائيلية المنهارة، أمر طياريه على الفور باكتساح هذه الوحدات الهاربة بالمدافع، ونجح التشكيل الشجاع بالفعل في تحقيق

مهمته بنسبة مائة بالمائة، حيث قضى على جميع وحدات القول المدرع، ولكنه فوجئ بمشكلة طائرة من نوع غريب، تسبب في خلقها حماس التشكيل وإصرار قائده على عدم إفلات مدرعة واحدة من مدرعات العدو من الصواريخ المصرية المدمرة.

ظهر تشكيل من مقاتلات العدو، ليعترضه في الجو، في الوقت الذي لا يملك فيه الدفاع عن نفسه، بعد أن فقد ذخيرة مدافعه التي قد أفرغها في جسد المدرعات الإسرائيلية التي حاولت الإفلات من الدمار.. تشكيلان جويان معاديان يلتقيان في حرب دامية، اشتعلت نيرانها فجأة، بعد سنوات من الصمت الطويل.

أحد التشكيلين ينتمي إلى سلاح جوي كان قد ابتز نصرًا إن يكن سهلًا في ثمنه إلا أنه كان وقتها نصرًا ساحقًا، وفيه طيارون يركبون أحدث ما عرفتته الحرب الجوية من أنواع الطائرات، وأجودها قدرة وتسلية في

مواجهة هذا التشكيل المختال المغرور يتقدم التشكيل المصري، يحمل في صدره رجلاً، طالما عذبهم الإحساس بالإهانة التي لحقت بسلاحهم الجوي المظلوم في عام 1956، ثم في عام 1967، وهم مصرّون على محو هذه الإهانة عن جبين قواتهم الجوية، وعن وجه أمتهم العربية كلها، مهما كان الثمن، ومهما عظمت التضحيات، ومهما تضاءلت إمكانيات العتاد المتاح لهم.

في الظروف العادية، قد تبدو هذه المواجهة التصادمية بين التشكيلين محتملة، وقد يستطيع التشكيل الأقوى إيماناً، والأكثر شجاعة، أن يصمد في المعركة، وأن يعوض بإصراره على الانتقام، ما قد ينقصه من إمكانيات في السلاح الذي يستخدمه. أما وهذه المواجهة المفزعة تتم في الجو، بين تشكيلين أحدهما يملك ذخيرة وفيرة، بينما يحلق الآخر في الجو، وقد فقد ذخيرته كلها،

بعد أن أفرغها في بقايا المدرعات الهاربة، فإن الموقف يخرج عن كونه مجرد معركة جوية بين خصمين قد يفوز فيها أحدهما، وقد يهزم، ليتحول الموقف إلى كارثة محققة للفريق الذي يحلق في الجو وهو أعزل وعاجز تمامًا عن الدفاع عن نفسه، حتى لو فكر في الهرب، فضلًا عن التفكير في الصمود أمام عدوه أو مهاجمته.

وفي الأحوال العادية، فإن القواعد التقليدية المتبعة في القتال الجوي، تقضي بحل واحد في مواجهة مثل هذا الموقف العصيب، ويتمثل هذا الحل التقليدي في ابتكار وسائل بارعة لمحاولة الإفلات بأي شكل، والهرب بأقصى ما يتاح للطائرة العزلاء من سرعة ممكنة. ولو أن الطيار «نجيب» اختار لتشكيله هذا الحل، لينقذ ما يمكن إنقاذه من طائراته، لما كان مخطئًا أو مقصرًا، ولكنه اتخذ قرارًا

مفاجئًا وغريبًا، بل يبدو مناقضًا لكل ما يحيط به من ظروف.

أصدر أمره فجأة بمهاجمة العدو للاشتباك معه.. وبلا تردد انفرط عقد التشكيل المصري، وراح كل من مقاتلينا الطيارين، يتصيد إحدى طائرات العدو مناوِرًا، ليركبها ويمسك بها من ذيلها.. وبروح التصميم على تحقيق المعجزة، أبدى كل طيار مصري إصرارًا فذًا في المناورة ومتابعة خصمه، وكأنما هو مزود بالذخيرة الكافية لتدمير عدوه والقضاء عليه. وبروح الخذلان التي تملك العدو بعد أن فوجئ بضربة السادس من أكتوبر أسرع طيارو التشكيل الإسرائيلي المعادي، بالهرب فجأة بأنفسهم من فوهات المدافع المصرية التي تطاردتهم وهي خالية تمامًا من أي ذخيرة.

لقد كان الحل المبتكر الذي توصل إليه المقاتل الطيار «نجيب» في ساعة الخطر مغامرة بكل ما في الكلمة من معنى. ولو أن

هذه المغامرة التي قد يعجز عن ابتكارها أبرع المؤلفين خيالاً، انتهت بانتهاك هذه المعركة، لجاز لقائل أن يقول، إنها ضربة حظ لا أكثر.. ولا دخل فيها لسيطرة المقاتل على أعصابه، وفكرة تلك السيطرة التي يستمدّها من جودة التدريب وسعة العلم وشمولية المعرفة.. ولكن الذي حدث في اليوم الثاني عشر من أكتوبر وبعد خمسة أيام فقط من المعركة السابقة ينفي أي احتمال للحظ في النتيجة الباهرة التي حققتها هذه الظاهرة القتالية الانتحارية التي ابتكرها خيال الطيار المقاتل «نجيب».

ففي نهاية الأسبوع الأول من حرب رمضان المجيدة، وعلى وجه التحديد، يوم الجمعة الثاني عشر من أكتوبر، اكتشفت قوات الاستطلاع المصرية، ظهور قُول إمداد إسرائيلي، يتقدم إلى جبهة القتال، حاملاً شحنة من صواريخ «س/س 1» الرهيبة، لتدعيم قوات العدو. وعلى الفور صدرت

الأوامر لأحد تشكيلاتنا الجوية بالإقلاع لمهاجمة قول الصواريخ الإسرائيلي وتدميره قبل أن يصل إلى جبهة القتال، وشاء القدر أن يكون التشكيل الجديد، هو نفسه التشكيل الذي يقوده الطيار المقاتل «نجيب».

وكرر التشكيل نفس العملية بنفس الخطوات تقريبًا... تدمير القول المعادي بضربه بالقنابل والصواريخ، ثم قصف البقية الباقية منه بالمدافع لتدميرها وإحباط محاولتها اليائسة للإفلات بحمولتها الرهيبة. وفي اللحظة التي يفرغ فيها التشكيل المصري من تحقيق مهمته الهجومية على الوجه الأكمل، يفاجأ بظهور تشكيل جوي معادٍ يعترضه بعد أن فرغت ذخيرته تمامًا... وبلا أدنى تردد وربما بحسم أكثر، وبإصرار يستمد من نجاح التجربة الأولى يأخذ الطيار «نجيب» نفس القرار، ويأمر بمهاجمة التشكيل الإسرائيلي، وتصيد طائراته، والإمساك بها من الذيل.

ومرة ثانية، يتمكن الفرع من قلوب الطيارين الإسرائيليين، ويسرعون بالهرب، نجاهة بأنفسهم وبطائراتهم جيدة التسليح، من فوهات المدافع المصرية التي كانت خالية تمامًا من كل ذخيرة.

ويعود المقاتل «نجيب» هو وتشكيله، سالمًا إلى قاعدته الجوية، ليؤكد بعودته الظافرة، أن المقاتل العصري خصوصًا إذا كان قائدًا مسئولًا عن غيره يحتاج إلى المعرفة الواسعة بفنون تخصصه القتالي، كما يحتاج إلى العلم بكل ما يزيد من معرفته بالحياة من حوله، لكي يستطيع الوصول إلى الحل الأمثل لكل ما يواجهه من مشكلات طارئة وقت المعركة، وفي أضيق مساحة زمنية ممكنة.

ولو أن المقاتل «نجيب» كان قد اقتصر في معرفته، على الإلمام بفنون القتال الجوي فحسب، ثم واجه أبشع ما يواجهه الطيار المقاتل حين يفاجأ بظهور عدوه أمامه في



الجو وهو أعزل من الذخيرة، لاتجه تفكيره على الفور إلى القيام بمحاولة يائسة للهرب.. ولكن معرفة الطيار المصري، بالمكونات الخفية لشخصية خصمه الإسرائيلي، والعقد الكامنة التي تحكم نفسية هذا الخصم.. ثم ما حدث من تصدع مفاجئ في البناء النفسي للمقاتل الإسرائيلي، وهو يفاجأ ظهر السادس من أكتوبر، بانتفاضة العملاق العربي، وخروج المارد المصري من قمقم الصبر الذي حبس نفسه فيه طوال ست سنوات كاملة.. كل هذه المعرفة الإنسانية الشاملة إلى جانب المعرفة المتخصصة بقواعد الهجوم الجوي لا شك أنها كانت السبب الذي دفع المقاتل المصري الطيار «نجيب» إلى ابتكار الحل المناسب، في الوقت المناسب، وحمل مسؤوليته أمام ضميره، وأمام قيادته، وأمام أمته العربية كلها.

ومن هذا المثال العملي لأهمية التزود بالمعرفة الذي ظهرت نتائجه المشرفة في

حرب أكتوبر نعود إلى الوراء بضع سنوات لنلقي نظرة فاحصة على الجانب المصري من طرفي الصراع، ونتعرف على الجهود المضنية التي بذلتها القيادة الجديدة، لكي تغرس في نفوس أبناء القوات الجوية الإيمان الكامل، بأهمية العلم والمعرفة، واعتبار المنهج العلمي هو الطريق الوحيد الموصول إلى بناء سلاح جوي قادر على مواجهة العدو في معركة لا بد منها، لكي يستعيد الطيار المصري المقاتل سمعته، التي ضاعت منه ظلمًا في غبار عملية واحدة تكررت رغماً عنه مرتين.

" ... كان من أهم ما  
 نستطيع به إثبات  
 وجودنا كمقاتلين  
 عصريين هو  
 الاستعداد الكامل  
 لملاقاة العدو، ثم  
 منافسته في  
 الميدان الذي كان  
 يطنطن بأنه تفرد به  
 وحده، ألا وهو  
 ميدان البحث

# العلمي في مجال الحرب الجوية..“

## مديرًا للكلية الجوية

كان العلم - بكل ما تتسع له كلمة العلم من معانٍ - هو أملنا الوحيد، لتحقيق حلم الانتصار، الذي حولته ضربة الخامس من يونيو إلى واجب حتمي لا بد من الوصول إليه وتحقيقه مهما يكن الثمن.

ولقد أتاح لي القدر - وبأسرع مما كنت أتصور - أن أشارك مع زملائي من خيرة الرجال في سلاحنا الجوي، في شرف تحويل الحلم الكبير إلى حقيقة مضيئة، تفجّر نورها العظيم، حين حلت الساعة الموعودة فيما بعد.

لن أنسى ما حييتُ يوم 2 نوفمبر 1967، ذلك اليوم الذي وضعني فيه القدر أمام واحدة من أخطر المهام التي تحملت مسؤوليتها أمام الله وأمام ضميري القومي.

في ذلك التاريخ - الذي سيظل محفورًا في ذاكرتي ما حييٲ - عُينت مديرًا للكلية الجوية، لأجد نفسي فجأة، وجهًا لوجه أمام الحلم الكبير الذي كثيرًا ما داعب خيالي كطيار مصري مقاتل.. وهو العمل بكل الوسائل على إعداد جيل من مقاتلي الجو المصريين، يؤمنون بالعلم، ويتوقون للمعرفة التي لا تقف عند حد، بل تتجاوز حدود التمكن من أسرار المهنة.. إلى آفاق المعرفة الإنسانية الرحبة، التي تصقل شخصية المقاتل، وتيسر له القدرة على معرفة خصمه معرفة حقيقية، وتطوع له القدرة على مواجهة هذا الخصم في أي زمان ومكان، وتعينه على اجتياز الصعوبات التي قد يخلقها خصمه ويضعها في طريقه وهو منطلق لأداء واجبه القومي في ردع هذا الخصم ثم دحره وإعادته إلى حجمه الطبيعي.

كانت الفلسفة التي تحكم منهجي كمدير للكلية الجوية، منذ توليت إدارتها هي: العلم

النظري الواسع بفنون القتال الجوي وأسراره، والتدريب العملي الشاق والمتواصل لتطبيق العلم النظري المجرد على أرض الواقع العملي الملموس.. ثم.. الانطلاق بمدلول كلمة العلم إلى أوسع مدى تيسر الظروف أن تنطلق إليه من آفاق المعرفة الإنسانية الشاملة والإحاطة الدقيقة بالعدو، ككائن بشري له مكوناته الخاصة، وخلفيته التاريخية المؤثرة في حاضره المعاصر.. مع دراسة واعية لكل ما يمكن الوصول إليه من أساليب هذا العدو في الفن العسكري فكريًا وممارسة قتالية.

وطوال الفترة التي عملت خلالها بالكلية الجوية، لم أتهاون لحظة في تحويل هذه الفلسفة الصارمة، إلى واقع عملي جاد، وأشهد أن كل الزملاء الذين عملوا معي من رجال كليتنا الجوية، كانوا نعم العون على تحقيق هذا الهدف الكبير.

من أحدث طالب مستجد بالكلية الجوية، إلى كبير المعلمين بها، كان الجميع يعملون في تجانس تام، وبحماس غريب، وكأنهم فريق سيمفوني عميق الدراسة، جيد التدريب، يعزف لحنًا عذبًا محببًا إلى قلوبهم شخصيًا، فهم يتعاونون على إخراج هذا اللحن في أكمل صورته، ليسعدوا به شخصيًا، قبل أن يسعدوا غيرهم من المستمعين.

خمس دفعات كاملة من أجنحة مصر القوية، القادرة بعلمها الواسع وتدريبها الجيد، ومعرفتها الكاملة بخصمها، تخرجت في الكلية الجوية، خلال الفترة التي سعدت فيها بإدارتها. وإذا كنت قد سعدت وقتها - كما سعد الزملاء الذين عملوا معي في الكلية بتخريج هذه الدفعات الخمس من طيارينا المقاتلين، فإن سعادتي كانت تتضاعف باستمرار لشيء أجل وأخطر من تخريج خمس دفعات، أو حتى خمسين دفعة من الطيارين.



كان أروع ما يجري أمامي في سلاحنا الجوي - الذي نجح في امتصاص الصدمة واستعادة توازنه بسرعة فائقة بعد ضربة 5 يونية - هو سريان الإيمان بالعلم والبحث، إيمانًا لا يقف بالطيار المقاتل عند مرحلة الدراسة النظرية بالكلية وهو طالب ملزم بالقراءة والاطلاع والاستذكار، ليجتاز امتحانًا أو ينجح في اختبار مفروض عليه، بل يتجاوز حدود الجبر والإلزام، إلى الإقبال الاختياري على الدراسة والعلم، للوصول إلى كل ما هو جديد، بل والسعي إلى خلق هذا الجديد وابتكاره.. وكانت هذه غاية الغاية لدى القيادة الجديدة لسلاحنا الجوي.

كانت الأمنية التي تراود أحلامنا جميعًا، هي خلق جيل من الباحثين المصريين في مجال الحرب الجوية، يثبتون بأبحاثهم المبتكرة في فنون القتال الجوي وعلومه، أن الإنسان المصري قادر على إثبات وجوده، وتحقيق

امتيازه كمفكر عسكري مبتكر، إذا أتاحت له الظروف التي تيسر له الخلق والابتكار. وكان الوصول إلى هذا الهدف الكبير، هو الرد العملي على الأكاذيب التي حاولت أجهزة الدعاية المعادية أن تغرسها من حولنا، لكي تثني الإنسان المصري عن قدراته الحقيقية الكائنة.

إن الهزيمة في معركة - برية كانت أو جوية أو بحرية - لا تعني عجزًا أو قصورًا لدى المقاتل الذي مُني بالهزيمة، بقدر ما تعني أنه كان ضحية لظروف معاكسة على جانبه، أو لظروف مواتية على جانب الخصم المنتصر.

والهزيمة في معركة، لا تخلق خطرًا على شخصية الشعب الذي مُني جيشه بالهزيمة - خاصة إذا كان هذا الشعب يتمتع بشخصية أصيلة تُيسر له عبور الهزيمة إلى النصر - ولكن الخطر الحقيقي الذي يتعرض له الشعب

المهزوم، هو في إحساسه بالنقص أمام عدوه، وشعوره المرضي بتفوق هذا الخصم عليه. ولقد حاول العدو بكل قدرة أجهزة دعايته على التضليل، أن يفرس في أعماق الوجدان المصري خاصة - والعربي عامة - الإحساس بالعجز الذهني أمام تفوق مزعوم للعقلية الإسرائيلية، وكانت أجهزة الحرب النفسية في تل أبيب، تعمل جاهدة، لكي تخدع المواطن المصري عن حقيقة قدراته، وتفرس في نفسيته - مدنيًا كان أم عسكريًا - الذعر المجنون من عدوه الإسرائيلي ذي القدرات العبقريّة.

وقد كان واجبنا نحن أبناء السلاح الجوي - الذي حاول الخصم أن يجعل منا في نظر الشعب الشماعة التي تعلق عليها أوزار الهزيمة - أن نثبت لأمتنا أننا نستحق شرف إيمانها بنا ووقوفها بجانبنا ساعة المحنة.

وكان من أهم ما نستطيع به إثبات وجودنا كمقاتلين عصريين هو الاستعداد الكامل لملاقاة العدو، حتى تحين لحظة اللقاء، ثم منافسته في الميدان الذي كان يطنطن بأنه تفرد به وحده، ألا وهو ميدان البحث العلمي، في مجال الحرب الجوية.

ولقد انطلقت أجهزة البحث في قواتنا الجوية، لتحقيق هذا الهدف العلمي الجليل بكل طاقتها، مستعينة بالإمكانيات الواسعة التي أتاحتها لها القيادة الجديدة، ومستفيدة إلى أقصى حد ممكن من «روح البحث العلمي» التي سرت بين رجال السلاح الجوي كله.

وكان أول ما اهتم به «البحث العلمي» في سلاحنا الجوي، هو الدراسة المستفيضة لقدرات العدو، وأساليب قواته المستحدثة، خاصة في المجالات التي كان يفاخر بها، باعتبارها مجال تفوقه التكنولوجي، كالإعاقة الإلكترونية، وأساليبها المستحدثة، والتطورات

التي يدخلها عليها أولاً بأول، وكالبلونات الخداعية، التي تستعملها القوات الإسرائيلية، ودراسة نواحي القوة والضعف في الأسلحة الإسرائيلية بشكل عام.

وفي إطار السرية التي تستلزمها دواعي الأمن القومي فإننا نستطيع القول بأن الدراسات والأبحاث، التي عني بها الجيل الجديد من الباحثين في قواتنا الجوية، خاصة في الفترة التي أعقبت معارك 1967 تشير كلها إلى أن الأساس الصلب لبناء قوات جوية عصرية، كان قد تم وضعه داخل أسرار العسكرية المصرية الجديدة، التي تقدمت لحمل مسئولية إعادة البناء العسكري، حفاظاً منها لجميل الشعب الأصيل الذي لم يتخل عن قواته المسلحة إبان المحنة التي فرضت عليها. إن البحوث التي أسوقها الآن - على سبيل المثال لا الحصر - تعطي القارئ الدليل الحاسم، على أن سلاحنا الجوي، قد تجاوز إلى الأبد

مرحلة الشعارات العنترية، ليدخل بالعمل الجاد، وبالتدريب الشاق المتواصل، وبإصرار شباب الباحثين فيه على اقتحام عصر الخلق والابتكار، وأن مرحلة استيعاب نظريات الآخرين وتطويعها للواقع المصري قد تم تجاوزها بدخول مرحلة النظريات المصرية الأصيلة، التي نجح في الوصول إليها الجيل الجديد من طيارينا المقاتلين، الذين شغفوا حبًا بالبحث العلمي.

وهذه بعض الأبحاث التي قام بها العقل المصري الخالص، في مجال الحرب الجوية، لتحقيق المزيد من التفوق لقواتنا الجوية على المستويين النظري والعملي:

- دراسة دقيقة لمواصفات وخصائص الطائرات والأسلحة، والمعدات المستخدمة في القوات الجوية.

- دراسة حول «تنظيم طيران الجيش» بالقوات المسلحة لبعض الدول الأجنبية.
- بحث حول «الوسائل المستحدثة»، والتي يمكن استحداثها لإنقاذ الطيارين المقاتلين من سمك القرش إذا أرغموا أثناء العمليات الجوية إلى الهبوط الاضطراري في أعالي البحار.
- دراسة مستقبلية، تتضمن التصور التخطيطي للتكوين القتالي للقوات الجوية، خلال السنوات العشر القادمة.
- بحث مقارنة يتناول بالدراسة الإحصائية والتحليلية: أسلوب تطوير الطائرات والمعدات في القوات الجوية.
- دراسة تحليلية، تتناول أساليب استخدام الطائرات «الهليكوبتر» في تنفيذ عمليات الإبرار الجوي.
- دراسة تحليلية شاملة للأساليب الخاصة بتأمين عمل «طائرات اختبار

## المساعدات الملاحية».

- دراسة تحليلية موسعة للعوامل التي تؤثر على عملية إسقاط القنابل من الارتفاعات المنخفضة وبسرعات عالية.
- دراسة لوضع أسلوب ونظام الدفاع عن مرافق القواعد الجوية، وحماية الوحدات التابعة لسلاح الجو.
- بحث يدور حول «عمل ستائر معدنية» مهمتها القيام بعمليات الإعاقة ضد الطائرات المغيرة.
- دراسة مفصلة حول «استعمال المناطيد بشكل موسع، في عمليات إعادة الإذاعة»!!
- دراسة حول «الأساليب الجديدة المستحدثة في مجال التنبؤ بالأحوال الجوية، باعتبارها من أخطر المهام التي تلزم لضمان سلامة وتأمين الطيران



- المقاتل أثناء قيامه بمهامه القتالية والهجومية على السواء.
- دراسة حول «تعديل الأجهزة الشرقية لفحص وتفسير الأفلام الجوية».
- دراسة حول «طرق وقاية المعدات من التأثير بالعوامل الجوية المختلفة وخاصة الصدا، بحيث تحتفظ هذه المعدات بقدرتها على الأداء المرتفع، في جميع الأحوال».
- بحث تطبيقي حول «استخدام الحواسب الإلكترونية في مختلف نشاطات القوات الجوية».
- دراسة للأسباب المختلفة للقفز المظلي من الطائرات، وخاصة القفز من الطائرات الهليكوبتر.
- دراسة حول تنظيم العمل بسرايا مهندسي الطائرات.

هذه النماذج التي ذكرتها - في إطار الحفاظ على السرية التي تفرضها دواعي الأمن - تمثل رحابة المدى الذي انطلقت إليه الأبحاث العلمية، في سلاحنا الجوي الجديد، بحيث تناولت هذه الأبحاث مختلف مجالات الفكر العسكري والحرب الجوية.

إن الظاهرة مشرقة حقًا، لا لقواتنا الجوية وحدها، ولا لشعبنا المصري فحسب، بل لأمتنا العربية جمعاء.. كما أن الجيل الجديد من باحثي قوات الجو المصرية، لم يكتفِ بالتحليل النظري المجرد في مجال البحث العلمي، ولم يتعلق بأستار النظرية الأكاديمية البحتة، بل اقتحم هؤلاء الباحثون الأبطال مجال التطبيق العملي، وسخروا بحوثهم العلمية لخدمة سلاحهم الجوي الفتى وحل مشاكل التطبيق التي واجهت إخوانهم من مقاتلي الجو المصريين، أو المشاكل التي

توقعوا أن تواجههم عندما تحل لحظة اللقاء المرتقب مع العدو.

وتحقيقًا لهذه الأهداف البالغة الخطر، خصصت أطقم عديدة للبحث القائم على التطبيق العملي، بعضها متفرغ تمامًا للبحث، وبعضها نصف متفرغ وتعاون الجميع بحماس لا يتأتى إلا عند الإحساس الكامل بروح الفريق الواحد.

ولقد توالى النتائج العلمية، لمعطيات العقل المصري الذي أثبت قدرته على الخلق والابتكار والتطوير في مجال الحرب الجوية بكل فنونها وأساليبها.

وهذه بعض النماذج التي تسمح بها السرية الواجبة في مثل هذا المجال الدقيق:

1 - نجح باحثونا في إنتاج «قنابل الممرات» وتصنيعها محليًا، وبمواصفات مصرية وتنفيذ مصري بحت، ولقد كان لهذه القنابل أثر قوي بالغ الفعالية، في العمليات التي

استخدمت فيها خلال حرب أكتوبر، خاصة في تدمير ممرات العدو، الأمر الذي شل حركة مطاراته التي تم قصفها بقنبلة الممرات المصرية في الضربة الجوية المركزة التي قام بها سلاح الجو المصري في الساعة الثانية ظهر السبت السادس من أكتوبر 1973.

2 - توصل باحثونا إلى تصنيع قنابل محلية، كان لها أثرها البالغ في زيادة فاعلية التسليح التي تتمتع بها طائرات تشكيلاتنا الجوية، وعلى الأخص في طلعات عمليات قذف القنابل من الارتفاعات المنخفضة.

3 - نجح باحثونا في تصميم خزانات الحريق و«طبائتها» وقد تولت مصانعنا الحربية القيام بتنفيذ التصميم المصري المستحدث، وتم تحميل هذه الخزانات في الطائرات المختلفة، واستخدمت بالفعل خلال عمليات أكتوبر 1973، وبأعداد وفيرة، وقد أثبتت

هذه الخزانات فاعليتها المؤثرة في إشعال النيران بمواقع العدو ومعداته، وإحراقها بصورة تدميرية شاملة.

4 - من المعروف أن جانبًا كبيرًا من القدرة الهجومية والقتالية لأي سلاح جوي معاصر يتوقف على طول أو قصر المدى الذي تستطيع الطائرات العسكرية المستخدمة في هذا السلاح أن تصل إليها، ومن الحقائق المعروفة أيضًا في مجال الطيران عمومًا والعسكري على وجه الخصوص أن زيادة أو نقص عدد ساعات الطيران التي تحققها الطائرة في الطلعة الأولى، يتوقف بالدرجة الأولى على كمية الوقود التي تتسع لها خزانات الطائرة الأساسية والاحتياطية.

ومن هاتين الحقيقتين المعروفتين لكل من له صلة بعالم الطيران.. انطلق باحثونا المصريون في محاولة جادة لحل المشكلة الأساسية التي كانت تواجه سلاحنا الجوي،

والتي تمثلت في قصر المدى الذي تصل إليه أنواع معينة من الطائرات التي تستخدمها، بسبب قلة الوقود الذي تحمله خزاناتها.. وبالإصرار والمثابرة، تمكن باحثو سلاح الجو المصري من إجراء تعديلات جوهرية في طائرات التشكيلات الجوية، ساعدت على تزويدها بخزانات وقود إضافية، هيأت لهذه الطائرات زيادة ملحوظة في المدى التكتيكي الذي تحققه في طيرانها.

كما نجح علماء الجو المصريون في إجراء تعديلات على طائرات التشكيلات الجوية، لتحقيق الزيادة المؤثرة في مجال تسليح هذه الطائرات، وتزويدها بقنابل ممرات مصرية التصميم والتنفيذ، عالية الجهد في مجال القدرة التدميرية.

5 - إذا كانت طائرات الهليكوبتر، قد اقتصر الانتفاع بها في بداية استخدامها في

الطيران الحربي على مجالات محدودة، فإن التطور المستمر في تصميم هذا النوع من الطائرات، أدى بها إلى اقتحام مجالات جديدة ومتنوعة في مجال الحرب، سواء منها العمليات الهجومية والقتالية المباشرة أو العمليات المعاونة لمجهود الحرب الأساسي، وقد وضع دور الهليكوبتر بشكل مؤثر وفعال خلال معارك الحرب الكورية، عندما حولها سلاح الجو الأمريكي إلى ما عرف في الفكر العسكري الحديث «بفرسان الجو» الطائرة.

وقد وضع باحثونا المصريون أمامهم، كل ما نشر أو أمكن الوصول إليه من حقائق ومعلومات عن التطور المستحدث في استخدامات الهليكوبتر، واحتمالات المستقبل بالنسبة لهذا النوع من الطائرات ومن هذا الأساس العلمي القويم انطلق هؤلاء العلماء الشبان في بحث دائم؛ بهدف

الوصول إلى تطوير جديد لاستخدام الهليكوبتر في سلاح الجو المصري. ونتيجة لجهد الجيل الجديد من الباحثين المصريين في قواتنا الجوية تحقق لنا تطوير مؤثر في مجال الهليكوبتر، كان من ثماره نجاح تشكيلات هذا النوع من الطائرات في القيام بواجباتها في عمليات الإبرار الجوي، والمهام الخاصة التي كلفت بها خلال عمليات حرب رمضان، والأمر المشرف لكل مصري وعربي أن هذه التعديلات التي تقتضي دواعي الأمن عدم إذاعة تفاصيلها تمت كلها: تصميمًا وتنفيذًا بعقول وبأيدي مصرية، وأنها ساعدت طائرات الهليكوبتر المصرية المعدلة على القيام بمهامها الهجومية والقتالية بأعلى مستوى من الكفاءة والنجاح.

كما أن هذه التعديلات المصرية الصميمة يسرت لطائرات الهليكوبتر المصرية أن



تنجح نجاحًا ساحقًا في الدفاع عن نفسها ضد هجمات العدو الجوية، بل ويسرت لها أن تتصدى لأخطر أنواع الطائرات المعادية خلال معارك السادس من أكتوبر، بل ونجحت الطائرة الهليكوبتر بعد التعديلات المصرية في إسقاط إحدى الطائرات الفانتوم.

6 - من الحقائق المشرفة التي يعرفها أبناء سلاح الجو المصري والتي تدعو كل مصري وعربي للفخر بها حين يعرفها أن باحثي الجو المصريين تمكنوا بجهد مصري خالص المصرية تصميمًا وتنفيذًا، من حل واحدة من أعقد المشاكل التي واجهت سلاح الجو المصري سواء في فترة حرب الاستنزاف أو في فترة التحضير والإعداد لمعارك السادس من أكتوبر، ونعني بها مشكلات الاستطلاع الجوي على العدو لمعرفة مواقعه وتشكيلاته الثابت منها والمتحرك

والحصول على الصور الجوية اللازمة لوضع بيانات دقيقة عن جهد العدو واستعداداته، بحيث تضع قيادة الحرب العليا في قواتنا المسلحة المصرية خططها الاستراتيجية العامة وتفصيلها التعبوية والتكتيكية على أساس من الحقائق والأرقام التي تصور موقف العدو بدقة.

ولهذه المشكلة والحل المصري الصميم لها قصة طريفة، ترجع بداية القصة إلى الوقت الذي بدأت فيه القيادة العسكرية العليا في مصر تخطط لعمليات العبور الشامل التي نُفذت بنجاح ساحق في السادس من أكتوبر 1973، وكان من المحتم على القيادة المصرية الجديدة، وهي تضع خططها على أساس سليم يعتمد على المنهج العلمي الصارم في علميته، والذي يحترم أحدث نظريات الفكر العسكري، أن تجيب عن هذا السؤال الذي يسبق أي تفكير في وضع

خطة حديثة لعملية هجومية واسعة النطاق  
كعملية العبور العظيم.

وهذا السؤال الذي نعينه يتلخص في العمليات  
القليلة التالية: «ماذا عند العدو؟» وإذا بدا  
للمواطن العادي أن يستهين بهذا السؤال،  
فإن المقاتل الحديث، الذي يحترم قواعد  
الفكر العسكري وخاصة في مجال التخطيط  
القتالي يعرف جيدًا مدى خطورة هذا  
السؤال، ومدى أهميته.. التي تتبع من  
حتمية التعرف الكامل أو القريب من الكمال  
على ما يملكه العدو من إمكانيات في  
الرجال والعتاد، لأن هذه المعرفة الدقيقة لما  
يملكه العدو، هي التي تحدد الجهد  
المطلوب من واضع الخطة العسكرية،  
وتحدد كمية ونوع الرجال والعتاد المطلوب  
لتحقيق هذا الجهد بشكل يضمن معه واضع  
الخطة العسكرية النجاح لرجالها في تنفيذ  
مهمتهم، وحمايتهم قدر المستطاع من

المفاجآت التي يجدون أنفسهم في مواجهتها، إذا لم يكن واضع الخطة يعرف تمامًا أو على وجه يقرب من التحديد من هو العدو الذي سيحاربه وماذا عنده.

ومن هذا المنطلق العلمي الذي يسبق أي خطة عسكرية تستحق علميًا بمقتضى قواعد الفكر العسكري المعاصر أن تُوصف بأنها «خطة عسكرية»... بدأت قيادة قواتنا المسلحة في طلب «بيانات معينة» من جميع الجهات المتخصصة في «الاستخبار» و«الاستطلاع» وكان على سلاح الجو المصري، أن يقوم بواجبه الأساسي في هذا المجال، عن طريق تحقيق «الاستطلاع» المباشر، الذي يحققه التصوير الجوي لمواقع العدو وقواته.

وهنا.. نشأت المشكلة التي بدت في البداية وكأنها مستعصية على الحل ثم انتهت إلى النتيجة المشرفة لكل مصري وعربي. وكانت

المشكلة التي واجهها سلاحنا الجوي، تتمثل في أننا لم نحصل على طائرات من الاتحاد السوفيتي مجهزة بآلات الاستطلاع وأجهزة التصوير الجوي، المتطورة التي تتكافأ مع ما يملكه العدو في هذا المجال.

كان هذا واقعًا في الوقت الذي كان العدو الإسرائيلي، يملك فيه أحدث الأنواع العالمية من طائرات الاستطلاع المجهزة بأدق وأعقد ما وصل إليه العلم الحديث من وسائل الاستطلاع والتصوير الجوي البعيد المدى.

ولم يقف باحثونا المصريون أمام هذه المشكلة الخطيرة مكتوفي الأيدي، صحيح أن الاتحاد السوفيتي لم يبيع لنا هذا النوع من الطائرات، والموجود عندنا من أنواع الطائرات الصالحة للاستطلاع لم يزود بالأجهزة المتطورة للتصوير الجوي، ولكن الحلم لا يعرف المستحيل.. والجيل الجديد

من علماء سلاح الجو المصري يرفض الاستسلام والعجز أمام أية مشكلة مهما بلغ من تعقيدها.. وأمام الإرادة والتصميم وباستعمال الخيال المصري القادر على الابتكار، تم حل المشكلة.

إننا نملك الطائرة السوفيتية الصنع ولكن بعض الدول الغربية الصديقة ليس لديها مانع من أن تبيع لنا أجهزة التصوير والاستطلاع المتطورة التي تمكن الطائرة السوفيتية من تحقيق الهدف المطلوب.

فما الذي يمنع من إجراء تعديل فوري على طائرات الاستطلاع السوفيتية الصنع بحيث يمكن تركيب الأجهزة الغربية عليها بصورة تجعلها صالحة لتحقيق المهمة؟

ومع ما قد يبدو في هذا السؤال من بساطة، إلا أن تحويله إلى حقيقة واقعة أمر بالغ الصعوبة؛ لأن «أجهزة الاستطلاع الغربية» ضُمت أساسًا لكي توضع في «طائرات

غربية» ذات مواصفات خاصة، تتفق في الجهد الذي تحققه مع المواصفات التي روعيت في تصميم هذه «الأجهزة الغربية».. ولكن باحثينا المصريين لم يترددوا وبدءوا في التجريب والمحاولة يضعون التصميمات، ويحولونها إلى نماذج مجسدة يجرون عليها تجاربهم الواحدة تلو الأخرى، حتى وصلوا في النهاية إلى الحل الناجح للمشكلة.

ولأول مرة في تاريخ الطيران الحربي، حلقت في الجو طائرة استطلاع سوفيتية الصنع، تعمل عليها أجهزة استطلاع وتصوير جوي تم تصنيعها في مصانع «غربية».

والجدير بالتقدير حقاً أن هذه «المصالحة» بين طائرة الاستطلاع «الروسية» وأجهزة التصوير «الغربية».. لم تقلل من كفاءة الطائرة ولم تؤثر على الإمكانيات الفنية لأجهزة الاستطلاع، وذلك نتيجة للتعديلات

التي أدخلها باحثو الجو المصريون والتي تحتفظ بها في إطار السرية وكان من نتيجتها تحقيق زيادة واضحة في الكفاءة الاستطلاعية للطائرة، بحيث تمكن طيارو الاستطلاع المصريون، وهم يستعملون الطائرة المعدلة، من استخدام الكاميرات «الغربية» المركبة في طائراتهم «الروسية الصنع» استخدامًا دقيقًا، سواء في حالات الطيران المرتفع أو المنخفض، بحيث تمكن هؤلاء الأبطال من الحصول على صور بالغة الدقة لمواقع وأهداف العدو، واستعداداته العسكرية، وترجمت هذه الصور الدقيقة إلى بيانات كاملة وُضعت أمام قيادة قواتنا المسلحة، وكان لها دورها المؤثر في التعامل مع العدو، سواء في فترة الإعداد للمعركة، أو أثناء القتال.

7 - من أهم الواجبات التي نجحت الطائرة الهليكوبتر في القيام بها في الحروب



الحديثة، مهمة البحث والإنقاذ السريع، وخاصة في مجال البحث عن طياري الطائرات المقاتلة، أو القاذفة، الذين يضطرون للهبوط الاضطراري بالمظلة، عقب إصابة طائراتهم، وكان العدو الذي أخذ هذه الفكرة عن سلاح الجو الأمريكي بعد أن طبقها بنجاح في عمليات الحرب الكورية يفاخر بنجاحه في هذا المجال بشكل لا يمكن اللحاق به.

ولكن باحثي الجو المصريين استطاعوا أن يحققوا نصرًا علميًا تم تنفيذه بشكل عملي ناجح في مجال إعداد الطائرة الهليكوبتر لمهام البحث والإنقاذ السريع، وأدخلوا تجهيزات مستحدثة زودت هذا النوع من الطائرات بأجهزة بحث وتوجيه متطورة، وأجهزة أخرى للبحث والإنقاذ السريع في الأحوال الطارئة، وقد تم هذا بنجاح كامل ظهرت نتائجه المشرفة طوال عمليات

المعاونة والإنقاذ التي قامت بها طائرات الهليكوبتر المصرية طوال العمليات الحربية في معارك السادس من أكتوبر.

كما نجح باحثونا في سلاح الجو المصري وفي مجال تطوير الطائرة الهليكوبتر أيضًا في تركيب البواعث الضوئية، التي تؤدي إلى المحافظة على هذا النوع من الطائرات أثناء قيامها بالطلعات الليلية خلال العمليات.

8 - أذكر لباحثي الجو المصريين جهودهم المشرف في المعاونة على حل مشكلة من أخطر المشكلات التي تعترض القوات الجوية بمهامها الهجومية والدفاعية على السواء وأعني بها مشكلة الاتصال المستمر وبكفاءة بالغة الارتفاع بين التشكيلات الجوية العاملة وبين محطات المراقبة الأرضية وأجهزة الإنذار.

وتؤكد الحلول العملية الناجحة التي توصل إليها علماءنا الشبان في هذا المجال مدى

استيعابهم لمعطيات العلم الحديث في مختلف تخصصات الحرب وفروعها ومدى نجاحهم في تحويل هذه النظريات إلى واقع عملي تستفيد به قواتهم المسلحة، وتزداد به صلابة و صمودًا، وقدرة على مواجهة العدو وردعه، وردة إلى حجمه الطبيعي.

كما تؤكد هذه الحلول العملية التي توصل إليها باحثونا المصريون في سلاحنا الجوي مدى تغلغل الروح العلمية في قواتنا الجوية، ومدى إيمانهم بالعلم الحديث نظرية وتطبيقًا. وقد يكفي أن أسوق للقارئ هذه الأمثلة المحددة:

( ١ ) نجح باحثونا في إعادة إذاعة المعلومات عن طريق استخدام الطائرات لزيادة وتوسيع مدى الاتصال وتوضيحه بين التشكيلات الجوية العاملة، وبين محطات المراقبة الأرضية، بحيث تحولت هذه

الطائرات المستخدمة في إعادة الإرسال كمحطات تقوية لاسلكية معلقة في الجو. إن هذا يؤدي إلى وضوح الاتصال اللاسلكي، ومقاومته لأي تشويش أو تداخل من جهته، كما يؤدي إلى تضليل العدو عن المصدر الحقيقي لهذه الاتصالات الصادرة بعد إعادة إذاعتها من مصادر إرسال متحركة في الجو، ويصعب رصدها أو تعقبها لإصابتها أو تعويقها.

(ب) من الحقائق التي أسفرت عنها معارك السادس من أكتوبر واضطر العدو نفسه إلى الاعتراف بها، وأكدها المراسلون العسكريون الأجانب أن الخسائر الناجمة عن الغارات الجوية التي قام بها العدو، خلال تلك المعارك، هبطت على الجانب المصري إلى درجة مثيرة للدهشة وداعية للتساؤل..وقد حان الوقت لكي يعرف المواطن المصري والإنسان العربي بل والعالم كله، السر في

هذه الظاهرة الفريدة في تاريخ الحروب الحديثة، والسبب الحقيقي في انخفاض نسبة الإصابة على الجانب المصري، نتيجة لغارات العدو الجوية أثناء معارك حرب رمضان.

والسر الذي نعلنه الآن والذي يبرر هذه الظاهرة يرجع ببساطة إلى نجاح علمائنا الشبان بسلاح الجو المصري في تصميم وسائل بالغة التطور لتحقيق الإنذار الفوري المبكر ضد طائرات العدو المهاجمة، وبشكل يعطي وسائل الدفاع الجوي المصري الثابتة والمتحركة الفرصة الكافية للتعامل السريع مع الطائرات المهاجمة قبل أن تتاح لها الفرصة لتحقيق أهدافها، كما أن نجاح هذه الأجهزة المصرية تصميمًا وتنفيذًا في تحقيق مهامها في الإنذار الفوري كان يبسر للمواقع المصرية المستهدفة بالهجوم اتخاذ وسائل التخفي السريع والتمويه العاجل، التي تزيد من صعوبة الطائرة

المعادية التي تجاوزت باختراق حائط الدفاع الجوي المنيع، الذي بادر إلى العمل بكفاءة بالغة الارتفاع، عقب تلقيه الضوء الأحمر من أجهزة الإنذار الفوري، التي صممها ونفذها الجيل الجديد من باحثي الجو المصريين.

لقد أشاد الخبراء العسكريون، ومحرورو الصحف العالمية ومراسلوها الحربيون على الصعيد الدولي، بدقة التعديلات والابتكارات التي قامت بابتكارها وتصميمها نخبة الباحثين بالقوات الجوية المصرية، بالتعاون مع الأجهزة المختلفة في القوات الجوية.

وقد تم تنفيذ هذه الابتكارات والتعديلات المستحدثة، التي أدخلها العقل المصري في مجال الطيران العسكري، بأيدي مصرية صميعة، سواء في المصانع الحربية المصرية، أو مصانع الطائرات، أو الورش الرئيسة للطائرات بالقوات الجوية، وكان التنفيذ الدقيق، لهذه التصميمات والذي ثبتت سلامته بنسبة مائة في المائة عند

المواجهة الساخنة ضد العدو يتم بإشراف المهندسين المصريين، وبأيدي العمال والفنيين المصريين.

ولعل العدو يعرف الآن التفسير الحقيقي للظاهرة التي دوخته وأدهشت الخبراء العالميين خلال معارك أكتوبر، وهم يرون طائرة سوفيتية الصنع، معروفة الجهد والقدرة القتالية، كطائرة «الميج» وهي تمرح في سماء المعركة بجهد يفوق جهدها المعروف في كل معاهد الدراسات الاستراتيجية العالمية، وتعمل بكفاءة تفوق الكفاءة المعروفة عنها للعالم أجمع.

السر ببساطة يكمن في الثمار الطيبة التي حققها علماء مصر الشبان، وباحثو الجو المصريون، واستطاعوا بها أن يدخلوا تعديلات جوهرية على الطائرات «الميج» لم يحن الوقت لكشف أسرارها بعد...

ويكفي أن يعرف المواطن المصري أن قواته الجوية لم تدخل معركة السادس من أكتوبر 1973، ولم تضرب ضربتها القاصمة للعدو في ذلك اليوم وما تلاه من أيام، إلا وهي مرتكزة على أرض ثابتة من العلم والمعرفة، هيأها لسلاحنا الجوي جيل جديد من الباحثين انطلق للبحث والابتكار عندما وجد المناخ الصالح والتربة الطيبة، وتلك كانت البداية الحقيقية لانطلاقة سلاح الجو المصري نحو الهدف.. العلم أولاً.. والعلم ثانيًا.. والعلم دائمًا.

”... لا أكون مُغاليًا

إن قلت إن عملية

زيادة المطارات

المصرية إلى العدد



المطلوب      بسلاح  
جوي      له      ظروف  
السلاح      المصري  
وعليه      واجباته،  
كانت      من      أروع  
الملاحم      التي      كتبها  
الشعب      المصري      في  
تاريخه      الحديث..“

# مطارات في كل مصر

في صباح الاثنين الخامس من يونية عام 1967، تعرضت المطارات المصرية للضربة الجوية الإسرائيلية المكثفة.. وعلى الرغم من ذلك، وفي الوقت الذي تصور فيه العدو أن سلاح الجو المصري قد قُضي عليه تمامًا نتيجة لتلك الضربة الجوية التي تلقاها في ذلك اليوم المشئوم - كان هذا السلاح العنيد يقوم بعمل آخر يختلف تمام الاختلاف عن كل ما توقعه العدو، أو فكر فيه.

على امتداد الأرض المصرية، وفي جميع المطارات التي تعرضت للقصف الجوي المعادي، كان أبناء مصر الشجعان من مهندسي الطيران، والضباط الفنيين، والميكانيكيين الجويين، قد تغلبوا تمامًا على روح اليأس.. وانطلق أبناء قواتنا الجوية الشجعان إلى

العمل الجاد، بجهد أسطوري يصعب على الصديق فضلاً عن العدو تصديقه، بالقياس إلى الظروف التي بُذل فيها هذا الجهد.

كانت البداية التي انطلق منها الرجال هي إسراعهم بإصلاح ما تم تدميره من المطارات القديمة، واعتبار هذه المطارات هي نقطة البدء في العمل الكبير الذي صمموا على تحقيقه، وقد يُدهش القارئ وهو يطالع على صفحات هذا الكتاب أن أيام العمليات عام 1967، أو ما تلاه من أيام، لم يخل يوم واحد منها من طلعات انتحارية قام بها طيارونا المصريون الشجعان، بعضها هجومي، وبعضها قتالي، تمت كلها بشجاعة الرجال، سواء منهم الطيارون المقاتلون الذين تصدوا وقتها لطيران معاد أسكرته نشوة النصر الذي تحقق له في بداية العمليات، أو المهندسون الأرضيون الشجعان ومساعدوهم من العمال والفنيين، الذين قاموا بجهد أسطوري في إصلاح المطارات المدمرة

في أوقات قياسية، وإعداد ما تبقى من الطائرات بسرعة فائقة لتكون صالحة للاشتراك في العمليات.

وعندما بدأت الطائرات الجديدة التي تعاقد عليها سلاح الجو المصري عقب 5 يونية في الوصول إلى مصر، كان مهندسو الطيران المصريون يستقبلونها في نقط التجميع والتركيب والاختبار، التي أقاموها على عجل، حيث كانوا يقومون بعملية تجميع هذه الطائرات وتركيبها، بجهد يجاوز حدود الواجب التقليدي، إلى حدود التضحية بالوقت والنفس، بحيث تمت هذه العمليات في أوقات قياسية، تجاوز في كثير من الحالات الزمن القياسي المتعارف عليه في العالم بالنسبة لتجميع قطع الطائرات وتركيبها.

كانت المهمة في مجموعها شاقة وعسيرة، ولكنها أمام الإصرار لم تكن مستحيلة أبدًا، ولما كانت القيادة الجديدة لسلاح الجو المصري

تعرف أبعاد المهمة التي وكلت إليها، فقد كان من المحتم على هذه القيادة، أن تضع خطتها لإعادة بناء السلاح الجوي على أسس علمية سليمة، تحترم قواعد الفكر العسكري الحديث، ولا تغفل الدروس المستفادة من ضربة 5 يونية بأسبابها ونتائجها.

ومن هنا انطلقت قيادة الجو المصرية إلى التحرك في عملية بناء السلاح الجوي على ثلاثة محاور أساسية، سار العمل فيها بجهد متوازٍ تمامًا، بحيث لا يتحقق تصور على أحد المحاور يؤدي إلى انكماش الجهد المبذول فيه عن الجهد المبذول في المحورين الآخرين.

1 - وكان المحور الأول: هو الإسراع بإصلاح وترميم ما أصيب من المطارات ومنشآتها المعاونة، والعمل السريع في نفس الوقت على استعادة ما تم تدميره أو إصابته من طائرات السلاح، بحيث تجد القوة البشرية من الطيارين والمهندسين والفنيين السلاح

والعتاد الذي تستأنف به تدريبها على أسس جديدة، تختلف تمامًا عن الأسس التي كانت سائدة من قبل.

صحيح أن قيادة السلاح الجوي، كانت تدرك تمامًا، أن عدد المطارات الموجودة، قليل جدًا بالنسبة لاحتياجات دراسة واسعة واسعة الرقعة لبلدٍ كمصر، وصحيح أيضًا أن هذه المطارات بكل تفاصيلها ومنشآتها كانت معروفة تمامًا لسلاح الجو الملكي البريطاني الذي أنشأ معظمها أيام وجوده في مصر قبل توقيع اتفاقية الجلاء عام 1954 الأمر الذي يجعل من هذه المطارات سرًا غير حصين بالنسبة لسلاح الجو الإسرائيلي وقد كان من قاداته من عمل بمطارات القنال قبل رحيل القوات البريطانية عنها.. ولكن القيادة المصرية الجديدة، لم يكن أمامها فرصة للاختيار.

كان من الواجب أن تبدأ ولو من نقطة الصفر.. وكانت المطارات القديمة هي نقطة

الصفحة التي بدأ العمل بإصلاحها لتستقبل الأفواج الجديدة من الطائرات التي بدأ وصولها لتعويض الخسائر الفادحة التي لحقت بطائراتنا.

ورغم أن هذه المطارات، كانت تقليدية في تخطيطها، وفي المنشآت المعاونة الملحقة بها، ورغم أن حظائر الطائرات الموجودة بهذه المطارات القديمة ثبت عدم فاعليتها في حماية الطائرات من القصف الجوي، لأنها حظائر معدنية، يسهل على أبسط أنواع القنابل والصواريخ تدميرًا أن يخرق درعها المعدنية، ويصل إلى الطائرة نفسها ليدهمها تمامًا... فلم يكن هناك مفر من استخدام هذه المطارات بكل عمومها، وعلنية تفاصيلها، وقصور إمكانياتها، ولو باعتبارها فقط تجميعًا وتركيبًا للطائرات الجديدة من ناحية ومحطات تدريب أولى للأفواج الجديدة من الرجال الذين بدأ

تدريبهم بسرعات قياسية على مختلف تخصصات الحرب الجوية من ناحية أخرى. وللحقيقة والتاريخ فقد أدت هذه المطارات القديمة بعد إصلاحها جميع المهام التي نيّطت بها على أكمل وجه، كما أن وجود هذه المطارات العتيقة في تصميمها ومنشآتها، قدم لقيادة الجو المصرية الجديدة خدمة رائعة، لأن وجود هذه المطارات بقلة عددها، وانتشار تفاصيلها وذيوع هذه التفاصيل كان يقدم للقيادة الجديدة باستمرار الدليل الحي على الأخطاء التي يجب عليها أن تتجنب الوقوع في حبالها، وفي سبيل إعادة بناء قواتنا الجوية.

وكانت أبرز هذه الأخطاء التي تجسدها المطارات القديمة تتمثل فيما يلي:

**أولاً:** قلة عدد المطارات بالقياس إلى احتياجات الدفاع عن وطن واسع الأرجاء



كبلادنا، فضلًا عن احتياجات العمليات الهجومية.

**ثانيًا:** القصور في تجهيزات هذه المطارات، سواءً في غرف العمليات المحلية بكل مطار والتي كانت تبدو في غاية العجز من حيث الإمكانيات الآلية الحديثة أو في وسائل الدفاع عنها، أو في منشآتها المعاونة في مختلف تخصصات الحرب الجوية.

**ثالثًا:** القصور الواضح في أجهزة الإنذار المبكر العاملة بهذه المطارات، أو في الأماكن المحيطة بها، قصورًا وضحت آثاره في جثامة الآثار التدميرية التي أحدثتها ضربة 5 يونية، بسبب عجز أجهزة الإنذار المبكر عن العمل في الوقت المناسب، وبكفاءة مرتفعة تحيط هذه المطارات بحزام أمان يصعب على الطائرات المغيرة أن تخترقه دون افتضاح أمرها.

**رابعًا:** ضعف وسائل الاتصال بين غرف العمليات الفرعية بالمطارات القديمة وغرفة

العمليات المركزية بقيادة السلاح الجوي المصري، ضعفًا واضحًا، ظهرت آثاره المؤسفة صباح 5 يونية، عندما انقطعت الاتصالات أو كادت بين قيادة الجو المصرية، وبين القيادات المحلية في المطارات بشكل أدى إلى زيادة حجم الضربة الجوية المعادية، ووقوع بعض المطارات البعيدة نسبيًا فريسة للقصف، ولو كانت الاتصالات بينها وبين غرفة العمليات المركزية قوية وذات فاعلية مستمرة، لأمكن إنقاذ هذه المطارات تمامًا، أو على الأقل تحذيرها قبل فوات الأوان.

**خامسًا:** وهذا هو أفدح الأخطاء التي جسدتها المطارات القديمة، متمثلًا في الحظائر المعدنية لإيواء الطائرات، حيث ثبت من تجربة 5 يونية القاسية، أن هذه الحظائر المعدنية كانت مقابر للطائرات الجاثمة داخلها، ولم تكن بأي حال من الأحوال درع أمان يقيها هجمات العدو المغير... فقد كانت صواريخ

العدو تحيل الألواح المعدنية التي تتكون منها هذه الحظائر إلى ألواح من الجحيم المصهور، يحاصر الطائرة الجاثمة بلا حراك، وينقض عليها بالدمار، انقضاض الوحش على فريسته. وكان درسًا قاسيًا وعته القيادة الجديدة، وعلى ضوءه تحركت للعمل على المحورين.. الثاني والثالث.

2 - وقد تمثل المحور الثاني: في زيادة عدد المطارات و«الممرات الجوية» بالقدر اللازم، الذي يغطي الاحتياجات الحقيقية لسلاحنا الجوي.

وقد يتصور البعض أن هذه العملية من السهولة بمكان، وأنها لا تخرج عن كونها عملية إمكانيات مادية تيسر القيام ببناء أي عدد من المطارات، ما دامت الرسوم موجودة، وما دامت الأموال والأيدي العاملة موجودة.

ولكن الأمر في حقيقته أكثر صعوبة وتعقيدًا.. ولا أكون مغاليًا إن قلت إن عملية

زيادة المطارات المصرية إلى العدد المطلوب  
بسلاح جوي له ظروف السلاح المصري وعليه  
واجباته، كانت من أروع الملاحم التي كتبها  
الشعب المصري في تاريخه الحديث.

هذه الملحمة الرائعة، بدأت عشية النكسة  
باستطلاع جوي شامل، جمع أراضي جمهورية  
مصر العربية، وعلى ضوء هذا الاستطلاع  
الواسع المدى، تم وضع الخرائط المساحية  
الدقيقة، التي تحدد بدقة بالغة أنسب المواقع  
لإقامة المطارات والممرات الجديدة، التي  
رُوعي في تحديد أماكنها عدد من العوامل  
المؤثرة، بعضها استراتيجي وبعضها تعبوي،  
وبعضها تكتيكي، بحيث تؤدي الصورة النهائية  
لخريطة المطارات الجديدة بعد الفراغ من  
إنشائها إلى إقامة كيان متكامل من القواعد  
الجوية، القادرة على أداء لحن متناسق عندما  
يصدر إليها الأمر المرتقب.

وعقب إتمام الخطوة الأولى، بوضع الخرائط التفصيلية، لتوزيع المطارات الجديدة، بدأت على الفور الخطوة التالية، بعملية استطلاع أرضي على الطبيعة لكل موقع على حدة، لجس الأرض، والتعرف على طبيعتها، بواسطة المختصين في العمليات الجوية والملاحة الجوية وإنشاء المطارات، لتقرير الصلاحية النهائية ثم تصدر إشارة البدء، وتدور آلة العمل، ليل نهار، رجالي أقسموا ألا يعوقهم عائق عن أداء الواجب الذي فرضه عليهم حبهم لوطنهم، وإصرارهم على أن يكون لوطنهم سلاح جوي حديث قادر على مواجهة خصمه وردعه، ثم انتزاع السيادة الجوية منه.

لقد كتب عالم المصريات والمؤرخ البريطاني الشهير «جون بريستيد»: «هذه الجحافل من البشر، التي فاقت في دقتها ونظامها وتتابعها دقة النمل.. أي دافع سحري كان يحرك فلاحى مصر القديمة، ويزودهم بقوة سحرية تعينهم

على رفع أحجار الهرم الأكبر التي يزن الواحد منها عشرات الأطنان.. أي قوة خفية سرت في عروق هؤلاء الفلاحين البسطاء فحولت أذرعهم النحيلة إلى آلات رفع جبارة، أحكمت وضع هذه الصخور بعضها فوق بعض بدقة معجزة ونظام محكم، كانت ثمرته الأسطورة هذا الهرم الجليل.. معجزة الهندسة في فجر الحضارة، ومعجزة الإرادة البشرية، عندما يريد البشر..»

أتوقف عن متابعة الحديث عن ملحمة بناء المطارات والممرات الجوية الجديدة، وأنا أسترجع هذه العبارات المؤثرة التي كتبها مؤرخ بريطاني شهيد، وصور بها إحساسه بالدهشة والانبهار، أمام عظمة «هؤلاء الجبابرة» من فلاحي مصر القديمة، الذين بسواعدهم المعروقة بنوا معجزة العالم القديم في الهندسة والمعمار.. هرم خوفو الأكبر.

أتوقف لأسأل: ترى لو قدر لهذا المؤرخ البريطاني «جون بريستيد» أن يشاهد ما حدث على أرض مصر وثمررة العقل المصري، والأيدي المصرية الخالصة عندما انتشرت على طول وادي النيل من جنوب أسوان، إلى شواطئ البحر الأبيض ومن حدودنا الغربية في الصحراء، إلى شواطئنا الشرقية على البحر الأحمر شبكة من المطارات والممرات الجوية، صممت ونُفذت على أحدث ما يكون التصميم والتنفيذ في العصر الحديث، وبأسرع ما يكون التصميم والتنفيذ.

ترى ما الذي كنا سنقرأ من وصف رائع يصور به هذا المؤرخ البريطاني خشوعه ورهبته أمام المعجزة الجديدة التي حققها في الستينيات من القرن العشرين أحفاد الجبابرة الأولين من بناء الهرم الأكبر.

يكفي أن نعرف أن الجهد الذي بُذل في إقامة هذه المطارات والممرات الجديدة وما

يتبعها من منشآت وحظائر مستحدثة، يعادل الجهد الذي بُذل في إقامة الأهرامات كلها عشرات المرات. وأن نعرف أن الإرادة المصرية التي لا تعرف المستحيل استطاعت خلال زمن قياسي، وفي ظروف بالغة القسوة، نفسيًا وسياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا أن تصب في هذه المطارات والقواعد المصرية بضعة ملايين من الأمتار المكعبة من الخرسانة المسلحة، التي احتاجتها القواعد الجوية والمطارات الجديدة، بما فيها من دشم، وملاجئ لحماية الطائرات والمعدات الفنية.

إن العمل في إقامة شبكة المطارات الجديدة كان يجري رغم أنف العدو، وتحت الهجمات المتكررة من طائراته المغيبة، وكلما ازداد العدو الجوي شراسة في قصفه لمواقع بناء هذه القواعد كان أبناء مصر الشجعان عسكريين ومدنيين من العاملين في هذه المواقع يزدادون إصرارًا على إنجاز المهمة،



ويزدادون شراسة في أداؤها، لأنهم كانوا على يقين، من أنهم في سباق تاريخي مع الزمن، ومع العدو الذي يريد أن يثبط همتهم، وهو سباق رهيب جائزته الحياة والنجاة وإقامة درع الأمان لمصر كلها، وخسارته رهيبة أيضًا، لا معنى لها سوى تأكيد سيطرة العدو الجوية على سماء المنطقة كلها.

لقد فزنا في السباق التاريخي عن جدارة، ومن جوف الأرض وعلى امتداد رقعة الأرض المصرية الغالية طفت على السطح شبكة هائلة من القواعد والمطارات والممرات الجوية الحديثة في تصميمها وفي تنفيذها، وفي المنشآت الحديثة التي زودت بها، وكان النجاح في هذا السباق التاريخي دليلاً حاسماً على فشل أجهزة الحرب النفسية المعادية ضدنا، فضلاً عن فشل هجماته الجوية التي استهدفت إعاقة الجهد المصري والإرادة المصرية الجبارة، كما أكد هذا النجاح في

إقامة هذه المطارات الجديدة، أن روح مصر الخالدة، التي يسرت لأجدادنا الأقدمين إقامة الأهرامات في فجر الحضارة أسرت إلينا عبر عصور التاريخ، لكي تصرخ في أعماقنا... لا تضعفوا وانتصروا.. فلم نضعف وانتصرنا.

3 - ونصل أخيرًا إلى المحور الثالث: في عملية إعادة بناء السلاح الجوي ولعله أروع انتصارات الإنسان المصري فكرًا وعملاً التي حققها هذا الإنسان المعجزة، في سنوات الإعداد للمعركة، وقبل أن يفاجئ العالم أجمع بمعجزة العبور التاريخي لقناة السويس.. لعل أروع هذه الانتصارات في مجال الهندسة العسكرية، يتمثل في إقامة الدشم الخرسانية المسلحة وملاجئ حماية الطائرات، التي كانت ثمرة خالصة للفكر الهندسي المصري الصميم، وللتنفيذ المصري الذي يبلغ حد الإعجاز في دقته..

لقد كانت البداية عقب عمليات الخامس من يونية عام 1967 مباشرة، حين وضعت القيادة الجديدة ل سلاح الجو المصري يدها على واحد من أكبر أخطاء ما قبل الضربة الإسرائيلية المكثفة، وهو «الحظائر المعدنية» لإيواء الطائرات، تلك الحظائر التي فشلت فشلاً ذريعاً في تحقيق الغرض منها، وكان لابد من البحث عن بديل سريع، يضمن السلامة لطائراتنا، ويكمل حمايتها الكاملة في حالة إفلات العدو الجوي من حائط الدفاع الجوي الثابت، ومظلة الدفاع الجوي المتحركة، بحيث تجد طائرات العدو المفجرة نفسها عاجزة تماماً عن الوصول إلى هدفها بتدمير أو إصابة أي من طائراتنا.

وسرعان ما نبتت الفكرة، وعرضت على بساط البحث، أمام مجموعة من العقول المصرية المتخصصة في هندسة الإنشاءات، بعضها من المهندسين العسكريين، وبعضها من

خبراء «جهاز إنشاء المطارات» إلى جانب عدد من أساتذة الهندسة بالجامعات المصرية.

وقد وضعت قيادة الجو المصرية، أمام هذا الحشد من الخبراء العسكريين وأساتذة الجامعات، الهدف الأساسي الذي يجب عليهم الوصول لتحقيقه بأي شكل، وبأية صورة يتفتق عنها خيالهم وعلمهم، وبأي ثمن مهما غلا الثمن وعظمت التضحيات.

وكان على هؤلاء الخبراء أن يتوصلوا بسرعة إلى وضع تصميم سريع ومحكم لبناء هندسي يضمن تمامًا سلامة ما يوضع داخله من طائرات أو معدات.. مهما توالى الضربات الجوية الموجهة ضده، ومهما بلغ من عنفها وقوتها التدميرية.

وعندما أعلن مهندسونا وخبرائونا أنهم توصلوا إلى تصميم «الدشمة الخرسانية المسلحة» التي تضمن تحقيق الهدف المطلوب، فوجئوا بقيادة الجو المصرية تطلب

منهم أن يتولوا الإجابة الدقيقة عن الأسئلة التالية:

1 - ما هو على وجه الدقة، الموقع الذي يرشحونه لإقامة الدشم بالنسبة لكل ممر من ممرات المطار، وبشكل يضمن سلامة وضع الطائرات موضع الاستعداد في حالتيه الأولى والثانية؟

2 - ما هو تصورهم عند تنفيذ التصميم المقترح للأسلوب السليم لدخول وخروج الطائرة من الدشمة، علاوة على طريقة الجرد أو الدفع الذاتي؟

3 - ما هي الوسائل التي تضمن تأمين وسلامة أطقم الفنيين الأرضيين المسؤولين عن تجهيز وإعداد الطائرة داخل الدشمة خاصة بالنسبة لعادم الطائرة، عند دوران محركها قبل خروجها من الدشمة؟

4 - ما هي وسائل تأمين الطائرة داخل الدشمة، ضد العوامل الجوية والأتربة...؟

5 - البحث عن وسائل تضمن حماية الطائرة وعدم إصابتها عن طريق المداخل المكشوفة بدون بوابات.

كانت هذه مجرد نماذج من الأسئلة التي وضعت أمام خبراءنا، وكان عليهم أن يجدوا لكل سؤال إجابة مقنعة من الواجهة النظرية، وقابلة للتنفيذ من الواجهة العملية.

وتوالت التصميمات والتعديلات، حتى قدر للجميع أن يعلنوا في النهاية كلمة العلم بموضوعية صارمة.. نجح العقل المصري الخلاق في تحقيق المعجزة، وظهرت الدشمة المسلحة إلى الوجود، تحديًا عمليًا صارخًا، لكل ما أشاعه العدو عن تفوقه في مجال العلم الحديث والتكنولوجيا، وعجز العقل العربي عن اللحاق به، فضلًا عن منافسته أو التفوق عليه.

كانت النتائج الباهرة التي حققتها هذه الدشم خلال عمليات السادس من أكتوبر، ومسارعة القوى الكبرى والدول التي تسير في

فلكها، إلى تغيير استراتيجيتها في وسائل حماية طائراتها، دليلاً أكيداً على نجاح العقل المصري في تحقيق المعجزة التي صمم على الوصول إليها فكان له ما أراد.

وإذا كانت قطاعات مختلفة من خبراء الإنشاءات الهندسية عسكريين ومدنيين قد تعاونت في وضع التصميم المبتكر لهذه الدشم الجبارة، فالجدير بالتقدير والعرفان أيضاً، أن جميع القطاعات الإنشائية في الدولة وكذلك قطاعات النقل المختلفة سواء بالسكك الحديدية أو بالطرق البرية قد تعاونت جميعها مع أبناء القوات الجوية في تنفيذ هذه المهمة التاريخية.

ولا يستطيع منصف أن ينسى أبداً، أن هذا الشعب العظيم رغم كل الظروف القاسية التي مر بها اقتصاده الوطني عقب هزيمة يونية لم يتردد لحظة واحدة في توجيه كل إمكانياته لخدمة البناء العسكري، خاصة في محيط بناء

السلاح الجوي من جديد، وعلى سبيل المثال فقد مر بنا وقت كانت جميع مصادر الإنشاء ومواد البناء تخصص كل إنتاجها تقريبًا لخدمة التحصينات والمطارات الجديدة والدشم الخرسانية، التي احتاج بناؤها إلى ملايين الأمتار المكعبة من الخرسانة المسلحة والخرسانة العادية، بما فيها من أسمنت وحديد تسليح، وزلط ورمال.. وقبل كل هذا وبعده جهد عشرات الآلاف من الرجال الذين عملوا في صمت وإسرار وفدائية تنحني أمامها الرءوس إجلالًا وإكبارًا.

كانت المهمة صعبة، وكان الجهد المطلوب لتحقيقها عقليًا وعمليًا بالغ الصعوبة.. ولكن الإرادة المصرية قهرت المستحيل، لتحصل في النهاية على ما أرادت الوصول إليه:

- وقاية كاملة للطائرات من الهجوم الجوي المعادي، سواء بالصواريخ أو



القنابل بمختلف أحجامها وقوتها التدميرية أو النابالم أو الضرب بالأسلحة الصغيرة... وقد تحقق هذا بعد تجربة العديد من التصميمات، والتعديلات المستمرة، على ضوء الملاحظات التي برزت خلال مراحل تدريب التشكيلات الجديدة لسلاح الجو المصري، تجاوبًا مع مطالب الأجهزة المختصة بصيانة وتشغيل الطائرات والمعاونة الأرضية.

- لم تقتصر مهمة الخبراء المصريين على إقامة الدشم المسلحة لحماية الطائرة من القصف الجوي المعادي فحسب، بل امتدت إلى البحث عن وسائل مستحدثة لإخفاء وتمويه الطائرات نفسها، عن طريق استخدام أحدث ما وصل إليه في الخداع والتمويه من أساليب مبتكرة، إلى جانب الأساليب النمطية المعروفة مثل شباك التمويه، وشكائر الرمل،

والدهانات المتنوعة، لإدماج الطائرة من حيث اللون، مع البيئة والأرض المحيطة بها، وبناء الحظائر السرية، التي تأخذ من حيث الشكل الخارجي طراز المنشآت والمباني الريفية في المناطق الزراعية التي تقام بها هذه الحظائر السرية، وكذلك الحرص على استخدام أغطية الطائرات في جميع مراحل تحريكها، هذا إلى جانب تحقيق مبدأ الانتشار بالنسبة للطائرات الجاثمة على الأرض، تفاديًا لأسلوب التكديس الذي ثبت خطره الساحق على الطائرات.

هذه الدشم الخرسانية أدت خدمات جليلة في مجال حماية الطائرات وأجهزة المعاونة والمعدات العسكرية خلال معارك السادس من أكتوبر، وأشير هنا إلى واقعة محددة، جرت

يوم الأحد السابع من أكتوبر عام 1973، أي في ثاني أيام القتال مباشرة. كان العدو الجوي قد بدأ في الإفاعة الجزئية من آثار الصدمة الرهيبة التي أصيب بها نتيجة للضربة الجوية المركزة، التي وجهتها طائراتنا لقواعده الجوية ومختلف مواقعه العسكرية في سيناء، في الثانية من بعد ظهر السادس من أكتوبر، وما أعقبها من ضربات ساحقة كالتها له قواتنا المسلحة التي عبرت القناة على امتداد طولها، عقب نجاح الضربة الجوية المصرية «صدام».

وكان أول ما فكر فيه العدو الإسرائيلي استخدام ما كان يسمى بذراع إسرائيل الطويلة، في عملية هجومية مركزة تستهدف ضرب أكبر عدد ممكن من المطارات والقواعد الجوية المصرية. كانت تلك واحدة من أخطائه الكبيرة في معارك السادس من أكتوبر، التي دخلها المقاتل المصري وقد تسلح بفكر جديد،

وأسلوب قتالي جديد، بعد أن استوعب جيدًا درس النكسة الظالمة التي فرضت عليه في معارك الخامس من يونية، والتي بدأت وانتهت دون أن تتاح لهذا المقاتل براءً وجوّاً وبحراً الفرصة الحقيقية والعادلة، لإثبات وجوده على أرض المعركة.

حاول سلاح الجو الإسرائيلي إحداث ضربة مركزة، يحقق بها ما سبق أن حققه عام 1967، من شل كامل لسلاح الجو المصري، تمهيداً لإخراجه من المعركة، لينطلق الطيران الإسرائيلي بعد هذا للعريضة في سماء المعركة، ويلقي بكل ثقله ضد قواتنا البرية التي عبرت القناة، فيوقف زحفها المنتصر، ثم يدفع بها إلى الوراء، منسحبة أمام العدو الإسرائيلي الذي كان يترنح من هول الضربات التي تلقاها.

مغامرة مجنونة، ولا أقصد بهذا التعبير مجرد تعبير جارح أشتم به خصمي، وأنفس به عن غضب قومي، ولكنني كطيار مقاتل، يعرف

أصول المهنة وأسرارها، على جميع مستويات التخطيط والتنفيذ للعمليات الهجومية والقتالية أوكد من باب العلمية الصارمة، أن العملية الهجومية التي حاول سلاح الجو الإسرائيلي القيام بها صباح الأحد 7 أكتوبر 1973 كانت مجرد «مغامرة مجنونة» ولا يمكن أن ترقى حتى إلى وصفها بأنها مهمة انتحارية وذلك للأسباب الآتية:

**أولاً:** أن العملية التي يقوم بها أي سلاح جوي مهاجم ضد خصمه لكي تكتسب احترام الخبراء في التخطيط للحرب الجوية من جهة، ولكي توصف بأنها عملية سليمة - سواء أدت إلى تحقيق أغراضها كاملة أو قصرت عن أداء الغرض منها من جهة ثانية - يجب أن تتوافر فيها العناصر التالية:

1 - أن يحرص مخطط العملية منذ البداية - وقبل الدخول في أية تفاصيل - على تحديد الهدف المطلوب تحقيقه من الضربة

الجوية تحديداً كاملاً، لا يترك فرصة أمام الطيارين المقاتلين المكلفين بالمهمة للوقوع في براثن الارتجال، أو الاجتهاد السريع، وهم معلقون في الجو فوق الهدف، بحيث يفرغ الطيار المهاجم - فكراً وعملاً - لأداء المهمة المرسومة له بدقة.

2 - أن تكون لدى واضع الخطة المعلومات الدقيقة عن دفاعات العدو الثابتة والمتحركة، التي يتوقع قيامها بالتصدي للعملية واعتراضها ومحاولة إجهاضها قبل أن تحقق أغراضها، وعناية المخطط للعملية الهجومية الجوية بهذا العنصر بالذات هي الخط الدقيق الذي يفصل بين الفشل والنجاح ويوحي بالمصير الذي ستؤول إليه الخطة النظرية عند وضعها موضع التنفيذ على مسرح العمليات.

ولا نعني بأهمية حساب المخاطر التي تهدد العملية، أن واضع الخطة مسئول عن توفير

البيانات اللازمة عن دفاعات العدو، ومسئول بالتالي عن سلامة هذه البيانات، وصدقها في التعبير عن الصورة الواقعية للموقف الذي يتمتع به العدو، فتلك مسئولية أجهزة جمع المعلومات والاستخبار، ولكن الذي نعنيه بمسئولية واضع الخطة في هذا الصدد، ألا يتجاهل ما تضعه أجهزة المخابرات العسكرية عامة والجوية بصفة خاصة عن العدو الجوي الذي يخطط لضربه، بل يجب عليه أن يسعى للحصول على هذه المعلومات ويطلب سد ما فيها من قصور، إن رأى أن فيها قصورًا أو نقصًا.

ومسئولية المخطط في هذا الصدد، ليست مسئولية صاحب المهنة المتخصص فحسب - وما توجبه المهنة على صاحبها من ضرورة اتباع القواعد السليمة للعمل - بل إن مسئولية المخطط في التعرف الكامل على موقف دفاعات العدو، ترتفع إلى مستوى المسئولية

القومية التي توجب على المخطط العسكري أن يضع في حسبانته دائمًا أن الفشل غير العادي على مسرح العمليات قد يؤدي إلى كارثة قومية لا يتوقف تأثيرها المدمر عند مجموعة المقاتلين الذين فشلوا في تنفيذ الخطة - بسبب قصورها أو عجز أو إهمال مخططها - بل يمتد هذا الدمار إلى الوطن كله.

وأخيرًا وليس آخرًا، فهناك مسؤولية المخطط أمام ضميره العسكري كمقاتل، وضميره البشري كإنسان مسئول عن توفير أكبر قدر من السلامة للرجال الذين وثقوا في أمانة وقدرة المخطط - العسكري - ثقة عمياء، قد تدفعهم إلى تنفيذ خطته دون مناقشة أو مراجعة.

**ثانيًا:** أن التطبيق الموضوعي المحايد لهذه القواعد النظرية على العملية الهجومية التي قام بها سلاح الطيران الإسرائيلي.. ضد مجموعة من المطارات المصرية، يوم الأحد 7 أكتوبر 1973 - أي في ثاني أيام معارك



السادس من أكتوبر - يؤكد أن هذه العملية، لم تكن بأي حال من الأحوال عملية هجومية سليمة من وجهة النظر العلمية لقواعد التخطيط للحرب الجوية، كذلك لا يمكن وصفها - ولو من باب التجاوز - بأنها عملية انتحارية، قامت بها جماعة من الفدائيين، يعرفون مقدمًا هول المخاطر التي سيتعرضون لها، ولكن حماسهم الوطني، واندفاعهم القتالي تجاوز معرفتهم المسبقة بمخاطر الدمار الكامل الذي يترصدهم على مسرح تنفيذ العملية الانتحارية التي تطوعوا للقيام بها.

وإذا لم تكن هذه العملية، هجومًا جويًا جرى تخطيطه وتنفيذه على أسس سليمة، وإذا لم تكن أيضًا عملية انتحارية، يستحق القائمون بها تخطيطًا وتنفيذًا، التقدير الذي يحظى به كل فدائي يقوم على تنفيذ مهمته الانتحارية برحابة صدر، واستهانة بالموت المحقق الذي يترصده، فلم يبق أمامنا - ودون أدنى

استسلام لدواعي التعصب القومي، أو تجاهل النظرة العلمية المحايدة - إلا أن نصف هذه العملية بوصفها الصحيح، وهي أنها مجرد مغامرة مجنونة، اندفع إليها قادة سلاح الجو الإسرائيلي، بالطيش، والاستهتار - حتى بأرواح طيارهم المقاتلين - واندفعوا إليها بأخطر ما يقع فيه المقاتل الحديث، وهو الغرور بالنفس والاستهانة بالخصم.

وجريًا على منهج العلمية الصارمة في التحليل لموقفنا وموقف العدو على السواء أضع الأدلة التالية التي تدين هذه المغامرة المجنونة التي صدر الأمر بتنفيذها من قيادة سلاح الجو الإسرائيلي، دون أدنى اعتبار للواقع الجديد الذي كشفت عنه الساعات القليلة التي مضت منذ اشتعال الحرب في الساعة الثانية من بعد ظهر السبت 6 أكتوبر، ودون أدنى مراعاة للعوامل السياسية

والعسكرية التي طرأت على الموقف في المنطقة قبيل اندلاع الحرب.

بالنسبة للموقف العسكري نفسه، كان على القائد الإسرائيلي الذي أصدر أمره بالهجوم على المطارات المصرية صباح الأحد 7 أكتوبر أن يتوقف أمام الحقائق التالية:

1 - في الساعة «205» الثانية وخمس دقائق من بعد ظهر السبت 6 أكتوبر، عبرت القناة مائتان واثنتان وعشرون طائرة مصرية قناة السويس، لتقوم بضربة جوية مركزة على مختلف القواعد والمواقع الإسرائيلية في سيناء، وتنجح في أداء مهمتها، نجاحًا ساحقًا، أكده انخفاض نسبة الخسائر بين الطائرات المصرية المهاجمة إلى واحد في المائة - وهي نسبة تمثل رقمًا قياسيًا عالميًا، لم يحدث من قبل في تاريخ الحروب الجوية - كما أكد هذا النجاح الساحق،

ارتفاع نسبة إصابة الأهداف إلى رقم يجاوز الخمسة وتسعين في المائة.

2 - فإذا أضفنا إلى هذه الحقائق المعروفة للعدو، نجاح هذا العدد الضخم من الطائرات المهاجمة في العودة بسلام بعد تنفيذ المهمة، واختراق حائط الجحيم الذي أشعلته المدفعية المصرية المرابطة - وقتها - على الضفة الغربية للقناة، دون أن تسقط طائرة مصرية واحدة - ولو من باب الإصابة الخطأ - وهي تحلق على ارتفاع منخفض، لا يجاوز ارتفاع السد الترابي الذي أقامته إسرائيل على الضفة الشرقية للقناة إلا ببضعة أمتار قليلة.

كيف نجحت هذه الطائرات المصرية - عند عودتها في اختراق هذا الجحيم الذي كان يتدفق ببشاعة على رؤوس العدو.. دون أن تسقط منها طائرة واحدة.. سؤال قد يبدو بسيطًا، ولكن الإجابة عنه، تحمل سرًا - لاشك

أنه **دوخ** قادة الجو الإسرائيليين - وهو ما سنكشف عنه عند تحليلنا لأبعاد الضربة المصرية «صدام».

والذي يعنينا هنا من هذا السؤال هو: تجاهل قادة إسرائيل لهذه الظاهرة التي تدل بما لا يدع مجالاً للشك على أمرين:

**الأول:** مهارة المدفعية المصرية في التصويب على أهدافها، بدقة تبلغ حد الإعجاز، ولا تسمح بالخطأ في اقتناص الهدف، أو بالابتعاد بالقذيفة أو الصاروخ شعرة واحدة عن الغرض المستهدف بالتدمير.

ولو أن رجال المدفعية والصواريخ المصريين، كان يتسامحون في تحديد مكان الهدف ولو لأمتار قليلة، لتساقطت طائراتنا بالعشرات أثناء عودتها الظافرة بعد قيامها بتوجيه الضربة «صدام».

**والأمر الثاني:** مهارة الطيار المصري المقاتل، في إصابة أهدافه والتصويب عليها

بدقة بالغة، ثم قدرته العالية الكفاءة، على التحكم في طائرته، والمناورة بها، وتحديد مسارها - يمينًا ويسارًا، وارتفاعًا وانخفاضًا - بصورة مشرفة وضحت آثارها، في نجاته من المقاومة اليائسة التي أبدتها فلول العدو الجوي أثناء تنفيذ الضربة المصرية «صدام»، كما وضحت مهارة الطيار المصري بصورة تشرفه وتشرف كل مصري وعربي، في قدرته المعجزة على اختراق حائط الجحيم الذي أقامته المدفعية المصرية على القناة، والعودة سالمًا إلى قاعدته الجوية.

3 - ومنتقل إلى الحقيقة الثالثة - التي تجاهلها القائد الإسرائيلي الذي أمر طياريه بالقيام بمغامرة مجنونة لضرب المطارات المصرية صباح الأحد 7 أكتوبر - وتتمثل هذه الحقيقة في ثلاث ظواهر مؤكدة، أثبتتها غرف العمليات الجوية على الجانبين المصري والإسرائيلي، وشهد بصحتها

المراسلون العسكريون الأجانب - وتتمثل فيما يلي:

**أولاً:** أن الجانب المصري، كان يتمتع - منذ الثانية الأولى لاشتعال الحرب يوم 6 أكتوبر - بنظام إنذار مبكر، ذي كفاءة عالية الارتفاع يسرت للقوات المسلحة المصرية - بجميع أفرعها البرية والبحرية والجوية والدفاع الجوي - أن تأخذ حذرًا في وقت مبكر جدًا، ضد أي هجوم متوقع وأن تكون على استعداد لإجهاض أية هجمة معادية، ثم ردها على أعقابها والقضاء على القوة المهاجمة، بمجرد تحرك هذه القوة من قواعد تمركزها الأساسية، وذلك على النقيض تمامًا، مما حدث يوم 5 يونية 1967.

**ثانيًا:** أن الدفاع الجوي المصري - بوسائله الثابتة والمتحركة - أثبت للعدو الإسرائيلي أن عصر السيادة الجوية لإسرائيل قد ولى إلى الأبد وأن «حائط الصواريخ» المصرية

المتمركة على القناة، و«غابة الصواريخ» المتحركة على أكتاف فلاحى مصر الشجعان، قد أعدت قبرًا لكل طائرة إسرائيلية تقترب، وحفرت قبرًا مماثلًا في هوله لكل طيار إسرائيلي يفكر بالطيش أو بالغرور في الهجوم على جيش مصر الزاحف.

**ثالثًا:** ما أبداه الطيار المصري المقاتل، من مهارة وخبرة وشراسة في القتال، سواء في حمايته الكاملة للطائرات التي قامت بالضربة المصرية «صدام» التي تمت في الساعة «205» ظهر 6 أكتوبر، أو اعتراضه المؤثر للمحاولات اليائسة التي قام بها سلاح الجو الإسرائيلي للاقتراب من مواقع القوات المسلحة البرية التي عبرت القناة.. وكانت مهارة هذا الطيار المصري المقاتل، واحدة من أروع المفاجآت التي صدمت العدو الإسرائيلي منذ الدقيقة الأولى لاشتعال القتال.



لا نقول هذا الكلام من باب التعصب للمقاتل المصري، ولا من باب التحيز ضد العدو، ولكننا نقرر حقيقة ثابتة، أكدها ارتفاع الخسائر بصورة مرعبة بين الطائرات الإسرائيلية، التي حاولت الاقتراب من أرض المعركة في الساعات الأولى من عبور القوات المصرية للقناة، كما أكدتها أقوال الأسرى الإسرائيليين أنفسهم، وشهادة المعلقين والخبراء العسكريين الدوليين، وفيهم المتعاطف مع إسرائيل.

موشي ديان نفسه - وهو فيلسوف المؤسسة العسكرية في تل أبيب، ومعبودها الذي تحطم على صخرة 6 أكتوبر - يعترف في مرارة بأن «هذه حرب صعبة.. معارك المدرعات قاسية.. ومعارك الجو فيها مريرة.. إنها حرب مريرة بأيامها، وثقيلة بدمائها».

صحيفة نيويورك تايمز تعترف بأن «إسرائيل فقدت لحظة اندلاع الحرب نحو خمس ما كانت تملكه من طائرات.. وتتمثل هذه الخسائر

في المقاتلات الفانتوم، وقاذفات القنابل الهجومية من طراز سكاي هوك». الأسير الإسرائيلي: ملازم أول طيار «أوري يوسف أذار» يعترف في مرارة بما حاولت قيادته أن تخفيه عن الجميع، ويفضح هذه القيادة حين يقول: «لقد أذهلنا المستوى الممتاز للطيارين المصريين.. كما أذهلنا كفاءتهم القتالية العالية».

حتى قادة طائرات الاستطلاع الإسرائيلي - وهم يمثلون عادة مستوى عاليًا من الخبرة والكفاءة في الطيران الحربي عمومًا يعترفون بأن قيادتهم الجوية ضللتهم بالمعلومات الخاطئة، وهذا هو طيار الاستطلاع الإسرائيلي الأسير ملازم أول وان مائير روزين يقول في غضب: «لقد كانت معلوماتنا أن الفانتوم أحسن من الميج، وأن كفاءة الطيار المصري لا تقارن بكفاءتنا، وقد أكدت الحرب أن هذا خطأ».

نقيب طيار «أسير» أينبرج، وهو من طياري «سكاي هوك»، يصرح في مرارة بقوله: «لم أكن أعتقد أننا سنتكبد هذه الخسائر في الطائرات».

حتى جنرال بارليف صاحب فكرة الخط المشهور.. يضطر رغم أنه إلى الاعتراف بالحقيقة التي صدمته بروعتها فيقول: «لقد كان مستوى طيران المقاتلات القاذفة المصرية عظيمًا، وكانت هجماتها بالغة الدقة ومدمرة».

وبخلاف اعترافات قادة إسرائيل العسكريين وطياريها المقاتلين الذين ذاقوا بأنفسهم مرارة الهول الذي صبته عليهم وسائل الدفاع الجوي المصري، ونيران المقاتلات المصرية قرأت شهادات بعض الخبراء العسكريين، سواء منهم المحايد، أو المتعاطف مع إسرائيل:

المراسل العسكري لصحيفة «و.أ. التشيكية» يقول: «إن عدد الطائرات الإسرائيلية التي

أسقطت - في معارك أكتوبر 1973 - لا مثيل له في تاريخ الحرب في الشرق الأوسط». الجنرال الأمريكي «ميدلتون» الذي يعتبر واحدًا من الخبراء العسكريين الدوليين، يقول: «إن مفاجأة المعركة هي عجز الطيران الإسرائيلي عن التفوق، وهو الأمر الذي كانت الولايات المتحدة والسلطات العسكرية الإسرائيلية تأخذه كأمر مسلم به».

ثم يقول «ميدلتون» في موضع آخر من تحليله لمعارك السادس من أكتوبر: «إن القوات الجوية العربية ظهرت على مستوى عالٍ، وبصورة لم تكن متوقعة.. فقد أظهر الطيارون العرب - أنهم لا يفتقرون إلى الخبرة والجسارة.. بينما أظهرت الأطقم الأرضية أنها قادرة على تشغيل الطائرات المعقدة».

وقد قال نجم الدبلوماسية الإسرائيلية «أبا إيبان» الذي اضطر للاعتراف بالسر الكامن وراء العقدة التي سيطرت على عقول قادة

إسرائيل، ودفَعوا ثمنها غاليًا في معارك أكتوبر. إن أبا إيبان يعترف صراحة بقوله: «لقد كان هناك إحساس بأن طيارينا يستطيعون الانتصار في المعركة حتى بدون طائرات.. وكانت النتيجة أننا عشنا ست سنوات في عالم غير واقعي».

وإلى جانب تجاهل الحقائق العسكرية، تجاهل قادة إسرائيل التطورات السياسية الجديدة في منطقة الصراع.

في مذكراته كتب دكتور «حاييم وايزمان» بشأن قضية الوحدة بين العرب، وأثر وحدة الصف العربي تجاه الإحساس بالخطر الصهيوني، كجسم سرطان متعش إلى الزيادة المستمرة في جميع الاتجاهات، وابتلاع كل ما يمكن ابتلاعه من الأرض العربية. وقد أطلق صرخته الشهيرة في كتاب «التجربة والخطأ» مخاطبًا قادة بريطانيا والولايات المتحدة: «يا قوم أعطونا - نحن

اليهود - نصف فرصة فقط.. وستثبت لكم أن قوة العرب.. ووحدة العرب.. أمور كلها كذب.. في كذب.. في كذب».

كان يجوز لحاييم وايزمان، أن يقول مثل هذا الكلام في عام 1950 - سواء كان مؤمناً فعلاً باستحالة الوحدة بين أمة العرب واستحالة تجمع الصف العربي في مواجهة الخطر الصهيوني، أو كان كلام وايزمان في ذلك الوقت من باب الخداع للقوى الكبرى، وتضليلها - فقد كان هناك في الساحة العربية ما يبسر لوايزمان أن يقول هذا الكلام الذي ينكر فيه على العرب أي قوة، وينفي عنهم أي أمل في وحدة الصف، ووحدة الإرادة في وجه الخطر الإسرائيلي.

ولكن، بعد سنوات طويلة من هذا، ما هو عذر قادة إسرائيل حين يتجاهلون - عام 1973 - الظواهر الجديدة التي بدأت تفرض نفسها على ساحة الواقع العربي؟! والتي كانت تؤكد كلها

أن العرب قد نزعوا عن أنفسهم ثوب الفرقة والخلاف، وأن وحدة الصف العربي - في مواجهة الخطر الإسرائيلي على الأقل - قد أصبحت أمرًا مؤكدًا، تقطع به التحركات السياسية الشهيرة التي قام بها الرئيس محمد أنور السادات في الفترة السابقة على المعركة، وتأييده الاستجابة الواضحة - سواء من قادة العرب أو المواطن العربي العادي - للدعوة المخلصة إلى دفن ماضي الفرقة بكل ما فيه، والانطلاق إلى مستقبل عربي جديد تجتمع فيه إرادة العرب وكلمتهم في مواجهة خصم لا يعيش إلا على الفرقة وبذر الخلاف بين الأشقاء.

إن السبب الجوهرى في هذا الخطأ الذي وقع فيه قادة إسرائيل جميعًا - عسكريين ومدنيين حين تصوروا أن وحدة العرب مستحيلة، وأن قوة العرب كتجمع هائل غني بالموارد البشرية والموارد المادية مجرد وهم، وأن إسرائيل

ستواجه عام 1973 على أرض المعركة وفي سمائها دولة عربية واحدة، أو دولتين على الأكثر - يرجع بالدرجة الأولى إلى داء التعصب الذي قامت عليه النظرية الصهيونية منذ البداية، وحولت الشخص الذي يعتنقها إلى كائن مشوه عقليًا، يتفوق حول نفسه، داخل وهم من الآراء والأفكار البالية، يقف عندها، ولا يملك القدرة على مغالبة سحرها، والخروج إلى دنيا الأحياء بما فيها من فكر متجدد، وآراء متطورة.

هنا نضع يدنا على واحد من أخطر الأسباب التي أدت بإسرائيل إلى المأزق الذي وجدت نفسها فيه، خلال معارك أكتوبر.. حين فوجئت بأن كل حساباتها عن العرب كانت غير دقيقة، بل كانت حساباتها خطأ من الأساس:

- ففي الوقت الذي بنت فيه إسرائيل موقفها المتصلب - بل المغرور المتعالي -



على أساس أنها تواجه دولاً عربية مفككة، إذا بها تواجه بكلمة عربية واحدة، وإرادة عربية موحدة، وتضطر إلى مقاتلة قوة عربية تمثل - ولو بالفصائل الرمزية - جيوش الأمة العربية كلها تقريبًا.

ومعنى هذا ببساطة - كما ظهر خلال معارك أكتوبر وبعدها مباشرة - أن على القوى الكبرى أن تضع في حسابها تمامًا، أن أي مساندة سافرة أو مستترة لإسرائيل تعني التحدي السافر لأمة العرب جميعًا، بكل ما يجره هذا التحدي على الدولة التي تنزلق إليه من مخاطر ومصاعب اقتصادية في مجال الطاقة والأرصدة والتجارة بوجه عام.

- وفي الوقت الذي قدرت فيه إسرائيل أنها تستطيع القيام فجر الأحد 7 أكتوبر بضربة مكثفة ضد المطارات المصرية،

تتمكن خلالها من شل سلاح الجو المصري وإخراجه من المعركة - كما فعلت في 5 يونية 1967 - إذا بها تفاجأ بأن هذه الضربة التي علقت عليها كبير الأمل قد تحولت إلى باعث من بواعث اليأس، حين تساقط الجزء الأكبر من قوتها المهاجمة قبل أن يصل إلى هدفه، بينما عجزت الطائرات القليلة التي نجحت في الاقتراب من مطاراتنا عن القيام بأي عمل هجومي مؤثر، نتيجة لفاعلية الدفاع الجوي المصري الثابت والمتحرك - الذي يحمي هذه المطارات من جهة - ونتيجة لمفاجأة المفاجآت التي أطارت صواب قادة السلاح الجوي الإسرائيلي، وهي «الدشمة المسلحة» التي ابتكرها العقل الهندسي المصري ونفذتها السواعد المصرية القوية، فحمت

طائرات مصر من أن تدمر على الأرض،  
كما كان يحدث من قبل.

وإذا كنا - نحن الشعب المصري - نحب  
«النكتة» اللاذعة..ونجيد الاستماع إليها، كما  
نجيد ابتكارها وخلقها، فليسمح لي قادة الجو  
الإسرائيليون بوقفه مرحلة أروي فيها للمواطن  
المصري - والإنسان العربي عامة - عبارة صرح  
بها أحد الأسرى الإسرائيليين من طياري  
القاذفات الهجومية «سكاي هوك» وصور بها  
مشاعر زملائه حين فوجئوا بمناعة «الدشم  
الخرسانية المسلحة» وقدرتها على حماية ما  
بداخلها من طائرات ومعدات.. «شعرت بالغيظ  
ينتابني، وأنا عاجز عن الوصول إلى ما تحويه  
هذه الدشم الجهنمية من طائرات.. وأحسست  
ساعتها - وقبل كل انقضاض فاشل أقوم به  
على الهدف - أن هذه الدشم اللعينة تخرج  
لسانها لي ولسلاح الجو الإسرائيلي كله..».

فإذا كان هذا هو الواقع الجديد على مسرح العمليات - من الناحيتين السياسية والعسكرية - قوة عربية متماسكة ومتساندة سياسيًا وعمليًا. وقوة عسكرية تم بناؤها على أحدث الأسس العلمية لبناء الجيوش الحديثة.. وفاعلية مؤكدة لطيران هذه القوة العسكرية ودفاعها الجوي النشط بكل أجهزته الثابتة والمتحركة وبوسائل إنذاره المبكر، التي أثبتت يقظتها الدائمة واستجابتها الفورية للتعامل مع أي جسم غريب يدخل مجال عملها. فما هو الدافع الحقيقي وراء العملية الهجومية التي فكر قادة سلاح الجو الإسرائيلي في القيام بها ضد مطاراتنا صباح 7 أكتوبر 1973؟

من المؤكد أن القائد الذي أصدر الأمر بتنفيذ هذه العملية، بعد أن خطط لها - إن كان قد خطط أصلاً.. قد تجاهل تجاهلاً مثيراً للدهشة، كل القواعد الأساسية التي يفرضها الفكر العسكري الحديث في مثل هذه الظروف.

1 - فهو أولاً، لم يحترم المدلول الحقيقي للضربة المصرية «صدام» التي قامت بها أكبر مجموعة من طائرات الهجوم سجلها تاريخ الحروب الجوية الحديثة، وما تعنيه هذه العملية - التي سيأتي تحليلها كاملاً فيما بعد - من تمتع سلاح الجو المصري، بفكر عسكري حديث وقدرة على التخطيط عالية المستوى، وقدرة قياسية على التنفيذ البالغ الدقة والإحكام.

2 - وهو ثانيًا: لم يحترم المدلول العملي لنجاح قوات الدفاع الجوي المصري في شل فاعلية الطيران الإسرائيلي وإصابته بالعجز الكامل، عندما حاول تخفيف الضغط الواقع على القوات الإسرائيلية المحاصرة داخل حصون ودشم خط بارليف، بحيث فقد سلاح الجو الإسرائيلي في المرحلة الأولى وحدها من المعارك 103 طائرات، تساقطت

جميعها دون أن تحقق واحدة منها هدفها في إيقاف الزحف المنتصر لقواتنا البرية. ولو أن القائد الإسرائيلي - الذي أصدر الأمر المجنون بالهجوم على المطارات المصرية صباح الأحد 7 أكتوبر - تذكر وهو يصدر هذا الأمر لطياريه التعساء، أن قوات الدفاع الجوي المصري، قد تصدت بكفاءة عالية لنحو ألفي وخمسمائة طلعة هجومية، حاول العدو الجوي القيام بها في المرحلة الأولى من القتال، وأن هذه الطلعات البائسة باءت جميعها بالفشل، مع أنها كانت مجرد محاولة اقتراب من الخطوط الأمامية للجبهة المصرية.

لو تذكر القائد الإسرائيلي كل هذه الحقائق - وكان عنده أدنى قدر من احترام الفكر العسكري السليم وأدنى قدر من الإيمان بضرورة المحافظة على حياة طياريه المقاتلين وحمايتهم من الاندفاع إلى مغامرات مجنونة لن تقدم ولن تؤخر في سير العمليات،

ولو حاول هذا القائد الإسرائيلي أن يسأل نفسه ولو بسرعة: ما احتمالات المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها طياروه، وهم يخترقون جحيم الدفاعات الجوية المصرية، التي أطارت صواب طياريه منذ اشتعال القتال؟

ما احتمالات النجاح في إصابة الأهداف بالنسبة للطائرات التي تفلح في التسلل إلى سماء مصر، وأخيرًا.. لو أنه سأل نفسه.. إذا كانت هذه هي صلابة الدفاع الجوي المصري في مقدمة الجبهة، فما هي وسائله المكثفة للدفاع عن المطارات المصرية في الخطوط الخلفية، التي سيضطر طياروه إلى التعامل معها؟

هنا أوكد بحياد علمي كامل أن المخطط الإسرائيلي لو فكر في كل هذه الأسئلة - لما فكر على الإطلاق في الإقدام على مغامرة مجنونة كمغامرة ضرب المطارات المصرية صباح 7 أكتوبر، التي فشلت فشلًا ذريعًا، ودفع

السلاح الإسرائيلي ثمنها غاليًا من الطائرات والطيّارين، ونحن هنا في مصر - نعرف جيدًا، كما يعرف جنرالات الجو الإسرائيليون، ما هو الثمن الرهيب الذي دفعوه لهذه المغامرة المجنونة، التي لم تؤد إلا إلى مزيد من فضح العسكرية الإسرائيلية، التي ضبّطت - خلال معارك أكتوبر - وهي متلبسة بالجهل الكامل بحقيقة القوة العربية الجديدة، ومستسلمة تمام الاستسلام لأحلام اليقظة الكاذبة، التي صورت لها، بالوهم والغرور، أن عجلة الزمن قد توقفت عند انتصارها الرخيص عام 1967.



”... إذا كانت ست

سنوات فحسب من

**1967-1973**

ليست بأي حال من

الأحوال بالزمن

الذي يسمح بانتقال

سلاح جوي من

النقيض إلى النقيض

قدرة وتدريبًا،

ومهارة، وفكرًا

وتنفيذًا.. فما

التعويذة السحرية  
التي استخدمها  
سلاح الجو المصري،  
وحقق بها هذه  
المعجزة؟! “

# جامعة «حرب» الاستنزاف»

يعتبر التقرير الذي قدمه «هوارد كولا داي» وزير الجيش في الولايات المتحدة الأمريكية خلال حرب أكتوبر من أدق التقارير العسكرية، التي تصدت بالتحليل والدراسة العلمية لمعارك السادس من أكتوبر عام 1973، لما اتصف به من علمية صارمة، وتحليل دقيق لجميع الظواهر العسكرية الجديدة التي فرضها الفكر العسكري المصري خلال تخطيطه وتنفيذه لمعارك أكتوبر على الفكر العسكري العالمي بمختلف مدارسه شرقًا وغربًا.

يقول كولا داي: «إن الحرب في الشرق الأوسط - يقصد معارك أكتوبر - قد بدلت الكثير من الأفكار العسكرية.. فلأول مرة في

التاريخ الحديث تتمكن قوة عسكرية من إنجاز عملية عبور ضخمة لقناة السويس التي تماثل نهراً في مواجهة عدو تزود بسلاح طيران عصري، دون أن تفقد القوات التي عبرت أي طائرة من طائراتها».

ما يعني كطيّار مصري مقاتل من هذا التقرير وشهادة صاحبه وغيرهما مجموعة من الحقائق التي لم تعد مجالاً للمناقشة أو التشكيك حتى من إسرائيل في مدى صحتها:

### • الحقيقة الأولى: أن القوات المسلحة

المصرية التي عبرت قناة السويس ظهر السادس من أكتوبر عام 1973 لم تزلزله كيان المؤسسة العسكرية الإسرائيلية وحدها، ولم تحطم نظرية الأمن الإسرائيلية بكل ادعاءاتها عن الحدود الآمنة فحسب، ولكنها زلزلت الكثير من قواعد الفكر العسكري المعمول بها في

العالم، وحطمت العديد من نظرياته التقليدية التي كانت سائدة قبل اندلاع «الشرارة» في حرب أكتوبر.

● **الحقيقة الثانية:** أن ظهور «القوات الجوية المصرية» بالمظهر المشرف الذي بدت عليه خلال معارك أكتوبر، كان واحدًا من أخطر المفاجآت التي حطمت الغرور الإسرائيلي، وأذلت كبرياء العسكرية الإسرائيلية، حين وجدت نفسها في مواجهة سلاح جوي مصري بالغ العصرية في قدرته القتالية، وفي تمرس طياريه على فنون الحرب الجوية، وفي شجاعة هؤلاء الطيارين المصريين المهرة بإصرارهم على انتزاع التفوق الجوي من أنياب عدوهم، في الوقت الذي اضطر فيه سلاح الجو الإسرائيلي إلى الوقوف شبه مشلول، وقد أصابته أجهزة الدفاع الجوي المصري، وبراعة

طبارى القتال المصرىين بالعجز عن تقديم الحماية الجوية لفلول الجيش الإسرائيلى، فتحول إلى فلول هاربة شرقى القناة، ذاقت لأول مرة فى تاريخ الصدام «العربى الإسرائيلى»، مرارة الحسرة التى تشيع فى نفس الجندى المقاتل، حين يحرم من الغطاء الجوى الذى يقىه من هجمات السلاح الجوى المعادى، التى لا تنقطع لىل نهار.

● **الحققة الثالثة:** أن براعة الطيار المصرى المقاتل، ومهارته فى استخدام طائرتة على أحسن وجه يمكن، والتحكم فىها إلى أبعد مدى لم تكن الظاهرة الوحيدة التى فرضت نفسها على مسرح العمليات خلال معارك أكتوبر، وأن هناك ظاهرة أخرى لا تقل أهمية وفعالية، فى قيام سلاح الجو المصرى بمهامه الهجومية والقتالية على الوجه الأكمل،

وفي نجاح هذا السلاح الذي أعيد بناؤه من الصفر تقريبًا في تجاوز الأرقام القياسية العالمية سواء في انخفاض نسبة الخسائر بين أفراده ومعداته، أو ارتفاع نسبة إصابته للأهداف المعادية في كل عملية يقوم بها، وسواء في زيادة عدد الطلعات التي يقوم بها طياروه المقاتلون في اليوم الواحد، أو في انخفاض الوقت اللازم لإعادة تموين الطائرة بالوقود والذخيرة والكشف الدقيق على أجهزتها للتأكد من سلامتها وصلاحياتها الكاملة قبل أن تعاود الطيران من جديد، وأن هذه الظاهرة الفريدة، والمشرفة للإنسان المصري هي براعة «الأطقم الأرضية» العاملة في المطارات والقدرة الفائقة التي أبدتها أفراد هذه الأطقم، في تقديم الخدمات المعاونة، سواء في الإمداد والتموين، أو

الصيانة والإصلاح السريع للطائرات التي تتعرض للإصابة أثناء العمليات، وفي غيرها من العمليات الفنية المعاونة، التي يقدمها هذا الجيش من الفنيين والمهندسين الأرضيين، الذين يمثلون العصب الحساس للسلاح الجوي الذي يؤمن بأهمية الوقت، ويحترم العلمية في كل صغيرة وكبيرة من تفاصيل عمله.

هذه الحقائق الثلاث تضعنا في مواجهة مجموعة أسئلة جوهرية، لا بد من الإجابة عنها بوضوح، قبل أن نتقدم لتحليل الضربة الجوية المصرية «صدام»، التي نفذت ظهر السادس من أكتوبر، وكانت بحمد الله وعونه البداية الموفقة لحرب العاشر من رمضان. إن الإجابة عن هذه الأسئلة ستيسر لنا فيما بعد ونحن نتصدى بالتحليل للعملية الهجومية «صدام»؛ أن نعرف المقدمات الأساسية التي مهدت لهذه



الضربة المحكمة، والأبعاد الحقيقية لها، والفكر العسكري المبتكر الذي قامت على أساسه، والنتائج العملية التي حققتها «صدام» وفرضت بها واقعًا جديدًا على قواعد التخطيط العلمي للعمليات الهجومية الجوية المركزة، التي تمتزج فيها الأهداف الاستراتيجية بالأهداف التعبوية والتكتيكية، في مزيج متناسق، لا يسمح لهدف بأن يطغى على غيره من أهداف الخطة المرسومة.

وأما الأسئلة فهي:

- كيف انتقل سلاح الجو المصري من هزيمة يونيو الكبيرة، إلى نصر أكتوبر الساحق؟

- ما الرحلة الشاقة التي قطعها هذا السلاح الجوي، من الساعة التاسعة والربع صباح الاثنين 5 يونيو 1967، إلى الساعة الثانية وخمس دقائق من بعد

ظهر السبت، السادس من أكتوبر عام 1973؟

• كيف تحول هذا السلاح الجوي الذي ظلم في الماضي كثيرًا من سلاح يستدر إشفاق الأصدقاء عام 1967 إلى سلاح ينتزع إعجاب العالم كله، ويثير حسد الأعداء عام 1973؟

• إذا كانت ست سنوات فحسب من 1967، إلى 1973 وبالمقياس العادي لإعادة بناء الجيوش، ليست بأي حال من الأحوال بالزمن الذي يسمح بانتقال سلاح جوي من النقيض إلى النقيض قدرةً وتدريبًا، ومهارة، وفكرًا وتنفيذًا.. فما التعويذة السحرية التي استخدمها سلاح الجو المصري، فحقق بها هذه المعجزة؟!

من موقع الخبرة النظرية والعملية كطيار مقاتل يعرف أصول مهنته، ومن موقع الممارسة الفعلية التي صاحبت فيها سلاحنا الجوي في رحلة الألف ميل، التي بدأها من هزيمة يونيو، وانهاها بنصر أكتوبر.. أقول إن السر الذي يكمن وراء النجاح الساحق الذي حققته قواتنا الجوية في الانتقال الفعلي من عصر الشعارات وحرب «الكلمات الضخمة» التي لا تعبر عن واقع حقيقي إلى عصر العمل الدائب في صمت وإصرار، استعدادًا لخطة العمل الحقيقي الذي يرغم العدو قبل الصديق على إكباره واحترامه.

ويرجع هذا إلى عاملين أساسيين عاشهما سلاح الجو المصري على الطبيعة، وتعامل معهما على أرض الواقع، واستفاد منهما إلى أبعد ما تكون الاستفادة.

• **الأول:** «درس النكسة» عام 1967 وما أحدثته الضربة الجوية المكثفة التي تلقيناها صباح 5 يونيو من آثار تدميرية.. ثم.. ما خلفته هذه الضربة من دروسٍ مستفادة، وعآها سلاح الجو المصري، وأقبل على تحليلها بموضوعية كاملة، بعيدًا عن كل مجاملة للنفس، أو أي تحامل على العدو.

• **الثاني:** يتمثل في المدرسة بل الجامعة الضخمة التي دخلها سلاح الجو المصري.. جامعة «حرب الاستنزاف».. حيث استطاع أن يستوعب بفهم كامل، وحرص شديد على التزود بالمعرفة كل ما قدمته له من بيانات نظرية ودروس عملية.

لقد التحق بتلك الجامعة سلاح الجو المصري بكل أفرادهِ عام 1969، وتخرج فيها يوم

6 أكتوبر عام 1973، حاملاً شهادة التفوق والامتياز، التي منحها له العالم كله، بكل خبرائه الحربيين، وبكل معاهد الدراسات الاستراتيجية.

بداية القصة ترجع إلى يوم 8 مارس عام 1969، عندما اشتعلت على جبهة قناة السويس نيران حرب شرسة بيننا وبين العدو الإسرائيلي، عرفت في تاريخ الصراع الدامي بين العرب وإسرائيل بالاسم الشهير «حرب الاستنزاف».

لقد فقدت مصر في اليوم الثاني لقيام تلك الحرب بطلاً عزيزاً علينا جميعاً، هو الشهيد العظيم الفريق أول عبدالمنعم رياض، رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية في ذلك التاريخ، الذي توجه يوم 9 مارس 1969، ليشرّف بنفسه على سير معارك «حرب الاستنزاف» في ثاني أيامها، فسقط شهيداً، كأنبيل ما يكون استشهاد القائد وسط رجاله.

• ولم تكن هذه الحرب في حاجة إلى إعلان أو إنذار مما تعارف عليه المجتمع الدولي في تلك الأحوال، حين يتوقف الحوار بين الأطراف المتصارعة ليبدأ القتال.. والسبب أن الحرب بيننا وبين إسرائيل لم تكن قد توقفت.

على المستوى الرسمي، أعلنت مصر يوم الخميس 8 يونيو 1967، قبولها لقرار مجلس الأمن إيقاف القتال في الشرق الأوسط، إلا أن كلا الجانبين مصر وإسرائيل وعلى المستوى العملي والواقعي، كان يملك الأسباب التي تدفعه بل تضطره إلى اعتبار أن الحرب لم تنته من وجهة نظره؛ لأنها لم تحقق الأهداف التي قامت من أجلها بالنسبة له.

وإذا كان الطرفان قد استسلما ظاهريًا لقرار وقف إطلاق النار كتعبير شكلي بحث، عن احترام المجتمع الدولي الممثل في مجلس

الأمن الذي أصدر القرار إلا أن الشواهد كلها كانت تشير إلى توقع بل حتمية حدوث الانفجار الدامي بين الطرفين المتحاربين؛ لأن كلاً منهما لاتزال لديه الأسباب التي تدفعه إلى استئناف القتال، ولأن الهدنة المؤقتة التي يحرسها مراقبو الأمم المتحدة على جانبي الصراع كانت هشة، قابلة للاختراق في أي ثانية.

بالنسبة لإسرائيل، كان قادتها جميعًا من العسكريين والسياسيين على ثقة كاملة من أن الحجم الهائل للهزيمة السريعة التي فرضت على القوات المسلحة المصرية خلال معارك يونيو 1967 كان كافيًا من وجهة نظر العسكرية الإسرائيلية لفرض الإرادة السياسية لإسرائيل على النظام الحاكم في مصر، لدرجة أن «موشي ديان» وزير الدفاع الإسرائيلي وقتها قال في ثقة كاملة بأنه «يقضي وقته الآن عقب توقف القتال بجوار التليفون في

انتظار المكالمة التي ستأتيه من القاهرة لسماع شروطه لتوقيع الصلح بين مصر وإسرائيل». إن الفكر السياسي يقول إن «الحرب لا تقوم بين طرفين إلا لفرض إرادة أحدهما على الآخر بالقوة»، وكان منطق الحوادث يفرض على مصر الاستسلام، وهذا المنطق نفسه هو الذي دفع قادة إسرائيل وعلى رأسهم موشي ديان إلى انتظار المكالمة التليفونية من القاهرة. لكن إرادة الشعب المصري ولأسباب خارجة عن تمنيات إسرائيل.. منعت ورود هذه المكالمة التليفونية التي عاش قادة إسرائيل يحلمون بها طويلاً.

معنى هذا ببساطة ومن وجهة النظر التقليدية أن «حرب الأيام الستة» لم تنته بعد، لم تصل إلى نتیجتها المرتقبة.. لا أقصد المكالمة.. بل فرض الإرادة السياسية الإسرائيلية المنتصرة عسكرياً على الإرادة السياسية المصرية التي هزمت على مسرح



العمليات... وحيث إن هذه النتيجة لم تتحقق بعد، فإن هذه الحرب لم تتوقف بعد، ولا يجوز لها أن تتوقف من وجهة نظر إسرائيل.

لهذا لم يكن غريبًا أبدًا أن تسارع القوات الإسرائيلية المرابطة على الضفة الشرقية لقناة السويس إلى سلسلة من التصرفات العدوانية التي أخذ بعضها شكلاً صبيانيًا صغيرًا، كإصرار المجندين الإسرائيليين على الاستحمام في مياه القناة. واستقبال أفواج السائحين الأجانب والإسرائيليين الذين يصلون إلى القناة ليقضوا يومًا صاخبًا على شاطئها الشرقي، ثم يعودوا كما جاءوا في سيارات سياحية كتب عليها «من القنطرة إلى القنطرة».

كانت هذه الاستفزازات الصبيانية التي عمدت إليها قيادة إسرائيل العسكرية والسياسية تستهدف طعن الوجدان القومي لكل المصريين المقيمين على الضفة الغربية

للقناة من مدنيين وعسكريين.. وإشعارهم في كل لحظة من لحظات الليل والنهار، بأن خصمهم الذي احتل جزءًا عظيمًا من وطنهم يعيث فسادًا، ويصنع ما يشاء بهذا الجزء المحتل من بلادهم.

ولا شك أن القيادة الإسرائيلية ومن ورائها أجهزة الحرب النفسية في المؤسسة العسكرية بتل أبيب كانت تسعى من وراء الاستفزازات الشريرة، إلى الضغط على نفسية المواطن المصري، ليقوم بدوره بالضغط على قيادته السياسية والعسكرية لكي تخلصه من هذا العذاب اليومي، ولو بفتح الخط التليفوني بين القاهرة وتل أبيب.

وعندما فشلت إسرائيل في تحقيق هدفها عن طريق الضغط النفسي الهادئ.. عادت إلى استعمال الأسلوب العدواني في الضغط على مصر شعبًا وجيشًا وقيادة ووجهت هجماتها الوحشية هذه المرة ضد المدنيين العزل في

مدن القناة، أملاً في وصول المكالمة التليفونية التي طال بإسرائيل انتظارها لكي تملي شروط المنتصر، وساعتها فقط، تحس بأن الحرب التي أشعلتها في 5 يونيو قد انتهت إلى هدفها الذي قامت من أجله.

الموقف بالنسبة لمصر شعباً وجيشاً وقيادة، كان مختلفاً تمام الاختلاف عن الموقف في إسرائيل.

مصر كانت تنطلق في رفضها لفكرة انتهاء الحرب، من منطلق مغاير تماماً.. وكان أهم نقاط الارتكاز هو الإحساس الفطري للمواطن المصري العادي بأن ما يحدث في هذا اليوم أمر غير طبيعي، وغير متوافق مع منطق الحياة على أرضه، والإمكانيات التي يملكها وطنه، والتضحيات التي قدمها راضياً، وغير متفق مع الحجم الحقيقي للخصم الذي أنزل به هزيمة غير واقعية، ليفرضها عليه باعتبارها

واقفًا يجب على الإنسان المصري أن يستسلم له.

ورفض الإنسان المصري العادي لهزيمة يونيو، فضلًا عن أنه رد فعل طبيعي للإحساس بالإهانة التي حاول عدوه أن يفرضها عليه، كان إعلانًا عمليًا عن عدم تصديقه أن التضحيات التي قدمها بسخاء، في سبيل بناء مجتمع جديد على أرضه، قادر على حماية حدوده، قد تبخرت في الهواء، بضربة ساحقة وسريعة وجهها له خصم صغير في حجمه، صغير في إمكانياته المستوردة بالقروض والهبات الدولية بالقياس إلى ما يملكه المجتمع المصري من إمكانيات قومية أصيلة.

ومن هنا كان طبيعيًا أن تتحرك الجماهير المصرية يومي التاسع والعاشر من يونيو 1967، لتعلن عدم تصديقها للهزيمة، وتصوغ عدم تصديقها هذا في صورة رفض لقرار المرحوم الرئيس الأسبق جمال عبدالناصر

بالتنحي عن رئاسة الجمهورية، بل تعلن احتجاجها على هذا القرار وما قد يعنيه أمام العدو على الأقل من الاستسلام للهزيمة، والقبول بمنطقها، الذي أدى بمصر إلى تغيير رئيسها.

الذي لا شك فيه الآن أن مئات الآلاف من مواطني مصر وجماهيرها الواسعة، التي اندفعت مساء الجمعة 9 يونيو في تسابق أسطوري قاصدة بيت الرئيس الراحل جمال عبدالناصر دون أن يعوقها الظلام الذي كان يخيم على القاهرة ليلتها، إنما كانت تعبر بهذه الحركة العفوية التي كانت أروع وأعظم من أن يوجهها، أو يسيطر عليها أحد، عن رفض نبيل لأي قيد على إرادتها القومية.

إن التحليل الدقيق للتهافتات المدوية التي رددتها الجماهير المصرية يومي 9 و10 يونيو كعبارات «لا تنتح».. و«حنحارب.. حنحارب».. و«بالروح.. بالدم.. حنكمل المشوار» تقطع بأنها

كانت رفضًا حاسمًا، وجهها الإنسان المصري العادي من قبل القاهرة، لكي تصل إلى قادة المؤسسة العسكرية في تل أبيب، معلنة رفض الشعب المصري للهزيمة؛ لأنه لم يعتد طوال عصور التاريخ أن يركع على قدميه ويستسلم للهزيمة، مهما كانت بشاعة الطعنة الموجهة إليه، ومهما كانت ضراوتها.

الأمر المؤسف هنا أن قادة إسرائيل بالجهل أو الغرور لم يفهموا الرسالة حين وصلتهم، ولم يفهموا المدلول الحقيقي لهتاف الإنسان المصري «بالروح.. بالدم.. حنكمل المشوار».. أو لعلمهم فهموا الرسالة، فاعتبروها سخرية من كل ما حققوه من انتصارات سريعة في 5 يونيو، فازدادوا ضراوة، وازدادوا حقدًا على هذا الشعب العنيد الذي حوّل انتصارهم إلى مجرد دخان مؤقت في سماء المنطقة، ستبدده رياح الإرادة المصرية إن عاجلاً أو آجلاً.

من صرخة الرفض النبيل، التي أطلقها الشعب المصري؛ استعادت القيادة السياسية المصرية قدرتها على التحرك السريع في مواجهة الحوادث.. وبدلاً من أن ترفع هذه القيادة سماعة التليفون، لتطلب تل أبيب؛ رفعت هذه السماعة، لتعلن قرارها بتغيير القيادة العسكرية على أعلى مستويات العسكرية المصرية.

خسرت مصر يوم 5 يونيو معركة واحدة فقط، ولم تخسر الحرب مع عدوها، هكذا أعلنت غضبة الجماهير المصرية التي رفضت استقالة عبدالناصر والذي يخسر معركة واحدة، يمكنه بالإصرار والإرادة والاستفادة من الخطأ؛ أن يكسب الحرب في معركتها الأخيرة الفاصلة، وإذا كان الطريق إلى النصر صعباً ومفروضاً بالتضحيات، فهو على سبيل التأكيد ليس مستحيلاً على شعب يريد النصر

ويعمل من أجله، وقيادة تعرف ما يريد  
الشعب وتستجيب لإرادته.

من هنا يمكننا القول، إن قرار تغيير القيادة  
العسكرية الذي أعلن يوم 12 يونيو عام 1967  
وما تلاه من قرارات تستهدف إعادة بناء  
القوات المسلحة المصرية، لكي تقوم بواجبها  
المقدس، وتضرب ضربتها الهائلة، في 6 أكتوبر  
1973 كان استجابة حتمية من القيادة  
السياسية، للقرار القومي الأعظم، الذي أصدره  
رجل الشارع المصري بكل أصالته التاريخية،  
حين أطلق صرخته المدوية مساء الجمعة 9  
يونيو 1967: «حنحارب.. حنحارب» وبعث  
خلال هذه الصرخة برسالة حاسمة إلى تل  
أبيب، يعلن فيها أن الحرب لم تنته بعد.

ومن رفض المواطن المصري العادي للهزيمة،  
ومن استجابة القيادة السياسية لهذا الرفض،  
تحددت أمام القوات المسلحة المصرية  
باعتبارها من محاور الإرادة القومية للشعب



المصري معالم الطريق الوحيد، الذي تحتم عليها أن تمضي فيه إلى نهايته، وباعتبارها التجسيد المادي للإرادة القومية، الذي يمتلك بعتاده ورجاله بل يجب عليه أن يحمي هذه الإرادة القومية عندما تتعرض لمحاولات القهر من الخصم، وفرض هذه الإرادة على أرض الواقع، ضد من تسول له نفسه الانتقاض عليها، والنيل منها.

معنى هذا ببساطة، أن القوات المسلحة المصرية، كان عليها أن تعد نفسها بأسرع ما تستطيع من وقت، وبأقصى ما تملك من جهد وعرق، ليس لاستئناف الحرب لأن هذه الحرب لم تكن قد توقفت لكي تستأنف بل كانت مهمتها الحقيقية، هي إنهاء الحرب، ووضع نهاية حاسمة لها.

وإذا كانت إسرائيل، ترفض هذه النهاية المتوقعة لمعارك يونيو التي يمثلها رفض مصر للاستسلام فإن القوات المسلحة المصرية،

كانت أشد رفضًا لهذه النهاية المؤقتة، التي سمحت للمجنذات الإسرائيليات بأن ينزلن بالمايوهات إلى مياه قناة السويس، ثم يصعدن إلى الشاطئ الشرقي للقناة وهن بنفس ملابس السباحة لكي يمارسن مع الجنود الإسرائيليين أصناف الخلاعة المخجلة.

لقد استفادت القيادة المصرية من روح الغضب التي سيطرت على المقاتل المصري، وما تؤدي إليه هذه الروح الملتهبة من تفجير الطاقة، والقدرة الخارقة على تحمل مشاق التدريب ليل نهار، استعدادًا للخطة التي يلتقي فيها هذا المقاتل الشجاع بخصمه لقاء المواجهة، فيثار لكرامته التي أهدرت ظلمًا، ويثبت لأمتة أنه كان دائمًا أهلًا للأمانة، وقادرًا على تحمل المسؤولية، وصيانة الشرف الوطني، وحماية الإرادة القومية من القهر والإذلال.

وإذا كان المواطن المصري العادي قد تحرك لرفض هزيمة يونيو، من منطلق الدفاع عن الكرامة القومية، فإن المقاتل المصري كان يتحرك إلى جانب هذا الدافع القومي العام استجابة لدافع خاص، لا يقل أهمية، وهو رغبته الغريزية في الدفاع عن كرامته الشخصية، كمقاتل فرضت عليه الهزيمة.

لست مغاليًا أبدًا، حين أقول إن وعي القيادة المصرية الجديدة، بهذا الإحساس النبيل الذي كان يحرك المقاتل المصري، ويملك عليه وجدانه وعقله عقب 5 يونيو هو الذي يسّر لهذه القيادة، تحقيق معجزة البناء الجديد للقوات المسلحة، بمراحله المختلفة التي وصلت إلى ذروتها المشرفة، بعملية العبور التاريخي يوم 6 أكتوبر.

ومن جانب آخر فإن القيادة الجديدة للعسكرية المصرية عنيت بأن القيام بإعادة بناء قواتنا المسلحة لا يقتصر على إعداد

المقاتل المصري نظريًا للمعركة. صحيح أن التدريب اليومي الشاق، والبيانات العملية، والمشروعات الميدانية على جميع المستويات تعطي المقاتل صورة تقريبية للواقع الذي سيكون على مسرح العمليات عندما تحل لحظة المواجهة مع العدو، ولكن الصورة الحقيقية للمعركة، كما يعيشها المقاتل على أرض الواقع بكل قسوتها وعنفا تبقى بعيدة عن ذهن المقاتل.

كان معنى هذا أن واجب القيادة المصرية الجديدة، ليس مقصورًا على إعداد المعركة فحسب.. بل إن واجبها هو إعداد المقاتل المصري لنوع واحد من المعارك، هو المعركة التي يجب أن تنتهي بالنصر، مهما بلغ من ضراوة الخصم، ومهما بلغت قدرة هذا الخصم على ابتكار الحيل التي تحميه من الهزيمة، أو تقربه من النصر.

والتدريب النظري، قد يعطي المقاتل الأسس العامة لفنون الحرب وإدارة المعارك وخوضها، ولكن يتبقى بعد هذا تصور خطير لا بد من تغطيته.. وهو.. كيفية التعامل على مسرح العمليات مع عدو بعينه، له منهجه الخاص في القتال، وله أسلوبه المميز في التحرك على أرض المعركة.

إذن نجحت القيادة المصرية الجديدة، في الخروج بالقوات المسلحة من الصدمة التي تلقتها في 5 يونيو. كما نجحت في أن تعيد للقوات المسلحة المصرية بجميع أذرعها وأسلحتها التوازن الذي كادت تفقده، عشية انسحابها غير المنظم من سيناء، عقب الضربة المكثفة التي تلقاها سلاحنا الجوي في بداية العمليات. وأخيرًا نجحت في إعادة بناء الهيكل الأساسي للقوات المسلحة بما يعتمد على استعاضة ما أمكن من السلاح والعتاد الذي

فقد في معارك يونيو، واستيعاب المقاتلين لهذا السلاح، مع التدريب الشاق المتواصل. وبقي أن يوضع كل هذا موضع التجربة العملية القاسية، لا في المشروعات الميدانية التقليدية التي تعرفها الجيوش وتمارس التدريب عليها في الظروف العادية بل يجب أن تكون هذه التجربة العملية صدامًا محدودًا مع العدو الإسرائيلي الذي سيواجه المقاتل المصري في النهاية. كان لابد من جولة عاجلة مع العدو، تعتبر في حسابات العسكرية المصرية معركة تمهيدية، يعرف المقاتل المصري خلال نيرانها الحقيقية ما هو بحاجة إلى معرفته عن العدو الإسرائيلي، كمخطط ومقاتل، لكي يستفيد من المعرفة العملية، الخبرة التي تمكنه من توجيه الضربة التي تحقق له الثأر.

وقبل أن ندخل في التفاصيل الدقيقة لـ «حرب الاستنزاف» وما حققته نتائجها من

اتجاهات مواتية بالنسبة للجانب المصري أو إنجازات معاكسة بالنسبة للجانب الإسرائيلي لا بد لنا من الإشارة السريعة إلى نقطتين مهمتين:

إن «حرب الاستنزاف» لم تنشأ من فراغ، ولم تحدث معاركها وتشتعل نيرانها من العدم والصمت اللذين سادا جبهة السويس، عقب عمليات يونيو 1967، فقد مرت قواتنا المسلحة قبل معارك الاستنزاف بمرحلتين حاسمتين في تاريخها الحديث:

بدأت الأولى عقب إيقاف إطلاق النار في يونيو 1967 واستمرت حتى نهاية أغسطس من عام 1968، وهي المرحلة التي عرفت في سجلات العسكرية المصرية باسم «مرحلة الصمود».

اتسمت هذه المرحلة بالهدوء النسبي فعملية إعادة البناء العسكري السريع، واستعاضة ما فقدنا من سلاح وعتاد، وتدريب المقاتل

المصري، وتوفير الظروف الملائمة له، لكي يتمكن من استيعاب سلاحه استيعابًا كاملاً، والتحكم في هذا السلاح بصورة تجعله حارسًا لسلاحه، وحاميًا له، بدلاً من أن يكون مجرد حامل لهذا السلاح.. كل هذا كان له مقتضيات.

ولم تخلُ مرحلة الصمود هذه، من معارك ضارية، خاضها المقاتل المصري بضراوة كما حدث في معركة «رأس العرش» بالنسبة للقوات البرية ومعارك الجو الضارية التي خاضها سلاح الجو المصري يوم 14 يوليو 1967 - ومعركة إغراق المدمرة «إيلات» التي تمكن خلالها أحد لنشات الصواريخ المصرية يوم 21 أكتوبر 1967 من إغراق المدمرة التي تمثل نصف قوة البحرية الإسرائيلية من المدمرات.

المرحلة الثانية قبل «حرب الاستنزاف» بدأت في سبتمبر عام 1968، وانتهت مع نهاية الأسبوع الأول من مارس عام 1969، وقد عُرفت باسم مرحلة «الدفاع النشط»،



واستهدفت تقييد حرية العدو في التحرك  
والمناورة والاستطلاع، وتكبيده خسائر  
متزايدة باستمرار، أعز ما يملكه من آلة الحرب  
وهو الأفراد المقاتلون أنفسهم.

كنتيجة حتمية للخسائر الفادحة التي مُنيت  
بها إسرائيل، نتيجة للضربات المكثفة التي  
وجهتها المدفعية المصرية للعدو في مرحلة  
«الدفاع النشط» - ومع عجزه عن شل فاعلية  
هذه المدفعية، عن طريق هجماته الجوية،  
بسبب براعة مدفيعتنا المصرية الراضة وقتها  
على الضفة الغربية للقناة، في إخفاء مواقعها  
بعمليات تمويه عالية المستوى.. اضطر العدو  
إلى اتخاذ وسيلتين سريعتين لحماية قواته  
من ضربات المدفعية المصرية.

كانت وسيلته الأولى، هي الرد على النيران  
المصرية الموجهة لمواقعها العسكرية بنيران  
مكثفة، تصبها القوات المسلحة الإسرائيلية  
بوحشية على الأهداف المدنية في

الإسماعيلية والسويس، وعلى القرى المصرية الممتدة على حافة القناة؛ الأمر الذي كان يضطر المدفعية المصرية إلى التخفيف من نيرانها، حماية لأرواح المواطنين الأبرياء.

واستغل العدو فرصة الهدوء النسبي الذي عمدت إليه المدفعية المصرية لكي تتم عملية إبعاد المدنيين المصريين في منطقة القناة حماية لأرواحهم فسارع إلى الوسيلة الثانية التي قدر أنها ستحمي قواته من النيران المصرية، وهي إقامة سلسلة المواقع الدفاعية، والدشم الحصينة، التي عُرفت فيما بعد باسم «خط بارليف».

بنجاح العدو في إقامة تحصينات هذا الخط الدفاعي رغم ما تكبده من خسائر فادحة في الأرواح والعتاد والسلاح كان لابد من تطوير الاشتباكات مع القوات الإسرائيلية، والانتقال بها إلى مرحلة جديدة خصوصًا بعد أن تحررت القوات المسلحة المصرية من القيد الذي كان

يشل قدرتها على الحركة، وهو وجود المدنيين المصريين من أهل القناة، الذين كانت إسرائيل تعتبرهم رهينة عزلاء تصب عليها انتقامها الوحشي من ضربات المدفعية المصرية الساحقة وكانت الأهداف من الانتقال بالصراع الملتهب مع العدو، إلى مرحلة أكثر عنفًا واشتعالًا، هو تحقيق ما يلي:

**أولاً:** خلخلة النظام الدفاعي المترابط، الذي نجحت إسرائيل في إقامته على القناة ممثلًا في حصون ودشم خط بارليف ثم تصعيد الضربات الموجهة إلى الخط، لتصل إلى تدميره، أو شل فاعليته على الأقل.

**ثانيًا:** الاستمرار في تحقيق أعلى نسبة من الخسائر في الأرواح بين ضباط العدو وجنوده، هذه الخسائر التي كانت تصيب العدو بالجنون؛ لأنها خسائر في العنصر الذي يمثل نقطة الضعف الأساسية في إسرائيل بحكم ضآلتها

العددية، بالقياس إلى بحر الكثافة السكانية التي يمثلها الشعب العربي من حولها.

**ثالثًا:** وهو أخطر أهداف المرحلة الجديدة من مراحل الصراع التي أعقبت عمليات 5 يونيو الدخول في حرب محدودة مع العدو الإسرائيلي، بكل ما للحرب من خصائص، بحيث يعرف المقاتل المصري خصمه على الطبيعة، ويتعامل معه تحت نيران معركة كاملة الأبعاد، ليتم «تطعيم» هذا المقاتل بالمناعة اللازمة التي تحميه من شلل المفاجأة، في مواجهة أي حيلة قتالية قد يلجأ إليها الخصم.

هذه الحرب المحدودة.. حرب الاستنزاف.. اتسعت لتشمل جميع الأسلحة التي اشتركت فيه.. غير أن حديثي هنا سوف يقتصر على الدور الذي قامت به «قواتنا الجوية» في هذه المعارك، والدروس التي استفادها الطيار المصري المقاتل وكل الأجهزة المعاونة له.

وتحضرني الآن حادثة بالغة الأهمية في دلالتها.. وهي تمثل صدمة هائلة لجنرالات الجو الإسرائيليين، حين يتذكرون الثمن الفادح الذي دفعه سلاح الطيران الإسرائيلي، كنتيجة حتمية لحيلة بارعة فكر فيها بسرعة طيار مصري مقاتل ممن تمرسوا على سرعة التصرف بذكاء وحكمة، خلال معارك «حرب الاستنزاف».

كان هذا خلال معارك السادس من أكتوبر.. عندما رصدت أجهزة الإنذار المبكر على الخطوط المصرية - طلعة جوية عادية، من عدد كبير من الطائرات الإسرائيلية.. كانت تقترب من مجالنا الجوي، قادمة من الاتجاه الشمالي الشرقي، وكان من الواضح من كثافة عدد الطائرات المهاجمة، ونوعيتها، واتجاهها، أنها تستهدف الإغارة على بعض مطاراتنا القريبة، التي تسهم بدور بارز في العمليات.

على الفور تصدت طائراتنا المقاتلة للطائرات  
المغيرة، على خطوط الاعتراض المحسوبة  
بدقة بالغة، ودارت معركة جوية ضارية،  
اشترك فيها من الجانبين ما يقرب من سبعين  
طائرة، ونجح طيارونا المقاتلون في مواجهة  
الطائرات المغيرة، ومنعها من تحقيق أهدافها..  
وإرغامها على دفع ثمن اختراقها لمجالنا  
الجوي، بإسقاط ثلاث عشرة طائرة ما بين  
فانتوم وميراج، ولاذت باقي الطائرات  
المهاجمة بالفرار شرقاً.. ثم بدأت طائراتنا  
المقاتلة في العودة إلى قواعدها.

القصة عادية جداً، ولكن الجانب المثير في  
القصة يبدأ بعد عودة الطائرات المقاتلة  
المصرية إلى قواعدها.. ففي اللحظة التي  
هبطت فيها إلى أرض المطار، أولى المقاتلات  
المصرية التي خرجت سليمة ومنتصرة من  
المعركة، فوجئ المركز الرئيسي بورود بلاغات  
من نقطة الملاحظة الأرضية الواقعة في

منطقة الاشتباك الجوي السابق، تفيد بأن المعركة الجوية لم تتوقف، وأن القتال لا يزال مستمرًا بين الطائرات.

وازدادت الصورة غموضًا عندما ورد بلاغ عاجل من بعض وحدات القوات البرية في المنطقة، يؤكد أن القتال الجوي في منطقة الاشتباك - أسفر عن سقوط بعض الطائرات، وهبوط خمسة طيارين بالمظلات في مياه البحر الأبيض.. سأل قائد الطاقم بمركز العمليات المحلي عن هذه « الطائرات الجديدة » وتفاصيلها. وجاءه الرد الحاسم بأنه ليست لنا أي طائرات في هذه المنطقة؛ لأن جميع طائراتنا التي كانت مشتبكة في صد الهجمة المعادية قد عادت إلى قواعدها سالمة بعد أداء مهمتها بنجاح.

لم يرتبك القائد المحلي، بل تصرف بسرعة، وأصدر أمره إلى تشكيل من طائرات الهليكوبتر الخاصة بأعمال الإنقاذ، بالتوجه الفوري إلى

منطقة الإسقاط التي تم الإبلاغ عنها لالتقاط الطيارين الهابطين، أيًا كانت جنسيتهم، وتسرع طائرات الهليكوبتر بتنفيذ الأمر، لتجد أن لنشات القوات البحرية المصرية قد سبقتها إلى المنطقة وتم التقاط الطيارين الخمسة من مياه البحر، فإذا بهم جميعًا من طياري العدو، بعضهم من قادة طائرات الميراج، وبعضهم من قادة الفانتوم.

باستجواب الطيارين الأسرى الخمسة، اعترفوا بأنه صدرت لهم من قيادتهم أوامر عاجلة، بالتوجه الفوري إلى منطقة الاشتباك التي تصدت فيها المقاتلات المصرية للطائرات الإسرائيلية، أملًا في كمين للطيارين المصريين، وأنهم وجدوا أنفسهم بالفعل في مواجهة عدد من الطائرات المقاتلة فاشتبكوا معها في معركة سريعة انتهت بهبوطهم بالمظلات بعد أن أصيبت طائراتهم الخمس.



لقد قام كبير الموجهين المصريين - في القطاع - بخدعة ذكية.. إذ أصدر أمرًا مفتوحًا، يأمر فيه المقاتلات المصرية باستمرار التحليق في المنطقة للتأكد من خلوها من الطيران المعادي، ثم أعقبه بأمر «كودي» مغلق وجه فيه هذه التشكيلات من المقاتلات المصرية بالعودة السريعة إلى قواعدها، بعد أن أدت مهمتها بنجاح.

التقط الموجه الإسرائيلي الطعم بغباء غريب.. إذ سمع الموجه الإسرائيلي الأمر «المفتوح» الذي أصدره الموجه الجوي المصري، فأسرع بإصدار أمره إلى طائراته المنسحبة بالعودة إلى مكان المعركة، لاصطياد المقاتلات المصرية التي قدر أنها مجهدة من المعركة التي توقفت منذ لحظات قلائل، ونفذ الطيارون الإسرائيليون الأمر، فإذا بهم يواجهون عددًا من الطائرات - الإسرائيلية التي لم تكن قد أتمت انسحابها بعد، وظنوها بدافع

السرعة والانفعال، طائرات مصرية معادية لهم، فاشتبكوا معها في معركة سريعة انتهت بسقوط خمس طائرات إسرائيلية أخرى - ما بين ميراج وفانتوم - ليرتفع الرصيد النهائي لخسارة إسرائيل في هذه المعركة وحدها إلى ثماني عشرة طائرة.

حيلة بارعة وخدعة ذكية، ابتكرها خيال الموجه الجوي المصري - في أحد قطاعات المعركة - كلفت العدو الجوي خمس طائرات ميراج وفانتوم غالية الثمن وحرمت السلاح الجوي الإسرائيلي، من جهود خمسة من طياريه المدربين، كان في أشد الحاجة إليهم خلال معارك أكتوبر الضارية.

وخلف هذه الخبرة التي أعلنت عنها مثل تلك المعارك تقف تجربة ممتدة.. تقتضي أن أعود سنوات إلى الوراء حين بدأت معارك «حرب الاستنزاف».

في المعارك العادية - سواء أكانت برية أم جوية أم بحرية - يقتصر اهتمام المتحاربين، في دراستهما لنتائج المعارك التكتيكية على الآثار العاجلة للمعركة، والنتائج التي حققها المقاتلون، أو فشلوا فيها.. وبالطبع أسباب الفشل والنجاح.. فضلاً عن آثار هذه المعارك على الموقفين - التكتيكي والتعبوي لطرفي الصراع.. إذ يندر في الظروف العادية، أن تؤدي معركة تكتيكية عابرة إلى تحقيق نتائج ذات تأثير فعال على الموقف الاستراتيجي لأي من الطرفين المتحاربين.

ولو أن قيادة الجو المصرية طبقت هذا المبدأ الكلاسيكي الذي كان سائداً من قبل في الفكر العسكري المعاصر أثناء قيامها بالدراسة اليومية لمعارك «حرب الاستنزاف»، بحيث يقتصر اهتمامها على النتائج التكتيكية المحدودة لكل طلعة جوية يقوم بها طيارونا المقاتلون، والعمليات الهجومية التي يقوم بها

العدو ضدنا، لما حقق سلاح الجو المصري استفادة بعيدة المدى من نتائج هذه المعارك.

إن المنهج التحليلي الشامل الذي اتبعته قيادة السلاح الجوي المصري - بعد «5 يونية» خاصة خلال معارك حرب الاستنزاف، يعتبر إضافة جديدة للفكر العسكري الحديث، تمثلت في تنوع الدراسات التحليلية لنتائج وآثار كل عملية، سواء على الجانب المصري أو الإسرائيلي، والمدلول الذي يعنيه أي من آثار هذه العمليات التكتيكية المحدودة.

على سبيل المثال، فإن الدراسة الدقيقة لآثار كل معركة هجومية أو قتالية، خاضتها قواتنا الجوية في تلك الفترة - لم تكن مقصورة على الدمار الذي أحدثته، سواء على الجانب المصري أو الإسرائيلي ولم تتوقف عند النجاح - أو الفشل - الذي حققه طيارونا أو طيارو العدو في إصابة الأهداف المحددة لهم.. لم يكن الأمر بهذه البساطة، بل وصلنا بدراساتنا

لعمليات هذه المرحلة إلى أدق التفاصيل، والعمليات التمهيديّة السابقة والمصاحبة لكل طلعة - هجومية كانت أو قتالية - وكان طيارونا المقاتلون يواجهون عند عودتهم إلى قواعدهم الجوية بسيل من الأسئلة الدقيقة الذكيّة، ينهال عليهم من قياداتهم، ومن المسؤولين عن التخصصات المختلفة لأجهزة المعاونة الأرضية بالسلاح.

أسئلة تتناول مثلاً تأثير الاستجابة السريعة لأجهزة الإنذار المبكر على سير العملية الجوية - سواء بالنسبة للطائرة المهاجمة، أو للطيار المقاتل الذي يتصدى لها بالاعتراض والمقاومة - والسرعة أو البطء في قيام أطقم التشغيل الأرضية بإعادة إمداد الطائرة بالوقود والذخيرة والكشف السريع على أجهزتها للتأكد من صلاحيتها لاستئناف الطيران، وأثر هذه السرعة - أو البطء سواء على نفسية الطيار المقاتل، أو على نفسية الخصم الذي يواجهه،

والنتيجة النهائية لنجاح أو فشل هذه الأطقم الأرضية في تحقيق سرعات قياسية أثناء قيامها بمهامها.

وكانت قياداتنا الميدانية على مختلف مستوياتها في القوات الجوية - تُعنى بدراسة مدى الترابط في شبكة الاتصالات بكل قنواتها، سواء بين الطيار وقاعدته التي أقبل منها، أو بين غرف العمليات الفرعية وبعضها البعض، وبينها وبين غرفة العمليات المركزية في قيادة السلاح الجوي، والتأثير الفعال الذي تحدثه جودة الاتصال ووضوحه، سواء على نفسية الطيار، أو على سرعة استجابته للأوامر الفورية العاجلة - أو تعديلات هذه الأوامر - التي تصدر له وهو معلق في سماء المعركة، ومستوى جودة هذه الاتصالات مقارنة بالمستوى الموجود لدى العدو الجوي، وما يتمتع به طيارو العدو من إمكانيات في هذا

المجال الحيوي من مجالات الخدمات المعاونة للطيران العسكري.

وعقب كل معركة كنا نهتم بدراسة وتحليل الأسباب القتالية التي يتبعها طيارو العدو وتأثير هذه الأساليب على سير المعركة، ودورها المؤثر في تحقيق الهدف أو عدم تحقيقه - وإمكانية الاستفادة من هذه الأساليب، إما بتطبيقها عندنا - مع مراعاة الإمكانيات الفعلية التي تتمتع بها طائراتنا، أو بالتفكير السريع في اتخاذ الوسائل التي تقي الطيار المصري، من الوقوع في حبال هذه الأساليب الماكرة، التي كان بعضها يمثل شراكاً خداعية، لا تقل في خطورتها المهلكة على الطيار المقاتل، من أبشع مؤامرات الاغتيال في الظلام التي يتعرض لها المقاتل الشريف.

كان هذا النوع بالذات من أساليب القتال الجوي - الذي يُعرف باسم «الكمان الجوية» - من أخطر الأساليب الخداعية التي كان العدو

الجوي يستعين بها وخاصة في بداية العمليات، للنيل من طيارينا.

كان أسلوب العدو في نصب هذه الكمائن الخطرة يبدأ في العادة، بظهور مجموعة من الطائرات المعادية في مجال التقاط أجهزة الرادار المصرية التي تسارع بإعطاء البيانات التي تحدد عدد ونوعية واتجاه وسرعة هذه الأغراض المعادية التي اصطدمت بها نبضات الرادار، وعلى الفور تتحرك الطائرات المصرية المقاتلة لاعتراض الطائرات المغيبة بالعدد والنوعية التي تكفي للدخول معها في معركة قتالية رابحة.

فجأة يظهر الكمين الإسرائيلي على حقيقته، بظهور عدد جديد من الطائرات المعادية، يصل فجأة إلى منطقة الاشتباك، بتدبير مسبق ومتفق عليه، تؤكد المساحة الزمنية المتناهية في القصر التي تفرق بين وصول الطائرات المصرية المقاتلة إلى خط الاعتراض المحدد



لها، وبين سرعة ظهور الطائرات الإسرائيلية الجديدة التي يقلب وصولها ميزان القوة بين القوتين المتصارعتين في الجو، ويحول المعركة الجوية المتوقعة من عملية قتالية متكافئة، بين قوتين متعادلتين - في العدد على الأقل - إلى كمين خداعي مدبر، ومصيدة هلاك شبه محقق للطائرات التي تنساق للوقوع في حبالها.

هذا الأسلوب القتالي المخادع كان واحدًا من عشرات الأساليب التي تعامل معها الطيار المصري المقاتل - خلال «حرب الاستنزاف» - وبالتحليل العلمي الدقيق لكل تفاصيلها أمكن «تطعيم» أفراد القوات الجوية المصرية على جميع مستوياتهم وتخصصاتهم، ضد مفاجآتها، وأمکن في نفس الوقت، تدريبهم على شل فاعليتها، ووضع الحلول العملية السليمة، التي تحول أمثال هذه الأساليب القتالية الملتوية،

إلى مصيدة لصاحبها، بدلاً من بقائها مصيدة  
 لأفراد قواتنا الجوية، من طيارين وفنيين.  
 وقد أثبت سلاح الجو المصري بالتجربة  
 العملية، أنه لم يضيع هذه الأشهر الملتهبة..  
 ففي اليوم الذي يمثل البداية الأولى لنهاية  
 الأسطورة التي روجت لها أجهزة الحرب  
 النفسية الإسرائيلية - أسطورة الطيران  
 الإسرائيلي الذي لا يُقهر.. وقعت المأساة التي  
 أصابت جنرالات الجو الإسرائيلية بالفزع، حين  
 تمكنت طائرة مصرية من طراز «ميج» يقودها  
 طيار مصري شاب من تحقيق المعجزة التي  
 طالما تشدق جنرالات تل أبيب باستحالة  
 وقوعها؛ لأن الدعايات في ذلك الوقت، كانت  
 تؤكد أن هذا الشبح الطائر الذي يسمى  
 «الفانتوم»، الأمريكية هو طائرة لا  
 تُقهر.. وفجأة، وبلا مقدمات، تحقق المستحيل،  
 ونجح الملازم طيار «عاطف» في إسقاط أول  
 طائرة «فانتوم» بطائرته الميج.

في المنطقة الساحلية الواقعة غرب «بورسعيد» و«شرقي رأس البر»، وقد كانت دائماً منطقة التسلل للطائرات المعادية التي تستهدف ضرب المطارات المصرية.. وفي يوم 9 ديسمبر 1969 التقطت شاشات الرادار المصرية أهدافاً غريبة تتحرك فوق مياه البحر الأبيض - على ارتفاعات منخفضة - في اتجاه المنطقة الخطرة من سواحلنا الشمالية، وعلى الفور صدرت الأوامر لمقاتلاتنا المصرية من طراز «ميج 21» بالتصدي للطائرات الإسرائيلية المغيرة، وكانت من طراز «فانتوم».

كانت المواجهة الفريدة.. يقودها من الجانب المصري بطل من أبطال السلاح الجوي المصري - هو الرائد طيار سامح، الذي دخل هذه المعركة مشبعاً بروح الانتقام والثأر لزميله في السلاح، وصديق عمره - النقيب طيار «نورالدين» الذي كُتبت له سعادة الاستشهاد،

بفعل كمين جوي نصبته له المقاتلات الإسرائيلية في يوليو 1969.. منذ ذلك التاريخ، اشتعلت في نفس «سامح» الرغبة في الانتقام لصديق عمره.

كان معروفاً للجميع - ومن واقع تصريحات قادة الطيران الإسرائيلي أن إسرائيل انتقت نخبة من أكفأ طياريهما للتدريب على قيادة «الفانتوم» الجديدة، لكي يحدث التعادل بين الإمكانيات الغنية للطائرة، وبين الخبرة القتالية العميقة للطيار الذي يقودها. ومن هذه الحقيقة المعروفة للجميع، وضحت في رأس الرائد طيار «سامح» الطريقة التي سيثار بها لصديقه الشهيد.

كانت طريقة الانتقام في غاية البساطة والجرأة في وقت واحد.. كان بين طياري التشكيل المصري الملازم طيار «عاطف».. ونفذ البطل «سامح» فكرته الجريئة بسرعة، وعلى الفور أصدر أمره لتلميذه لكي يأخذ

وضع الاستعداد اللازم.. ثم قام «سامح» بنفسه - وبمعاونة باقي طائرات التشكيل المصري - بالمناورات السريعة المحكمة، التي جعلت إحدى طائرات الفانتوم - في مرمى نيران الطيار الشاب «عاطف» الذي كان يتلقى توجيهات قائده، وينفذها بدقة، يسرت له أن يصيب صيده الثمين .

بالنسبة لإسرائيل، فقد كان ذلك اليوم بمثابة ناقوس الإنذار المدوي وانبته سلاحها الجوي إلى حقيقة الخطر الداهم، الذي يعنيه نجاح الطيار المصري المقاتل في إسقاط أحدث أنواع الطائرات.. ومن ثم قررت إسرائيل أن الطيار المصري قد تجاوز الحدود التي يجب إيقافه عندها حتى لا يفكر في الإقدام على مزيد من «الألعاب الخطرة».

وبدلاً من أن تعترف القيادة الإسرائيلية بالواقع الجديد اتجه قادة إسرائيل إلى تصعيد هجماتهم الجوية، مستفيدين من القدرات

الهجومية والقتالية التي تملكها «الفانتوم»، ولم تعد هذه القيادة المتفطرة إلى صوابها إلا خلال شهر يوليو 1970 عندما نجحت بطاريات الصواريخ المصرية «أرض/ جو» بالتعاون مع طائراتنا المقاتلة في إسقاط ست عشرة طائرة «فانتوم» - تمثل في ذلك التاريخ 25% مما كانت تملكه إسرائيل من هذا الطراز.. وساعتها فقط أيقن قادة سلاح الجو الإسرائيلي أن الأمر جد لا هزل فيه على الإطلاق..!!

في معركة 9 ديسمبر 1969 كان إسقاط الملازم طيار «عاطف» بمعاونة وتوجيه قائده - الرائد طيار «سامح» الذي قُدر له أن يُستشهد فيما بعد، ثمرة طبيعية للجهد الشاق والمخلص، الذي بذله جميع أفراد سلاح الجو المصري - منذ اجتاز مرحلتي «الصمود» و«الدفاع النشط» ليدخل في «حرب الاستنزاف» - كما أن هذا النهاية السعيدة - من

وجهة النظر المصرية - لواحدة من العمليات الجوية، التي طالما التحم فيها طيارونا مع خصومهم في قتال ضارٍ، لا رحمة فيه، كانت تفرض علينا مزيدًا من الجهد والتطوير، يشمل القوات الجوية كلها، لتحقيق مزيد من الارتفاع بكفاءتها القتالية دفاعًا وهجومًا - بحيث تكون جاهزة تمامًا، وعلى أعلى مستوى من الاستعداد، للحظة اللقاء الحاسمة.

كانت معركة 9 ديسمبر 1969، التي شهدتها سماء «رأس البر»، مؤشرًا قاطع الدلالة على أن الطيار المصري المقاتل، قد استوعب الدروس المستفادة من كل التجارب والمحن القاسية التي مر بها: بدءًا من درس النكسة عام 1967، إلى الدروس المستفادة.

لقد استفدنا في القوات الجوية من كل الخبرات والدروس إلى أن بلغنا مستوى من القدرة والكفاءة دفع الرئيس أنور السادات إلى أن يقول: «كنت في غرفة العمليات، وكنت

مندهشًا.. قائد سلاح الطيران يعرض على الجيوش أن لديه احتياطيًا من الطلعات مستعد وجاهز.. والجيوش بتقول: لا.. إحنا مكتفين.. والعادة اللي جرت في تاريخ العالم كله، أن الجيوش دائمًا تصرخ.. تصرخ للقوات الجوية.. وتصرخ طالبة النجدة من القوات الجوية، ما بتلاقيهاش، لا في الوقت، ولا بالكمية اللي هي عاوزاها».

بهذه العبارة الموجزة - العميقة المغزى - أعطى القائد الأعلى الرئيس محمد أنور السادات، صورة دقيقة الملامح، لموقف قواتنا الجوية.. خلال عمليات حرب أكتوبر 1973 - هذا الموقف الذي يسّر للسلاح الجوي المصري، أن يكون على أهبة الاستعداد الكامل لتقديم طلعات المعاونة الجوية لباقي أفرع قواتنا المسلحة المشتبكة في القتال على اختلاف نوعية وأهداف الطلعات التي تستوجبها حرب بالغة الشراسة - كحرب السادس من أكتوبر -



باعتبارها الحرب الإلكترونية الأولى في التاريخ وصولاً إلى هذه المرحلة، كان هناك تغيير واسع قد حدث، واستغرق تنفيذه سنوات الإعداد كلها تقريبًا.. لم يحدث حبًا في التغيير لذاته، وإنما لأنه كانت هناك خطط وأهداف وأسلوب لتحقيق هذا التغيير.

دون أدنى مبالغة أو مجاملة للنفس يمكن القول إن الأهداف التي سعى سلاح الجو المصري لتحقيقها في الفترة العصبية من 5 يونيو 67، إلى أكتوبر 73، تعتبر بأدق المقاييس العلمية في الفكر العسكري المعاصر معجزة عسكرية في كل ما عُرف قبلها، من عمليات إعادة بناء الأسلحة الجوية في العالم.

لقد واجهنا ظروفًا عصبية، وكمثال فإنه رغم الطول النسبي لعمر سلاح الجو المصري - بالقياس إلى سلاح الجو الإسرائيلي - فإن سلاحنا المصري ظل طوال سنوات الاحتلال البريطاني مجرد سلاح مظهري غير فعال؛ لأن

القيادة العسكرية البريطانية لم يكن من السهل عليها أن تسمح بوجود سلاح طيران مصري فعال ومؤثر يمكن أن يخلق لقواتها المعسكرة بمصر، متاعب لا حصر لها، عند حدوث أي صدام متوقع بين الوجود العسكري البريطاني على الأراضي المصرية، وبين الرغبة المشروعة لشعب مصر في تحرير بلاده وإرادته.

وقد عاش سلاحنا الجوي في سنوات الاحتلال، وهو مكبل اليدين، غير قادر على متابعة التطور السريع الذي بدأ يلعب دوره المؤثر في الطيران العسكري، مع بداية الحرب العالمية الثانية، وطوال معاركها الضارية، التي أكدت أهمية الطيران كسلاح بالغ الفعالية والتأثير في سير المعارك.

وظل الموقف المجمد، مسيطراً على السلاح الجوي المصري، حتى قيام ثورة 23 يوليو، وحتى عندما حاولت القيادة الثورية الجديدة، أن تحرر سلاحنا من القيود التي كبله بها

الوجود الاستعماري، اصطدمت بعقبات لا حصر لها، كان أبرزها مشكلة فتح أبواب جديدة تحصل منها قواتنا الجوية على حاجتها من العتاد، وهي المشكلة التي لم تُحل إلا بالقرار التاريخي بتنويع مصادر السلاح.

ولا بد أن التاريخ الحقيقي لمعارك الجولة الأولى من جولات الصراع «العربي - الإسرائيلي» - عام 1948 - قد سجّل بطولات مشرفة حققها سلاح الجو المصري، سواء في حمايته لقوات الجيش المصري، التي زحفت إلى فلسطين - في 15 مايو 1948 - أو في توجيه ضربات قاصمة للقوات العسكرية لجماعات «الهاجاناه» و«شتيرن» و«أرجون زفاي ليومي» - التي تحولت فيما بعد إلى الجيش النظامي لإسرائيل.. إلا أن هذه البطولات الجوية المصرية، لا تخرج من كونها بطولات فردية، حققها طيارون مصريون اعتمدوا على شجاعتهم ومهاراتهم الفردية، أكثر من

اعتمادهم على إمكانيات حقيقية في سلاح الجو المصري، سواء من حيث نوعية الطائرات الموجودة، أو تسليحها، أو خطط التدريب.

وفي الفترة الواقعة بين عام 1954، وعام 1956، حاول سلاح الجو المصري، أن يستفيد إلى أبعد مدى، وبأقصى سرعة ممكنة من القرارين التاريخيين، اللذين يمثلان البداية الحقيقية لوجود هذا السلاح، كقوة وطنية مؤثرة، وهما:

- اتفاقية جلاء القوات البريطانية عن مصر، التي تم توقيعها في 18 يونيو عام 1954.

- قرار تنويع مصادر السلاح، الذي اتخذته قيادة الثورة، باعتباره الحل الوحيد الذي ييسر تحقيق أحد الأهداف الستة للثورة بإقامة جيش وطني قوي.

كان سلاح الجو المصري - في تلك الفترة - يعمل بكل طاقته، وبعد أن تحررت إرادته، لاجتياز التخلف الذي فُرض عليه طوال سنوات الاحتلال.. وكان العمل يجري في كل قواعد ومطارات هذا السلاح لبناء قوات جوية عصرية حقيقية، سواء باستيعاب العتاد والسلاح الجديد، أو بوضع خطط التدريب السريع وتنفيذها؛ الأمر الذي كان من المحتم أن يصل بهذا السلاح إلى تحقيق أهدافه كاملة بمُضيِّ الوقت.

ثم جاءت الضربة الجوية المركزة، التي وقعت في بداية عدوان 1956 وأدت إلى عملية إجهاض كامل لسلاحنا الجوي المصري، قبل أن تكتمل قوة هذا السلاح ويصلب عوده. ومن جديد يقوم سلاح الجو الإسرائيلي صباح الاثنين 5 يونيو بتوجيه الضربة الجوية المركزة «طوق الحمامة» لتؤدي إلى ما أدت إليه من نتائج سبق حديثنا عنها بالتفصيل.

في مواجهة هذه الظروف المعاكسة، الواقعية والتاريخية، بالإضافة إلى ما أشرنا إليه من ظروف غير مواتية كانت موجودة على الجانب المصري نفسه - فقد كان على القيادة الجديدة لسلاح الجو المصري، التي تولت مسؤولية العمل بعد 5 يونيو، أن تضع في اعتبارها، أن واجبها الحقيقي، ليس مجرد إعادة بناء القوات الجوية من نقطة الصفر تقريبًا فحسب وإنما تحقيق هدفين أساسيين:

- الهدف الاستراتيجي سياسيًا ونفسيًا، هو عقدة نقص بالغة الخطر، التي كانت تهدد نفسية المواطن المصري - والإنسان العربي عمومًا - وهو يرى سلاح الجو المصري يُضرب على الأرض مرتين والمفروض فيه أن يكون درع الأمان الجوي الذي يتصدى لسلاح الجو الإسرائيلي بالردع والتأديب، باعتبار هذا

السلاح الجوي المصري جزءًا من القوة العربية الأولى.. القوات المسلحة لمصر، كبرى الشقيقات العربية.

ومؤدى هذا بلغة الواقع العملي، الذي يجب على قيادة الجو المصرية أن تصل إلى تحقيقه مهما كان الثمن، ومهما بلغت التضحيات، هو الارتفاع بالمقاييس التي يجري على ضوئها إعداد سلاح الجو المصري بحيث يتحول إلى سلاح غير قابل للهزيمة على الإطلاق - خصوصًا أمام العدو الإسرائيلي - وغير قابل لضربات الإجهاض الفادرة، التي تحطم أجنحة وهي راقدة على الأرض.

• من الهدف السياسي تحددت أمام القيادة الجوية المصرية، معالم الهدف العسكري بجميع مستوياته الاستراتيجية والتعبوية والتكتيكية - التي ينبغي الوصول بسلاح الجو المصري لتحقيقها،

ليكون على مستوى المسؤولية التي حملتها له جماهير الأمة العربية.

إن العبء الذي ألقته الظروف التاريخية على كاهل القيادة الجوية المصرية.. كان شديد الجسامه.. وتؤكد الصورة التقريبية العامة للواجبات والمهام الأساسية التي كان من المحتم على سلاحنا الجوي أن يعد نفسه للقيام بها بسرعة، لكي يصعد بقدراته - من نقطة الصفر التي كان مهددًا بالهبوط إليها عقب ضربة 5 يونيو إلى المستوى الذي يجب على القوات الجوية في أي مكان في العالم أن تحتفظ به، لتظل محتفظة بكيانها، وبموقعها المؤثر من القوات المسلحة التي تنتمي إليها، وبقدرته على القيام بهذه الواجبات:

1 - الردع الجوي للعدو: هذا الواجب يأتي في مقدمة المهام الأساسية لأي قوة جوية في العالم، وتزداد أهميته بتأثير الظروف



الخاصة بهذا السلاح نفسه، باعتباره تلقى ضربتين مركبتين في فترة زمنية قصيرة لا تسمح في الظروف العادية باستعادته للياقته القتالية استعادة كاملة.

كان من المحتم على سلاحنا الجوي أن يعمل على الارتفاع بقدراته القتالية والهجومية - على السواء - لكي يصل إلى المستوى الذي يمكنه من ردع العدو، وإلزام هذا العدو بالعودة إلى الحجم الحقيقي لقوته.

كما أن نجاح سلاح الجو المصري في الوصول بسرعة إلى هذه القدرة كان ضروريًا للمحافظة على سلامة البناء النفسي للمقاتل المصري في باقي أفرع القوات المسلحة، بعد أن أصيب هذا المقاتل بصدمة نفسية عنيفة.

2 - الاستطلاع الجوي لمسرح العمليات: ويعتبر هذا الواجب عمليًا من أخطر المهام التمهيديّة، التي تحتاجها القوات الجوية،

الخاصة بهذا السلاح نفسه، باعتباره تلقى ضربتين مركبتين في فترة زمنية قصيرة لا تسمح في الظروف العادية باستعادته للياقته القتالية استعادة كاملة.

كان من المحتم على سلاحنا الجوي أن يعمل على الارتفاع بقدراته القتالية والهجومية - على السواء - لكي يصل إلى المستوى الذي يمكنه من ردع العدو، وإلزام هذا العدو بالعودة إلى الحجم الحقيقي لقوته.

كما أن نجاح سلاح الجو المصري في الوصول بسرعة إلى هذه القدرة كان ضروريًا للمحافظة على سلامة البناء النفسي للمقاتل المصري في باقي أفرع القوات المسلحة، بعد أن أصيب هذا المقاتل بصدمة نفسية عنيفة.

2 - الاستطلاع الجوي لمسرح العمليات: ويعتبر هذا الواجب عمليًا من أخطر المهام التمهيديّة، التي تحتاجها القوات الجوية،

لتحدد على ضوء نتائجها، المهام القتالية -  
أو الهجومية - التي يتعين عليها القيام بها  
ضد العدو.

كما أن الجيوش الميدانية - بجميع أفرع  
الأسلحة البرية - وكذلك القوات البحرية،  
تعتبر في حاجة مستمرة - خصوصًا أثناء  
العمليات، أو الفترات السابقة على اشتعال  
الحرب، إلى هذه المعاونة الحيوية من  
جانب القوات الجوية، والتي يتم خلالها  
الاستطلاع الجوي الدقيق لمواقع العدو،  
وتجمعات قواته، وحركة هذه القوات  
واتجاه هذه الحركة، أو تمركزها ومواقع  
التمركز.. إلخ.

والأمر الذي لا شك فيه، أن العدو لا يقف ساكنًا  
أمام عمليات الاستطلاع الجوي، التي قد  
تؤدي بنتائجها المستقبلية إلى مخاطر  
يتعرض لها تفوق بكثير الدمار الذي تحدثه  
عمليات الهجوم الجوي المركز.

3 - مقاومة الاستطلاع المعادي: إن مقاومة هذا الاستطلاع الذي يحاول العدو الجوي القيام به فوق مواقع قواتنا، كان من المهام الأساسية لقواتنا الجوية، ورغم ما تملكه إسرائيل من طائرات استطلاع بالغة التطور، وتتمتع بأعلى مستوى من الإمكانيات الفنية في هذا المجال الحيوي، وسرعات هائلة، وقدرة غير محدودة على المناورة، فقد كان من المحتم على سلاح الجو المصري أن يتصدى لعمليات الاستطلاع المعادي، ويمنع العدو من القيام بها ويسعى بكل طاقته لإحباطها قبل أن تحقق أغراضها ضد مواقع قواتنا المسلحة.

4 - توفير الحماية الجوية للقوات المسلحة ضد الهجمات المعادية من طيران العدو، وكذلك توفير الحماية الجوية اللازمة للأهداف الحيوية للدولة بالتعاون مع قوات الدفاع الجوي ووسائله.

5 - صد هجمات العدو الجوي: خصوصًا التي توجه في ضربات مركزة تستهدف إجهاد الجهود الرئيس لقواتنا المسلحة، في فترات التحضير التي تقوم بها قواتنا استعدادًا للقيام بعمليات هجوم واسعة ضد العدو.

6 - الحصول على التفوق الجوي المحلي: يتم الوصول إلى هذا الهدف، بتوجيه ضربات قوية، ضد مطارات العدو، ووسائل دفاعه الجوي، ومركز قياداته، ومواقع التوجيه والإعاقة والشوشرة، ويحسن أن يتم توجيه هذه الضربات المركزة ضد العدو، قبل بدء الهجوم - عن طريق قتال طائرات العدو في الجو - فإن لم يتيسر هذا، يمكن تعديل الهدف إلى محاولة السيطرة الجوية فوق مسرح العمليات نفسها، ولو لفترات محدودة، تحتاج فيها القوات البرية لتوفير الأمن اللازم لها لكي تتقدم، وهي متمتعة

بالحماية، التي يوفرها الغطاء الجوي، الذي تقدمه طائرات السلاح الجوي بعد أن تسيطر - محليًا - على أرض العمليات البرية.

7 - إسكات مدفعية العدو: في كثير من الأحيان، يتعرض المجهود الرئيس للقوات المشتبكة في القتال، للإحباط الشديد، الذي يهدد القوات الزاحفة بالتوقف، ثم الارتداد إلى الوراء بعنف يمزق تماسك هذه القوات، بسبب ضراوة التياران التي تصبها فوقها مدفعية الميدان البعيدة المدى التي يملكها العدو.

هنا لا بد للطيران من التدخل السريع، لإسكات هذه المدفعية الضارية، بدك بطارياتها، وتدمير مراكز السيطرة والتوجيه التي تتحكم في عملياتها الجهنمية، ورغم المخاطر العديدة التي تتعرض لها القوات الجوية - في قيامها بهذا الواجب - فإن تقصيرها في أدائه على الوجه الأكمل، قد

يؤدي إلى كارثة محققة، يمكن أن تهدد  
المجهود الرئيس للجيش الزاحفة بالتوقف  
ثم الارتداد.

8 - توجيه المعاونة: والحماية الجوية  
للجيش الميدانية بكل صور المعاونة التي  
تتطلبها العمليات.

وكذلك تقديم المعاونة والحماية للقوات  
البحرية، سواء ضد طيران العدو، أو ضد  
قوات العدو البحرية، التي قد تتصدى  
لمقاومة بحريتنا أثناء قيامها بمهامها  
وواجباتها الحربية.

9 - عمليات الإبرار: وهي من أحدث الواجبات  
والمهام التي أقيمت على كاهل السلاح  
الجوي في الحرب الحديثة، وتتم بطائرات  
النقل -المخصصة لنقل الجنود والمعدات-  
وطائرات الهليكوبتر التي تتولى نقل قوات  
المظلات والصاعقة، وجماعات الاستطلاع  
الجوي، وإسقاطهم خلف خطوط العدو.

يؤدي إلى كارثة محققة، يمكن أن تهدد  
المجهود الرئيس للجيش الزاحفة بالتوقف  
ثم الارتداد.

8 - توجيه المعاونة: والحماية الجوية  
للجيش الميدانية بكل صور المعاونة التي  
تتطلبها العمليات.

وكذلك تقديم المعاونة والحماية للقوات  
البحرية، سواء ضد طيران العدو، أو ضد  
قوات العدو البحرية، التي قد تتصدى  
لمقاومة بحريتنا أثناء قيامها بمهامها  
وواجباتها الحربية.

9 - عمليات الإبرار: وهي من أحدث الواجبات  
والمهام التي أقيمت على كاهل السلاح  
الجوي في الحرب الحديثة، وتتم بطائرات  
النقل -المخصصة لنقل الجنود والمعدات-  
وطائرات الهليكوبتر التي تتولى نقل قوات  
المظلات والصاعقة، وجماعات الاستطلاع  
الجوي، وإسقاطهم خلف خطوط العدو.



10 - منع الإبرار المعادي: وهو من أهم الواجبات التي يسهم بها سلاح الجو في تأمين الخطوط الخلفية لقواتنا، وحماية أهدافنا الحيوية، من عمليات الإبرار الجوي - أو البحري المعادي - ويتم أداء القوات الجوية لهذا الواجب، بتدمير القوات التي وجهها العدو للقيام بالإبرار، ويحسن بطبيعة الحال أن يتم تدمير هذه القوات المعادية، وهي لا تزال في الجو أو البحر - وقبل أن تنجح في الاقتراب من الأهداف المحددة لها.

11 - عمليات الإمداد والإخلاء: تتم بإمداد القوات المشتركة في العمليات - برًا أو بحرًا - خصوصًا في الأحوال التي لا تسمح للإمدادات والمؤن، بأن تصل إليها بالطرق العادية، وإلى جانب الإمداد والتموين، يتحتم على القوات الجوية أن تقوم بعمليات إخلاء الخسائر، سواء في الأفراد،

أو في المعدات، ونقل الجرحى إلى مستشفيات في الخطوط الخلفية والعودة بالمعدات المعطلة إلى ورش الصيانة لإصلاحها، والعودة بها إلى الخطوط الأمامية مرة ثانية، إذا اقتضى الموقف العسكري نقل هذه المعدات بسرعة لا يوفرها سوى الطيران.

12 - توجيه الضربات الجوية المركزة: سواء ضد الأهداف الاستراتيجية للعدو، أو المواقع التعبوية المعادية، أو ضد الأهداف المؤثرة في المجهود الجوي الرئيس للعدو، التي توجد في العمق. كما تقوم القوات الجوية أيضًا - في مجال القصف المركز - بضرب تجمعات سفن العدو بمختلف أنواعها، متعاونة في هذا مع القوات البحرية وقوات الدفاع الجوي.

13 - تحطيم معنويات العدو: بالقيام بعمليات تدمير أفقية شاملة، تؤدي إلى تحطيم

معنويات العدو، وإشاعة الذعر في نفوس أفراد، والانتقال بهذا التدمير الشامل من مسرح العمليات إلى العمق الداخلي للأراضي التي يسيطر عليها العدو، بهدف إحداث انهيار كامل في جبهته الداخلية، يؤدي بالضرورة إلى تفكك جبهته العسكرية، ثم سحق قوات العدو الموجودة في مسرح العمليات سحقًا شاملاً.. ولكن.. بشرط أن يكون العدو قد قرر استخدام هذا الأسلوب الأفقي في التدمير الشامل، ضد جبهتنا - العسكرية والمدنية - وأن يكون قراره هذا قد انتقل من مرحلة «التفكير» إلى المقدمات العملية للتنفيذ التي تقطع بأن العدو يستحق من سلاحنا الجوي أن يتعامل معه - كما قال الرئيس السادات، على أساس المعاملة بالمثل، وأن «العمق بالعمق.. والنا بالم بالنا بالم».

هذا هو مدى الشمول والاتساع والتنوع في الواجبات التي كان على سلاحنا الجوي أن يعد نفسه للقيام بها وبسرعة قياسية.. هذه الواجبات الأساسية لسلاح الجو كانت تقتضى تحركاً على المحاور الرئيسة.. أفراداً وقادة.. وبجهد متوازٍ.. بحيث كانت لحظة الوصول النهائية لكل هذه المحاور، هي لحظة النصر العظيم للجميع، في الساعة «205» الثانية وخمس دقائق من بعد ظهر 6 أكتوبر 1973.

”... السلاح بالرجل  
 وليس الرجل  
 بالسلاح.. وفق هذا  
 المبدأ دربنا المقاتل  
 المصري الذي تم  
 تطوير «عقيدة  
 قتاله».. فهو لا  
 يقاتل رغبة في  
 العدوان.. بل لصد  
 العدوان عن أرضه  
 وعرضه.. وهو

مقاتل مؤمن جزاؤه  
الحقيقي النصر على  
عدوه وردعه عن  
العدوان..“

## محاور النصر

الحرب ليست قصة مسلية، إن النتيجة الأخيرة لها - نصرًا كانت أو هزيمة - تكون قد عبرت بالعديد من التفاصيل المعقدة.. التي إذا تحققت بدقة وعلمية حصل المقاتل على ما يستحق من نصر، والعكس صحيح. وفي طريقنا إلى نصر أكتوبر، وإلى تنفيذ الضربة الجوية التي وهبت النصر لمصر والعرب، لم يكن هذا عملاً يسيرًا.. بل مجهدًا وصعبًا وتحيطه تفاصيل وعوامل مختلفة.

حين تخرج الطائرة المقاتلة إلى السماء لكي تهاجم أو تقاتل دفاعًا لا يكون هذا مجرد قرار بسيط، بل تسبقه عشرات من العمليات والاستعدادات العلمية والعسكرية، لا يقتصر على تدريب المقاتلين وتجهيز الطائرات.. بل يمتد إلى بناء المطارات والتجهيزات الإدارية

المعقدة وعمليات الاستطلاع والاتصالات التي لا يدري بها الكثيرون.. وفي سنوات الاستعداد لنصر أكتوبر 1973 كان أن قمنا في سلاح الجو بعملية معقدة لا بد من إطلاع المصريين على خطوطها العريضة حتى لو بدت غير مسلية وتخلو من الطرافة.. فهي تعبر عن جهد عظيم.

بينما أروي تفاصيل هذه الملحمة، أجد نفسي مقيدًا بعوامل السرية التي تفرض عليّ كقائد يحفظ أسرار عمله والقوات التي قادها ألا أكشف ما قد يسبب لها أي مسالب أو أضرار. وفي ضوء ذلك فإنني أسعى إلى أن أحقق مهمتين.. الأولى هي وجوب أن يطلع المواطن المصري والعربي على أبعاد تلك العملية التاريخية التي حقق من خلالها جيشه هذا النصر العظيم.. وفي ذات الوقت الحفاظ على أسرار هذا النصر حتى لا يستفيد منه عدو.



فيما سبق ذكرت أنه كان على القوات الجوية أن تتحرك فوق مجموعة من المحاور المتوازية، لكي تصل إلى المستوى الذي يجعل منها سلاحًا جويًا غير قابل للهزيمة أمام عدوه الإسرائيلي، وغير قابل لتلقي ضربات الإجهاض لطائراته الجاثمة على الأرض.. وأن يتحول في النهاية إلى سلاح يملك ناصية المبادرة، ويملك القدرة على المنافسة، بل يتجاوزها سعيًا إلى انتزاع السيادة الجوية.

ولم تكن عملية الانتقال بالسلاح الجوي من التقليدية إلى التجديد القائم على الاستفادة الواعية من كل معطيات العلم في مجال الحرب الجوية مستحيلة، لكنها كانت أمرًا بالغ الصعوبة، متعدد المراحل. وقد بدأنا على الفور باقتحام المرحلة الأولى.. وهي تحديد المحاور الرئيسية التي سنتحرك عليها طوال تلك العملية المضنية.

كان القائد العسكري الفرنسي نابليون بونابرت يردد دائماً: «إن ثلاثة أرباع النصر في المعركة تتوقف على العوامل المعنوية». وكان الفيلد مارشال مونجمري القائد العسكري البريطاني الأشهر يقول: «إني أعتبر الروح المعنوية هي العامل الكبير والوحيد في الحرب.. وبدون روح معنوية عالية، لا يمكن أن يتحقق أي نجاح، مهما كانت هناك خطط استراتيجية وتعبوية جيدة».

من «الروح المعنوية» يتأسس مبدأ «سلامة العقيدة القتالية» الذي يتجسد بشكل عملي في «ارتفاع الكفاءة النفسية للمقاتل» - كما يسميه المتخصصون في علم النفس الحربي.. أو ما يطلقون عليه عادة «ارتفاع الروح المعنوية لدى المقاتلين».

هذه الروح، أو الكفاءة النفسية لدى المقاتل، تتوقف سلامتها وارتفاع مستواها بالدرجة الأولى على سلامة العقيدة القتالية، التي

تغرس في عقل المقاتل ووجدانه. وقد أثبتت التجارب العملية - على أرض المعارك - أهميتها، لا لإحراز النصر فحسب، بل لبقاء المقاتل متماسكاً، وقادرًا على مواجهة خصمه، والتصدي له بالمقاومة، حتى في أحلك الساعات، وفي ظل الظروف غير المواتية التي قد يتعرض لها .

إن المقاتل المصري الذي تعرض للهزيمة في يوم 5 يونيو هو نفسه المقاتل الذي حقق النصر الساحق في يوم 6 أكتوبر بعد ست سنوات. والسؤال الملح هو: كيف صعد المقاتل المصري من قاع الهزيمة.. ليرتقي إلى قمة النصر.. مع أنه نفس المقاتل، وكان يحمل نفس السلاح «الروسي» تقريبًا؟ ما السر في هذا التغيير الجذري، في قدرة هذا المقاتل التي أبدأها بشكل معجز على مسرح العمليات - سواء في العمليات القتالية أو الهجومية -

وبمستوى عالٍ من الكفاءة النفسية والكفاءة القتالية؟

لقد اندفع العدو بجنون، لمحاولة الوقوف على سر التركيب الكيميائي لـ «حبوب الشجاعة» التي افترضوا - تحت وطأة الهزيمة الصاعقة التي هبطت على رؤوسهم ساعة العبور، وما تلاها من معارك ضارية - أنها التفسير الوحيد، في تصورهم لما أبداه المقاتل المصري من صلابة في القتال، وشجاعة نادرة المثال، وفهم جيد لإمكانيات السلاح الذي بين يديه، ومقدرة منقطعة النظير على التحكم في هذا السلاح، وحسن توجيهه إلى صدر الخصم.

وإذا كان هناك من سر، غير كيميائي بالتأكيد، فإن مكمنه هو إيمان المقاتل المصري مع قيادته الجديدة بأن «السلاح بالرجل».. وليس الرجل بالسلاح. من هذا الإيمان الأساسي استمد المقاتل المصري المكونات السليمة لعقيدته القتالية الجديدة، التي وصلت به إلى

مستوى من ارتفاع الكفاءة النفسية والقتالية،  
أذهل الخصم، وجعله يبحث عن سر «حبوب  
الشجاعة» التي يتعاطاها هذا المقاتل المصري  
الجديد.

هذا التحول المهم في شخصية «المقاتل  
المصري» - الذي بهر العالم بعد 6 أكتوبر - لم  
يتم بين يوم وليلة، ولم تتسبب فيه عصا  
سحرية.. لكنه تحول نتج عن دراسة جادة،  
عنيت بها القيادة المصرية الجديدة، في جميع  
أفرع القوات المسلحة - بما في ذلك سلاح  
الطيران.. وقد اتضح من نتيجة هذه الدراسة  
بعد 5 يونيو 1967 أن عنصر «القوى  
المعنوية» لم يكن يلقي الاهتمام الكافي، وأن  
مفهوم كلمة «القوى» كان - مع بالغ الأسف -  
مقصورًا عند بعض المستويات القيادية العليا،  
على التسليح كمًّا وكيفًا، وما عدا هذا المفهوم  
«المادي» البحث لكلمة «قوى» لم يكن يلقي

الاهتمام الحقيقي اللائق به في الفكر العسكري الحديث.

الظاهرة الأخرى التي أثبتتها الدراسات، في مجال «القوى المعنوية» وتأثيرها على نفسية المقاتل، قبل وأثناء وبعد العمليات، هي أن المختصين بهذه القوى المعنوية.. كانوا يتجهون بخطتهم إلى الاكتفاء بإدخال السرور عن طريق حفلات الترفيه وتوزيع الحلوى والسجائر الإضافية على الضباط والجنود.

في مجال القوات الجوية بالذات تبين أن نظرة المقاتل الجوي إلى نفسه - بالمقارنة إلى عدوه - كانت تقوم على حسابات وهمية غير دقيقة، ومعلومات زائفة تهون من قدر العدو، بنفس القدر الذي تضخم به من إحساس المقاتل المصري بذاته بشكل مبالغ فيه، ظهرت خطورته الحقيقية عندما وقعت الضربة الإسرائيلية المركزة على مطاراتنا، صباح 5 يونيو، فإذا بنتائجها التدميرية الواسعة، تضع

المقاتل الجوي المصري في تناقض خطير بين ما كان يقال عن عدوه الجوي، وبين ما يشاهده بنفسه من آثار الدمار الذي ألحقه هذا الخصم بمطاراتنا وقواعدنا الجوية.

وقد كان هذا التناقض الذي خلقناه بأنفسنا كفيلاً بأن يقضي تمامًا على نفسية المقاتل الجوي المصري، عندما اكتشف بنفسه أنه كان ضحية لمجموعة من الأوهام الزائفة، طوال الفترة التي سبقت لقاءه المباشر مع العدو - ذلك اللقاء الذي تم من طرف واحد تقريبًا، في الساعات الأولى من صباح الاثنين الخامس من يونيو.

لقد رفض الطيار المصري المقاتل الاستسلام لدواعي هذا التناقض - الذي وقع فيه وقتها - واستطاع أن يستعيد توازنه النفسي بسرعة غير عادية.. وقد مكن هذا الكثير من طيارينا المقاتلين من القيام بالعديد من الطلعات الجوية - ما بين قتالية وهجومية - والإقلاع

بطائراتهم، من مطارات دمر العدو معظم ممراتها ومنشآتها المعاونة.

ومن المهم الانتباه إلى أن قيادة الجو الجديدة لم تتخذ بهذه الصلابة التي أبدأها طيارونا المقاتلون - بدافع من فطرتهم السوية كمصريين أصلاء.. بل إن هذه القيادة اعتبرت ما أبدأه الطيار المقاتل من قدرة خارقة على استعادة توازنه النفسي بهذه السرعة حافزًا قويًا، يدعوها إلى إعادة التخطيط لعملية الإعداد النفسي لهذا الطيار الشجاع، لكي تصل به إلى تكوين «العقيدة القتالية» على أسس علمية سليمة تقوم على أحدث ما وصل إليه الفكر العسكري الحديث من مبادئ ونظريات في مجال تنمية الكفاءة النفسية للمقاتل.

وكان الهدف هو الارتفاع بتلك الكفاءة إلى المستوى الذي يوفر له الحصانة المعنوية التي تحميه من أي صدمة نفسية قد يتعرض لها أثناء سير العمليات بحيث تكون المحصلة



النهائية هي: مقاتلاً كفوًّا - من الناحيتين العسكرية والنفسية.. وعقيدة قتالية واضحة وراسخة الأسس، وبعدها.. فالويل للعدو الذي يوقعه حظه السيئ في براثن هذا المقاتل الصلب.

ولم تكن المهمة الجديدة سهلة بأي حال من الأحوال، فقد كان على الجهاز الجديد، الذي مسؤليته الإعداد المعنوي للمقاتل الجوي، أن يضع خطته على أسس مدروسة، وأن ينفذها بأسلوب عملي، لا يقتصر على التوجيهات المكتوبة في نشرات التوجيه المعنوي التقليدية.. بل تنوع أسلوب «الجهاز الجديد» فشم كل وسائل الاتصال الجماهيري - المعترف بها في فلسفة الإعلام الحديث - كالهوايات، والتدريب، والترفيه، ونشر المعلومات.

كانت هذه الوسائل جميعها، تتحرك في تعاملها مع المقاتل، مستهدفة تزويده بألوان

من المعرفة، التي يمثل كل منها عنصراً أساسياً من مكونات «العقيدة القتالية السليمة»، بحيث تعيد بناء هذا المقاتل نفسياً على أساس صلب. وكانت هذه العناصر تتناول على سبيل المثال:

- **ذات المقاتل:** وشخصيته نفسها، باعتباره مواطناً مصرياً، ووارثاً لحضارة بالغة الأصالة. وكانت خطة «الإعداد المعنوي» تأخذ بيد المقاتل برفق - يتكافأ مع إمكانياته الفكرية والثقافية - وتصحبه في إطلالة واعية عبر تاريخ مصر العريق.. ابتداء من «أول مصري» وخذ تراب الأرض المصرية ومروراً بالمصريين الأبطال، الذين ضحوا بأرواحهم، ليحفظوا للتراب المصري طهارته ونقاؤه، ويخلصوه من الدنس الذي تجره عليه خطوات المغامرين - من

هكسوس، وتتار، وصلبيين - وغيرهم من الغزاة الذين تصدى لهم المقاتل المصري طوال عصور التاريخ القديم والوسيط والحديث، وصمد لهم، مدافعًا عن ترابه المصري، وانتمائه العربي.

● **حقيقة العدو:** وهذا المجال شائك، تتحرك عليه كل أجهزة الإعداد المعنوي في العالم بحرج بالغ، لتفادي الوقوع في أخطاء بسيطة، قد تكون لها نتائج مهلكة ومدمرة لنفسية المقاتل.. ولذا كان على خطة الإعداد المعنوي أن تعطي المقاتل المصري صورة واقعية - دون تهوين أو تهويل - لحقيقة القدرات القتالية التي يتمتع بها العدو، مع رد هذه القدرات إلى أسبابها الحقيقية، من التدريب المستمر، والعتاد الحديث الذي يملكه هذا العدو.. وما تتطلبه المواجهة معه من استعداد كامل بالتدريب الجيد، والاستيعاب التام

لأسلحتنا، بحيث تعطينا هذه الأسلحة  
أقصى ما تملكه من طاقات تدميرية.

من جانب آخر كان على التجهيز المعنوي  
التعامل مع العدو من حيث هو كائن بشري، ذو  
مواصفات ومكونات نفسية خاصة، وتحكمه  
عقد نقص معينة، تجعل منه كائنًا مشوهًا من  
الداخل، ومدمرًا من الواجهة النفسية، بسبب  
مركبات النقص التي توارثها عن الأجداد  
القدماء.. وكيف أنها تحولت عند الأجيال  
المعاصرة إلى نوع من جنون العظمة  
والاستعلاء، والرغبة المنحرفة في استعباد  
الآخرين، وإذلالهم.

من هذه المعرفة الضرورية استمد المقاتل  
إصرارًا لا حدود له، في تعامله مع العدو  
الإسرائيلي، الذي يجب أن يقهر على أرض  
المعركة - أو في سمائها - حتى يعود إلى

حجمه الطبيعي من الوجة النفسية، عندما يذيقه المقاتل المصري طعم الهزيمة.

### • الثقة بالنفس: ويعتمد هذا العنصر

على الوصول بالمقاتل الجوي، عن طريق التدريب الجيد المستمر، الذي يقنعه شخصيًا بأنه قد وصل إلى أرقى المستويات في استيعاب سلاحه، والقدرة على استخدامه والتحكم فيه. ومن هذا الإحساس الحيوي يستمد المقاتل الجوي القدرة على احتمال أهوال المعركة ومشاقها، بنفس راضية، يزيدها رضى ما يشعر به من أمن ورعاية يحيطه بهما قاداته في مسرح العمليات، واطمئنانه إلى الضمانات الاجتماعية التي توفرها عائلته الكبيرة - شعب مصر - لعائلته الصغيرة أثناء قيامه بأداء واجبه القومي في سماء المعركة.

● **فنون القتال:** قد يتصور البعض أن أي كلام عن حرفية القتال الجوي وفنونه يعتبر خارجًا عن المجال الصحيح الذي يجب أن تتحرك فيه أجهزة «إعداد القوى المعنوية للمقاتل».. ولكن الخطة الجديدة التي نفذت بالفعل - في مجال القوات الجوية - كانت تعتبر إمداد المقاتل الجوي بكل ما هو جديد في مجاله وفنونه المختلفة، أمرًا بالغ الأهمية، وعن طريقه يمكن تزويد الطيار المقاتل - وجميع أفراد القوات الجوية على مختلف مستوياتهم وتخصصاتهم - بسبل متجدد من المعرفة، تيسر لهم الاستعداد الكامل لمواجهة العدو، وكان أطرف ما في هذا الأسلوب - من أساليب الإعداد المعنوي - أن فرد القوات الجوية، كان يقبل ما تقدمه له أجهزة الإعداد المعنوي من معلومات مستحدثة بروح

القارئ العادي - الذي يرفه عن نفسه بعيدًا عن مجال التخصص والعمل.

- **عقيدة القتال:** كان على خطة الإعداد المعنوي، لكي تحكم إعداد المقاتل الجوي المصري من الواجهة النفسية إعدادًا سليماً أن تمزج - داخل نفسية هذا المقاتل - بين أمرين:

**الأول:** أنه لا يقاتل حين يقاتل رغبة في العدوان، بل يخوض أهوال الحرب، لصد العدوان عن أرضه وعرضه، فهو مقاتل، وليس قاتلاً مأجوراً.

**والثاني:** أن الجزاء الحقيقي الذي ينتظر المقاتل المؤمن هو النصر على عدوه، وردعه عن العدوان.. أو الاستشهاد في سبيل الوطن، وفي سبيل الحق، والقيم الشريفة التي يمثلها هذا المقاتل المؤمن بربه ووطنه وبكل ما هو حق وعدل.. فهو فائز بالنصر أو الشهادة.

وكانت النتيجة الرائعة هي نقطة الوصول على المحور الأول.. في عملية البناء الكبير لقواتنا الجوية.

وصدق العالم أجمع ما أراد المقاتل المصري أن يقوله ببساطة، من أن «السلاح بالرجل».. وليس الرجل بالسلاح.

وكما استشهدت من قبل باقتباس نقلًا عن الفيلد ماريشال مونجمري، أعود إليه مجددًا وأنا أنتقل لمحور التحرك الثاني.. إذ كتب مقالًا عن معركة العلمين قال فيه: «إن الجيش جهاز مقاتل، يسيطر عليه قاداته، ويصهره النظام، ولكن.. يشكله ويطوره التدريب».

لقد اعتبرت قيادة الجو المصرية الجديدة أن «الإعداد المعنوي» للمقاتل المصري، هو «المحور الأول» في تحركها على طريق الإعداد للنصر.. ولكن هذا الإعداد المعنوي وتكوين «العقيدة القتالية» الناضجة والمتكاملة ليس كافيًا لخلق المقاتل القادر على



مواجهة خصمه في مسرح العمليات، بل إن الانتصار عبر «الإعداد المعنوي» - وحده - قد يعرض المقاتل لمخاطر الإصابة بمركب «العظمة» وتضخم الإحساس بالذات، دون أن يملك هذا المقاتل أسرار الفن العسكري، ويتمكن من إجادة الأساليب القتالية إجادة تامة، تجعله على المستوى العملي فردًا قويًا لخصمه، وتحقق لدى هذا المقاتل التوازن المطلوب، بين ارتفاع كفاءته النفسية، والارتفاع في كفاءته القتالية.

لقد تم تعيين الرؤساء المناسبين والمسلحين بالتخصصات المتقدمة في أفرع التدريب المختلفة، لإعداد الخطط الجيدة للتدريب القتالي، على أسس واقعية.. وقد روعيت فيها المواقف والظروف المحيطة بالقوات الجوية، واستخدام جميع الوسائل الممكنة، لخلق الأجواء المشابهة لظروف المعركة الحقيقية - ليلاً ونهارًا، مع تحديد المهام، وتلقينها بكل

دقة، حتى يتمرس الرجال على تنفيذها، بالتسلسل الواقعي، عندما تبدأ العمليات الفعلية.

إن الانتقال بالمقاتل الحديث من العمليات والمشروعات التدريبية إلى العمليات القتالية الحقيقية، في اللحظة التي يثق القائد فيها أن رجاله قد استوعبوا تمامًا كل ما أراد أن يلقنهم إياه - أثناء التدريب - هو صمام الأمان الحقيقي ضد الخطأ، أو الارتجال أثناء المعركة، في وقت لا تسمح فيه نار العدو بالخطأ أو الارتجال.

والقائد الذي لا يعرف لنفسه ولرجالها طريقًا غير النصر، ولا يرضى بغير الهزيمة للعدو، يتحتم عليه أن ينطلق إلى مسرح العمليات الحربية من نقطتين أساسيتين - لا بد أن يكون مطمئنًا تمامًا إلى توافرها بين رجاله - وهما: الكفاءة النفسية، والكفاءة القتالية. يقول مونتهجري مجددًا: «عندما تسلمت قيادة

الجيش الثامن، وجدت أن مستوى القيادة والضبط والمعنويات كان جيدًا، إلا أن التدريب كان رديئًا، لذلك صرفت كل جهودي - قبل المعركة - لتدريب الجيش، وإعداده لخوضها بنجاح، ولما تأكدت من متانة التدريب خضت المعركة، وحقت النصر».

وقد استطاع الطيار المصري المقاتل - وإخوانه من العاملين بمختلف تخصصات الحرب الجوية - أن يستفيدوا من خطط التدريب الجيد التي هيأتها لهم القيادة على أوسع نطاق، وصولاً لتحقيق الأهداف التالية:

- رفع الكفاءة القتالية للقوات الجوية، إلى المستوى الذي يعطيها القدرة على الاشتراك مع باقي أفرع القوات المسلحة في عملياتها القتالية ضد العدو بنجاح كامل، يؤكد القدرة على تحقيق أعلى مستويات الاستراتيجية في الفكر

العسكري المعاصر، وهو التكامل المؤثر بين الأسلحة المختلفة بصورة تؤدي في النهاية إلى تدمير العدو على مسرح العمليات - برية كانت أو بحرية أو جوية - ثم.. استسلام هذا العدو للهدف الاستراتيجي الأكبر، باحترام الإرادة الوطنية التي تمثلها قواتنا المسلحة، والقبول بالمنطق العادل لهذه الإرادة المصرية.

من أجل تحقيق هذا الهدف الاستراتيجي الموسع، كان لا بد لخطط التدريب أن تحلل الخبرات المكتسبة، بالصواب والخطأ، والدروس المستفادة من ضربة 5 يونيو.. ومن ثم إعداد وتنفيذ الدورات النظرية العاجلة لرفع المستوى العلمي للضباط والأفراد في مختلف التخصصات.. وإلى جانب ذلك توحيد الأسلوب

القتالي لدى التشكيلات على اختلاف أنواعها وأهدافها.

وشملت عمليات التدريب تنسيق التعاون بالتدريب المشترك بين التشكيلات الجوية المختلفة، وزيادة المشروعات المشتركة التي تمثل مهام العمليات الحقيقية، مع كل من: القوات البرية والبحرية وقوات الدفاع الجوي. لقد ركزنا بكثافة على خطط التدريب لعمليات القتال الجوي - بجميع أنواعه - وفي مختلف الارتفاعات، والظروف الجوية المتباينة، وإجراء الرماية في ميادين تكتيكية، والتصويب على أهداف هيكلية، تشبه الأهداف الحقيقية لدى العدو.

وكنا نصدر المراجع والنشرات والوثائق، والدراسات العلمية التي نقوم بتحليل لأسباب حوادث الطائرات - والمخاطر التي تتعرض لها في مختلف الظروف - ودراسة هذه الأسباب، للخروج منها بالدروس المستفادة، التي تأخذ

شكل تعليمات وأوامر مستديمة لتخفيض نسبة الحوادث على الجانب المصري، إذا تعرضت طائراته لنفس الظروف التي تمت حولها الدراسة.

وأعدنا الطيارين والملاحين والموجهين، والفنيين والأطقم الأرضية بأساليب متكاملة.. تمكنهم من استخدام الأساليب الفنية الحديثة، والوصول بهم إلى المستوى العلمي، الذي يسمح لهم بالتعامل مع أحدث الآلات وأكثر أنواع الطائرات تعقيدًا، وفي مختلف الظروف القتالية، والأحوال الجوية المتباينة، وفي مختلف الارتفاعات والسرعات.

دربنا التخصصات الفنية المختلفة العاملة في مجال الاتصالات والإصلاح الهندسي للطائرات والملاحة الجوية، والاستطلاع والتصوير الجوي وتفسير وقراءة الصور الجوية، وتشغيل المعدات الفنية الخاصة التي تكمل عمل الطائرة.

ودربنا الطيارين على عمليات الاعتراض والتوجيه في مختلف الأجواء والظروف.. ولم يكن هذا سهلاً بدون إعداد جيل من الطيارين والملاحين والمراقبين الجويين، على جانب كبير من الخبرة في توجيه المقاتلات لاعتراض الطائرات المعادية، خصوصاً تحت ظروف التداخل الإلكتروني المعادي.

ودربنا الطيارين على الهبوط والإقلاع من جميع المطارات والممرات، عن طريق إعادة تمركز الأسلوب في أدوار متلاحقة بين جميع القواعد والمطارات في أنحاء الجمهورية. وبذلك اكتسب الطيارون والملاحون والمهندسون والفنيون خبرة العمل فوق مختلف الأراضي وفي مختلف الأجواء.

وامتدت عمليات التأهيل إلى تدريب الطيارين، وهم في مناوبة حالة الاستعداد الأولى، على الإقلاع في وقت غاية في القصر، ما أدى إلى الوصول إلى أرقام قياسية عالية

في الاستعداد القتالي داخل التشكيلات والوحدات الجوية.

بعد ست سنوات من هذه التدريبات المكثفة، في مختلف المستويات والمجالات، كان أن حققنا كثيرًا من الأرقام القياسية.. وأمثلة هذا الإنجاز عديدة. فقد حقق كثير من الطيارين بين «6» و«7» طلعات طائرة في اليوم، محطمين بذلك الرقم القياسي العالمي وهو «4» طلعات يومية. وقد دامت بعض الاشتباكات الجوية، خصوصًا تلك التي تركزت حول بورسعيد خلال حرب أكتوبر، ما يقرب من «50» دقيقة.. رغم أن الزمن التقليدي لأي اشتباك جوي لا يتعدى من «7» إلى «10» دقائق، وكان السبب الرئيس هو تعدد الطائرات المعادية بكثافة بلغت في بعض الاشتباكات «70» طائرة في وقت واحد. وقد صمدت الطائرات المصرية في هذه الاشتباكات لتوافر الوقود في خزاناتها الأصلية والاحتياطية،



فضلاً عن أن هذه الاشتباكات كانت تتم فوق مناطق قريبة من مطاراتها.

ومن بين الإنجازات أنه لم يتعطل مطار واحد خلال فترة العمليات أكثر من «4» ساعات، رغم تعدد مرات قصفه بالقنابل، لسرعة مبادرة مهندسي المطارات في عملية إصلاح الممرات. وانخفض الزمن اللازم لإعادة ملء الطائرة الواحدة بالوقود والذخيرة إلى «6» دقائق.. وكان الرقم القياسي الذي تشدقت به إسرائيل في حرب 1967 هو «8» دقائق.

وكان تدمير الدبابة الواحدة في جداول التدمير النظرية يستلزم من «2» إلى «3» هجمات طائرة.. غير أن طياري المقاتلات القاذفة المصريين حققوا إمكانية تدمير أكثر من دبابة بهجمة طائرة واحدة.

ومن المثير للفخر أن حقق المهندسون والفنيون والميكانيكيون بالقوات الجوية

المصرية الوقت الأمثل في سرعة إصلاح أعطال الطائرات.. إن الإصلاح الذي يستلزم أسبوعًا، يتم خلال ساعات تحت ظروف المعركة، بالإصرار على العمل المتواصل مع التخلي عن الوسائل النمطية في الإصلاح واستخدام مواد بديلة للصق بدلًا من اللحام والبرشام.

وقد وصل زمن إقلاع طائرات حالات الاستعداد الأولى وهي في دشمها إلى دقيقة ونصف الدقيقة، وتحقق إقلاع أعداد كبيرة من المقاتلات بعد وصول الإنذار في أقل من الوقت المتوقع.. وهو «8» طائرات في «90» ثانية ومن مطار واحد.

لقد ذكرت مرارًا من قبل أن هناك مبدأ معروفًا في العلوم العسكرية.. هو « إن لدى العدو دائماً ما يخفيه».. وهنا أكرره مؤكداً على أن محور الإعداد المعنوي، والتدريب، لا

يكفيان أبدًا لكي يكون لدينا مقاتل قادر على تحقيق النصر.

إن أي قائد يحترم نفسه ويحب رجاله، ويقدر الأمانة الملقاة على عاتقه، أمام مسؤولية خطيرة، لا بد من الوفاء بها مهما كلفته من تضحيات، وهي محاولة الوصول - في السر كلما أمكن - إلى ما يخفيه العدو، والتعرف على ما يخبئه خصمه من مفاجآت سيطرحها على مسرح العمليات، لكي يستطيع هذا القائد، أن يعد العدة التي تحمي خطته ورجاله من مفاجآت العدو.

إهمال القائد لهذه الحقيقة، وعدم التصرف على ضوئها ومقتضاها - قبل المعركة - يعرض القائد وجيشه، وربما الوطن كله، لمخاطر غير محسوبة، قد تؤدي إلى وقوع كارثة مدمرة، لأن هذا القائد - بالجهل أو بالغرور والإهمال - لم يؤمن بأن «العدو عنده دائمًا ما يخفيه»،

وقد يكون ما يخفيه هذا العدو رهيبًا ومخيفًا في دماره.

وبالطبع هناك وسائل غير معلنة.. لهتك ما عند العدو من أسرار، إلا أنه في مجال الطيران العسكري بالذات، يعتبر الاستطلاع الجوي من أهم وسائل تجميع المعلومات اللازمة عن العدو، بما يساعد القادة على اتخاذ القرارات السليمة للتخطيط الجيد، سواء لعمليات الهجوم أو الدفاع.

وحفلت فترة ما بعد ضربة 1967 حتى انتصار أكتوبر 73 بالجهود المكثفة لتنفيذ طلعات الاستطلاع الجوي فوق الأراضي المحتلة، في ظروف صعبة أقرب إلى المستحيل. وكان استطلاع نشاط العدو لمعرفة حجم قواته وأسايب قتاله، في فترة إعادة بناء القوات الجوية، وعلى الرغم من تفوق العدو الجوي، فقد تمت هذه المحاولات

المستमितّة، بمعرفة الطيارين المصريين الذين لم يفقدوا روح القتال.

وعقب وقف قتال 5 يونيو 1967 مباشرة، نفذت بكثافة طلعات للاستطلاع الجوي، ومراقبة تحركات العدو لمعرفة نواياه بالنسبة لعبور قناة السويس، حيث كانت الطريق - وقتئذٍ - تكاد تكون مفتوحة أمامه إلى غرب القناة. وتم تنفيذ طلعات الاستطلاع الجوي لمطارات العدو واحتياطياته التكتيكية ونشاط قواته على محاور سيناء.

لقد كان من نتائج ذلك أن قامت الطائرات المصرية «في يومي 14 و15 يونيو 1967» بقصف قوات العدو المدرعة ومدفعاياته، وعندما تصدت لها طائرات العدو، خاضت معها معارك جوية شرسة ضدها.

وفق عمل منظم جاء دور تطوير وسائل الاستطلاع الجوي وإعادة تنظيم عناصره بالقوات الجوية وإعداد ضباطه وأفراده

وتدريبهم على استيعاب المعدات الحديثة لزيادة معدلات تزويد طائرات الاستطلاع بمعدات حديثة من بعض الدول الغربية.

تجلت قدرة العقول المصرية على الابتكار.. كما حدث خلال مراحل عديدة من سنوات الصبر والصمود.. إذ تمكنت مجموعة من الضباط والمهندسين والفنيين بالقوات الجوية المصرية من تركيب المعدات الغربية الحديثة، على الطائرات السوفيتية، وذلك وفقًا لابتكارات مصرية. ونفذت التعديلات في ورش القوات الجوية ومصانع الطائرات المصرية.

هكذا غطى الاستطلاع الجوي مناطق أكثر شمولاً للعدو، وأصبح لدينا صور واضحة لمواقع العدو في شرق القناة، وتوافرت معلومات تفصيلية عن موقف وحجم ودفاعات العدو في سيناء.

خلال مرحلة الدفاع النشط من سبتمبر 1968 إلى فبراير 1969 قام طيارو الاستطلاع الجوي المصريون، بعدد من طلعات الاستطلاع شملت من أقصى شمال سيناء حتى شرم الشيخ، بجانب متابعة العدو أثناء قيامه ببناء مواقعه الحصينة.. كان لهذه المعلومات فائدة مؤكدة في الهجمات التي قامت بها القوات الجوية المصرية، وفي القصف الذي ركزته المدفعية المصرية، على مواقع العدو وأهدافه المستطلعة أثناء مرحلة حرب الاستنزاف «من مارس 1969 إلى أغسطس 1970».

الذكاء المصري تجلى مرة أخرى.. كان ذلك في مرحلة وقف إطلاق النار من أغسطس 1970 إلى أكتوبر 1973.. كانت اتفاقية وقف إطلاق النار تنص على وجود مسافة عشرة كيلومترات - على كل من جانبي قناة السويس - كفاصل يمنع الطيران فوقه من الجانبين

المصري والإسرائيلي، ومعنى هذا أنه لا بد من حل سريع، يكفل تصوير مواقع العدو، رغم هذه المسافة، وبمقياس رسم مناسب يحقق استمرار حصولنا على المعلومات اللازمة عن العدو.

كان الحل التقليدي الذي تلجأ إليه كل أسلحة الطيران في العالم - وفي مثل هذا الظرف الدقيق - هو الحصول على طائرات معينة، أو على الأقل تزويد الطائرات بكاميرات صممت خصيصًا لتحقيق هذا الغرض. ولكن هذا الحل التقليدي، لم يتيسر لنا.. لأننا لم نتمكن من الحصول على وسائله من طائرات وكاميرات، رغم إلحاحنا وطلباتنا المتكررة.

تحرك الذكاء المصري بسرعة ليحل المشكلة.. وتوصلت مجموعة من ضباط الاستطلاع الجوي، بالتعاون مع زملائهم من مهندسي القوات الجوية إلى تصميم «وسيلة مناسبة».. للتصوير المائل، من الارتفاعات العالية. لقد



استخدمنا هذه الطريقة بكثافة، وأمكن بها استمرار تنفيذ الطلعات الاستطلاعية، ومتابعة نشاط العدو لمسافات كبيرة في عمق سيناء.. هذا إلى جانب تعميم تجهيز جميع طائرات الاستطلاع الجوي بمجموعات التصوير من الارتفاع المنخفض بمعدلات إنتاج عالية.

وفي صمت وصبر كان الأفراد يعملون في معامل التصوير الجوي، لطبع وتجهيز آلاف الصور الجوية لأهداف العدو ونشاطه. وكان ضباط تفسير وقراءة الصور الجوية، وضباط المعلومات يعملون، وتم إعداد آلاف الرسومات التفصيلية لأدق مواقع العدو.

نفذنا نماذج مجسمة لأهداف العدو للتلقين عليها، وقام ضباط المعلومات بالتلقين المستمر للوحدات الجوية وتوزيع ما تجمع من معلومات على المستويات المختلفة للقوات المسلحة، وظل الاستطلاع الجوي منتظمًا، ولم يتوقف هذا حتى ظهر يوم 6 أكتوبر، حيث

هبطت طائرة استطلاع قبل الساعة الواحدة بقليل، وتم تجهيز صور هذه الطلعة، قبل موعد بدء الضربة الجوية المركزة الأولى.

ونفذت الضربة الجوية بنجاح منقطع النظير. كان من أهم عوامل نجاحها توافر المعلومات الدقيقة عن الأهداف المعادية، خصوصًا وسائل الدفاع الجوي المعادي في سيناء.

ظل الاستطلاع الجوي مستمرًا طوال أيام القتال، وكان من أهم نشاط استطلاعه خلال فترة العمليات:

- استطلاع أنشطة العدو على المحاور الرئيسية في سيناء، خصوصًا عندما ركز العدو جهوده على المحور الأوسط، وعند تركيز العدو للإمداد الإداري والإصلاح على المحورين الشمالي والجنوبي.

- اكتشاف تجهيز العدو للكباري ومعدات العبور في اتجاه شرق الدفرسوار.
  - كشف فداحة خسائر العدو وجثامين الآلاف من قتلاه المبعثرة فوق رمال سيناء.
  - مشاركة وحدات الاستطلاع الجوي لباقي وحدات القوات الجوية في تنفيذ الهجمات الجوية.. وقد قدمت وحدات الاستطلاع الجوي شهداء من أبطالها في هذه الحرب المجيدة.
  - متابعة أعمال العدو وتجهيزاته الهندسية وموقف قواته في موقع الثغرة، مكملًا بذلك المعلومات الشاملة، التي كانت تكفل تصفية هذا الجيب.
- أنتقل إلى نقطة أخرى في تسجيلي لمحاور الانتصار أو المحاور التي قادتنا إلى الانتصار.. وأتناول الآن جهود الصيانة.

يعتبر كتاب «الميراج ضد الميج» - الذي أصدره «بن يورا» و«يوري دان» - المراسلان الحربيان لصحيفتي «معاريف» و«يديعوت أحرונوت» الإسرائيليتين - من أهم الكتب التي صدرت في تل أبيب، حاملة وجهة نظر المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، بالنسبة لمعارك الحرب الجوية بين العرب وإسرائيل. استوقف نظري في هذا الكتاب، أن المؤلفين المتعصبين، وهما بسبيل التفاخر بالنتائج التي حققتها ضربة «طوق الحمامة» التي نفذت ضد سلاح الجو المصري - صباح 5 يونيو 1967 - قد ركزا على «الصيانة الأرضية» للطائرات باعتبارها واحدًا من العوامل - السبعة - الرئيسية، التي أسهمت في نجاح خطة جنرال الجو الإسرائيلي «مردخاي هود».

يقول الكاتبان عن دور «الصيانة» وفعاليتها المؤثرة في ضربة 1967: «إن الاهتمام الشديد بتنظيم وفاعلية أجهزة الصيانة في القواعد

الجوية الإسرائيلية، كان شيئًا أساسيًا، يركز عليه كل واحد من قواد سلاح الطيران قبل ذلك بسنوات طويلة، وقد أدى هذا الاهتمام بالصيانة إلى نجاحنا كإسرائيليين في اختصار المدة التي تفصل بين طلعتين للطائرة الميراج، إلى سبع دقائق فقط.. بينما التي حددها مصممو تلك الطائرة أصلاً، هي عشرون دقيقة، لهذا لم يكن من الصدفة في شيء أن الطائرات الميراج استطاعت خلال الحرب - في يونيو 1967 - أن تقوم باثنتي عشرة طلعة يوميًا، ولم يتطلب تغيير محرك الطائرة إلا فترة زمنية تتراوح بين الساعة والنصف، وبين الساعتين، وذلك بدلًا من الفترة التي كانت مقررة من قبل لتغيير محرك الميراج، وهي اثنتا عشرة ساعة».

ورغم تهاويل الدعاية التي ازدحم بها كتاب «الميراج ضد الميج»، فإن هذه المعاني كشفت عن الحقيقة البسيطة التي كانت تكمن وراء

نجاح عملية «طوق الحمامة» الإسرائيلية: دقة التنظيم، والعناية بجميع التخصصات المعاونة، وعدم قصر هذه العناية على طلعات الطيران، التي تعتبر محصلة أخيرة لجهود كثيرة تقوم بها أجهزة مختلفة، في مقدمتها جهاز الصيانة وهندسة الطيران.

لقد أكدت نتائج الدراسات المصرية التي تمت بمقاييس علمية، تبلغ في حيدتها وموضوعيتها حد الصرامة، أن ما حققه العدو من نجاح لا يشكل معجزة عسكرية، وهو في حقيقته لا يخرج عن كونه حاصل جمع لعدد من الوسائل التنظيمية الدقيقة، يأتي في مقدمتها: الاهتمام بالصيانة وتنظيم جهازها، وتدريب الأطقم العاملة بها، من مهندسين وفنيين، تدريبًا عاليًا، سيعطي في النهاية نتائج عالية الكفاءة، من حيث دقة وجودة عمليات الصيانة والتشغيل ومن حيث انكماش الحيز الزمني اللازم لهذه العملية.

وهنا.. وضعت قيادة الجو المصرية يدها على «المحور الرابع» الذي ارتكزت عليه في إعادة بناء القوات الجوية.

نعود إلى الوراثة بضع سنوات : في صباح 5 يونيو 1967.. تعرضت المطارات للقصف المعادي المباشر، ودمرت معظم طائرات القوات الجوية المصرية. ولم ييأس مهندسو الطيران والضباط الفنيون والميكانيكيون الجويون.. واعتبروا ما تبقى من الطائرات نواة جديدة، لإعادة تنظيم التشكيلات الجوية.

عندما بدأت الطائرات الجديدة ترد، استقبلها مهندسو الطيران، في نقط التجميع والتركيب والاختبار، حيث تشكلت مجموعات كبيرة منهم، للقيام بتركيب طائرات الدعم، لقد قاموا بأعمالهم برجولة وتضحية ليلاً ونهاراً، تحت ظروف قاسية، وحققوا معدلات قياسية في تجميع الطائرات وتركيبها واختبارها.

في الوقت نفسه، أعيد تمركز الطائرات وأُطِّق العناصر الفنية، وتم دفع الضباط والأفراد والمعدات التي تلزم التشكيلات الجديدة.. وبدأت الأطقم الفنية بتجهيز الطائرات الصالحة للطيران وتسليحها، كما شكلت مجموعات منهم للقيام بالإصلاحات البسيطة والمتوسطة للطائرات المصاوبة وتجهيزها للعمليات، ما أعاد الروح القتالية العالية للضباط الطيارين.

نتيجة لهذا الجهد المشترك، نفذ بعد يوم 10 يونيو 1967، العديد من الطلعات الجوية الانتحارية الموفقة، التي هزت النصر السريع الذي اكتسبته إسرائيل.. وليس أدل على خطورة تلك الطلعات الجوية من أن إسرائيل أخذت تولول في إذاعتها، على مسامع العالم، من فرط ما أصابها به الطيارون المصريون من سوط القصف والعذاب، والضربات المركزة، التي تمَّ بعضها في وقت مبكر جدًا، عقب 5



يونيو، كما حدث في معارك 14 يوليو 1967 التي أرغمت القوات الإسرائيلية وقتها على الانسحاب من سيناء كلها إلى مشارف العريش، هربًا من شراسة الطيارين المصريين، حتى إن إسرائيل - وقتها - أطلقت لقب مجرمي الحرب على قادة القوات الجوية المصرية.

في أعقاب نكسة 1967.. قابل مهندسو الطيران الكثير من التحديات الضخمة، التي تطلبت مواجهتها، فكرًا جديدًا متطورًا، وكثيرًا من الوقت والعرق.. ومن هنا استطاعوا أن يمهّدوا الطريق للقوات الجوية المصرية، للوصول إلى نصر أكتوبر 1973 المؤزر. وكان أضخم هذه التحديات، في فترة الإعداد والاستعداد:

غرس أسلوب جديد، لصيانة الطائرات وتجهيزها للطيران وللطلعات المتكررة.

• توفير أعداد كبيرة من الميكانيكيين الجويين المؤهلين لمجابهة متطلبات خدمة الطائرات، ومقابلة التوسعات الضخمة الجديدة في حجم القوات الجوية.

• تطوير التدريب لسرعة إعداد الميكانيكيين الجويين ومدتهم بالمهارات المطلوبة.. والتوسع في إعداد الخريجين من الكلية الفنية العسكرية، والإسهام في تطوير برامج الدراسة في الكلية لإعداد الضباط المهندسين وتزويدهم بالأسلوب الحديث لخدمة الطائرات وصيانتها وإصلاحها، طبقًا لأحدث المناهج العالمية.

وأدى المعهد الفني للقوات المسلحة دورًا كبيرًا في تعزيز القوات الجوية، وإمدادها

بأعداد كبيرة من الضباط الفنيين ذوي الكفاءة والخبرة في صيانة وإصلاح الطائرات.

- استحداث أساليب جديدة للتدريب الفني لجميع التخصصات، مع تكثيف مدة التدريب، وزيادة عدد ساعات الدراسة اليومية، بما لا يؤثر على الكفاءة الفنية والقتالية للميكانيكيين الجويين..

وتحددت ملامح الأسلوب الجديد بتخطيط التدريب الفني والمهني للضباط المهندسين والفنيين والأفراد، وفقًا للخطوط العريضة الآتية:

- التركيز على التدريب الجماعي وعلى رفع الكفاءة القتالية للأعمال المنتظرة خلال العمليات «كعمليات الملء والتسليح» بمختلف الاحتمالات.

- التدريب على الطرازات الجديدة من الطائرات والاستفادة من جميع الخبرات المؤهلة لذلك.
- تدريب القيادات الهندسية والفنية، تدريبًا تعبويًا، بهدف تحقيق السيطرة على أعمال الدعم الهندسي بالتشكيلات.
- التركيز على تخطيط عمليات إعادة الملء والتسليح، والتفتيش عليها واختبارها في جميع التشكيلات الجوية، ومراجعة هذه التخطيطات من فترة إلى أخرى، حتى تم الوصول بهذه العمليات إلى معدلات عالية.
- تنظيم أعمال الدعم الفني والهندسي لبعض طرازات الطائرات، حيث تمكن مهندسو المقاتلات القاذفة من الوصول بأعمال التفتيشات إلى معدلات زمنية قياسية جديدة.

- التركيز في التدريب على عمليات إعادة التمرکز خلال فترة العمليات، وضرورة تنفيذها بدقة وكفاءة حتى تتمكن التشكيلات الجوية، من أداء واجباتها القتالية فور إعادة تمرکزها مباشرة.
- الاهتمام بأساليب الإصلاح السريع، وإعداد مجموعات جيدة التدريب على مستوى تكنولوجي عالي الأداء.
- المتابعة اليومية لصلاحية الطائرات، وإزالة المؤثرات على هذه الصلاحية أولاً بأول، مع بذل أقصى جهد لرفع الصلاحية اليومية بالتشكيلات الجوية، والاحتفاظ بنسبة الصلاحية، على الرغم من ساعات الطيران الكبيرة التي تبذل أثناء التدريب للطيارين وإعدادهم للقتال.. بحيث وصلت نسبة الصلاحية إلى مستوى لا يصدق قبل أكتوبر 1973،

على الرغم من ضخامة عدد ساعات الطيران.

- بذل مهندسو الطيران جهودًا رائعة أثمرت الخبرة والكفاءة الفنية والتكنولوجية في مجال تطوير الطائرات، اعترف بها الاتحاد السوفيتي وخبرائه، حتى إنهم أصدروا نشرات فنية بالتعديلات والتطوير الذي أدخله المهندسون المصريون على طائراتهم. وقد تركزت خطط تطوير الطائرات والمعدات فزودنا كفاءة الطائرات القتالية، خصوصًا في المدى. ورفعنا الخصائص الفنية والتكتيكية للطائرات، خصوصًا زيادة الحمولة. وزودنا تسليح الطائرات وقدراتها التدميرية. لقد نجحت هذه التعديلات، وتم تنفيذها بالإمكانات المحلية بابتكارات مصرية صميمة وابتكار طرق

جديدة لتشغيل محركات الطائرات بينما هي داخل الدشم، بتصنيع وحدات الإدارة الثابتة داخل كل دشمة بتكاليف قليلة. لقد ساعد هذا على تحقيق الصلاحية المستمرة لمجموعات الإدارة وسرعة إدارة الطائرات داخل الدشم، الأمر الذي ساعد على توفير الحماية للطائرة داخل الدشمة واختصار الوقت.

- مشاركة مصانع الطائرات المصرية في تصنيع بعض قطع الغيار اللازمة للطائرات، والقيام ببعض التعديلات على محركات الطائرات وتصنيع خزانات الوقود الاحتياطية.

- تنسيق دور الاحتياجات الفنية في تخزين قطع الغيار والمعدات واستخدامها الاستخدام السليم عن طريق انتشار المستودعات على مسافات واسعة، بما يقربها لأماكن تمرکز

التشكيلات لتحقيق سرعة الإمداد واستمراره، مع تطوير المستودعات من ناحية صيانة المخزون ومراقبته ووضع معدلات الصرف والاستهلاك المناسبة لكل تشكيل.. والتدريب على عمليات دفع الأصناف إلى التشكيلات من الخلف إلى الأمام فور طلبها، وبمعدلات قياسية من حيث الكمية والسرعة.

عندما اندلعت الشرارة في السادس من أكتوبر.. وفي عمليات الحرب تجلت الفاعلية والعرق والجهد الكبير، الذي بذله مهندسو الطيران، من ضباط مهندسين وفنيين وميكانيكيين جويين وأفراد، ومواجهتهم الرائعة لتحديات هذه العمليات طوال اشتغالها بروح قتالية مرتفعة وبكفاءة عالية.

تكاتف جميع عناصر مهندسي الطيران، بتنظيم دقيق وتعاون رائع، في تقديم الدعم



الفني والهندسي لجميع التشكيلات الجوية، وإبداء اليقظة التامة طوال أيام وليالي المعركة، أثناء إصلاح الطائرات عقب الاشتباكات، وإصلاح أعطالها، لتكون جاهزة لطلعاتها صباح اليوم التالي.

وكانت ثمرة جهدهم، أن بلغت نسبة الصلاحية في التشكيلات ما لم تبلغه من قبل، الأمر الذين مكن التشكيلات الجوية من تنفيذ آلاف الطلعات المطلوبة دون توقف طلعة واحدة لعدم الصلاحية، وفي أوقات قياسية عالية.. وتكلم الجهد والعرق، في حرب أكتوبر المجيدة، بمعدلات قياسية تفوق مثيلاتها في المعدلات العالمية، وهذه بعض الأمثلة مؤيدة بالأرقام:

- تم تجهيز الطائرات بالطلعات وإعادة ملئها وتسليحها، في أوقات ومعدلات زمنية قياسية، اعترف بها العالم بأكمله،

فقد انخفضت معدلات إعادة الملء والتسليح إلى «6» دقائق فقط؛ أي إلى أقل من نصف الوقت المقرر لذلك أصلاً.

- قام أفراد الأطقم الفنية بتغيير محرك الطائرة في وقت قياسي، وصل إلى أقل من نصف المدة اللازمة لها.

- أمكن دفع مجموعات للإصلاح السريع، إلى معظم التشكيلات الجوية، بعربات سبق تجهيزها وإعدادها كورش صغيرة متنقلة، علاوة على مجموعات للإصلاحات الاحتياطية، استخدمت لرفع طاقة الإصلاح بالتشكيلات التي احتاجت إلى تعزيزات إضافية.

- نجاح الدعم الفني والهندسي خلال عمليات إعادة التمرکز للتشكيلات المختلفة التي تمت أثناء حرب أكتوبر بكفاءة عالية، خصوصاً في حالات إعادة التمرکز أكثر من مرة أثناء العمليات خلال

فترة قصيرة للغاية. وكان مرجع ذلك النجاح إلى دقة تنظيم المقدمة، للعمل بكفاءة فور وصولها إلى مطار إعادة التمركز، وتوفر المعدات الفنية في مطارات التمركز الجديد.

في الساعة التاسعة إلا ربعًا من صباح 5 يونيو 1967 بدأت الضربة الجوية المكثفة، التي قام بها العدو ضد مطاراتنا، وفي الساعة التاسعة والربع من صباح اليوم نفسه، كنت معلقًا في الجو مع خمسة من طياري لواء القاذفات الاستراتيجية الثقيلة «ت. يو - 16» في طلعة تدريبية، وبعدها بخمس دقائق أبلغني برج المراقبة في القاعدة الجوية التي أقلعنا منها، أن القاعدة تتعرض للقصف الجوي من طائرات العدو.. أي أن خمسًا وثلاثين دقيقة كاملة، قد انقضت بين ضرب المطارات والقواعد الجوية المتقدمة، وبين وصول العدو

الجوي إلى قاعدة بني سويف الجوية، ليدمر طائرات اللواء القاذف الثقيل، وهي جاثمة على الأرض.

هذه الدقائق الثمينة، ضاعت في الهواء، دون أن تبادر غرفة العمليات المركزية في قيادة القوات الجوية بالاتصال بنا، ولو لمجرد إخطارنا بما حدث، لنحاول صنع شيء ننقذ به طائراتنا من الدمار.

وكشفت هذه الواقعة المؤلمة.. عن حقيقة مهمة، كانت ولا تزال تعتبر من أهم قواعد الحرب الجوية، وهي: أن شبكة الاتصالات والمساعدات الملاحية تعتبر العصب الرئيس لعمليات القوات الجوية في الحرب والسلام على السواء، لتحقيق السيطرة المستمرة على التشكيلات الجوية.. وتوفير المواصلات الإشارية المستقرة والمساعدات الملاحية والضوئية، التي تؤمن الملاحة الجوية للطائرات، في مختلف الظروف الجوية، الأمر

الذي دفع قيادة الجو المصرية الجديدة إلى إعادة تنظيم هذه الشبكة على أحدث النظم العالمية.

لقد تطورت الإشارة الجوية، منذ نكسة يونيو 1967 حتى حرب رمضان المجيدة- تطورا كبيرا.. برز في المستوى المرتفع للكفاءة القتالية لضباط وأفراد ووحدات الإشارة، وفي المعدات الحديثة المتطورة، وفي التخطيط الجيد.

بعد تطويرها أدت الإشارة الجوية دورا كبيرا في نجاح العمليات الجوية خلال معارك أكتوبر المجيدة، بتحقيق مبدأ التعاون بين القوات استراتيجية وتعبوياً، وثبات السيطرة على وحدات وتشكيلات القوات الجوية، وحشد قوات ووسائل الإشارة لتقديم الدعم الإشاري لأكثر الاتجاهات أهمية.

وفي الوقت المناسب ساهمت في تحقيق عنصر المفاجأة للعدو، بتطبيق خطة خداع

إشاري محكمة، بإرسال إشارات وهمية لتضليل العدو، مع استمرار تداول العمل العادي على وسائل المواصلات المختلفة وبالطريقة النمطية، خلال المرحلة التحضيرية للعمليات، بحيث تم تغيير البيانات اللاسلكية قبل بداية العمليات الحربية بوقت قصير، الأمر الذي لم يمكن العدو من تتبع الترددات الجديدة، التي تم العمل بها على شبكات واتجاهات القوات الجوية.

- ركزت على مواصلات التعاون مع الدفاع الجوي لتحقيق الإنذار المبكر، خصوصًا ضد الطيران المنخفض بجميع القواعد والمطارات الجوية، علاوة على تحقيق مواصلات التعاون بين المقاتلات وقوات الدفاع الجوي الأرضية «صواريخ م/ط»، التي كانت تتطلب المحافظة على أعلى درجات الاستمرار والثبات في

المواصلات، مع ملاحقة التغيير السريع في إعادة تمرکزات التشكيلات الجوية المقاتلة، نتيجة للتطور السريع في موقع العمليات.

وفرت وسائل المواصلات الإشارية المختلفة «خطية لاسلكية متعددة القنوات» على درجة عالية من الكفاءة، وتوفير الوسائل التبادلية لها، والمناورة بها عند الحاجة إلى ذلك، مع كل من القيادة العامة والقوات البحرية والجيوش الميدانية، والمناطق العسكرية المختلفة، بغرض توفير الحماية والمعاونة الجوية لها.

- تشغيل الوسائل الإشارية بجميع أنواعها المتيسرة «هاتف - برق - برق كاتب - نقل معلومات».

- تحديد أكثر من قناة لاسلكية للاتصال بالطائرات في الجو، لأغراض التوجيه مع ضمان استمرار الاتصال في جميع

الأحوال وتحت ظروف إعاقة العدو  
اللاسلكية.

- إدخال نظام المكبرات والإنذار الفوري على مستوى القوات المسلحة، وقد تم تصميم هذا النظام ونفذ بالتعاون مع المصانع الحربية المصرية وبعقول وأيدٍ مصرية خالصة.. وثبتت فاعليته في تحقيق السيطرة والإنذار الفوري للوحدات، خلال أشد لحظات القتال ضراوة وعنفاً.

- تأمين جميع معدات الإشارة والمساعدات الملاحية بالتيار الكهربائي، من أكثر من مصدر، عن طريق توفير وحدات توليد قوى متحركة حديثة، تعمل تلقائيًا عند انقطاع التيار الكهربائي، وتعميم استعمالها مع مراكز الإشارة الحساسة، وعلى الأخص في مراكز التوجيه.



- تأمين مواصلات الاستطلاع الجوي، باستخدام أجهزة نقل الصور، بين مراكز القيادة الرئيسية ووحدات الاستطلاع الجوي، لضمان سرعة إرسال نتائج طلعات الاستطلاع في حينها.. هذا بجانب الأجهزة الحديثة لنقل المعلومات.
- التوسع في استخدام وسائل البرق الكاتب المختلفة، ضمانًا لتحقيق أعلى درجات السرية في المواصلات، مع التركيز على البرق الكاتب اللاسلكي والبرق الكاتب المثقب والمرسل الآلي، لضمان سرعة إرسال أكبر عدد من البرقيات في أقل وقت ممكن وإلى عدد كبير من الوحدات.
- إعادة التخطيط والتجهيز الإشاري، لجميع مراكز القيادة والسيطرة بقيادة القوات الجوية وجماعات العمليات الجوية والقواعد والمطارات الجوية..

بالتوصيلات الإشارية الداخلية، بما يحقق سهولة مرور المعلومات داخل هذه المراكز في أقل وقت ممكن وبكفاءة عالية.

- استحداث أجهزة لاسلكية صغيرة، لتكون وسيلة تبادلية للمواصلات الخطية.

- استحداث وسائل مختلفة لإصدار الطائرات داخل الدشم، مثل مكبرات الصوت والأجراس ووسائل الإنذار الضوئية.

- تعميم معدات المساعدات الملاحية والضوئية بجميع القواعد والمطارات الجوية.

- تصميم وتنفيذ دشم خرسانية لتأمين المعدات الإشارية والمساعدات الملاحية ضد القصف الجوي المعادي، بالقواعد والمطارات الجوية.

● تطوير معدات الإشارة والمساعدات الملاحية، بما يوائم المهام المخصصة لها، من حيث تحقيق الحركة الذاتية بالمعدات وإمكانية ربطها ببعضها، وذلك باستحداث مراكز الإشارة ومركز العمليات والتوجيه المتحركة لأول مرة بالقوات الجوية، وقد تم تصميمها بواسطة ضباط مصريين، ونفذت بأيدٍ مصرية وخامات محلية في مصانع مصرية.

● ربط مراكز عمليات القواعد والمطارات، بجميع مواقعها حتى مستوى الاتصال بالدشم، مع الاحتفاظ بخطوط تبادلية لتلافي الأعطال المفاجئة والتوقف أثناء العمليات.

● استحداث استخدام طائرات إعادة الإذاعة لنقل المعلومات إلى الطائرات الصديقة أثناء الطيران المنخفض، لتعذر

وصول الموجات ذات التردد العالي جدًا  
إلا للطائرات على الارتفاع العالي.

نتيجة لكل ما تم من إنجازات، أشرت إلى بعضها، أستطيع أن أؤكد أن الجهد الكبير، الذي بذلته الإشارة الجوية في التخطيط والتدريب وإعادة تنظيم وحداتها بعد يونيو 1967، قد أتى ثماره في حرب 6 أكتوبر 1973.

فقد تمت الاستفادة من كل ما هو جديد في عالم الاتصالات الإشارية والمساعدات الملاحية على مستوى الدول المتقدمة.. لمواكبة الطائرات الحديثة، المستخدمة في القوات الجوية المصرية.. ولمقابلة تطوير العمليات الفعلية.. ولتطوير الأجهزة الأرضية، لتناسب طبيعة عمل القوات الجوية، من حيث السرعة في تنفيذ وتنوع المهام، وحرية الحركة والمناورة، بتوفير أجهزة إشارية على أقصى درجة من الكفاءة.

وكان التدريب الإشاري هو الهدف الأساسي للوصول إلى أعلى مستوى في الكفاءة القتالية، تدريب على كل مستوى، شمل جميع المجالات؛ لأن القيادة الجديدة كانت تؤمن بأن بذل العرق في التدريب يوفر الدم في المعارك.

وكانت ثمرة التدريب الجيد رفع نسبة الاستكمال والأداء الفني للضباط والأفراد، والمحافظة على المعدات الحديثة في أعلى درجات الصلاحية.

كما تم تدريب الضباط الطيارين والموجهين، بمساهمة الإشارة الجوية، في برنامج تدريب الموجهين على الأعمال القتالية، واستحداث أجهزة حديثة للتدريب على التوجيه «مقلدات رادارية»، دون الحاجة إلى طلعات جوية فعلية باهظة التكاليف، ونتج عن ذلك تدريب أعداد كبيرة من الموجهين الجويين في أقصر وقت ممكن، بما حقق الاعتماد على أي منهم في

إدارة عمليات توجيهه كاملة، لجميع أنواع الطائرات وتحت مختلف الظروف الجوية. كما ساهمت أجهزة وتشكيلات الإشارة الجوية، في تدريب الطيارين والملاحين بالتشكيلات الجوية المختلفة، على استخدام المواصلات الإشارية، في ظروف الحرب الحديثة.

ولكي يتحقق لسلاحنا الجوي التناغم المطلوب بين شبكة الاتصالات وعمليات المعاونة الملاحية بذلت القيادة الجوية التي تولت مسؤولية إعادة البناء والإعداد للمعركة، أقصى ما في وسعها من خبرة وعلم وجهد، في إعادة التخطيط لجهاز الملاحة الجوية؛ ليكون على مستوى الجهد المطلوب منه عندما تبدأ المعركة.

لقد لعب جهاز الملاحة الجوية بعد تطويره دوره كاملاً سواء قبل المعركة أو في فترة الإعداد لها، وقد كانت أعداد الضباط الملاحين

في تزايد مستمر، ليحتل كل منهم مكانه في طائرات القاذفات والمواصلات والهليكوبتر، باعتبارهم العقول الحاسبة لزملائهم الطيارين سواء في طلعات التدريب أو العمليات.. فهم يعملون كمساطرهم الحاسبة، ويوقعون مسارات الطائرات على الخرائط، ويديرون الأجهزة الملاحية لتحديد المكان وحساب الوقت.

شارك جهاز الملاحة الجوية في الدراسات المكثفة التي جرت لتحديد أنسب الأوقات للعمليات، مع تحليل جميع العوامل المؤثرة الأخرى، لملاءمة أحسن استخدام لخصائص طائراتنا، ومدى طيرانها، وقدراتها التدميرية إزاء الأهداف المعادية التي خطط لتدميرها «أو شلّها».

واقترضى ذلك نظرات علمية متطورة في تحسين بعض خصائص طائراتنا وأجهزتها، ومن ثم بدت أفكار استخدام بعض المساعدات

الملاحية المتطورة وإدخال بعض التعديلات في بعض الطائرات.

كما عمل جهاز الملاحة الجوية على رفع المستوى الملاحي للطيارين، بوسائل مستحدثة، ورفع المستوى الفني للضباط الملاحين بموالاتة التدريب والدراسة. ومن أجل ذلك توالى إصدار البحوث الملاحية، وعقد الفرق الدراسية، بما حقق رفع المستوى الملاحي إلى الحد المطلوب وقت العمليات الفعلية.

وتم إمداد تشكيلاتنا الجوية جميعها، بلوازمها من الأدوات الملاحية اللازمة لكل طيار وكل ملاح، مع وضع الأعداد الهائلة من الخرائط ذات الأنواع المختلفة التي تستلزمها أعمال التخطيط وإعداد الخطة في متناول كل مستويات القادة.

وكانت دقة الإعداد لتفاصيل الطلعات ثمرة من ثمار تعمق الملاحين بالتشكيلات الجوية



في دراسة مدى الكشف الراداري الصديق والمعادي، والمدى التكتيكي للطائرات المعادية ومقارنته بمدى طائرتنا، بالإضافة إلى تسليحنا نحن وهم. كانت نتائج هذا التحليل الدقيق، تحديدًا صائبًا لمناطق المظلات التي احتلتها مقاتلاتنا، والوصول السليم لمناطق الإبرار والإسقاط، التي طارت إليها تشكيلات الهليكوبتر وقت العمليات.

- وبسبب نمو الوعي الملاحي لدى طيارينا، أصبح الاطلاع على نشرات الأرصاد الجوية غريزيًا فيهم قبل الطلعات، لمعرفة كل ما يمكن أن يؤثر على الطيران، ومن ثم فقد كانوا دائمًا على اتصال بالمتنبئين الجويين، الذين يقدمون لهم المشورة في هذا المجال.

عندما حانت ساعة الصفر، وطوال أيام العمليات، كان نجاح طائرتنا في بلوغ أهدافها،

مرجعه الدقة في الإعداد الملاحي لهذه الطلعات، ويؤكد هذه الدقة عبور أكثر من مائتي طائرة خط جبهة قناة السويس في لحظة واحدة لتحقيق الضربة الجوية المركزة «صدام». وشارك ملاحو القاذفات والهيليكوبتر، والمواصلات في طلعات عمليات القصف، والإبرار، والإسقاط، والإمداد، فكانوا خير مثال لدقة الأداء ودقة الحساب.

ووقف ملاحو تشكيلات المقاتلات والمقاتلات القاذفة بجانب القادة، يشاركونهم وضع الخطط، ومتابعة القيام بالحسابات اللازمة للطلعات. ولقد استبسل من الملاحين كثيرون، كانوا مثلاً للرجولة والفداء، وسقط منهم شهداء شاركوا إخوانهم الطيارين شرف التضحية بالنفس من أجل مصر، ومن أجل الشرف العربي.

ولعب الملاحون والمراقبون أروع دور في دقة توجيه مقاتلاتنا لاعتراض طائرات

الأعداء، وشهد بعض الأسرى من طياري الأعداء، بأنهم كانوا في دهشة من مستوى التوجيه الملاحي الدقيق، الذي لم يتح الفرصة لإفلات طائراتهم المغيرة، بعكس ما كان قادة الطيران الإسرائيلي يوهمون به طياريتهم، من أنهم سيتعاملون مع إنسان مصري متخلف حضارياً، وعاجز عن استيعاب الأجهزة الحديثة، وقاصر عن التعامل مع تكنولوجيا العصر.. وبعكس أكاذيب العدو، فقد نجح ملاحونا في استخدام أساليب تكتيكية مستحدثة، للتغلب على الشوشرة والتداخل المعادي منذ الدقائق الأولى للمعركة من ناحية كما نجح طيارونا في تحقيق التعاون في شكل تناغم جوي مع ملاحى التوجيه بعد التدريب المكثف الذي سبق المعركة بكثير.

خلف مراكز السيطرة والقيادة، وخلف أجهزة الاتصالات في كل برج مراقبة، كان هناك مشهد لا ينسى، حيث يقبع أبطال آخرون.. أجسامهم

في العراق، وأرواحهم على أكفهم، ونظراتهم معلقة دائمًا بالسماء... يراقبون تحرك الطائرات ويتابعونها في الإقلاع وفي الهبوط، أولئك هم المراقبون الجويون الذين لم يتخلوا عن أماكنهم بجوار الممرات، والذين تساقطت بجوارهم مئات القنابل، فلم ينتنوا عن أداء رسالتهم.

في مواجهة عدو لا يتورع عن ارتكاب أي عمل يضمن به تحقيق أهدافه التوسعية مهما كان هذا العمل خارجًا على الأصول والقواعد المتعارف عليها في المجتمع الدولي، حتى بين الخصوم المتحاربين لا بد من توقع أي شيء والاستعداد لأي مفاجأة؛ حتى لو كانت استعمال الأسلحة المحرمة دوليًا: كبت الميكروبات واستعمال قنابل الغاز بأنواعها إلى غير ذلك من وسائل الحرب البيولوجية والكيميائية.

وكانت لدينا معرفة بالطبيعة العدوانية لإسرائيل عدوانًا لا تحده ضوابط من أي نوع أخلاقي أو دولي فقد عنيت قيادة الجو المصرية الجديدة، بالاستعداد لهذا النوع المستحدث من الحرب بعد أن طفرت الحرب الكيميائية بشكل سريع، خصوصًا بداية إعادة تطوير القوات الجوية المصرية، ولهذا فقد تم تنظيم جهاز الحرب الكيميائية، بما يتناسب مع الواجبات المكلف بها، لتحقيق التأمين الكيميائي للقواعد والمطارات والتشكيلات الجوية، في حالة قيام العدو باستخدام أسلحة التدمير الشامل أثناء العمليات.

ولم يغفل قادة القوات الجوية المصرية، عن حساب أي احتمال، لأي موقف معاد طارئ، قد يؤثر على سير العمليات، مثل استخدام أسلحة التدمير الشامل، التي كان من المتوقع التجاء العدو إلى استخدامها، خصوصًا أثناء مواقف اليأس والفشل التي مر بها أثناء المعركة.

وعندما حانت ساعة الصفر، في حرب أكتوبر  
المجيدة.. كان الإعداد والاستعداد على أتم  
وجه بالنسبة لعناصر الحرب الكيميائية، وتم  
تجهيزها لتحقيق الأهداف التالية:

تحقيق وجود نظام كامل في القواعد  
والمطارات الجوية، يكفل القيام بالاستطلاع  
الكيميائي والإشعاعي، والتطهير الكيميائي  
والإشعاعي والبيولوجي، وتجهيز معامل  
وورش لسرعة القيام بعمليات الكشف  
والتحليل والإصلاح للأصناف الكيميائية.

تطوير أجهزة الاستطلاع والتطهير  
باستخدام أجهزة أكثر استحداثًا، بما يحقق  
الإنذار الآلي عند وجود التلوث الإشعاعي  
والكيميائي، كما تم استخدام معدات خفيفة  
لسرعة القيام بالتطهير الكيميائي، واستغلت  
المعدات المصنعة محليًا في إجراء عمليات  
التطهير.

كما حدث تطور في نوعية الأفراد المستخدمين لهذه الأجهزة، بإدخال ذوي المؤهلات العليا في صفوف وحدات الحرب الكيميائية.

تم تزويد جميع الضباط والأفراد بالأقنعة الواقية ومهمات الوقاية الفردية، مع توفير احتياطي من هذه الأصناف بجميع قواعد ومطارات القوات الجوية.

ارتفع الوعي الكيميائي بين الأفراد بتعريفهم بالأسلحة الكيماوية التي لدى العدو وطرق الوقاية منها.

تم التخطيط للإنذار الكيميائي طبقاً للأسلوب المتوقع لاستخدام العدو للغازات، وبما يوفر وقاية سريعة ومضمونة، من أهم هجوم مفاجئ بالأسلحة الكيميائية أو البيولوجية.

توجيه الأفراد بأسلوب رفع درجات الاستعداد الكيميائي، وتحديد مهام الوحدات

الجوية والوحدات الكيميائية في الحالات المختلفة من وضع درجات الاستعداد، وأثناء وبعد الغارة الجوية، التي يحتمل أن تتضمن هجومًا كيميائيًا أو بيولوجيًا.

- تم تخطيط التدريب الكيميائي بما يحقق رفع مستوى الوحدات الجوية، للقيام بعملها تحت ظروف استخدام العدو لأسلحة التدمير الشامل.

- كان التدريب يتم بصورة واقعية، باستخدام البيانات العملية التي تمثل جو المعركة الفعلية، وتم تشكيل أطقم بيانات عملية، قامت بإجراء بيانات الوقاية من النابالم والمواد الحارقة عدة مرات بالقواعد والمطارات الجوية، وكان حماس الأفراد شديدًا في قيامهم بالتجارب العملية التي أكسبت أفراد الوحدات الثقة، وأدت إلى رفع روحهم



المعنوية، في إمكان وقاية أنفسهم ومعداتهم من حرائق النابالم، وغيرها من أسلحة الحرب الكيميائية والبيولوجية التي يمكن أن يفاجئهم بها العدو.

تم تنفيذ بيانات عملية بالقواعد والمطارات والتشكيلات الجوية لتدريب الأفراد على العمل المستمر وهم يرتدون الأقنعة الواقية، لفترات متزايدة بالساعات، في الظروف الجوية المختلفة.. كما كان يتم تدريب الأفراد على استخدام غازات تدريب لتمثيل جو المعركة، ولتدريب الأفراد على التصرف السليم في حالة وجود غازات حربية.. كما تم تدريب الأفراد على معالجة ملابسهم بمادة كيميائية لتوفير الوقاية من النابالم.

إن الذي أستطيع أن أؤكد في مجال التقييم العلمي لملحمة إعادة البناء التي تمت في سلاح الجو المصري وأقرره كطيار مقاتل،

وخبير بأسس القتال الجوي الحديث أن العقيدة القتالية التي سيطرت على الجميع قادة وأفرادًا هي «حتمية النصر» وقطع الطريق على العدو الجوي للإفلات من المصير الذي يجب أن يلقاه عندما تشتعل نيران المعارك.

ومن هذا المنطلق الحاسم اتجهت القوات الجوية إلى إدخال كل ما هو حديث في مجال الحرب الجوية من أساليب القتال ونظرياته المستحدثة، وتدريب الرجال على كل ما هو مستحدث من عتاد الحرب الجوية وسلاحها وزيادة في إحكام الخطة التي تستهدف «تحقيق النصر»، باعتباره النتيجة الوحيدة المسموح بها، لم تغفل قواتنا الجوية ما كان سائدًا من وسائل التعويق للعدو الجوي، حتى لو كان هذا الأسلوب تقليديًا، مع العناية بتطوير هذه الأساليب التقليدية، وإعادة تأهيلها للعمل بفعالية مؤثرة.

ويحضرني في هذا المجال مثال محدد هو العودة إلى استخدام «البالونات» في مجال الوسائل المضادة، والتعويق للعدو الجوي. فمن المعروف أن البالونات كانت وسيلة سلبية مضادة للطيران المنخفض في الحرب العالمية الثانية، ثم تخلت عنها كل جيوش العالم على أنها سلاح غير فعال.

ولكن مصر استحدثت إعادة استخدام هذا السلاح من جديد.. رغم ما كان يقال عن بدائيته، ومن ثم انتشرت وحدات البالونات حول المطارات والقواعد الجوية، ودُرِّب الأفراد اللازمون على نفخها ورفعها في أماكن محددة تسمح لطائراتنا بالهبوط على الممرات، وتعوق طائرات الأعداء من الاقتراب على ارتفاعات منخفضة.

ولو قارنًا ثمن كل البالونات التي استخدمت في كل المطارات لوجدناها لا تساوي ثمن طائرة واحدة، ولكنها رغمًا من ذلك لعبت دورًا

فعالاً في غارات حرب أكتوبر، وكم من طائرات للأعداء تساقطت لاصطدامها بأسلاك بالوناتنا التي تم توزيعها بمهارة فائقة، على هيئة شبكة واسعة الانتشار، كونت مظلة واقية لمطاراتنا، ومصيدة هلاك محقق لطائرات العدو الجوي التي حاولت اختراق هذه الشبكة المحكمة من بالونات.

استبسل كثير من أفراد وحدات بالونات أثناء الغارات، فقد كانت تكتيكات قادة المطارات أن ترفع بالونات وتخفص في مناورة حسب خطة محكمة. واستحدثت القوات الجوية المصرية استخدامات أخرى للبالونات إلى جانب الدفاع السلبي، فاستخدمت لإعادة الإذاعة، وللاستطلاع، وتحقيق الاتصالات الإشارية، وغيرها من الاستخدامات البالغة الحداثة في مجال الحرب الجوية التي تحتفظ بتفاصيلها في إطار السرية.

هذا الأسلوب الذي كانت قد هجرته المدارس العسكرية الحديثة، أثبت أن المقاتل الجوي المصري كان عازمًا على تحقيق النصر على عدوه، بأي سلاح وبأي أسلوب، وأن هذا المقاتل - الذي اتهموه بالعجز والتخلف الحضاري والجمود الفكري أثبت مرونة رائعة، سواء في التعامل مع الأسلحة والوسائل الحديثة، أو في تطوير الوسائل القديمة، وإخضاعها لمقتنيات الحرب الجوية الحديثة، بشكل مبتكر، جعل من سلاح قديم كسلاح «البالونات» وسيلة جهنمية مبتكرة، نجحت في القضاء على أحدث أنواع الطائرات التي كان يستخدمها العدو الجوي في عمليات 6 أكتوبر.

وأثناء حرب 1967، كانت جميع البرقيات الشفوية، المتبادلة في القوات المسلحة، تعتبر مكشوفة مسبقًا لدى العدو، بفضل ما لديه من أجهزة إلكترونية تستطيع أن تكسر الشفرة،

فتكشف أولاً بأول النوايا والخطط العسكرية للقوات المصرية، وما ينشأ عن هذا من موقف خطير يجعل العدو قادراً على مواجهة أي تحرك مصري في الجبهة، حتى قبل أن يبدأ؛ لأنه يعرف تفاصيله وقت صدور الأمر به.

وعندما بدأت القوات الجوية المصرية في إعادة تنظيمها، وإقامة صرحها مرة أخرى، شكلت وحدات أمن السيطرة الجوية، للقضاء على هذا الموقف الشاذ الذي استفاد منه العدو جيداً في عمليات 5 يونيو.

وبدأت السيطرة بإلغاء جميع طرق الشفرة التي كانت مستعملة من قبل، وتم تزويد مكاتب الشفرة بالقواعد والمطارات الجوية، بمعدات الشفرة الإلكترونية الحديثة، كما تم تدريب الأفراد اللازمين لتشغيلها للوصول إلى معدلات الأداء المقررة، وذلك بإجراء المشروعات التدريبية المستمرة، لرفع كفاءة الأفراد ولتلافي أي ملاحظات مستقبلاً.

وتم تكوين قاموس شفرة تخصص للقوات الجوية، ليوفر السرعة لعمال الشفرة في عملية تشفير أو حل البرقيات. وكان في هذا القاموس العون الأكبر في سرعة العمل في حرب أكتوبر 1973. وكان للتخطيط والتنظيم الجيد لأعمال الشفرة بالقوات الجوية أكبر الأثر في إمكان تبادل المعلومات، ذات درجات السرية العالية، في الوقت المناسب وباستمرار، وتحت جميع الظروف.

وفي حرب أكتوبر 1973، كان لأمن الوثائق دور فعال؛ إذ كان لدرجة السرية التامة التي فرضت على التخطيط للعمليات، وتحديد الضباط المشتركين في التخطيط وعدم السماح لغيرهم بالاشتراك فيه، وإخلاء الوثائق السرية غير المعمول بها في المستويات التعبوية طبقاً لمدد الحفظ المحددة - كان لكل ذلك الفضل في أن تكتسب التشكيلات والوحدات الجوية حرية الحركة.. كما حقق

ضمان عدم تسرب أو فقد أي وثيقة أثناء التحركات أو إعادة التمركز أو العمليات على عكس ما حدث أثناء حرب 1967.

واستطاع أمن السيطرة أن يكفل لأمن المواصلات الدور الفعال في الرقابة على المواصلات الإشارية بأنواعها، الأمر الذي أدى إلى حرمان العدو، من الاستفادة من عملية التنصت، وإلى عدم حصوله على أي معلومات عن قواتنا الجوية.

لقد خرجت القوات الجوية مجهدة بسبب الضربة الجوية المفاجئة في يونيو 1967، ولكن الوقت لم يمض طويلاً، حتى أدارت العناصر الإدارية بالقوات الجوية ظهرها للماضي، ووقفت في إصرار تتطلع إلى الأمام مصممة على تخطي النكسة بكل أبعادها والعمل من أجل إحراز النصر.

وعلى الرغم من قلة الإمكانيات في ذلك الوقت، وقسوة الظروف التي تراكمت من آثار



النكسة، فقد أمكن تحقيق الهدف الأسمى، فكما خرجت القوات الجوية عقب نكسة 1967 مجهدة، فإنها دخلت عمليات 6 أكتوبر المجيدة شامخة في قوتها الإدارية الشاملة بالقدرة والكفاءة. وثبت للجميع أن العناصر الإدارية للقوات الجوية المصرية تحمل في روحها القوة على تخطي كل المحن.

مرة جديدة أعود إلى مونتجمري الذي قال: «إن مبدأ الشئون الإدارية هو مبدأ أساسي من مبادئ الحرب الحديثة، التي زادت مطالبها المادية والإدارية، بتعدد وتطور أسلحتها واتساع مسرح العمليات».

ومن هذا المفهوم للإدارة، شرعنا في الإعداد والتجهيز الإداري للعمليات المتوقعة، بحيث تمت الإنجازات التالية:

إعادة تنظيم الجهاز الإداري بالقوات الجوية، سواء على مستوى قيادتها، أو على مستوى القواعد والمطارات الجوية، على أساس

التمائل مع أجهزة القوات المسلحة الإدارية، وقد حقق هذا التنظيم النجاح التام خلال العمليات.

- تمكن الجهاز الإداري بالقوات الجوية من تأمين وإعاشة القوات الجوية، بحجمها الذي وصلته في أكتوبر 1973، من كل النواحي الإدارية.. كالإيواء والمهمات والتعيينات والنقل والخدمات الطبية، وقد حلت مشكلات عديدة بالنسبة للإيواء بالاستفادة من إمكانيات أجهزة الدولة الأخرى التي تعاونت بشكل واضح في تقديم ما لديها من إمكانيات.
- رفع مستوى الكادرات الإدارية، ودعمها بكادرات متخصصة إداريًا، مع بذل الجهد الكبير في التأهيل الذي سار جنبًا إلى جنب مع التدريب.

● استحداث أسلوب الأنساق الإدارية المتعددة، تكتيكية وتعبوية واستراتيجية.. وقد تم تحقيق ذلك بخلق الأنساق التعبوية، بما تتطلبه من توفير العناصر الإدارية ومراكز السيطرة الإدارية التعبوية، وإيجاد عناصر إدارية تكتيكية ذات خفة وقدرة على الحركة العالية، وتمركزت في أوضاع إدارية تعبوية سليمة على جميع أرجاء الجمهورية.

● وقد تم إعداد مراكز السيطرة الإدارية بالقواعد والمطارات الجوية، وعلى الاتجاهات التعبوية وعلى مستوى قيادة القوات الجوية، سواء من ناحية التجهيز الهندسي أو المواصلات الإشارية أو أسلوب العمل فيها.. حتى ارتفع مستواها بشكل ملحوظ. وقد عاونت أجهزة قيادة القوات الجوية في ذلك بدرجة كبيرة.

ولمقابلة متطلبات عمليات القوات الجوية، وزيادة حجم التشكيلات الجوية، فقد اقتضى الأمر إنشاء واستكمال قواعد جوية ومطارات جديدة بالإضافة إلى استكمال القواعد والمطارات القديمة، وقد استلزم ذلك كثيرًا من الجهد الإداري والهندسي في التخطيط والتصميم والتنفيذ، والإشراف على إبقاء المنشآت والمرافق ومصادر القوى الكهربائية في حالة صالحة دائمًا.

- تم التوسع في توفير المساحات اللازمة للاحتفاظ باحتياطي المخزون من الاحتياجات الرئيسية، لتهيئة أحسن ظروف للتخزين لمدد طويلة وذلك بإنشاء ساعات وقود على المستوى التكتيكي والتعبوي علاوة على الموجود من قبل، بجانب الاستفادة من مستودعات الدولة إذا لزم الأمر.

كما تم ربط بعض هذه الساعات بخطوط أنابيب، كما أنشئت مخازن لقطع الغيار وأخرى للذخائر بالإضافة إلى ما هو موجود منها فعلاً.

- تم توفير الاحتياجات الرئيسية «وقود - ذخيرة - تعيينات - مهمات...» لتكفي مطالب ثلاث عمليات جوية كبيرة كحد أدنى.. هذا بجانب توفير مطالب التدريب من هذه الاحتياجات.
- وجهت العناية إلى الناحية الطبية، وبالأخص للمحافظة على اللياقة البدنية للطيارين بأن يتوافر لدى القوات الجوية الآلاف من الأسيرة بالقواعد والمطارات، علاوة على الموجود منها بالمستشفى الجوي العام ومستشفيات التعبئة.
- توفير جميع مستلزمات التعبئة لجميع الأفراد الذين عبئوا لصالح القوات

الجوية، في جميع مراحل وعمليات  
التعبئة، وبكفاءة عالية المستوى.

- تم الأخذ بمبدأ التطوير «حيث تم بالتنسيق مع أجهزة الدولة إنتاج وقود الطائرات محليًا بالكميات المناسبة» كما تم الأخذ بمبدأ التصنيع «بالتنسيق مع المصانع الحربية تم تصنيع أنواع مختلفة من القنابل والذخائر الجوية».. كما أدخلت التحسينات على عربات الإسعاف وتعيينات الطوارئ للطيارين.

وتنشب المعركة- معركة 6 أكتوبر- وتهدد القوات الجوية المصرية النصر لسائر أفرع القوات المسلحة خاصة، ولمصر والعرب عامة.

وقد تركز جانب مهم من النجاح الكبير للقوات الجوية في معارك 6 أكتوبر، في تحقيق المهام المطلوبة من الشؤون الإدارية، بالإعداد والتجهيز الجيد قبل العمليات،

وبمستوى تدريب الأفراد، وإحكام السيطرة الإدارية خلال كل لحظة من لحظات العمليات. وساهم في هذا النجاح أسلوب جمع المعلومات الدقيقة عن الموقف الإداري أولاً بأول في نهاية كل يوم قتال، وتحليل هذا الموقف بسرعة، واتخاذ القرارات السليمة، على ضوء مهام اليوم التالي للتشكيلات الجوية، كما كان التحليل لاتجاهات العدو الجوي في قصف المطارات - له آثاره في تجنب الكثير من الخسائر.

- كان التخطيط للعمليات من الناحية الإدارية سليماً من كل الوجوه، ولم يخرج التنفيذ عن التخطيط الموضوع. وقد سمحت مرونة الخطة في مقابلة مناورة إعادة تمركز الأسراب الجوية خلال المعركة بلا خلل في سرعة الإمداد

والإعاشة والإيواء في أماكن التمركز الجديدة.

- تم استخدام كتائب الخدمة الفنية في إدارة وتشغيل مهابط الطائرات الهليكوبتر الأمامية.. ويُعدُّ هذا الاستخدام جديداً في نوعه، وإضافة مصرية خالصة في مجال الحرب الجوية.

- كما تم تقديم العون الإداري لأسراب الدعم الجديدة، وهُيئت لها أحسن الظروف، وعلى الأخص بالنسبة لأنواع التعيينات المناسبة.

- وكان للتنفيذ الدقيق المخطط للانتشار والوقاية الأثر الكبير في انخفاض نسبة الخسائر في العمليات «لم تتعد هذه النسبة 0.6 % من مجموع القوات الجوية». وقد تم إخلاء حالات الجرحى من الطيارين والأطقم الطائرة إلى



المستشفيات المخصصة، خلال المدد المسموح بها، ولم تحدث أي وفاة بسبب التقصير في تقديم العلاج المؤقت السريع.

- وفي الوقت نفسه لم تتأثر مرافق أي قاعدة جوية أو مطار بأي قصف جوي للعدو؛ إذ كان أفراد الأشغال العسكرية يقومون بواجباتهم بمجهود كبير، وبشجاعة فائقة في إصلاح أعطال أي مرفق بمهارة تامة دون خوف من محاولات قصف العدو، أو القنابل الزمنية.

- وفي الميدان كان الإداريون على أهبة الاستعداد لخدمة التشكيلات الجوية، وقد شاعت فيهم روح التضحية، فخرجوا في القواعد والمطارات، يحملون أرواحهم على أكفهم، مجاهدين تنوق قلوبهم إلى الشهادة؛ لتحقيق

عناصر الخدمات الإدارية للطائرة والطيارين، فلم يهنوا ولم يضعفوا، ورفعوا شأن قواتهم الجوية.

كما تطورت «الشئون الإدارية» - بالقوات الجوية - بعد 5 يونيو، ووجهت العناية لإعادة تنظيمها باعتبارها من المحاور الأساسية على طريق النصر، فقد طفرت الإدارة المالية أيضًا، في أعقاب حرب 5 يونيو، بالتخلص من مخلفات وسلبات عمليات 1967، ووضع خطة جديدة تمامًا تقوم على أحدث المناهج العلمية في التخطيط المالي العسكري.

ومن التخطيط الجديد بدأ إعداد القواعد والمطارات الجوية للجولة الجديدة، بتدبير الاعتمادات اللازمة، وإجراء التعاقدات الخاصة بإنشاء المطارات الجديدة، وإصلاح الموجود منها، وإقامة الدشم والتحصينات، ومختلف

الإنشاءات الفنية والإدارية التي تحتاجها  
الوحدات الجوية.

ورغبة في العمل على تفرغ أفراد القوات  
الجوية للواجبات الملقاة على عاتقهم، ورفعاً  
لمعنوياتهم واستقرارهم النفسي أثناء  
العمليات، فقد نفذت خطة إنشاء المكاتب  
المالية الحديثة في القواعد والمطارات  
الجوية، والوحدات الفنية والإدارية، لحل  
المشكلات المالية للأفراد، وضماناً لتوصيل  
المستحقات إلى ذويهم. وقد تم تدريب هذه  
المكاتب على تطبيق نظام «الصرف الميداني»،  
الذي بموجبه يوكل المقاتل أحد أقاربه بصرف  
راتبه بالكامل أو جزء منه، من أقرب فرع بنك  
لسكنه؛ وذلك حتى لا تتأثر معيشة عائلات  
المقاتلين. وقد طبق هذا النظام بكل نجاح  
أثناء عمليات حرب أكتوبر المجيدة.

لم تكن كل التفاصيل السابقة مسلية كما  
توقعت ولكنها قصة موثقة للطريقة التي

تحقق بها النصر.. وفي الصفحات السابقة  
 مررت سريعًا على المحاور التي تحركت عليها  
 قواتنا الجوية بسرعة هائلة لتصل إلى تحقيق  
 الهدف الكبير - ولم يبق أمامنا إلا الحديث عن  
 ضربة الانتقام المصرية «صدام» التي أشعلت  
 بها قواتنا الجوية معارك أكتوبر المجيدة،  
 وانتقم بها الطيار المصري المقاتل لشرفه  
 العسكري، كمقاتل شجاع ومتمكن على أعلى  
 مستوى من فنون الحرب الجوية الحديثة.

”... دخل سلاحنا  
 الجوي معركة  
 أكتوبر 1973،  
 مُحَمَّلًا  
 بضربتين جويتين  
 1956 و1967  
 خرج على أثرها من  
 المعركة قبل أن  
 تتاح له فرصة  
 لإثبات وجوده  
 وقدراته... وإذا كان

الدواء من جنس  
الداء، فإن استرداد  
سلاحنا الجوي لثأره  
من العدو، ودفاعه  
عن شرفه العسكري،  
يجب أن يبدأ من  
نقطة محددة لا  
بديل لها... الرد على  
العدو بنفس اللغة..“

# الموضوعية.. وخداع النفس

ترددت طويلاً، عندما تهيأت لكتابة هذا الجزء الخاص من الكتاب تحديداً، على كثرة ما به من تفاصيل. مبعث حيرتي وترددي.. هو اختيار المدخل الذي يقدم لأول مرة صورة صادقة وأمينية، لما قام به سلاح الطيران المصري في الساعة «205» (الثانية وخمس دقائق) من بعد ظهر السادس من أكتوبر عام 1973، عندما نفذ طيارونا المقاتلون الضربة الجوية المصرية المركزة «صدام» ضد أهداف العدو، فحققوا بدقتهم في تنفيذها، وبانخفاض نسبة الخسائر بين طائراتهم، وارتفاع نسبة إصابتهم للأهداف المعادية، مستويات قياسية

جديدة لم يسبقهم إليها أحد في تاريخ الحروب الجوية.

في هذه الحرب أثبت مقاتلونا بنجاحهم الساحق ظهر ذلك اليوم المجيد أن الطيار المصري المقاتل ليس قادرًا على الانتقام من عدوه الطيار الإسرائيلي فحسب، ولكنه قادر على تحقيق انتقامه الجوي، بأعلى قدر من الكفاءة في التخطيط، والإحكام في التنفيذ، بمستوى يجعل من ضرباته الانتقامية مثالاً يحتذى به، وقدرة يضرب بها المثل وتجذب اهتمام كبار المحللين وخبراء الحرب الجوية في معاهد الدراسات الاستراتيجية العالمية.

وقفت حائرًا أمام المدخل الذي يقودني إلى الحديث المفصل عن الضربة المصرية «صدام».. مقدماتها وتحليلها العلمي ونتائجها ودلالاتها بالنسبة لنا كمصريين، وللأمة العربية جمعاء، وللعدو في النهاية.



ولم يكن مبعث حيرتي هو تشعب الموضوع، ولا كثرة التفاصيل المحيطة بالضربة «صدام»، ولكن مبعثها، هو ذلك الموقف الفكري الشاذ، الذي وقفه العدو الإسرائيلي من المقاتل المصري بالذات، بصورة تجاوزت الحدود التي يمكن أن يصل إليها عدو في هجومه النفسي والدعائي على مقاتلي خصمه، بحيث ينحدر إلى مستوى لا أخلاقي، أقل ما يوصف به أنه يدل على انحراف واضح في مكونات الفكر العسكري الإسرائيلي بصفة خاصة.

لهذا كان لا بد من كلمة توضح أسرار هذا الموقف الفكري الشاذ، الذي تعرض له المقاتل المصري عمومًا والمقاتل الجوي خصوصًا.. وكلمتي هنا في بداية الحديث عن «صدام» ليست دفاعًا عن المقاتل المصري، لأن هذا المقاتل الشجاع قدّم للعالم كله في حرب أكتوبر، دفاعًا عمليًا عن شرفه وكفاءته وقدراته كمقاتل يُشرف الأمة التي أنجبته،

ولكن كلمتي هذه هي أولاً وأخيراً دفاع عن الحقيقة التي ظلمها العدو، وإنصاف للتاريخ الذي تجنّى عليه كل ما كتبه دعاة إسرائيل ومفكروها عن «المقاتل المصري» بالذات، وعن الإنسان المصري عموماً.

وإذا كانت هذه الحملة الضارية التي تشنها دعايات العدو ضدنا، قد بلغت قمة كثافتها وتركيزها، عقب النصر السريع الذي حققته إسرائيل في معارك يونيو 1967، فإن الدارس المحقق الذي يتتبع أصول هذه الكراهية العميقة التي يكنها الفكر الصهيوني لمصر والمصريين ترجع إلى عهد موغلة في القدم ولكنها استمرت عبر عصور التاريخ المختلفة، ابتداء من «التلمود» و«المشناة» و«المدراش» وغيرها من أمهات المصادر العبرانية القديمة وانتهاء بما كتبه المحدثون من فلاسفة ومفكري الصهيونية الجديدة.

لقد اقتنع المقاتل الإسرائيلي الوريث المعاصر للفكر المتحجر بكل عقده القديمة بأنه إنسان متفوق، يواجه خصمًا مصريًا متخلفًا، ولا جلد له على الحرب، ولا قدرة لديه على استيعاب فنون القتال الحديث. وبسبب الدعاية الإسرائيلية اقتنعت القوى الكبرى ومن ورائها الرأي العام العالمي بأنه لا فائدة من مجرد التعاطف مع العرب، لأن أي محاولة لمساندتهم أو التعاطف معهم، لن تجدي نفعًا، أمام ضراوة المقاتل الإسرائيلي المسلح بكل ما هو جديد من فنون الحرب وأدواتها.

وقد أسهمت هذه الحملة النفسية الضارية في غرس صورة ظالمة، وباطلة من أساسها، في نفس الإنسان العربي عمومًا، تدفع به إلى فقدان الثقة في نفسه، بعد أن يفقد الثقة في المقاتل المصري طليعة القوة العسكرية العربية بحيث ينتهي الأمر بالشعب العربي كله إلى الاستسلام الكامل لمشية العسكرية

الإسرائيلية، والقبول بكل ما تفرضه على الإنسان العربي من مذلة وهوان. الأمر اللافت والمثير للسخرية حقًا، أن هذه الفلسفة غير الأخلاقية، قد فشلت بالنسبة للرأي العام العالمي، كما فشلت فشلًا ذريعًا بالنسبة للإنسان العربي عامة والإنسان المصري بصفة خاصة، في الوقت الذي نجحت فيه هذه الفلسفة بالنسبة للوجود الإسرائيلي. بحيث تردت به في منزلق الوهم، وأوقعته في مصيدة أحلام كاذبة، ومعايشة الخيال المريض، الذي استيقظ منه الإسرائيلي فزعًا، عندما سقطت السماء فوق إسرائيل يوم 6 أكتوبر.

لقد اعترف بذلك «إبراهام كاتزر» رئيس دولة إسرائيل في الحديث الذي وجهه لمواطنيه يوم 24 أكتوبر عام 1973 وكشف به عن بشاعة الأكذوبة التي عاشت إسرائيل في ظلها سنوات، كما فضح به دون قصد،

بشاعة الموقف غير الأخلاقي الذي وقفه الفكر الإسرائيلي من العرب عامة، ومن مصر بصفة خاصة، عندما قال بالنص « لقد كنا نعيش فيما بين عامي 1967 و1973، في نشوة لم تكن الظروف تبررها».

وقال: «هذه الحالة النفسية هي المسئولة عن الأخطاء التي حدثت قبل حرب أكتوبر، وفي الأيام الأولى للحرب، لأنها كانت «قد تفشت» في كل المجالات العسكرية والسياسية والاجتماعية، وأحدثت فيها مواطن ضعف خطيرة يجب على الإسرائيليين جميعًا أن يتحملوا مسئوليتها، وعلينا جميعًا أن نتعلم من هذه الحرب الفظيعة؛ أن نكون أكثر تواضعًا».

خطبة «إبراهيم كاتزر» تقطع بوجود أمرين محددتين:

**الأول:** أن المجتمع الإسرائيلي قبل 6 أكتوبر 1973 كان يعيش في وهم كبير، وعالم خيالي لا صلة له بالواقع.

**الثاني:** أن هذا الوهم الذي كان يسيطر على المجتمع الإسرائيلي، عزل هذا المجتمع عن الواقع الذي يمثله حجم إسرائيل وقدراتها الحقيقية، كما عزله عن الواقع العربي الذي كان يتحرك بسرعة هائلة لتصحيح أخطائه والاستفادة من دروس التجربة. وهذا الوهم نفسه هو الذي أدى إلى وقوع الأخطاء القاتلة التي تردى فيها المجتمع الإسرائيلي كله، وانتهى به إلى ما حدث له في 6 أكتوبر.

إن ما حدث في 6 أكتوبر، كان أقوى من كل ما تملكه العسكرية الإسرائيلية من طاقة الكذب والخداع وتضليل الجميع.. وبالتحليل العلمي الدقيق للضربة المصرية «صدام» - بكل ما نصر عليه من حياء وموضوعية - ثم مقارنتها بعملية «مردخاي هود» المسماة «طوق الحمامة» التي نفذها طيارو إسرائيل ضدنا في 5 يونيو.. سيعرف المواطن المصري والإنسان العربي كم تجنت الدعاية الإسرائيلية

عليه وعلى مقاتليه الشجعان من طياري سلاح الجو المصري.

كما سيكتشف الرأي العام العالمي بشاعة الجريمة الأخلاقية التي ارتكبتها العسكرية الإسرائيلية في حق التاريخ الحضاري للإنسان، عندما قامت بأكبر عملية تضليل في التاريخ الحديث، تجاوزت بها كل الحدود المسموح بها في وسائل الحرب الدعائية.

**وأخيرًا..** سيكتشف الإسرائيلي فظاعة الجريمة التي ارتكبت في حقه، عندما صورت له أبواق دعايته أنه كائن متفوق حضاريًا وممتاز عسكريًا، يواجه خصمًا متخلفًا وعاجزًا فإذا به يصعق في السادس من أكتوبر 1973 من هول الضربات الساحقة، التي كالتها هذا الخصم العملاق.

لن أنسى ما حييت، هذه العبارات التي سمعتها بدمي وأعصابي أكثر مما سمعتها بأذني في إحدى ليالي شهر أكتوبر عام 1972.

كان الصمت الذي يخيم علينا جميعًا، مهيبًا،  
 أمام الموقف الذي كنا نواجهه في تلك الليلة،  
 وأمام الصوت القوي الثبرات، الذي أحسست  
 ليلتها أنه يعبر عما في نفسي، ونفس بني  
 وطني جميعًا، كان يقول:

«إن شاء الله ربنا يوفقكم.. زي ما قلت لكم..  
 بأعيد كلامي.. لحظات قدر واتحطينا أمام  
 التحدي.. صعب.. فيه تضحيات وآلام ودم..  
 ولكن يعلم الله.. إنه مفيش أمامنا حل غيره،  
 يعني حاولت بكل ما أستطيع في السنتين اللي  
 أنا أتوليت فيهم عشان أحاول أخففها ما  
 أمكنش.. وواجهنا الظرف.. والنهارده زي ما  
 قلت لكم إحنا أمام اختبار قدر.. هل إحنا  
 موجودين والأ مش موجودين؟ بعد كل اللي  
 عملناه، اللي بيناه ووقفنا فيه.. هل إحنا  
 موجودين والأ مش موجودين؟

«بالنسبة لشعبنا.. بالنسبة للعرب.. بالنسبة  
 لأمريكا.. بالنسبة لروسيا صديقتنا.. بالنسبة



لغرب أوروبا.. بالنسبة للعالم كله.. هل إحنا موجودين والأ مش موجودين؟ وكفاية سمعنا كلام كتير.. وتجريح كتير.. ولحظة لازم نواجهها.. محكوم علينا من الكل إن إحنا ناس لا قدرة لنا.. خلاص.. مشلولين.. بنقبل هذا.. بنفضل مشلولين.. وحيثحول الشلل إلى عجز مطلق.. نهائي.. ما بنقبلوش.. بنقبل قدرنا، ونخش، ونشتغل على أحسن ما يمكن أن يعطينا العقل اللي ربنا إداه لنا.. والتخطيط السليم.. واستخدام الإمكانيات أمثل استخدام، وفي الحدود اللي نستطيع إن إحنا نعمل فيها بعد ذلك.. يفعل الله ما يشاء.. عملنا كل اللي علينا.. وبعد ذلك نواجه قدرنا..

«ما عنديش لكم حاجة أقولها النهارده غير هذا إطلاقاً.. مفيش.. النهارده مفيش.. لكن واحنا أمام امتحان.. نخش الامتحان.. اللي بارجوه بالنسبة لكم، وبالنسبة لكل الأولاد اللي معاكم.. لازم يكونوا عارفين.. إن إحنا بنعوض

نقص كثير بإيماننا بقوتنا.. من استبسالنا.. من استماتتنا بنعوض كثير.. ودي حيكون لها قيمتها إن شاء الله،.. ولن يخذلنا الله سبحانه وتعالى أبدًا، ما دما مؤمنين، وعلى حق، مش هنخذل أبدًا أبدًا..

« أنا اللي يهمني في المقام الأول هو بلدي.. معروض عليّ حل جزئي.. معروض فعلاً عليّ حل جزئي.. بس أنا مش حاقبله.. وييجي حد غيري يقبله.. أنا بتكويني وبطبيعتي، ما أقبلش حل جزئي، ولازلت مؤمن بالعسكري المصري.. ومؤمن بأننا نستطيع نعمل حاجة.. وأنه أشرف لنا إن إحنا نموت وإحنا واقفين وراسنا في سابع سماء.. عن أننا نتخاذل ونقبل أي حاجة.. وخاصة بعد ما بذلنا كل ما نستطيع وبإخلاص.. وبليالي طويلة ما بينامش الإنسان إطلاقاً..

« الناس كلها مستقرة بره في الصيف وأنا قاعد في المعمورة.. وبالليل.. كنت أقول

لابني.. طلعتني يابني بره المعمورة أشم هوا..  
وأنا أرجع ما أنا مش.. بيانات طويلة.. الشعب  
طيب.. وأصيل.. واداك اللي عنده.. لحظة تمنها  
غالي.. ثمن كبير.. ممكن الواحد ينام طويلاً  
خلاص، وإذا كانت العملية على «الكرسي»  
نقبل أي حاجة، وندخل في عقول الناس أي  
تهريج وأي مزايدات وخلص، أنا ما عملتش  
هذا أبداً، ولا قيمة للكرسي عندي، إذا ما كانش  
فيه كرامة.. أبداً...

«كان عندي ناس ديك النهار بتكلمني، وقلت  
والله القرارات.. قرارات 8 يوليو ما تساوي أي  
شيء.. القرار باكتبه من ثلاثة أسطر لرئيس  
مجلس الشعب.. يوم ما أحس إنني مش كفاء،  
أو يوم ما أحس إن إحنا مش قادرين، أقول  
لهم.. دوروا على حد تاني يمشي، لأنني أنا غير  
كفاء إنني أمشي في هذه المهمة.. ما بيساوي  
عندي شيء، ولا بيزود ولا بينقص علي حاجة..

«إحنا أمام امتحان قدام شعبنا في المقام الأول.. قدام رجولتنا.. تاريخنا كله.. قدام أجيالنا اللي جاية.. هل إحنا موجودين، والأ مش موجودين.. ربنا يوفقكم.. وشكرًا..».

بهذه العبارات التي أنهى بها الرئيس السادات حديثه التاريخي الذي نفذ إلى قلوب الحاضرين جميعًا - وهز وجدانهم من الأعماق - انتهى اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة، الذي دعينا لحضوره على عجل مساء الرابع والعشرين من أكتوبر عام 1972.

أرجو ألا أكون مبالغًا في إحساسي إذا قلت إنني شعرت ليلتها بأن حديث القائد الأعلى عن «اختبار القدر الذي نواجهه» وتساؤله الذي أحسنا جميعًا بأنه نابع من وجدانه - حول «إحنا موجودين ولأ مش موجودين».. ثم إحساسه بالألم وهو يقول «وكفاية سمعنا كلام كثير.. وتجريح كثير.. ولحظة لازم نواجهها.. محكوم علينا من الكل إن إحنا ناس لا قدرة

لنا.. خلاص.. مشلولين».. كل هذا.. أحسست بأنه تعبير عن مشاعر الرجال في القوات الجوية، التي تحملت ما لم يتحمله سلاح جوي في العالم من اتهامات ظالمة، أراد العدو بها أن يهز ثقة مصر في سلاحها الجوي، وفي طيارها المقاتل.. بل إن بعض القيادات السابقة - ممن كانوا في موضع المسؤولية أثناء «وقوع هزيمة» 5 يونيو 1967 - لم يتورعوا عن التهجم على قواتنا الجوية، واعتبروها «الشماعة» التي تحمل أخطاء الآخرين، كنوع من الدفاع الهروبي عن أخطائهم الشخصية في تلك العمليات.

أحسست ليلة الرابع والعشرين من أكتوبر 1972 - سواء أثناء الاجتماع، أو بعد انتهائه، ثم في بيتي وطوال ليلة مشحونة بالأرق والعواطف والفكر والشعور الرهيب - بضخامة المسؤولية التي تنتظرنا.

.. أوجز السادات المعنى: «إحنا أمام امتحان قدام شعبنا في المقام الأول.. قدام رجولتنا.. تاريخنا كله.. قدام أجيالنا اللي جايه.. هل إحنا موجودين والأ مش موجودين».

وإذا كان المنطق الجدلي يسمح بوجود أكثر من إجابة للسؤال الواحد، فإن هذا السؤال بالذات لم تكن له إلا إجابة واحدة.. أن نثبت للعالم ولشعبنا المصري - ولأمتنا العربية - أننا موجودون، وأن يعترف العدو الذي كثيرًا ما تجنّى على المقاتل المصري - في البر والبحر والجو - بأن هذا المقاتل موجود بالفعل، وقادر على تدمير خصمه في مواجهة صدامية دامية.

لقد أصدر القائد الأعلى قراره التاريخي - يوم 8 يوليو كمقدمة حتمية، لإعداد مصري خالص للمعركة، وإذا كانت التفسيرات - وقت صدور القرار - قد تباينت حول دوافعه وأهدافه، فإننا - نحن رجال القوات المسلحة

المصرية - لم نتردد لحظة في فهم المغزى الحقيقي للقرار، الذي أراد أن يحمي شرف العسكرية المصرية، من أي ادعاء قد يتناول به أحد، ليمس قدرة العقل المصري على التخطيط العسكري، على أعلى مستويات التخطيط القائم على استيعاب فنون الحرب الحديثة، والمعرفة الكاملة بقواعد الفكر العسكري المعاصر.

كنا - في القوات المسلحة على اختلاف أفرعها وأسلحتها - توقعنا بعد صدور قرار إنهاء مهمة الخبراء السوفييت، اقتراب موعد المعركة.. إذ بعد ثلاثة أشهر ونصف من صدور القرار دعا السادات إلى عقد اجتماع للمجلس الأعلى للقوات المسلحة، ليضعنا أمام مسئوليتنا التاريخية، وأمام قدرنا الذي لا بد من مواجهته، لكي نفي بحق هذا الشعب علينا، بعد أن أعطانا هذا الشعب الطيب الأصيل كل ما أردنا، ولم يبخل علينا بشيء.

في هذه الليلة لم يحدد ساعة الصفر لكنه على الأقل أعطانا الضوء الأخضر، كي نتحرك بسرعة - كل في مجاله لإعداد خططنا التي ستوضع موضع التنفيذ، عندما تحين اللحظة التاريخية، التي طال بالرجال الشوق للقائها.. بعد أن قضوا حتى تلك الليلة أكثر من ست سنوات في تدريب شاق وإعداد متواصل.. وطال بشعبنا المصري، وأمتنا العربية الصبر في انتظارها.

في تلك الليلة التي لا تنسى سألت نفسي: إذا كانت مهمة قواتنا البرية - عندما تشتعل المعركة - معروفة مقدّمًا، وواضحة المعالم أمام الرجال، الذين عليهم أن يعبروا القناة، ويحطموا الأسطورة التي سماها العدو «خط بارليف» ثم يندفعوا شرقًا لكي يدمروا قوات الدعم التعبوي والاستراتيجي التي سيدفع بها العدو إلى الأمام.



وإذا كانت بحريتنا المصرية، تعرف مهامها القتالية والهجومية في المعركة المقبلة، بعد أن مارستها بنجاح ساحق، في العمليات التي دخلتها ضد العدو، سواء بحماية مياها الإقليمية، والتسلل الناجح لضرب أهداف العدو البحرية - الثابتة في الموانئ، أو القطع المتحركة في البحر - وكذلك في عمليات المعاونة لباقي أفرع القوات المسلحة، كعمليات المعاونة في الإمداد والإنزال البحري للقوات..

إذن ما الدور الذي يجب أن تقوم به قوات السلاح الجوي المصري، في المعركة، لكي تسترد شرفها العسكري من جهة، وتثبت وجودها المؤثر في العمليات، سواء بالدعم والمعاونة والحماية لقواتنا الزاحفة في الخطوط الأمامية وأهدافنا الحيوية داخل العمق المصري، أو بالعمليات الهجومية المستمرة - طوال العمليات - بحيث تذيب قوات العدو مرارة القصف الجوي المركز، التي

تجرعها مقاتلنا البري في عمليات 1956 و1967؟

قلت لنفسي: لو كان سلاحنا الجوي، يستعد لدخول المعركة المقبلة، في ظروف عادية، كغيره من الأسلحة الجوية في العالم، لكفاه أن يقوم بالدور التقليدي للقوات الجوية، من طلعات هجومية وقتالية، تحقق للقوات البرية الحماية الجوية اللازمة، وتوفر الدعم اللازم لضربات الهجومية على مسرح العمليات.

ولكن سلاحنا الجوي يدخل المعركة، وهو محمل بأوزار ضربتين جويتين - في عامي 1956 و1967 - خرج على أثرهما من المعركة قبل أن تتاح له فرصة لإثبات وجوده وقدراته.. وإذا كان «الدواء من جنس الداء» - كما تقول الحكمة العربية المأثورة - فإن استرداد سلاحنا الجوي لثأره من العدو، ودفاعه عن شرفه العسكري، يجب أن يبدأ من

نقطة محددة لا بديل لها، هي الرد على العدو بنفس اللغة.

لقد تعرض هذا السلاح - مرتين - لضربة جوية مركزة، حطمت الجزء الأكبر من طائراته، وهي جاثمة على الأرض، وحرمت الطيار المصري المقاتل من وسيلته الفعالة لإثبات وجوده، وعرضته لأبشع ما يتعرض له مقاتل وهو «التشكيك في شجاعته.. وفي قدرته على مواجهة خصمه، بل التشكيك أصلا في صلاحيته لعبء القتال الجوي». ذلك التشكيك الذي يُدمي النفس ويجرح الكرامة، والذي عبّر الرئيس القائد الأعلى عن إحساس الرجال به حين قال «وكفاية سمعنا كلام كثير.. وتجريح كثير».

يجب أن يدفع العدو ثمن فعلته.. والثمن الغالي هو - في الوقت نفسه - العلاج الوحيد الذي يشفي جرح الإهانة التي وجهت لنا - نحن رجال السلاح الجوي - بضربة جوية مركزة

يقوم بها طيارونا المقاتلون، ضد مطارات العدو ومواقعه العسكرية المؤثرة.. ضربة ذات حجم هائل.. لا نقلد فيها أحدًا.. سواء على مستوى التخطيط المحكم، أو التنفيذ الدقيق - ونلقن العدو بها درس العمر، ونعلمه احترام الطيار المصري ونرد لهذا الطيار سمعته، ونعيد إليه مكانته التي هو جدير بها بين شعبه، ووسط قواته المسلحة الأم.

هكذا ولدت الفكرة الأولى.. للضربة «صدام».. بمعناها وأبعادها وفلسفتها وأهدافها.

في ضوء هذا: ما هي أبعاد العملية «صدام» التي رد بها طيارونا المقاتلون ردًا عمليًا حاسمًا على كل ما وجه إليهم من إهانات، قبل 6 أكتوبر 1973؟ وما المقدمات الأساسية التي تمت دراستها قبل التحضير للعملية ذاتها؟ وما القواعد التي قامت عليها - سواء في التخطيط أو التنفيذ - بحيث تصل إلى تحقيق أهداف

معينة لا تزيد عليها ولا تنقص؟ وما هو الجديد، وما التقليدي في العملية من بدايتها كفكرة إلى نهايتها المادية، كضربة جوية مركزة، أحدثت ما أحدثته من دمار على الجانب المعادي، بأدنى قدر من الخسائر في طائراتنا المهاجمة، وبأعلى نسبة من إصابة الأهداف والدمار الذي لحق بالعدو؟ ثم ما الفوارق الأساسية التي تفرق بين «عملية طوق الحمامة» الإسرائيلية وعملية «صدام» المصرية وما الميزات الواضحة، سواء على مستوى التخطيط أو التنفيذ، التي تدفع المحلل العسكري - المحايد - إلى الحكم بتفوق العملية المصرية، على العملية الإسرائيلية؟

في بداية تحليلنا للعملية «صدام» لا بد من الإشارة إلى بعض الحقائق المهمة، التي اعتبرت قيادة الجو المصرية - وهي بسبيل التخطيط العلمي للعملية - مقدمات أساسية، لا بد من احترامها، والتصرف على أساسها سواء

في مرحلة التخطيط النظري البحث للعملية، أو التحضير لها أو التدريب العملي على تنفيذها. أولى الحقائق التي راعتها قيادة الجو المصرية - في تخطيطها للعملية «صدام» - هي «تحديد موقفها من العدو الجوي» موضوعيًا، يصل إلى حد الصرامة في واقعيتها، دون تهوين أمر هذا العدو أو انتقاص من قدراته الحقيقية، ودون تهويل أو مبالغة في تقدير ما يملكه العدو من عتاد وخبرة قتالية.

ميزة هذه الموضوعية في تقدير قوة العدو، أنها تحمي واضع الخطة أولاً، من الانسياق وراء أحلام يقظة كاذبة، قد يرتفع بها الغرور وخداع النفس، إلى مستوى الحقيقة الواقعة، الأمر الذي يدفع المخطط إلى منزلق بالغ الخطورة.. يؤدي به إلى بناء خطته على أساس غير حقيقي، بحيث تنتهي الخطة عند وضعها موضع التنفيذ على مسرح العمليات إلى كارثة قومية، إذا كان قد استهان بقوة الخصم، أو

إلى تجميد قواته الجوية، إذا كان قد بالغ في تقدير قوة عدوه الجوي.

كما أن الموضوعية في وزن قدرات العدو الجوي، تحمي الطيار المقاتل الذي يعهد إليه بتنفيذ الخطة، من المفاجآت غير المحسوبة، التي تعرض الطيار لصدمة نفسية خطيرة، حين يكشف أن قيادته قد ضلته - بالجهل أو بالخدعة - عن حقيقة عدوه، فضلا عما يتعرض له الطيار بسبب المفاجآت غير المحسوبة من كمائن جوية، أو غيرها من مخاطر الحرب الجوية غير المدروسة.

من هذه الحقيقة الأساسية، تحركت قيادة الجو المصرية - وهي تخطط للعملية «صدام» - على أساس أن الطيار المصري المقاتل، سيواجه عدوًا مدربًا تدريبًا جيدًا، ووراءه رصيد من الخبرة والممارسة القتالية - سواء في عمليات 5 يونيو، أو ما تلاها من عمليات قام بها العدو طوال مراحل «الصمود»

و«الردع» و«الاستنزاف» التي سبقت 6 أكتوبر.

بالإضافة إلى ذلك هناك حقيقة ما يملكه العدو من إمكانيات عالية المستوى في العتاد والسلاح الجوي، تجعل الطيار الإسرائيلي مزودًا - من الناحية النفسية على الأقل - بكفاءة معنوية عالية، يمدّه بها إحساسه بالاطمئنان الكامل إلى طائرته وإمكانياتها العالية، كما أن خروج سلاح الجو الإسرائيلي سليمًا - في عمليات العدوان الثلاثي عام 1956 - وانتصاره السريع في عمليات 5 يونيو 1967، من العوامل التي تزيد من ثقة الطيار الإسرائيلي بنفسه.. وكلها عوامل قدرتها قيادة الجو المصرية حق قدرها، وهي تخطط لعملية «صدام».

صحيح أن سلاح الجو المصري كان - قبيل السادس من أكتوبر - قد انتقل إلى مرحلة، تعتبر بالمقاييس العسكرية السليمة، مناقضة



تمامًا، لما كان عليه السلاح نفسه عام 1967، سواء من حيث التنظيم العام لهيكل السلاح وأجهزته ووحداته، أو من حيث الأسلوب العلمي الذي يدور به العمل تخطيطًا وتدريبًا.. ولكن هذا المستوى المرتفع الذي حققه سلاحنا الجوي، لم يدفع بقيادته إلى الوقوع في مصيدة الغرور، ومركب العظمة، أو تجاهل حقيقة الخصم، وما يملكه من قدرات.

هذه الواقعية في النظرة إلى العدو - التي تمثل أعلى مستويات الصدق مع النفس - هي التي حمت الطيار المصري المقاتل - ظهر السادس من أكتوبر - من التعرض لمفاجآت غير محسوبة، وهي التي ضمنت لسلاحنا الجوي، الاستمرار في القيام بواجباته القتالية والهجومية، طوال أيام المعارك، بحيث كانت قواتنا الجوية - كما قال الفريق أول محمد عبدالغني الجمسي القائد العام للقوات المسلحة

ونائب رئيس الوزراء ووزير الحربية - «هي التي بدأت الحرب وهي التي أنهتها».

بمقتضى القواعد السليمة للفكر العسكري، فإن واقعية المخطط في نظرته للعدو وتقييمه لقدراته القتالية، تؤدي بالضرورة إلى الواقعية في تحديد «أهداف العملية» التي يخطط لها، بحيث لا يندفع واضع الخطة، وراء أهداف جنونية، قد تبدو براقية ومغرية، ولكن الاستسلام لبريقها الخداع يحمل في ثناياه مخاطر الوقوع في كارثة مدمرة.

هنا يبرز الفارق الأول بين موضوعية العملية المصرية «صدام» - في نظرتها للعدو الإسرائيلي - وبين جنون عملية «طوق الحمامة» الإسرائيلية واستهتار مخططها عام 67 ويكفي أن نسأل الجنرال «هود».. ما هو المصير الذي كان سيلاقيه طياروك في 5 يونيو، لو أن قيادة الجو المصرية، أجرت

تعديلاً واحداً مفاجئاً، على الأسس التي بنيت عليها خطتك كلها؟

وعلى سبيل المثال.. ما الذي كان سيحدث صباح الإثنين 5 يونيو، لو أن سلاح الجو المصري تخلص - في ذلك اليوم - من نظرية «أول ضوء» التي تحدد ساعات الخطر الجوي المعادي، بالفترة الواقعة بين شروق الشمس وبين التاسعة صباحاً، وقد كانت هناك أصوات مصرية تنادي بهذا التعديل..؟.. وما موقف طياريك عندما يصدمون بوجود مظلة حماية جوية - من طائراتنا المقاتلة - تتصدى لهم بنيرانها، قبل أن يصلوا إلى المطارات المصرية؟

والإجابة معروفة مقدماً.. لو أن قيادة الجو المصرية، أقدمت على إجراء هذا التعديل الوحيد في خطتها الدفاعية، لانهارت عملية «طوق الحمامة» من أساسها، ولتحولت الضربة المكثفة التي تلقاها الطيران المصري - صباح 5

يونيو - إلى مطرقة هائلة تدق رأس الجنرال «هود»، وتسحق طياريه الذين قاموا بتنفيذ عملية بنيت على مخالفة صارخة لمبدأ مهم من أخطر مبادئ التخطيط القتالي، وهو «الموضوعية في تقدير قوة العدو».

مثال آخر على عدم الموضوعية في تقدير قوة الخصم، التي اتسمت بها خطة الجنرال «هود»، وهو أنه بنى خطته أساسًا على افتراض نظري بحت؛ وهو أن سلاح الجو المصري لا يملك - في عام 1967 - أجهزة رادار تعمل في الطبقات المنخفضة، وبالتالي وضع خطته على أساس اقتراب طائراته من أهدافه وهي تطير على ارتفاعات منخفضة، وإذا كان الحظ الحسن وحده قد لعب دوره في هذا الجانب، ونفذت عملية «طوق الحمامة» دون أن تنجح شبكة الرادار المصرية - ذات النبضات العالية الارتفاع - في اكتشاف الطائرات الإسرائيلية، فما المصير الذي كان

ينتظر هذه الطائرات، لو أن سلاح الجو المصري كان قد حصل - بطريقة سرية - على شبكة رادار ذات نبضات قادرة على العمل في الارتفاعات المنخفضة؟

وبعكس هذا الاستهتار الكامل بالعدو - الذي يتجلى كعيب واضح يدين واضع خطة «طوق الحمامة» الإسرائيلية - نجد العملية المصرية «صدام» تنطلق من أساس موضوعي في نظرتها للعدو وقدراته الحقيقية، بحيث تتجه إلى تحقيق أهداف محددة - ستعرض لها بالتفصيل - دون أن تتجاوز هذه الأهداف إلى مغامرات جنونية قد يدفع إليها الاغترار بالنفس، أو تجاهل قدرات الخصم، حتى في أثناء التخطيط لتفاصيل العملية «صدام» نجد العدد الذي قام بتنفيذها من طائراتنا - وهو اثنان وعشرون ومائتا طائرة من مختلف الأنواع - فضلا عن طائرات الحماية والاعتراض، يشير إلى أن المخطط الجوي

المصري، وضع في حساباته الدقيقة، كل احتمالات المخاطر المفاجئة التي يمكن أن تتعرض لها العمليات أثناء التنفيذ، سواء من حيث وسائل الإنذار المعادي المبكر - التي يملك العدو أحدث أنواعها - أو من حيث وسائل الدفاع الجوي الثابتة والمتحركة.

هذا الحساب الدقيق للمخاطر والمفاجآت المحتملة من جانب العدو - الذي لم نتجاهل ما عنده من وسائل وإمكانيات وخبرة - هو الذي أدى إلى نجاح الطائرات المصرية في تنفيذ ضربتها المركزة «صدام»، وعجز العدو عن التصدي لهذا العدد المخيف من الطائرات - الذي لم يسبق أن اشترك مثله في عملية هجومية واحدة - بل إن كثافة عدد الطائرات المصرية المغيرة - فضلا عن قدرتها على إحداث أكبر قدر من التدمير للعدو بسرعة وفي وقت واحد - أدت أيضًا إلى نتيجة رائعة كانت محسوبة تمامًا، وهي إصابة طياري

العدو بالفزع والرعب، وهم يشاهدون سلاحنا الجوي يهاجمهم بهذه الكثافة والإصرار، الأمر الذي أدى إلى اهتزاز ثقتهم بقيادتهم التي خدعتهم طويلاً، وهونت لهم كثيراً من أمر سلاح الجو المصري وأمر طياريه.

رد الفعل الطبيعي لمثل هذه الصدمة النفسية - كما تؤكد أبحاث علم النفس الحربي - هو انخفاض الكفاءة النفسية للطيار المقاتل وما يتبعه من انخفاض قدراته القتالية وهبوط مستواه وعجزه عن التحكم في طائرته والاستفادة من إمكانياتها العالية.. وهو ما حدث بالفعل في الساعة الثانية وخمس دقائق من بعد ظهر 6 أكتوبر بالنسبة للطيارين الإسرائيليين، الذين فكروا -بعد فوات الأوان - في القيام بعمليات التصدي المهزوزة لطيارينا أثناء تنفيذ العملية «صدام».

بنفس الموضوعية التي نظرنا بها للطيار الإسرائيلي - قبل 6 أكتوبر - نقرر الآن،

وبحيادية مطلقة، أن ضعف هذا الطيار الذي بدا واضحًا أمام طيارينا، وعجزه عن التصدي لنا في ذلك اليوم، لم يكن مرجعه إلى عدم خبرة طياري سلاح الجو الإسرائيلي، أو هبوط مستواهم التدريبي والقتالي بوجه عام.. ولكن هذا الضعف الذي اعترف به الجميع يرجع إلى تجاهل العدو لقدرات طيارينا - ذلك التجاهل الذي استمر سنوات - كما يرجع إلى موضوعية قيادة الجو المصرية في تقديرها للقدرات الحقيقية للعدو، واستعدادها الجيد، لما تفرضه عليها معرفتها الموضوعية بهذا العدو.

ببساطة شديدة: كان العدو مغرورًا بنفسه، مستهينًا بنا.. وكنا واثقين من أنفسنا، وعارفين بقدرة العدو، مؤمنين بأنه أشرف لنا - في ساحة العمليات - أن نتصر على عدو ذي خبرة وإمكانيات، ونعد للنصر عليه ما استطعنا، من أن نتصر دون جهد، على عدو مستضعف بلا حول ولا طول.



أما الحقيقة الثانية التي وضعتها قيادة الجو المصرية - وهي بسبيل وضع الخطة «صدام» - فهي توقع «المفاجآت» من العدو، احترامًا من هذه القيادة، لمبدأ «إن العدو عنده دائمًا ما يخفيه»، وضمانًا للوصول بالخطة المصرية، إلى تحقيق الهدف المحدد لها، حتى لو تعرض التنفيذ لأي مفاجآت يكون العدو قد أحكم إخفاءها في الفترة السابقة للعمليات، وما يمكن أن ينتج عن هذه المفاجآت، من تعويق ولو جزئيًا لأهداف الضربة الجوية.

أكشف الآن واحدًا من أسرار التخطيط الشامل لحرب أكتوبر 1973 - بوجه عام - والتخطيط للقوات الجوية - بوجه خاص - التي كان قد تقرر على مستوى القيادة العليا، أن تكون الضربة الجوية المركزة التي تقوم بها، هي الضربة الأولى والأساسية، التي تشتعل بعدها الجبهة، ويندفع الرجال لعبور

القناة، والالتحام بالعدو المتحصن في دشم ومواقع خط بارليف.

هذا السر الذي أكشفه الآن، يقدم الدليل الحاسم، على أن المخطط الجوي المصري - أثناء وضعه لتفاصيل العملية «صدام» - كان واقعياً إلى أبعد الحدود، وصادق تماماً - سواء مع نفسه، في حدود معرفته بإمكانيات سلاحه الجوي، أو مع معرفته الدقيقة بما يتمتع به العدو من ظروف مواتية.. من هذه الواقعية.. ولكي أفصح عن هذا السر بطريقة منطقية متراتبة.. فإنني أحدد خطوات خطة ضربتنا وكيف تم رسمها وتوقع احتمالاتها:

1 - في الموعد المحدد لبدء العملية «صدام» - أي الساعة 2.05 - تندفع الطائرات المصرية، المكلفة بالمهمة، شرقاً، وتخترق خط الجبهة، حيث تقوم - وفي وقت واحد، تم حسابه بالثانية - بقصف مركز للأهداف والمواقع المعادية، التي رُئي - سواء على

مستوى التخطيط المتخصص للقوات الجوية، أو على مستوى التخطيط الشامل لقواتنا المسلحة كلها أنه لا بد من تدميرها، وإسكاتها تمامًا، قبل اندلاع الحرب، حتى نوفر لقواتنا التي ستعبر القناة بعد نجاح الضربة الجوية، أقصى ما يمكن توفيره، من ضمانات الأمن، وعدم التعويق المؤثر لمجهودها الرئيس في العمليات.

أستطيع أن أؤكد أن التخطيط لهذه الضربة الجوية، قد تم بعناية شاملة، وأن الدراسات التي توافرت للمخطط الجوي المصري، شملت كل ما يتصل بالعملية على الجانبين المصري والإسرائيلي، بحيث تتوافر للخطة - وللطيّار المصري المقاتل الذي سيكلف بتنفيذها - أقصى ضمانات النجاح.

لو أن المخطط الجوي المصري، اكتفى بهذا الجهد الشاق، الذي بذله في دراسة كل ما يتصل بالضربة الجوية التي يخطط لها

بعناية - تبلغ حد الحذر والتدقيق الصارم في كل شيء - لما كان هناك ما قد يؤخذ عليه، ولجاز له أن يعلن - بينه وبين نفسه على الأقل - أنه قام بواجبه على الوجه الأكمل، في وضع خطة محكمة الإعداد.

وهنا ينكشف السر الذي أشرت إليه، وهو أن المخطط الجوي المصري وضع في حساباته الدقيقة احتمال نجاح العدو في استخدام ما قد يكون عنده من إمكانيات غير معروفة لنا، بحيث يتمكن من امتصاص جزء كبير من تأثير الضربة الجوية التي سنوجهها لمواقع وأهدافه المؤثرة، في الساعة 2.05 بعد ظهر السادس من أكتوبر.. وفي مواجهة هذا الاحتمال، بادر واضع الخطة المصرية، إلى التفكير في الحل السريع الذي يضمن تحقيق أهداف الضربة الجوية بأعلى نسبة من إصابة الأهداف، وبأقل قدر من الخسائر بين طائراتنا،

وهذا الحل الذي نزيح الستار عنه الآن، يتمثل فيما يلي:

2 - أن تقوم قواتنا الجوية - في تمام الساعة الرابعة والنصف بعد ظهر 6 أكتوبر - أي بعد مرور نحو الساعتين والنصف، بتوجيه ضربة جوية ثانية، بنفس المستوى العالي من التركيز، وعلى الأهداف نفسها التي تم قصفها في الضربة الأولى.

أهمية الحل الذي فكر فيه المخطط الجوي المصري، لمواجهة أي تعويق من العدو لأهداف الضربة الأولى، تكمن في توضيح الحقائق التي تؤكد صحتها قواعد القتال الجوي الحديث، والتي كانت موضع احترام من المخطط الجوي المصري، وهي:

**أولاً:** إنه في حالة نجاح العدو الإسرائيلي، في تعويق المجهود الرئيس للضربة الجوية الأولى التي ستقوم بها طائراتنا - الساعة 2.05 - فإن طيارينا المقاتلين، الذين سيشتركون في

العمليات الأولى، سيكتشفون الوسائل والإمكانيات التي استخدمها العدو في مقاومته لهم، وبالتالي، فإن الضربة الثانية، ستتم، وقد انكشف تكتيك العدو، وأزيح الستار عما كان يخفيه من أساليب قتالية أو إمكانيات مستحدثة، الأمر الذي يضعف من تأثير هذه الأساليب المستحدثة - إن وجدت - لأن الطيار المصري المقاتل، عند قيامه بتوجيه الضربة الجوية الثانية، سيكون عارفاً بما عند العدو، واثقاً من قدرته على التعامل معه، بعد أن زال عنه عنصر المفاجأة، الذي يمكن أن يكون له في وجود الضربة الأولى.

**ثانياً:** إن قصر المساحة الزمنية التي تفصل بين الوقت المحدد للضربة الأولى، ووقت توجيه الضربة الثانية، لا يسمح للعدو بالتقاط أنفاسه، وإعادة أهدافه التي أصيبت في الضربة الأولى - أو دُمرت - إلى مستوى الصلاحية المؤثر في مقاومة الضربة

الثانية. فضلاً عن أن القوات الميدانية العاملة في الواقع التي دمرت - أو أصيبت - في الضربة الأولى، تكون كفاءتهم النفسية، قد هبطت بشكل فعال، يؤثر على كفاءتهم القتالية، التي لن تسعفهم في مقاومة الضربة الثانية.

**ثالثاً:** إنه في حالة نجاح العدو في امتصاص الجزء الأكبر، من الآثار التدميرية التي أحدثتها الضربة المركزة الأولى، فالأمر المؤكد أن الجانب الأكبر من اهتمامات العدو، عقب تلقيه لهذه الضربة المفاجئة، وبالكثافة التي تمت بها، سيتجه إلى محاولة إصلاح ما أعطب أو أصيب من أجهزته وعتاده - إن كانت هناك إمكانية لإصلاحه - ومعنى هذا، أن العدو سيكون مشغولاً طوال هذه الفترة في محاولة حصر الخسائر، وإصلاح ما يمكن إصلاحه من أعطاب، ولن يتجه بمجهوده الرئيس إلى محاولة الرد بضربة جوية انتقامية، قبل

الاطمئنان إلى سلامة موقفه، والعودة بهذا الموقف إلى ما هو قريب من المستوى السابق للضربة التي تلقاها.

هنا تتضح للمحلل العسكري، أهمية توجيه الضربة الثانية، التي ستضمن تحقيق النتائج التالية:

1 - استمر التصاعد في الخط البياني، الذي يمثل تدمير أهداف العدو، بحيث نصل بهذا الخط، إلى أقصى نقطة ممكنة، تمثل الهدف النهائي لخطة العملية «صدام».

2 - حرمان العدو من الهدوء الذي قد يساعده على استعاضة ما خسره من عتاد ومقاتلين، أو إصلاح ما أعطب من أجهزته ومنشآته نتيجة للضربة الأولى.

3 - منع طيران العدو من استخدام المطارات القريبة، في توجيه ضربة انتقامية، سواء ضد قواتنا الزاحفة، أو ضد أهدافنا العسكرية أو المدنية.



4 - توفير الحماية اللازمة لقواتنا البرية، في ساعات العبور الأولى، وذلك بمنع طيران العدو، الذي دمرت - أو أعطبت - مطاراته القريبة، ومواقعه المؤثرة، من القيام بأي عمليات هجومية، تعوق المجهود الرئيس لهذه القوات، خصوصًا في لحظات إنشاء رءوس الكباري وتأمينها، التي تعتبر أخطر مراحل العبور.

هكذا يكشف لنا هذا السر أن قيادة الجو المصرية، وهي تخطط للعملية «صدام» كانت مصممة على أن تحقق هذه العملية أهدافها على أعلى مستوى، ولكي تضمن القيادة المصرية هذه النتيجة، فقد خططت للقيام بضربتين جويتين مركبتين - لا يفصل بينهما سوى ساعتين ونصف الساعة فقط - بحيث تؤدي الضربة الثانية إلى تحقيق أهداف العملية «صدام» تحقيقًا كاملاً.

وإذا كانت الضربة الأولى قد نجحت في تحقيق الأهداف المطلوبة نجاحًا ساحقًا، أدى إلى الاستغناء عن توجيه الضربة المركزة الثانية التي كانت موضوعة في الخطة، فإن هذا النجاح نفسه، يعطينا المؤشر الصادق، والدليل الحاسم، على سلامة العملية «صدام» والمستوى الرفيع الذي حققه الإنسان المصري في هذه العملية، سواء كمخطط عسكري متمكن من فنه، أو كطيار مقاتل يتمتع بخبرة عالية، وروح معنوية قوية وقدرات قتالية مرتفعة تضعه على قدم المساواة مع أحدث طياري العالم المقاتلين.

تدري ما رأي جنرال الجو الإسرائيلي «مردخاي هود» صاحب عملية «طوق الحمامة» - التي كادت العسكرية الإسرائيلية أن تفرضها على التاريخ العسكري، باعتبارها خطة إسرائيلية، وهي لا تعدو في حقيقتها، أن تكون نسخة مقلدة من الأصل الإنجلوفرنسي،

الذي نفذ ضدنا عام 1956.. ترى ما رأي الجنرال «هود»، في هذا التمهيد العلمي الدقيق، الذي اعتبره المخطط الجوي المصري نقطة البداية الأولى في إعدادة لخطة الضربة الجوية المصرية «صدام».

وما رأي «مردخاي هود» - ومن ورائه كل جنرالات الجو الإسرائيليين، وكل صقور المؤسسة العسكرية الإسرائيلية - في ذكاء المخطط الجوي المصري، وفي قدرته الواضحة، على الاستفادة إلى أقصى حد، من نظريات وقواعد القتال الجوي الحديث، لكي يضمن لخطته الهجومية، أكبر قدر من النجاح، ويوفر لطياريه - عن طريق الدراسة الجادة - كل ما يستطيع توفيره من ضمانات، ضد المفاجآت غير المحسوبة، وعمليات الإجهاض المضاد، التي تعوق الضربة المصرية، وتنحرف بمجهودها الرئيس عن أهدافه الأساسية؟

ألا يعتبر «الجنرال هود» كل هذا، دعوة - غير مباشرة - للفكر، يوجهها الطيار المصري المقاتل - الذي أعيدت صياغته على أحدث ما تكون صياغة وإعداد الطيار المقاتل - لكي يفيق خصومه من أحلام اليقظة الكاذبة، التي نعترف بأنها أفادتنا كثيرا، لأنها ساعدتنا على العمل في صمت ولسنوات طوال، كان العدو فيها مشغولاً في اجترار إحساسه البالغ فيه بالنصر، وكنا منصرفين خلالها، إلى العمل والتدريب والإعداد، حتى وصلنا إلى اللحظة التي أقسمنا - عام 1967 - على الوصول إليها، مهما يكن الثمن، ومهما تكن التضحية.. وظهر السادس من أكتوبر، حلت اللحظة المرتقبة.. لحظة فرض الإرادة الجوية المصرية على مسرح العمليات.

وإذا كان التمهيد المبدئي لخطة العملية «صدام» قد راعى العلمية، واحترام المبادئ الأساسية للفكر العسكري، فما تفاصيل العملية

ذاتها، وما الإضافات التي قدمتها هذه الخطة المصرية الخالصة، للفكر العسكري، وفن التخطيط القتالي في الحرب الجوية؟

إن الفصول التالية تجيب عن كل هذه الأسئلة، وتكشف في الوقت نفسه، وبوضوح لا يحتمل التأويل أو التفسير - عن المصير الذي ينتظر أي محاولة طائشة قد يفكر العدو الجوي في الإقدام عليها، سواء ضد قواعدنا الجوية ومطاراتنا، أو ضد مواقع قواتنا المسلحة بوجه خاص.. أو ضد أهدافنا الحيوية في امتداد العمق المصري بوجه عام.

وهذا المصير الذي نعيه - والذي ينتظر أي مغامرة جنونية قد يفكر العدو في الإقدام عليها، تقليدا لما حدث في 5 يونيو 1967 - ليس مصيرًا افتراضيًا، مبعثه الوهم.. ولكن المصير المحتوم سيكون نتيجة حتمية لما يستطيع سلاحنا الجوي أن يصنعه بعدوه - جواً وبراً وبحراً - بعد أن وصل إلى ما وصل

إليه من مستوى بالغ الارتفاع، كسلاح جوي  
بالغ العصرية على جميع مستويات التخطيط،  
والتنظيم، والإعداد، والتدريب، ذلك المستوى  
الذي تفصح عنه التفاصيل «العملية.. صدام».

... لقد دهمت  
«الشرارة» بمجرد  
اندلاعها جيش  
إسرائيل، بينما كان  
يلهو في سكون عيد  
الغفران..

# كما لو أنها «بيرل هاربر» جديدة

قبيل السادس من أكتوبر 1973 - ببضعة أيام - صدر بيان للجنرال موشي ديان - وزير الدفاع الإسرائيلي في ذلك الوقت - قال فيه: «إنني لا أتوقع حربًا خلال السنوات العشر القادمة». وفي التاسع والعشرين من ديسمبر 1973 قال ديان أيضًا: «لم يكن تقييمنا لمدى كفاءة العرب وقدرتهم، رغم أننا كنا نعلم مقدمًا بطبيعة أسلحتهم، بحجم قواتهم، والجسور التي أقاموها لعبور قناة السويس».

إن المسافة بين تصريح الغرور والغطرسة وتصريح الهزيمة والتقصير والشعور بالذنب تمثلت في قوة ونجاح العملية المصرية التي مثلت بالنسبة لإسرائيل ماثلتها «بيرل هاربر»



للولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية..  
 وإذا كانت الولايات المتحدة - بحكم إمكانياتها  
 الواسعة - قد استطاعت أن تمتص الآثار  
 التدميرية الرهيبة، لهذه الضربة المركزة التي  
 تلقاها الأسطول الأمريكي، فإن الكيان  
 الإسرائيلي بمكوناته كان - ولا يزال - أضعف  
 من أن يخرج بسهولة من آثار الصدمة الرهيبة،  
 التي أنزلناها به، في «بيرل هاربر» الجديدة.

والسؤال هو: كيف نجحت الضربة الجوية  
 المصرية «صدام»، وما تلاها من ضربات  
 ساحقة وجهتها قواتنا المسلحة التي عبرت  
 القناة ظهر السادس من أكتوبر - في زلزلة  
 الكيان الإسرائيلي كله، بهذا الشكل الغريب  
 وغير المتوقع؟

1 - لقد كان الكيان المصري كله، مدنيًا  
 وعسكريًا - ومن خلفه كيان الأمة العربية  
 كلها - مصممًا على عبور الهزيمة إلى النصر،  
 بعد أن اجتزنا في صمت وإصرار، سنوات

الإعداد الشاق للمعركة، ولم يبق إلا انطلاق الشرارة.

2 - في الوقت الذي كانت القيادة العسكرية المصرية، تبذل فيه أقصى طاقتها في عمليات الإعداد وإعادة البناء داخل قواتنا المسلحة، بمختلف أفرعها وأسلحتها - كانت القيادة السياسية العليا تتحرك بسرعة وذكاء على جميع الجهات التي تكوّن ما يمكن تسميته بـ «مسرح العمليات السياسية» وإعداد هذا المسرح السياسي الدولي - ومن ورائه الرأي العام العالمي من ناحية، وحكومات العالم وهيئاته الرسمية من ناحية أخرى - بحيث يكون مستعدًا لمساندة الموقف العربي - أو الوقوف موقف الحياد على الأقل - عندما تندلع «الشرارة».

في عمليات 5 يونيو 1967، كان المخطط الجوي الإسرائيلي، ومن ورائه كل قادة إسرائيل العسكريين والمدنيين على السواء،

يستفيدون من ظروف سياسية مواتية لإسرائيل، ومعاكسة لمصر وللعرب بصفة عامة، وموجودة بالفعل على الصعيد الدولي، بسبب الأخطاء التي أشرنا إليها، والتي تمثلت في شعارات «الحروب العنترية» التي بالغنا في رفعها بشكل استفزازي، نجح في إثارة عواطف المجتمع الدولي ضدنا..

وقتها نجحت إسرائيل في شيء واحد، وهو تحويل هذا الرفض الدولي لنعمة الاستعلاء التي سادت المنطق العربي، إلى رفض للموقف العربي كله، ومساندة لإسرائيل «الحمل الوديع» الذي يهدده «الغول العربي» بإلقائه في البحر. أي أن الأمر، لم يكلف الدبلوماسية الإسرائيلية - عام 1967 - أكثر من التقدم بسرعة، للاستفادة من موقف مواتٍ تمامًا لإسرائيل، ومضاد تمامًا للعرب.

أما في أكتوبر 1973 - وقبيل اشتعال «الشرارة» - فقد كان الموقف مغايرًا تمامًا

لموقف وظروف إسرائيل. وتطلب إحداث التغيير الجذري في حركة الرأي العام العالمي واتجاهاته المؤثرة، تخطيطًا ذكيًا، وجهودًا مضنية، وتحركًا سريعًا ومتواصلًا، قامت به الدبلوماسية المصرية، طوال سنوات ما قبل أكتوبر، بحيث نجحت في النهاية، في عزل إسرائيل دوليًا، وخلق المناخ السياسي المواتي للموقف العربي، بشكل استفاد منه المخطط العسكري المصري إلى أبعد مدى، واستفاد منه المقاتل المصري؛ عندما حلت ساعة الصفر التاريخية.

ولكن.. هل يكفي نجاح التحرك الدبلوماسي المصري؛ في الإعداد السياسي لمسرح العمليات، لكي يحول ضربة السادس من أكتوبر، إلى «بيرل هاربور» جديدة، تنزل كالصاعقة على رأس الكيان الإسرائيلي، وتزلزله من الأعماق؟ والإجابة التي تفرضها الأمانة العلمية، بالنفي قطعًا.. فلم تكن عمليات

الإعداد السياسي - التي تحدثنا عنها - ورغم ما حققه خلالها العقل المصري من نجاح - إلا مقدمة ذكية لعامل أكثر خطورة وفعالية.. وهو: عامل المفاجأة.

لقد وضعت القيادة العسكرية لقواتنا المسلحة في اعتبارها - وهي تخطط لمعارك أكتوبر - ضرورة العناية بعنصر المفاجأة، وتحقيقه بشكل ساحق، يؤدي إلى فقدان العدو توازنه النفسي، بحيث يفشل في السيطرة على قواته، ويعجز عن تحريكها في الاتجاهات الصحيحة، في الفترة الأولى من المعارك - على الأقل - وبحيث لا تنجح قيادة العدو في استعادة سيطرتها على نفسها وعلى قواتها، إلا بعد فوات الأوان.

ومن هذا المنطلق العلمي - الذي تؤيده قواعد نظريات الفكر العسكري على اختلاف مدارسه، التي تؤمن بأهمية عنصر المفاجأة - نستطيع أن نقول إن المخطط العسكري

المصري، استفاد إلى أبعد مدى، من التحرك الشامل للدبلوماسية المصرية، واعتبره مقدمة طبيعية، لخطة واسعة المدى من الخداع العسكري للعدو على جميع المستويات الاستراتيجية والتعبوية والتكتيكية.

ففي الوقت الذي كانت فيه قيادة إسرائيل - العسكرية والمدنية - تسخر من التحرك السياسي المصري، على جميع المحاور التي أشرنا إليها، وتعتبر هذا التحرك الذكي المدروس، دليلاً على عجز العسكرية المصرية عن القيام بأي عمل تفرض به الحل العربي العادل للقضية. كان المخطط العسكري المصري، يغذي هذا الشعور المريض بالعظمة - الذي سيطر على العدو - بأن دفع إلى خطة التمويه الشاملة التي تقرر القيام بها، بالمزيد من وسائل الخداع القاتلة.

حقاً إن «الحرب خدعة» كما قال عنها رسول الله ﷺ، وتحضرني الآن - وأنا أسترجع

ذكريات هذه الفترة الدقيقة من حياة الإنسان المصري التي سبقت 6 أكتوبر - عبارات بالغة الذكاء، وردت في كتاب «فن الحرب» الذي كتبه الفيلسوف العسكري الصيني «صن تزو» - عام 500 قبل الميلاد - وتحدث فيها عن أهمية «الخداع» وما يحدثه من تحقيق عنصر المفاجأة للعدو: «الحيلة.. أساس فن الحرب». «سينتصر من أتقن فن الخداع، لأنه فن المناورة».

في حقيقة الأمر لم تكن «المفاجأة» عاملاً وحيداً.. بل اقترنت بما يفرضه شروط الفكر العسكري السليم لنجاح عنصر المفاجأة، وأهمها «السرعة» و«السرية الكاملة» اللتان لا تسمحان للعدو بالقيام بأي عمليات مضادة، لإجهاض الضربة التي تم التخطيط لها.

يقول القائد البروسي، مؤسس الجيش الألماني «فون مولتكه»: «ألاحظ أن هنالك دائماً ثلاثة طرق مفتوحة أمام العدو، ولكنه

يأخذ عادة الطريق الرابع.. وهذه ميزة القائد البارع.. أن يحسب للطريق الرابع الذي قد يسلكه العدو، بينما يكتشف هو طريقًا رابعًا لخطته، لم يخطر ببال العدو.

وللمبادأة تأثير كبير على سير الحرب.. لأن الجانب الذي يسبق عدوه بالعمل، يتحكم في سير المعارك من البداية ومصير الحرب كلها في النهاية بشرط أن يستمر في الاحتفاظ بالمبادأة، ليحقق نهاية الحرب لصالحه.. ولأن صاحب الأسبقية في العمل الهجومي سيستهدف بطيرانه وصواريخه تدمير قواعد وصواريخ خصمه ومعداته الجوية وتجمعاته الرئيسية ومراكز قيادته، ويشل إرادته على القتال، ولأن مبادأة العدو بضرية مفاجئة لتدمير قواته الرئيسية، الجوية، والبرية والصاروخية، قبل أن يستخدمها، ستحطم تمامًا معنويات العدو، وسترفع معنويات الجانب البادئ بالمفاجأة، نتيجة إحرازه بوادر



النصر.. لهذا السبب فقد اتجهت القيادة المصرية لتوفير أكبر قدر من المفاجأة للعدو على جميع المستويات.

ولا شك أن براعة الوسائل التي استخدمتها العسكرية المصرية في تحقيق «الخداع الاستراتيجي للعدو» - سواء من حيث التوقيت المبتكر للضربة، أو المقدمات «الخداعية» التي سبقتها - وما أحدثه هذا الخداع الاستراتيجي الناجح من مفاجأة كاملة للعدو، هو الذي دفع بالمحللين العسكريين الدوليين إلى وصف ما حدث يوم 6 أكتوبر، بأنه «بيرل هاربر» جديدة حلت بإسرائيل.

نجحت الخطة إلى أن قال وزير الخارجية الأمريكي الدكتور هنري كيسنجر، في مؤتمر صحفي، قبل نشوب حرب أكتوبر مباشرة بقوله: «إن كل تقارير المخابرات التي توافرت لدينا، وكل تقارير المخابرات التي قدمتها لنا دول أجنبية، ترى أنه ليس هناك احتمال نشوب

حرب.. وأن الحكومة الإسرائيلية لم تعتقد أن هناك هجومًا وشيكًا». أما بعد المعركة وفي يوم 28 ديسمبر 1973 فإنه اضطر أن يقول: «فاجأتنا حرب أكتوبر على نحو لم نكن نتوقعه، ولم تحذرنا أي حكومة أجنبية، بوجود أي خطط محددة لأي هجوم عربي».

ولا يفوتنا أن ننبه هنا إلى أن المفاجأة غالبًا ما تكون محفوفة بالمخاطر والمصاعب، لذلك فنجاحها يتوقف على الجرأة والعزم والتضحية، بجانب القيام بالعمل العسكري بسرعة ودون تأخير لكي يتحقق الكتمان.. وفي الوقت نفسه، تنزل الضربة بالعدو قبل أن يستعد لها، فيبقي مرتبًا لا يقوى على معالجة ما جرى له أو امتصاص آثار الضربة الأولى، خصوصًا إذا كانت ضربة مكثفة، كالعملية الهجومية «صدام».

في يوم 16 أكتوبر 1973 وأمام مجلس الشعب عبر الرئيس السادات عن ذلك بقوله:

«إن القوات المسلحة المصرية، قامت بمعجزة على أي مقياس عسكري، لقد أعطت نفسها بالكامل لواجبها، استوعبت العصر كله تدريبًا وسلاحًا، بل علمًا واقتدارًا.. وحين أصدرت لها الأمر أن ترد على استفزاز العدو، وأن تكبح جماح غروره، فإنها أثبتت نفسها. إن هذه القوات أخذت في يدها - بعد صدور الأمر لها - زمام المبادرة وحققت مفاجأة العدو، وأفقدته توازنه بحركتها السريعة.. ولست أتجاوز إذا قلت، إن التاريخ العسكري سوف يتوقف طويلاً، بالفحص والدرس أمام عملية يوم السادس من أكتوبر 1973».

وجاء في تقرير دور «ميدلتون» الخبير الأمريكي في شؤون الشرق الأوسط: «أثبتت تلك العملية أن المصريين قادرون على الإبقاء على السر، وأن في وسعهم أن يتصرفوا بقوة وحكمة. وفعلاً، لقد تلقى العالم أنباء الحرب،

من إذاعة جمهورية مصر العربية، بدهشة المفاجأة».

ولو أمعنا النظر بالدرس والفحص، في الوسائل والخدع التي عمدت إليها القيادات السياسية والعسكرية، في كل من مصر وسوريا.. فسنجد أنفسنا أمام عمليات مجهولة الأطراف، ليس أدل على نجاحها، من وقوع القيادات السياسية والعسكرية الإسرائيلية في الشراك التي نصبت لها، فتحققت المفاجأة المطلوبة، على أعلى مستوى من الخداع الاستراتيجي والتعبوي والتكتيكي للعدو.

إن الحديث عن «المفاجأة» يبدو بسيطًا بدون أن ننتبه إلى أنه كان ثمرة طبيعية، لحرص الإنسان المصري على كتمان السر.. بالإضافة إلى القدرة العالية على الانضباط، التي تميزت بها القيادات على جميع المستويات، الكبرى والصغرى، لا في مسرح العمليات وحده، بل على مستوى الدولة كلها،

سواء في ذلك، السادة الوزراء أو كبار المسؤولين في مختلف القطاعات وعلى الأخص المسؤولون عن الإعلام المصري.

لقد دهمت «الشرارة» - بمجرد اندلاعها - جيش إسرائيل بينما كان يلهو، في سكون عيد الغفران، فوجد جنود كثيرون داخل النقط الحصينة المكونة لخط بارليف يغسلون ملابسهم، وآخرون يطهون طعامهم أو يستحمون في مياه القناة.

ولقد ساعدت حالة الاسترخاء الدولية، التي صاحبت حالة اللا سلم واللا حرب، السابقة للسادس من أكتوبر 1973، على وضع قضية الشرق الأوسط في ثلاجة.. وظن الكثيرون بعدها، أن مدة بقائها تحت التجميد ستطول لعدة سنوات، وأن الزمن سيكون كفيلاً بفرض الأمر الواقع على الدول العربية.

وصل الأمر بوكالة «يونايتد برس» أن نشرت يوم 11 ديسمبر 1972 من بروكسل، خبرًا

يقول: «إن أربعين في المائة فقط من الأسلحة المصرية، وستين في المائة من طيراتها هي التي تعمل، ويقولون في بعض الدوائر الدبلوماسية البلجيكية، إن ذلك راجع بصفة رئيسة إلى سوء صيانة العتاد العسكري، وإلى نقص قطع الغيار المصنوعة في الاتحاد السوفيتي. وهناك تقرير سري يكشف عن أنه خلال التدريبات التي قامت بها مصر، منذ حرب الاستنزاف، فإنها فقدت على الأقل خمسين طائرة من الطائرات المقاتلة».

وفي 26 ديسمبر 1972، نشرت الفايينشيال تايمز مقالاً قالت فيه: «إن الجيش العربي، ليس مستعداً على الإطلاق للقتال، حتى إن كان جانب من هذا الجيش ينشد خوض حرب ضد إسرائيل، ومنذ أن غادر الخبراء السوفييت، فإنهم أخذوا معهم جزءاً لا يستهان به من أسلحتهم الحديثة، ففقد الجيش

المصري - ليس فقط - قدرته الهجومية، بل فقد أيضًا قدرته على الدفاع».

ومن القاهرة أيضًا، كتب «إيجورمان» المراسل الخاص لصحيفة «لاستامبا» الإيطالية: «إن الفساد ينتشر في مصر.. والجيش المصري لم يعد لديه ذخائر تكفيه إلا لأسبوع واحد». وكتب «رولان ولكور» محرر صحيفة «الموند» الفرنسية في تلك الفترة: «إن جانبًا كبيرًا من الخمسمائة أو الستمائة ألف جندي مصري مرابطون عند القناة، ولا يعرفون شيئًا عن القتال.. إنهم يُستخدمون في الخدمات المعاونة.. وأما الذين استدعوا أخيرًا إلى الخدمة العسكرية، فإنهم عاجزون تمامًا عن استخدام العتاد السوفيتي».

من هذا السيل - الذي نشر في معظم الصحف والمجلات العالمية - ابتلع العدو الطعم القاتل الذي أجدنا تقديمه له على طبق براق

اسمه «الصحافة العالمية» والتقارير السرية الموثوقة.

ورغم أن هذا التكتيك الذي يكمن في نشر أنباء ومعلومات زائفة في الصحافة الدولية، أمر معروف في الفكر العسكري وتتبعه معظم الدول المتقدمة، فإن الصحفيين غالبًا ما يجهلون أن المعلومات التي يحصلون عليها من «خبراء» أو من «مصادر موثوق بها» إنما هي معلومات زائفة، صنعت عمدًا، ولها أهداف معينة خداعية مرسومة بإحكام. ويعلق الصحفيون الإسرائيليون في كتاباتهم «كيبور» على ما كان يقدم للصحافة العالمية من أنباء زائفة مضللة، اتخذت بها إدارة المخابرات الإسرائيلية نفسها.. فيقولون: «لقد اعترف المشير أحمد إسماعيل على نفسه بانتهاج هذه الأساليب، وأشار إلى الخبر الذي نشره عن زيارة يقوم بها وزير الدفاع في رومانيا يوم 8



أكتوبر، وما نشر عن السماح للضباط والجنود بتأدية فريضة الحج..

« إن وزير الحربية المصري يؤكد أن مصر قد لجأت إلى سياسة تضليل العدو، وأن الأنباء التي تعطى للصحف كانت جميعها متعمدة، وأن مستوى الروح القتالية في الجيش المصري، قد صور على أنه منخفض.. وكل ذلك كان مناورة لها أثرها، إذا أضيفت إلى مفاجأة شن الحرب، الأمر الذي أتاح لمصر وسوريا في مواجهتهما لإسرائيل، أفضل الظروف للتفوق الأولي».

لقد كان لا بد لهذا الخداع التكتيكي، أن يؤدي دوره منذ الأيام الأولى من شهر أكتوبر، إلى التحركات الظاهرية للقوات المصرية، التي تمت تحت سمع وبصر الجيش الإسرائيلي، على أنه «تدريب عام» على هيئة مشروعات أو مناورات.. وهكذا.. حل عيد الغفران، والجيش

الإسرائيلي غارق في سبات عميق، مثل إسرائيل كلها.

كان هذا عملاً مخططاً، وقد انعكس بشكل حفيف على الأسلوب الواقعي الذي انتهجه قادة القوات الجوية المصرية، في الفترة السابقة لعمليات أكتوبر الحقيقية. كان أبسط الانعكاسات لدى جميع الضباط والأفراد، أن الإعداد والاستعداد الجاري على قدم وساق، ما هو إلا امتداد واستكمال لسلسلة المناورات التعبوية، التي كثيراً ما تدربوا عليها ونفذوها عشرات المرات حتى تعودوا عليها. وبلغ تصور الجميع على مختلف رتبهم ومناصبهم، أن ما سيجري لن يتعدى مناورة كبيرة، تشترك فيها أجهزة القوات المسلحة بأكملها، كما كان الشأن كل خريف.

لِمَ لا يكون هذا التصور صحيحاً.. وقد انشغل الجميع بما أذيع عن فتح باب العمرة والحج لضباط القوات المسلحة؟ وكان ذلك -

كما هو معلوم - غير مصرح به طوال حرب الاستنزاف وما بعدها. وتأكد هذا التصور، بما تعمدنا إذاعته وتناقلته جميع السلطات - بلا إجراءات تأمين - من إنهاء استدعاء أعداد كبيرة من جنود الاحتياط، كان قد تم استدعاؤهم قبل ذلك بفترة قصيرة، ونفذت إجراءات التسريح بالفعل بكل دقة واهتمام.

من جانبي شخصيًا، واستمرارًا في خطة الخداع الشامل للعدو، والتدقيق في إبقاء قرار بدء القتال حبيسًا في الصدور، لم أتوجه كقائد للقوات الجوية المصرية - وقتئذ - إلى مركز العمليات الرئيسي، إلا قبل ساعة الصفر بقليل، بعدما أعلن - وقتها - أنني أسافر يوم 6 أكتوبر، في مهمة إلى ليبيا تتعلق بالقوات المتمركزة هناك.. وبالفعل تم تجهيز الطائرة الخاصة بتنفيذ الأمور، وجعلت تحت الاستعداد، بعد تأجيل موعد إقلاع الطائرة، علانية على

شبكات التحركات، ليكون الموعد الجديد قرب الساعة الثانية بعد ظهر نفس اليوم.

وعندما توجه رئيس أركان القوات الجوية المصرية اللواء الطيار محمد نبيه المسيري إلى بعض القواعد الجوية، ليعطي اللمسات الأخيرة على خطة تنفيذ الضربة الجوية المركزة «صدام» لم يستشَفَ أحد ممن رافقه، أي شيء غير عادي.. فقد كانت التشكيلات الجوية قد تعودت على زيارات كبار القادة ورؤساء الأجهزة خلال فترات متقاربة.

واحترمت قواعد السرية بصرامة في كل شيء، منذ وضع اللمسات الأولى للخطة بواسطة عدد محدود من القادة، وعدم تداول وثائقها إلا بخط اليد، وعدم تحديد ساعة «س» إلا لدى عدد محدود جدًا من المستويات العليا للقيادة. وفضلاً عن ذلك فقد روعي الصمت اللاسلكي منذ إقلاع الطائرات لتنفيذ الضربة تمامًا حتى بلوغها أهدافها. وبلغ

الكتمان ذروته، لدرجة أن كثيرًا من العاملين في تجهيز الطائرات التي تحملت واجب القيام بتنفيذ الضربة الجوية الأولى المركزة، لم يكن يدرك شيئًا عن حقيقة مهمتها، ولم يتبين أحد أن الأمر جدّ، إلا بعد عودة هذه الطائرات من مهمتها، وطلب الطيارين إعادة الملء بالوقود والذخيرة.

تم اختيار يوم «الشرارة» وساعة «الصفرة»، على ضوء عوامل مدروسة لها آثار كبيرة على الطائرات وأداء الطيارين لمهامهم. وعبر المرحوم المشير أحمد إسماعيل عن ذلك في أعقاب المعركة بقوله: « كان تحديد يوم «ي» عملاً علميًا على مستوى رفيع، وهذا العمل سوف يأخذ حقه من التقدير، وسوف يدخل التاريخ العلمي للحروب، كنموذج من نماذج الدقة المتناهية والبحث الأمين».

لقد سأل «أرنودي بوجراف»، كبير مراسلي مجلة «نيوزويك» الأمريكية، الرئيس السادات

«ما العوامل الرئيسة في قرارك بتحديد السادس من أكتوبر يوما لبدء المعركة؟ وهل صحيح أن القرار الذي اتخذه نيكسون وبريجينيف في ربيع 1973 بوضع مشكلة الشرق الأوسط في اللاجئة، والبرنامج الذي أعلنه حزب العمل الإسرائيلي بعد ذلك وما انطوى عليه من برامج توسعية تهدف لضم الأراضي المحتلة، هي الأسباب التي رجحت كفة الحرب؟».

وأجاب السادات: هذا «صحيح جزئياً.. ولكن يجب أن تضع في اعتبارك عوامل أخرى، ففي البيان الذي صدر عن اجتماع القمة بين بريجينيف ونيكسون في موسكو في العام الأسبق، كانت هناك إشارة إلى الاسترخاء العسكري، وكان معنى هذا بطريقة أوتوماتيكية، أن حالة اللا حرب واللا سلم، سوف تستمر إلى أجل غير مسمى.. ولم يكن هذا بالأمر الذي يمكننا احتمالاه.

إن أحدًا من الاستراتيجيين في الولايات المتحدة أو إسرائيل، لم يصب شيئًا من الحقيقة في حدسه عن الأسباب التي دعنتني إلى طلب خروج المستشارين العسكريين السوفييت من مصر في يوليو 1972، لقد ظن الجميع أنني تخلت عن الحرب كوسيلة للخروج من المأزق، وقالوا جميعًا إنني لن أستطيع دخول الحرب بغير المستشارين السوفييت. حسنًا، ولكنني بخروج العسكريين السوفييت من بلادي، كنت أريد أن أكون على يقين من أن أحدًا لن يزعم في المستقبل أن ما فعلناه كان بإسهام وبمساعدة من السوفييت.

فإذا كان هناك نصر عربي، فلا بد أن يكون نصرًا عربيًا بكل الوضوح اللازم. وأي نصر يمكن أن يصفه العالم بأنه نصر غير عربي، كان جديرًا بأن يهزم كل أهدافي الاستراتيجية البعيدة المدى.»

تحقق للمفاجأة أهم أركانها.. وهي المخادعة، نتيجة لترحيل الخبراء السوفييت، قبل حرب أكتوبر مباشرة، يقول الجنرال «هارون ياريف» رئيس هيئة المخابرات والمهام الخاصة الإسرائيلية، حول ترحيل السوفييت وتأثيره: «في رأبي أن الآثار الرئيسة عسكرية وليست سياسية، فإنه نتيجة لرحيل الروس، يضعف الجهاز العسكري المصري، خصوصًا فيما يتعلق بالدفاع الجوي، كما أن إمكانية مصر على الدخول في أعمال حربية جديدة، قد قلت على الأقل في المستقبل القريب».

في كتاب كيبور يقول الإسرائيليون: «والواقع أن الشرك المصري كان جاهزًا تمامًا، يوم السبت 6 أكتوبر.. فقد اجتمع هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي بالدكتور محمد حسن الزيات مستشار الرئيس المصري، وجرى اجتماعهما في جو هادئ، وتناول الحديث مبادرة السلام التي كان كيسنجر يفكر



في القيام بها بعد الانتخابات التشريعية في إسرائيل، التي كان ينتظر إجراؤها يوم 29 أكتوبر، ولم يدرك كيسنجر إلا بعد اندلاع الحرب، أن الزيات الذي كان بالضرورة على علم بتاريخ الهجوم، قد قام بدوره خير قيام في مناورة التضليل، التي وضعت حساباتها في أدق تفاصيلها».

في ذات الكتاب يحلل الإسرائيليون سبب اختيار يوم 6 أكتوبر: «تحديد موعد الهجوم بيوم 6 أكتوبر لم تضعه هيئة أركان الحرب المصرية اعتباطًا.. فلقد كانت هناك عدة عوامل حاسمة، أولها أن الليلة التالية للهجوم مباشرة يجب أن يكون القمر فيها بدرًا، إذ إن ضوء القمر سوف يساعد قوات الهجوم في الساعات الحرجة.. وثانيها أن سرعة التيارات في القناة قد درست بعناية لإمكان اختيار وقت للعبور.. وثالثها أن الإسرائيليين سيكونون في يوم عيد الغفران أقل ما يمكن

استعدادًا ماديًا وسيكولوجيًا للرد على الهجوم».

بالنسبة للقوات الجوية كان اختيار اليوم «6 أكتوبر»، موفقًا لكونه في فصل الخريف، الذي يتميز بجو صحو في مصر والشرق الأوسط عامة تحسن فيه الرؤية على الطيارين وهم في الجو، ويقل فيه السحاب، ويندر فيه المطر.. مما يجعل مهمة الطيارين ميسرة. وكان القمر في تربيعة الأول، يغمر نوره كل المعالم الأرضية.. بما يسهل الطيران الليلي.

وكان اختيار الساعة الثانية بعد الظهر، لعبور الطائرات المصرية خط الجبهة لتنفيذ الضربة الجوية المركزة الأولى، مناسبًا لكون الشمس خلف الطائرات المصرية القادمة من الغرب، بينما تكون الشمس بالتالي في مواجهة الطائرات المعادية فيما لو حاولت صد الهجوم، ما يقلل من كفاءة الرؤية لدى طيارها الإسرائيليين. فضلًا عن أن الوقت المتبقي لدى

العدو، لإصلاح ما تعطل من مطاراته وممراته الرئيسية والفرعية، بين الساعة الثانية، ووقت الغروب، لم يكن يزيد على أربع ساعات، لا تكفي مطلقاً لإتمام أي إصلاح لإقلاع أي طائرات، ومن ثم فلن يتمكن العدو من الرد على الضربة المركزة قبل صباح اليوم التالي. وبالفعل لم تنشط طلعات طيران العدو إلا اعتباراً من صباح يوم 7 أكتوبر.

أسترجع الآن ما قاله الجنرال بارليف، المقترن باسمه الخط العسكري الشهير، وهو يبرر لماذا سقط الخط نتيجة للمفاجأة التي أحدثتها القوات المصرية.. إذ كتب: «لقد أخذنا الهجوم المصري على غرة، فلم يستطع هذا الخط الكبير، أن يستقبل في الوقت المناسب، القوات التي كان يجب أن تشغله وقت الحرب، ومن هنا فإن الخط لم يتحمل التجربة الحقيقية.. وبمعنى آخر، فإنه لم يواجه المصريين ساعة هجومهم عليه إلا باسمه».

في إطار خطة الخداع، قبل يوم الحرب بليلة، وفي الساعة الرابعة إلا عشر دقائق، من ظهر الجمعة 5 أكتوبر 1973، رفعت سماعة التليفون بمكتبي بقيادة القوات الجوية، متوجهاً بالحديث إلى خمسة من كبار ضباط السلاح.. وقد كانوا جميعاً ينصتون لي على الخط الداخلي.. قلت لهم: «أمام كل منكم ساعتان لتجهيز البيانات المطلوبة، إذا تقرر سفركم معي في مهمة عمل عاجلة إلى ليبيا، تستغرق أربعاً وعشرين ساعة.. وستخطرون بموعد الإقلاع».

عقب المكالمة المقتضبة، قام سكرتيري العسكري بالاتصال العاجل بالملحق العسكري المصري في طرابلس، لإبلاغه بموعد وصول الطائرة التي ستقلني مع هيئة القيادة إلى ليبيا.. وفي اللحظة نفسها تقريباً، وعلى تليفون داخلي آخر، تلقى قائد إحدى القواعد الجوية بمنطقة القاهرة الإشارة التالية: (تجهز طائرة

القائد لسفره ومجموعة قيادته إلى ليبيا..  
الإقلاع: اليوم الجمعة 5 / 10 / 1973 الساعة  
1800 قاعدة الهبوط: طرابلس.. العودة: باكر..  
تخطر الجهات المختصة، وتتم التصديقات  
اللازمة.. نوافي بتمام الاستعداد. انتهى).

قام قائد القاعدة الجوية بالإجراءات اللازمة،  
وتم بالفعل تعيين «طاقم الطائرة» التي ستقل  
قائد القوات الجوية في رحلته المفاجئة إلى  
ليبيا، واتخذت إجراءات تأمين الرحلة،  
بالاتصال بالدفاع الجوي، والطيران المدني،  
لتحديد خط السير في الممر الدولي.

في الساعة 1700 أي الخامسة من مساء  
الجمعة 5 أكتوبر تلقى سكرتيري العسكري،  
بلاغًا من قائد الطائرة بتمام الاستعداد. وفي  
الساعة 1740.. قام سكرتيري العسكري بإبلاغ  
قائد الطائرة بالإشارة التالية: (تؤجل الطلعة إلى  
باكر السبت 6 / 10 / 1973 يعمل ترتيب

الإقلاع الساعة 1000 أي العاشرة صباحًا.  
انتهى).

في الوقت الذي توجه فيه قائد الطائرة إلى استراحة المطار، ليبيت ليلته، في انتظار الرحلة التي لم تتم انصرف ضباط القيادة الجوية الخمسة الذين أبلغوا بالاستعداد للسفر معي إلى مكاتبهم، لكي يواصلوا أعمالهم التي كانوا مكلفين بها قبل المهمة المفاجئة. وتطلع شمس اليوم التاريخي، وفي الساعة التاسعة والنصف من صباح السادس من أكتوبر، يتلقى قائد الطائرة الإشارة التالية: (تحدد موعد الإقلاع، الساعة 1330 أي الواحدة والنصف بعد ظهر اليوم، انتهى).

وفي اللحظة التي انصرف فيها قائد الطائرة، لاتخاذ الإجراءات الخاصة بتنفيذ التعليمات الجديدة، تصدر من مكتب السكرتير العسكري، إشارة عاجلة أخرى، موجهة إلى كبار الضباط بقيادة القوات الجوية، تدعوهم إلى الاجتماع

بي في قاعة الاجتماعات الكبرى بمركز القيادة الرئيس، في تمام الساعة 12.30 أي قبل الموعد المحدد لسفري إلى ليبيا بساعة واحدة فقط.

وتم الاجتماع العاجل في مواعده ومكانه المحددين وتلقى مني ضباط الأركان، وقادة التخصصات المختلفة في السلاح الجوي، تعليمات التلقين النهائي قبل تنفيذ المهمة التاريخية، ثم طلبت من الجميع أن يحتلوا أماكنهم في غرفة العمليات الرئيسة للقوات الجوية.. وتحرك الجميع لأداء واجبهم، وفجأة تقدم مني أحد الضباط ليسألني هامسًا: ما موقف مأمورية ليبيا؟ وقلت له وأنا أبتسم في هدوء: وهل صدقت أننا كنا مسافرين فعلاً.. تفضل إلى مكانك في الغرفة الرئيسة فوراً.

وعندما تاهبت لدخول غرفة العمليات الرئيسة، استعدادًا لإطلاق إشارة البدء بتنفيذ العملية «صدام» أخطرت بأن قائد الطائرة

المعدة لرحلة ليبيا يسأل بالتليفون: (هل أحضر الطائرة من مكانها في الانتشار إلى مكان كبار الزوار.. وهل هناك أي تأجيل «جديد» لطلعة ليبيا).

أعترف الآن بأنني أحسست ساعتها بالإشفاق على قائد الطائرة، وتصورته وأنا أبتسم وهو يتساءل بينه وبين نفسه على الأقل عن هذا القائد الذي يتأرجح عشرات المرات في تحديد موعد رحلة يقوم بها إلى ليبيا.. ورغم إشفاقي على الطيار الشاب، لم أتردد في إصدار تعليماتي التي تلقاها قائد الطائرة بالتليفون.. الضابط بغرفة العمليات الرئيسة: (الطلعة في موعدنا.. أحضر الطائرة من مكان الانتشار إلى مكان كبار الزوار.. السيد قائد القوات الجوية في الطريق إليكم).

أنا على يقين الآن من أن قائد الطائرة، حين تلقى هذه التعليمات في الدقائق السابقة على تنفيذ عملية «صدام» قد تنهد ارتياحًا، لأن



(هذا القائد المتردد قد حسم أمره أخيرًا).. كما أنني على يقين أيضًا، من الطيار الشاب الذي تعذب يومين من أجل رحلة لم يقدر له أن يقوم بها سيقراً الآن ما حدث، ويتسم ابتسامة الفهم للسبب الحقيقي وراء ما بدا له من ترددي في تحديد موعد لطلعة واحدة، فضلاً عن قيادة سلاح جوي بأكمله.

بالتوازي مع هذا كانت هناك واقعة أخرى جرت حوادثها في الساعة الواحدة بعد ظهر سبت السادس من أكتوبر بأحد الصالونات الأنيقة بإدارة المخابرات الحربية المصرية.. في ذلك الموعد الذي يسبق تنفيذ عملياتنا الجوية «صدام» بساعة واحدة فقط عقد اجتماع ضم أحد كبار ضباط المخابرات الحربية، وضابطاً مسؤولاً عن المخابرات الجوية، و.. الملحق الجوي بالسفارة البريطانية في القاهرة (قائد الجناح الجوي البريطاني.. بارينكوت).

لقد عقد الاجتماع بناء على طلب الملحق الجوي البريطاني، وفي الموعد الذي حدده بنفسه.. أما سبب الاجتماع فهو «بحث التدابير اللازمة لتأمين إحدى طائرات السرب الملكي البريطاني من طراز «كوميت»، التي ستقل الأميرة مارجريت، عند طيرانها في أجواء مصر، في جولة سياحية فوق المعالم الأثرية، خلال الزيارة الرسمية التي تقرر أن تقوم بها الأميرة خلال النصف الأول من شهر نوفمبر 1973».

خلال الاجتماع، دارت مناقشات فنية معقدة، بين الملحق الجوي البريطاني والضابطين المصريين، وتمت كلها بشكل يوحي بأن الرحلة ستتم في موعدها تمامًا، وأكثر من هذا، فقد كانت هذه المناقشات توحى - بما لا يدع مجالاً للشك - بأن كل شيء هادئ تمامًا. ومن المؤكد أن الملحق الجوي البريطاني «بارينكوت» لم يتصور يومها أن المكالمة العاجلة التي تلقاها

مندوب المخابرات الجوية أثناء الاجتماع، كانت خاصة بتأجيل رحلة الأميرة البريطانية إلى موعد يحدد فيما بعد حرصًا على سلامتها، لأن العملية «صدام» كانت قد بدأت بالفعل في تلك اللحظة.

في ذات اليوم - السادس من أكتوبر.. وقبل الظهيرة - رصدت أجهزة الإنذار المبكر، طائرة استطلاع «إلكتروني» كبيرة الحجم ومتوسطة السرعة كانت تحلق فوق مياه البحر الأبيض أمام سواحلنا الشمالية، وعلى الفور تحركت غرف العمليات المتخصصة في قوات الدفاع الجوي، في دراسة عاجلة للموقف بجميع احتمالاته:

- أن هذه الطائرة المجهولة الجنسية قد تكون إسرائيلية، وقد تكون أمريكية.
- في كلتا الحالتين، فوجود هذه الطائرة في المنطقة قد يعني أمرًا خطيرًا، وهو

أن العدو، قد توصل بوسيلة ما إلى معرفة سر الضربة الجوية «صدام»، التي يقترب موعدها الآن بشكل مخيف.

- وإذا لم يكن العدو قد عرف بأمر «صدام»؛ فإن استمرار تحليق هذه الطائرة الاستطلاعية التي يمكن أن تكون من حاملات الرادار سيؤدي إلى كشف الضربة الجوية «صدام» بمجرد تحليق الطائرات المصرية واتجاهها إلى الشرق عبر قناة السويس.

في مواجهة هذه الاحتمالات الخطيرة، كان لا بد من اتخاذ الإجراءات الضرورية، التي تضمن التخلص من هذه الطائرة الملعونة، وتضمن لقواتنا الجوية، استمرار جدار الصمت والسرية، الذي أحكمت إسداله، قبل تنفيذ عملياتها الهجومية المركزة «صدام». وعلى

الفور، أصدرت الأمر باتخاذ الإجراءات السريعة التالية:

1 - إذا كانت هذه الطائرة الاستطلاعية، قد حلقت بالقرب من سواحلنا الشمالية، لرصد حركة قواتنا الجوية، فيجب أن يكون آخر ما تقوم هذه الطائرة بالتقاطه ثم إبلاغه من معلومات.. هو أن «كل شيء طبيعي» بالنسبة لسلاح الجو المصري.

ومعنى هذا، أن فترة الصمت التي لجأت إليها القواعد الجوية والمطارات المصرية، يجب أن تكسر فوراً، ويجب أن تصعد إلى الجو مجموعات من طائراتنا، في طلعات تدريبية تقليدية.. لكي يطمئن العدو، الذي يرصد حركتنا عن طريق هذه الطائرة الاستطلاعية، أو عن طريق غيرها من وسائل الرصد والتنصت الإلكتروني إلى أن قواتنا الجوية تمارس «حياتها الطبيعية».. لأن الصمت

المفاجئ، يحمل إلينا مخاطر اكتشاف العدو لنوايانا الهجومية.

بالفعل، صعدت إلى الأجواء المصرية مجموعات من طائراتنا، في طلعات تدريبية، استمرت إلى ما قبل موعد العملية «صدام» بدقائق.

2 - في الوقت نفسه، صدرت الأوامر لتشكيل من طائراتنا المقاتلة بالاستعداد الفوري للقيام بطلعة اعتراضية، تتصدى للطائرة الاستطلاعية التي تحلق في اتجاه سواحلنا الشمالية. وقبل أن تقوم طائراتنا المقاتلة بمهمتها، استدارت الطائرة الاستطلاعية متجهة إلى الشمال، وغابت فوق مياه البحر الأبيض فجأة، كما ظهرت فجأة.

لو أن هذه الطائرة الغامضة، تأخرت بضع ثوان، لكان من المحتم علينا تدميرها بأي ثمن.. ولكي يتصور الجميع أبعاد الموقف العصيب، الذي واجهناه بظهور هذه الطائرة،

في اللحظات التي تسبق تنفيذ خطتنا المصرية الجوية «صدام» فإنني أضع الآن التفاصيل الكاملة لصورة المعاناة التي تحملناها بشجاعة وصبر، لكي نصل في النهاية إلى هذه اللحظة التاريخية.

لقد خططت القوات الجوية لضربها المركزة الأولى في سرية تامة، وبعناية فائقة لاختيار الأهداف المعادية التي يعطي تدميرها حرية في استخدام القوات الجوية بعد ذلك، ثم اختيار أنسب أساليب تنفيذ الضربة، وعدد الطائرات اللازمة لتحقيق الشلل في قوات العدو، وقد اقتضى ذلك تحديد عدد الطائرات اللازمة لكل هدف على حدة، والتسليح اللازم لإسكاته واللازم لتدميره، وأسلوب الحماية اللازم لنجاح الضربة المركزة دون تدخل طائرات العدو ضد مقاتلاتنا القاذفة.

اقتضت سرية الإعداد والتخطيط للضربة اتخاذ احتياطات معينة.. منها :

• عدم القيام بإعادة تمرکز أي تشكيل جوي قبل المعركة بوقت طويل، حتى لا يتنبه العدو إلى وجود نوايا جديدة. وعندما اقتضت حاجة التدريب تحريك سرب واحد لتدريب طياريه على الهجوم على ارتفاعات منخفضة قبيل المعركة، فتم تنفيذ ذلك بحكمة خداعية.. إذ أرسل السرب في مهمته التدريبية، وهبط الطيارون على ارتفاعات منخفضة، ولكنهم لم يتسلموا أوامر التنفيذ إلا بعد الهبوط في القاعدة الجوية الجديدة.

• قام كثير من التشكيلات الجوية - عمدًا وبأوامر منسقة - بتدريباته العادية صباح يوم الضربة.

• لم تصدر الأوامر إلا إلى قادة التشكيلات الجوية بالاستعداد، ولم تعط الأوامر النهائية في صورة تلقين، إلا قبل



تنفيذ الضربة، بالوقت الذي يسمح بالتنفيذ الجيد.

كانت الفترة من 3 إلى 6 أكتوبر 1973 هي الفترة التحضيرية للعملية الهجومية الاستراتيجية «بدر».

وقامت وحدات الاستطلاع الجوي بالقوات الجوية - في سرية تامة، لم تعط العدو أي فرصة لاكتشاف حقيقة ما نخبئه - له بالأعمال الآتية:

1 - التصوير العالي لقدرات العدو على طول المواجهة، للمناطق من «رأس مسلة» حتى «بورسعيد»، وبعمق حتى 20 كيلو مترًا شرقًا.. لتحديد حجم ونشاط قوات العدو ولكشف نواياه.

2 - القيام باستطلاع إلكتروني عام للجبهة لتحديد آخر تمركزاته لمواقع الصواريخ «الهوك» ومحطات التوجيه والإنذار ورادار قيادة نيران المدفعية الإسرائيلية.

3 - الاستطلاع بالنظر وبالتصوير على ارتفاع منخفض لقوات وأهداف العدو بمحاذاة القناة وفي سيناء «واستمر ذلك طوال فترة العمليات».

4 - بالتصوير العالي لساحل خليج السويس.

5 - الاستطلاع بحرًا بالنظر في البحر الأبيض المتوسط.

وكما يعرف الجميع لم نكن وحدنا في هذه المعركة، وكان لا بد من التنسيق الجوي مع الأشقاء في القوات الجوية السورية.. وقد تم التخطيط المشترك بيننا لتنفيذ ضربتين جويتين مركبتين. وكان موعد الضربة الجوية المركزة الأولى.. عند بدء العمليات الهجومية، والثانية.. بعد ساعتين ونصف الساعة من الضربة الأولى. وكان الغرض من الضربة الأولى الحصول على السيطرة الجوية المحلية فوق مناطق عبور القوات البرية المصرية.

كنا نريد تحقيق ما يلي:

شل مطارات العدو القريبة «المليز، تمادا، رأس نصراني» لمنع العدو من استخدامها بواسطة المقاتلات والمقاتلات القاذفة، ولحرمانه من سرعة التدخل ضد عمليات القوات الجوية المصرية، ولمنعه من سرعة معاونة قواته البرية، أو مهاجمة الجيوش الميدانية المصرية، بحمولات كبيرة من الذخائر.

- شل وسائل الدفاع الجوي المعادي، ما يوفر حرية طائرات القوات الجوية المصرية، في العمل لمعاونة وحماية الجيوش الميدانية المصرية المهاجمة.
- شل مراكز القيادة والسيطرة والتوجيه ورادارات العدو، لإرباك نظام قيادة العدو، بحيث يفقد السيطرة على قواته.
- تدمير مراكز الإعاقة الإلكترونية والشوشرة المعادية، للحيلولة دون

تدخلهما في الهجوم.

- خلق موقف جوي مناسب يساعد الجيوش الميدانية المصرية على القيام بتنفيذ العملية الهجومية.
- التعامل مع احتياطات العدو «خاصة المدرعة» المتقدمة في العمق التعبوي، للقيام بالهجوم المضاد ضد القوات المصرية.
- الاشتراك في تنفيذ مهام الدفاع الجوي طبقًا للموقف.

هذه هي الصورة النهائية التي كنت أواجهها وأنا جالس بغرفة العمليات الرئيسة في الدقائق الأخيرة التي تسبق اللحظة التاريخية، وكان الإحساس بضخامة المسؤولية التي نتحملها أمام شعبنا المصري، وأمام أمتنا العربية، وأمام أجيالنا القادمة، بل أمام تاريخنا كله يملأ عليّ كياني.

رغم اطمئنانني الكامل إلى سلاسة خطتنا، وبنائها المحكم. ورغم ثقتي الكاملة في قدرة طيارينا المقاتلين على تنفيذها بأعلى مستوى من الدقة والنجاح، ورغم النتائج المشرفة التي حققتها التجارب للضربة - تلك التجارب التي قامت بها قواتنا الجوية بنفس الأطقم التي اشتركت في تنفيذ العملية فيما بعد، وكان آخرها قبل 6 أكتوبر بفترة متناهية في القصر - رغم كل هذه العوامل المطمئنة، فإن الإحساس بالمسئولية بجميع مستوياتها القومية والإنسانية والتاريخية، كان يضعني فيما بيني وبين نفسي أمام تساؤلات لا نهاية لها.

كنت يومها صائمًا ككل الرجال في سلاحنا الجوي الذين أصروا على الصوم منذ بدء شهر رمضان وعندما بدأ الاجتماع الذي تم بيني وبين كبار الضباط في قاعة الاجتماعات الكبرى بقيادة السلاح، أردت أن أقول لهم بلا

كلمات.. إن اللحظة التي عاشوا جميعًا في انتظارها حلت.

وفي نبرات ثابتة، طلبت «فنجان قهوة».. وتبادل الرجال فيما بينهم نظرات سريعة، وفهموا الرسالة الشفوية التي يعنيها طلب قائدهم الذي يحرص على فريضة الصوم فنجانًا من القهوة في نهار العاشر من رمضان.. إنها الحرب إذن.

لم يفقه أحدهم بالسؤال، ولكن عيونهم الذكية طرحته على صمت، وهزرت رأسي بالإيجاب.. وإحساس بالرضا يملأ عليّ كياني، وشعور الفخر بهؤلاء الرجال يهز أعماقي.. لم أكن أتصور أن حرصهم على السرية والكتمان، يمكن أن يصل بهم إلى الحد الذي يترددون معه في التصريح باسم العملية التي أعدوا لها فأحسنوا الإعداد حتى في اللحظة التي تأكدوا فيها أنهم مقدمون على التنفيذ.

يقينًا، لن يخذل الله مثل هؤلاء الرجال الذين تحملوا، وبذلوا وكتموا السر فأحكموا كتمانهم، وأخلصوا الجهد لله وللوطن ولأمتهم العربية لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.. ولقد أحسن هؤلاء الرجال عملهم، وأتقنوه كأفضل ما يكون الإتقان، فعلى بركة الله، ولنتجه إلى غرفة العمليات الرئيسية.

أمام منصة القيادة في غرفة العمليات الرئيسية، جلست وحوالي هيئة الأركان الجوية، وضباط القيادة، وعيوننا بسرعة خاطفة بين الخرائط التفصيلية التي ترسم أمامنا صورة دقيقة لكل شيء.. وبدأت عقارب الساعة تقترب من موعدنا مع القدر.. وبدأ العد التنازلي في اتجاه الدقيقة المحددة الدقيقة الخامسة بعد الساعة الثانية من ظهر السادس من أكتوبر وفتح الميكروفون الموضوع أمامي، على جميع غرف العمليات الفرعية بالقواعد

الجوية والمطارات التي تقرر أن تشترك في تنفيذ الغريزة «صدام» .

داخلي إحساس غريب في الثواني الأخيرة، بأن هذا الميكروفون المفتوح أمامي - وكله آذان مصغية لما أتفوه به - قد تحول إلى عين هائلة. تطل منها سبعة آلاف عام من تاريخ الإنسان المصري على هذه الأرض الطيبة، لتبارك هذه اللحظة الرائعة في عمر مصر، التي يسترد فيها إنسانها العظيم روحه القوية، ويملك إرادته التي هزمت كل الغزاة، وسحقت كل المعتدين.

وأرجو صادقًا، ألا يتطرق أحد - ولو للحظة - أن ما أكتبه الآن - تسجيلًا لتلك اللحظة التاريخية - يحمل مسحة الخيال، أو يمتزج ببراعة من يجيد التخيل والابتكار.. فلست إلا طيارًا مقاتلاً، وهب عمره لبلده وحمل روحه على كفه يجود بها في سخاء، فداء لشعبه وتراب وطنه.. كما أرجو أن يشاركني الجميع



الأبعاد الحقيقية للموقف الذي كنت أجتازه في تلك اللحظة التاريخية، ليؤمن بصدق كل حرف أسجله الآن عن تلك اللحظة التي تساوي العمر كله، والتي استطعت كطيار مقاتل واستطاع كل الرجال في قواتنا الجوية على اختلاف تخصصاتهم أن يردوا خلالها «الدين القديم» لسلاح الجو الإسرائيلي.

في صوت قوي النبرات، يملؤه الإيمان بنصر الله، وتملؤه الثقة في الرجال، ويملؤه الحب لهذا الوطن، والاعتزاز بهذا الشعب الأصيل، وفي تمام الساعة الثانية والدقيقة الخامسة من بعد ظهر يوم سبت العاشر من رمضان السادس من أكتوبر، أطلقت خلال الميكروفون إشارة البدء.. قلت: باسم الله.. «صدام».

سرت كلمة السر «صدام» في سرعة الضوء وفي وقت واحد في جميع مراكز وغرف عمليات التشكيلات الجوية والقواعد والمطارات في أنحاء الجمهورية.. وباسم الله

وعلى بركة الله وفي سبيل مصر.. انطلقت في لحظة واحدة مائتان وعشرون طائرة إلى عنان السماء منطلقة نحو أهدافها المنشودة، لتحقيق الضربة الجوية المركزة الأولى.

ويفاجأ العالم أجمع عبر الأثير، ببداية الجولة «العربية - الإسرائيلية» الرابعة.. عندما أعلنت إذاعة جمهورية مصر العربية أول البيانات العسكرية الصادرة من القيادة العامة للقوات المسلحة. وفي الساعة 14.25، يصدر البيان رقم «2» ليعلن ما يلي: «ردًا على العدوان الغادر الذي قام به العدو ضد قواتنا في كل من مصر وسوريا، يقوم حاليًا بعض من تشكيلاتنا الجوية بقصف قواعد العدو وأهدافه العسكرية في الأراضي المحتلة».

في الوقت نفسه، كنت في غرفة العمليات الرئيسية أتابع تنفيذ مهام الطلعة بكل اهتمام وهدوء، وتتوالى عليَّ التمامات من كل الجهات بنجاح الضربة.. فأعطي «تمام القوات الجوية»

إلى القائد العام للقوات المسلحة وهو في مركز القيادة العليا لقيادة القوات المسلحة. وانتشر تمام القوات الجوية على أسماع العالم أجمع، من خلال البيان رقم «3» الذي أذيع في الساعة 15.02.. وقد قال: «إلحاقًا للبيان رقم «2» نفذت قواتنا الجوية مهامها بنجاح، وأصابت مواقع العدو إصابات مباشرة.. وعادت جميع طائراتنا إلى قواعدها سالمة، عدا طائرة واحدة».

وبعد تنفيذ الضربة الجوية المركزة الأولى، وضع المجهود الجوي للمقاتلات القاذفة بالكامل. تحت تصرف القيادة العامة للقوات المسلحة، حيث نفذت جميع المهام التي كلفت بتنفيذها خلال أيام العمليات.

هنا وقت مناسب لكي أذكر عددًا من الحقائق:

1 - تحقق عبور كل هذا العدد على اختلاف قواعده قيامه في لحظة واحدة لخط الكشف الراداري المعادي، ومعنى ذلك أن كل تشكيل

أو طائرة كان لزامًا عليها أن تقلع في توقيت محدد من قاعدتها، وتتخذ مسارًا حدد لها ملاحياً بكل دقة.

2 - لكي لا يكتشف العدو عمليات الإقلاع الغزيرة من مطاراتنا وقواعدنا، كان لزامًا أن تطير هذه الطائرات على ارتفاعات منخفضة جدًا، للإفلات من نطاق الكشف الراداري المعادي، لدرجة أنه عندما اقتربت هذه الأعداد الهائلة من الطائرات، من السد الترابي الذي أقامه العدو بمحاذاة شاطئ القناة، خشي كثير من ضباطنا وجنودنا في الجبهة اصطدامها به، وكان لمرورها فوقهم وهم على أهبة الاستعداد للعبور، فعل السحر.

3 - كان استخدام هذا العدد الكبير من الطائرات في السماء، كل إلى وجهة محددة، وكل إلى هدف معين، بقنابل ذات عيار خاص، وكل له طريقته في الهجوم، ودون

أن تكون هناك اصطدامات، وتقاطع لخطوط السير، أمر لم يحققه إلا التدريب الجيد العالي المستوى، الذي توالى خلال السنوات السبع السابقة للمعركة.

4 - كان التخطيط الأول للضربة المركزة، ألا يبدأ التمهيد النيراني لمدفعية جيشنا الثاني والثالث، إلا بعد عودة الطائرات من ضربتها المركزة وعبورها خط الجبهة عائداً إلى قواعدها، ضماناً لسلامة هذه الطائرات من التعرض لحائط النيران الرهيب، الذي كان مقرراً أن تصبه المدفعية المصرية.

إلا أن الفريق أول محمد عبدالغني الجمسي «رئيس هيئة العمليات آنذاك» أمر بإعادة التخطيط على أساس أن يبدأ التمهيد النيراني للمدفعية بعد خمس دقائق فقط من عبور الطائرات خط الجبهة، وهي متوجهة إلى أهدافها، لعدم إعطاء الفرصة للعدو للقيام بتمهيد نيراني مضاد قبل

قيامنا نحن بالقصف المدفعي المطلوب،  
ولعدم إعطاء فرصة للمدركات المعادية  
التي تقبع على مسافة قريبة من قناة  
السويس من التقدم لاحتلال المصاطب  
المجهزة لها على الشاطئ الشرقي وإعاقة  
إنساق العبور.

وكان ذلك سببًا كافيًا لدقة التخطيط لتوقيتات  
الطائرات في عبورها للجبهة ذهابًا وعودة،  
وتنسيق النيران في وقت عودتها مع  
مدفعيةات وصواريخ الدفاع الجوي. ولقد  
عادت الطائرات عبر ممرات حددت لها،  
وعلى جانبي هذه الممرات جحيم من  
النيران تصبه آلاف المدافع المصرية.

لنا أن نتخيل كيف يمكن أن تمر مئات  
الطائرات من الممرات المحددة لها، في  
توقيتات لا تفترق عن بعضها غير ثوان  
معدودة، خصوصًا أنها ذات أنواع مختلفة  
وساعات مختلفة، دون أن تصاب إحداها

بطريق الخطأ.. فأي براعة في التخطيط..  
وأي دقة في التنفيذ!!

5 - كان واجب بعض التشكيلات أن تحطم وسائل الدفاع الجوي المعادية التي في طريق التشكيلات الأخرى، ولو حدث ووصلت متأخرة لانتفى الغرض من اشتراكها في العملية ولأدى هذا التأخير إلى تمكين العدو من التصدي لطائراتنا.

6 - لو لم تنفذ مقاتلات الحماية واجباتها بدقة لهوجمت مقاتلاتنا القاذفة بالمقاتلات المعادية ولاضطرت لإلقاء قنابلها للدفاع عن نفسها ولفشلت مهامها.

أضف إلى تلك الحقائق ما يلي كذلك حول الأهداف التي قررناها في هذه الضربة الجوية الأولى:

( ١ ) ضرب مطارات سيناء وما يحيط بها من مواقع صواريخ هوك للدفاع عنها.

(ب) ضرب مركز السيطرة الرئيس للقوات الجوية المعادية في «أم مرجم» بسيناء، الذي يسيطر على تحركات كل طائرات العدو في جو سيناء، وعلى وسائل الدفاع الجوي، فضلاً عن أنه يرسل المعلومات المستمرة عن الموقف الجوي على الجبهة، إلى مركز القيادة الرئيس للقوات الجوية المعادية في إسرائيل، وعن طريقه تطلب طلعات المعاونة لجيوشه في الجبهة، ويمكن تصور ما يحدثه تدمير هذا المركز عن عواقب وخيمة على العدو من حيث انعدام السيطرة الفعالة على كل طائراته في الجو، وكذلك وسائل دفاعه الجوي المنتشرة في كل أنحاء سيناء، وعدم إمكان إعطاء صورة صحيحة عن الموقف الجوي في الجبهة، ورغم أنه كان للعدو مركز تبادلي في العريش، فإن إمكانياته كانت أقل بكثير



من إمكانيات المركز الرئيس، فضلًا عن أنه يعتبر بعيدًا عن منطقة القتال.

(ج) ضرب مراكز الإعاقة والشوشرة، المجهزة بأحدث ما عرف في العالم من وسائل الشوشرة على الرادارات وأجهزة اللاسلكي، التي استخدمت ضدنا أثناء حرب الاستنزاف، وكنا نعرف تأثيرها البالغ على القوات الجوية والدفاع الجوي.

( د ) تدمير مواقع صواريخ «الهُوك» التي كانت تشكل بوجودها خطورة بالغة على قواتنا الجوية، أثناء تأديتها لمهامها في سيناء، وقد بلغت هذه المواقع عند التخطيط للضربة الأولى اثني عشر موقعًا واستمرت القوات الجوية في جميع مراحل المعركة في تدمير مواقع الهوك الجديدة، بمجرد تحديد مواقعها بوسائل الاستطلاع المختلفة، وكانت تحظى منا دائمًا بالأولوية في التدمير.

(هـ) قصف مواقع المدفعية البعيدة المدى من طراز 175 مم، ومداهها 32 كيلو مترًا، علاوة على دقتها في إصابة الأهداف، وقد رأت القيادة ضرورة التخلص منها في بداية المعركة، لتأمين قواتنا.

( و ) قصف بعض النقاط الحصينة في خط بارليف وخلفه، التي كان منتظرًا أن تشكل مقاومة قوية لقواتنا في عمليات العبور.

( ز ) تدمير رادارات العدو المهمة، سواء المستخدمة للتوجيه أو للإنذار، التي تعتبر عيون العدو، التي تقوم باكتشاف هجماتنا وتوجه مقاتلات العدو للتصدي لطائراتنا، وكان يجب التخلص منها قبل اندلاع المعركة الرئيسية.

(ح) تدمير مركز قيادة الجبهة للقوات البرية المعادية.

(ط) تدمير مركز الإرسال الرئيس في جنوب سيناء.

نتيجة لنجاح الضربة الجوية المركزة الأولى، أُلغيت الضربة الجوية الثانية، التي كان مخططًا لقيامها بعد ساعتين ونصف الساعة من الضربة الأولى، مع وضع إمكانيات السلاح الجوي المصري في خدمة المعركة التي اشتعلت ناراها على أن يتم استخدام القوات الجوية على الأسس الآتية:

- استخدام القوات الجوية بتركيز، حتى يمكن الاستمرار في أعمال القتال لأطول مدة ممكنة، لما في ذلك من أثر نفسي مهم على رفع الكفاءة النفسية والقتالية بين رجال الجيوش الميدانية المصرية من ناحية، وعلى ضرب معنويات العدو وتدمير مواقعه من ناحية أخرى.
- تطبيق مبدأ الحشد واستخدام الضربات المركزة للحصول على التفوق

الجوي المحلي، وانتزاع السيطرة الجوية فوق ميدان المعارك البرية من العدو.

- استخدام الوحدات الجوية في تشكيلات كبيرة ضد اتجاهات العدو الرئيسية، وحشد هذه الوحدات ضد الأهداف المهمة المؤثرة على سير أعمال القتال.

- حماية المطارات المصرية ضد هجمات العدو الجوية ومنع العدو بجميع الطرق من الاقتراب منها للنيل من قدرتها وشل كفاءتها.. مع استعادة الموقف بسرعة للرد على العدو في أسرع وقت ممكن.

بالفعل كانت تمركزات وحدات المقاتلات تسمح لها بتغطية جميع طرق الاقتراب للطائرات المعادية، وبتنفيذ مهام الدفاع الجوي المكلفة بها، بالتعاون مع قوات الدفاع الجوي، بجانب تنفيذ مهامها الرئيسية المخطط لها

بالمرونة والفاعلية المطلوبة طوال العمليات، سواء أكانت هذه المهام قتالية أم هجومية. إذا كان هناك خصم يمكن أن يتوجه لخصمه بالشكر، فالذي أوكدته الآن - ودون أدنى ميل للسخرية أو التهكم من «مردخاي هود» - أن عودة طيارينا الظافرة ظهر السادس من أكتوبر 1973 بعد أن نفذوا العملية «صدام» بنجاح ساحق كانت تحمل في مضمونها شكرًا عمليًا صامتًا للجنرال «هود» ولخطته «طوق الحمامة» التي قامت نيابة عن سلاحنا الجوي بإحراق كل ما هو قديم ومتخلف من فكر عسكري تقليدي، وأخطاء في الإعداد والتنفيذ طالما عوقتنا من قبل.

وإذا كان «هود» - ومن ورائه كل جنرالات المؤسسة العسكرية في تل أبيب - قد أخفوا عن المجتمع الإسرائيلي الحجم الحقيقي للدمار والجحيم الذي صبته ضربتنا الجوية «صدام» فوق المواقع الإسرائيلية، فإنني

كطيار مقاتل يعرف أسرار المهنة، ويعرف أسرار ونتائج العملية «صدام»، بالذات، بحكم مسؤوليتي كقائد لسلاح الجو المصري وقت تنفيذ هذه العملية وتقديرًا مني لدوافع الخجل والخزي التي تمنع جنرالات إسرائيل من مصارحة مجتمعهم بحقيقة ما ألحقه بهم الطيار المصري المقاتل ظهر السادس من أكتوبر وسدادًا مني لدين قديم للعدو الجوي، ثم.. وفاء مني بعهد قطعته على نفسي ذات صباح وأنا معلق في الجو، وقاعدتي الجوية التي أقلعت منها بني سويف تدمر، وأنا عاجز عن حمايتها - وأخيرًا وليس آخرًا - برًا مني بقسم أقسمته مع رجالي الخمسة، بالانتقام لطائراتنا الخمس التي دمرت أمام عيوننا، وهي جاثمة على أرض مطار الأقصر.. والانتقام لما أصاب سلاحنا الجوي كله صباح 5 يونيو 1967.

لكل هذا أقولها بكل الثقة - التي لم تتخل يوماً واحداً عن أي من رجال قواتنا الجوية حتى في أحلك ساعات الخامس من يونية - إذا كان جنرالات إسرائيل قد أخفوا حقيقة ما حدث لهم ظهر السادس من أكتوبر على يدي الطيار المصري المقاتل الذي طالما ظلموه وتناولوا عليه.. فإنني أذكر الآن ما أحدثته تلك الضربة الجوية من تأثيرات في جيش إسرائيل.

أي تحليل موضوعي وعلمي يهدف إلى تقييم حقيقي للعملية «صدام» لا بد أن يتوقف ملياً وطويلاً أمام مفهوم «الدفاع الجوي».

من المعروف في التاريخ العسكري، أن العسكرية البريطانية، تعتبر الأب الشرعي لنظام «الدفاع الجوي» في بداياته الأولى، عندما توصل الإنجليز إلى اختراع «جهاز الرادار» - واستخدموه بكفاءة عالية خلال الحرب العالمية الثانية - وكانت الثمرة الرائعة

التي حصلت عليها العسكرية البريطانية نتيجة لهذا الأسلوب المبتكر في الدفاع ضد الغارات الجوية، أن نجح العدد القليل الذي كانت تملكه بريطانيا، من طياري المقاتلات - وبمعاونة الرادار - في التصدي للغارات الرهيبة التي كان «طيران هتلر» يشنها على الجزر البريطانية.. في كسب المعركة التي عرفت في التاريخ العسكري باسم «معركة بريطانيا الجوية».

عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وطوال الخمسينيات، بدأ التطور السريع في وسائل الحرب الجوية - كإنتاج المقاتلات والقاذفات المقاتلة التي تحلق على ارتفاعات منخفضة - وانتهى الأمر بإنتاج الصواريخ «أرض / جو» والطائرات المقاتلة الاعتراضية.

ومع التطور العلمي السريع في تكنولوجيا الحرب ووسائلها الحديثة، أخذ «نظام الدفاع الجوي» صورته النهائية في شكل جهاز متكامل، يتكون من العناصر التالية:



1 - **عيون ساهرة:** مهمتها الأولى مراقبة العدو، والكشف عن تحركاته، وهو ما يعرف علمياً باسم «رسائل الإنذار الفوري المبكر»، وهي عبارة عن رسائل إلكترونية - أي أجهزة أو شبكات الرادار - ووسائل إنذار بشرية هي المراقبة العادية بالنظر، التي يقوم بها أفراد مدربون على مستوى عالٍ من الكفاءة والخبرة.

2 - **عقول تدرس وتحلل:** وهم الخبراء الذين يقومون بالتحليل الفوري للمعلومات التي تقدمها أجهزة الإنذار المبكر - الإلكترونية والبشرية - ويحولونها إلى قرارات سريعة، بالتصدي للأهداف المعادية القادمة في الجو.

وقد تطور أسلوب تحليل البيانات - في كثير من أجهزة الدفاع الجوي في الجيوش - إلى استخدام العقول الأكثر سرعة وقدرة على

التحليل، وإعطاء البيانات البالغة الدقة، وهي «العقول الإلكترونية».

3 - **يد تبطش:** وتتمثل اليد القوية التي يبطش بها «الدفاع الجوي» ضد العدو المهاجم، في وسائل الدفاع الجوي الثابتة - كالصواريخ، والمدفعية المضادة للطائرات بمختلف أنواعها وأعييرتها - والوسائل المتحركة، وهي الطائرات المقاتلة الاعتراضية، التي تتصدى للعدو الجوي قبل الوصول إلى الهدف.

4 - **أعصاب حاسمة:** وهي شبكة الاتصالات السلكية، واللاسلكية التي تتولى توصيل العناصر الثلاثة السابقة ببعضها، بدرجة عالية من الكفاءة تتمثل في وضوح الاتصالات، وسلامتها من الشوشرة والإعاقة والتنصت المعادي، واتخاذ الوسائل الحديثة التي تضمن استمرار هذه الشبكة في أدائها لواجباتها دون توقف.

في ضوء هذا التفسير العلمي لمعنى «الدفاع»، نستطيع أن نقول - وبمنتهى الأمانة والعلمية - إن الفارق الأول - والخطير - الذي يفرق بين العملية المصرية «صدام»، وعملية «طوق الحمامة» الإسرائيلية، هو اختلاف نظام «الدفاع الجوي» الذي كان مطبقًا وقت تنفيذ كل من العمليتين الجويّتين.

كان نظام الدفاع الجوي المصري عام 1967 غير متماسك على الإطلاق.. وأبرز نقاط ذلك هي:

1 - أن شبكة الإنذار الراداري المصري - وقتها - كانت من النوع الذي لا يعمل إلا بالنسبة للطائرات القادمة على ارتفاعات عالية، وبالتالي فقد كانت هذه الشبكة عاجزة عن اكتشاف الطائرات الإسرائيلية القادمة على ارتفاعات منخفضة.

2 - أن الطول الهائل الذي تمتاز به حدود مصر وسواحلها، لم يمكن القيادات المصرية - في ذلك الوقت - من تغطية هذه الحدود البالغة

الاتساع بشبكة مترابطة من أجهزة الكشف الراداري حتى هذه التي تعمل على ارتفاعات عالية.. وترتب على هذا النقص، وجود ثغرات واسعة في حزام الإنذار الإلكتروني - المصري.

3 - لم تفكر قيادات 1967 في سد هذه الثغرات في حزام الإنذار المبكر - عن طريق البديل المعترف به، وهو نظام الإنذار البشري، والمراقبة بالنظر.

4 - تسببت نظرية «أول ضوء» - التي تخطاها الفكر العسكري الحديث - في خلو الأجواء المصرية من مظلات الحماية الجوية وقت وقوع الضربة الإسرائيلية، وبهذا خلا الجو تمامًا للطائرات المغيبة.

5 - النقص الواضح في وسائل الدفاع الثابتة كالصواريخ «أرض/جو»، والمدفعية المضادة للطائرات بأنواعها - وعجز الصواريخ التي كانت موجودة لدينا عام

1967، عن التعامل مع الطائرات التي تحلق على ارتفاعات منخفضة.

أما بالنسبة للعملية المصرية «صدام»: فإن الإنصاف للعدو الإسرائيلي - الذي نفذت ضده العملية - وللطيار المصري المقاتل - الذي قام بتنفيذها ظهر السادس من أكتوبر - يحتم علينا أن نوضح الحقائق التالية:

1 - يعتبر حزام «الإنذار الفوري المبكر» - الذي تملكه إسرائيل - من أكبر أحزمة الإنذار ترابطًا وإحكامًا، سواء من حيث عدد محطات ومواقع الرادار التي تملكها إسرائيل - والتي تعتبر من أحدث مثيلاتها في العالم - أو من حيث اعتمادها المكثف على نظام «الإنذار البشري» بالمراقبة بالنظر - التي يقوم بها أفراد مدربون جيدًا على هذه المهام الخاصة.

بالإضافة إلى ذلك هناك وسيلة أخرى بالغة الحداثة في مجال الإنذار الإلكتروني، وهي

محطات الكشف الراداري، التي تحملها طائرات «الهليكوبتر» والتي تمتاز بقدرتها الممتازة على كشف الطائرات التي تحلق على ارتفاعات منخفضة؛ لأن جهاز الرادار المحمول يتمكن من كشف كل الأهداف المتحركة أسفله.

إن مساحة إسرائيل الأولى - قبل معارك 5 يونيو - لم تكن تتجاوز «7978» ميلاً مربعاً - يكفيها عدد قليل من أجهزة الكشف الراداري - وإن حدودها الجنوبية - والجنوبية الغربية - حدود صحراوية، تحقق لوسائل الإنذار المبكر - الإلكترونية والبشرية - قدرة عالية على الإنذار المبكر، بسبب خلوها من الموانع التي تعوق الكشف - كالهضاب العالية أو الجبال - وكذلك حدودها الغربية التي تطل على الساحل الشرقي للبحر الأبيض، حيث ترتفع قدرة

الكشف الراداري - فوق سطح البحر - إلى أعلى مستويات الجودة والصفاء.

من ثم - وبناء على هذه الحقائق - يمكن تقدير مدى الصعوبات الهائلة التي واجهها الطيار المصري المقاتل، وهو يخترق - أثناء تنفيذ العملية «صدام» - هذا الحزام المحكم من وسائل الإنذار المبكر التي كانت تملكها إسرائيل، ظهر السادس من أكتوبر.

2 - إن عنصر «تحليل المعلومات» التي ترسلها شبكات الإنذار المبكر - الإلكترونية والبشرية - يعتمد على مجموعة من المتخصصين، كانت إسرائيل تفاخر - وأرجو ألا تنكر الآن - بأنهم على أعلى مستوى من الكفاءة والخبرة والقدرة على اتخاذ الرد الفوري السريع الذي يردع أي عدو جوي مغير.. بالإضافة إلى ما استحدثته إسرائيل - باعتراف جنرالات المؤسسة العسكرية في تل أبيب - من إدخال نظام العقول

الإلكترونية في أعمال دفاعها الجوي من رصد وتحليل للمعلومات، وتوجيه فوري لوسائل الدفاع.

**والسؤال هو: أين كانت هذه العقول - البشرية والإلكترونية - العالية الكفاءة؟ ولماذا لم تسارع بالعمل لحماية المواقع الإسرائيلية من الطيار المصري المقاتل، الذي تحدى كل هذه العقول، وسخر من كل قدراتها على الرصد والتحليل والتوجيه، بل تمكن من إيقاف هذه العقول ذاتها عن العمل، عندما هاجمت قواتنا الجوية مطارات سيناء، ومواقع القيادة والسيطرة، ومراكز الإعاقة والشوشرة التي كانت مجندة للعمل ضدها؟ إن الصور الجوية التي عاد بها طيارونا بعد إتمام العملية «صدام»، أعطتني الجواب الكافي وزيادة.**

3 - كانت إسرائيل تفاخر دائماً - وقبل ضربة «صدام» المصرية - بأنها تملك أقوى يد



باطشة في الشرق الأوسط كله، ضد أي هجوم جوي قد يفكر العرب في القيام به ضدها في لحظة من لحظات جنون اليأس.. وكانت هذه اليد الإسرائيلية تتمثل في نوعين من وسائل الدفاع الجوي:

**الأول:** الوسائل الثابتة، وهي «المدفعية المضادة للطائرات من عيار «20 و30 و40 سم» التي يعمل عليها رجال مدربون، وقادرون على التعامل الفوري مع الطائرات المهاجمة، التي تظهر في نطاق مدفعتهم، حتى لو لم تصلهم معلومات من أجهزة الإنذار.. بالإضافة إلى النوع الأكثر حداثة - من وسائل الدفاع الجوي الثابت - وهو الصواريخ «أرض/جو» من طراز «هوك».

ومن المعروف - طبقًا لبيانات معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني - أن إسرائيل لو كانت تملك ثماني بطاريات فقط من طراز «هوك» التي تغطي البطارية الواحدة منها بالنيران

دائرة نصف قطرها 35 كيلو مترًا، ومساحتها 3450 كيلو مترًا مربعًا - فإن هذه البطاريات الثماني، قادرة على أن تغطي بصواريخها مساحة تبلغ تسعة عشر ألفًا من الكيلومترات المربعة - بينما مساحة إسرائيل كلها قبل 5 يونيو لا تزيد على 7978 كيلو مترًا.

فإن كانت هذه الصواريخ الجهنمية التي تغطي قدرتها التدميرية، مساحة من الجو تزيد على ضعف السماء التي تغطي إسرائيل كلها.. فلماذا عجزت صواريخ «هوك» الأسطورية عن مقاومة الطيار المصري المقاتل أو صده، فضلًا عن تدميره كما كانوا يزعمون..؟! وأين كانت المدفعية المضادة «20 و30 و40» التي زعموا أن رجالها الخرافيين، قادرون على التعامل مع الطائرات المهاجمة حتى دون إنذار راداري؟

النوع الثاني من وسائل الدفاع الجوي - الذي كانت تملكه إسرائيل وتفاخر به، قبيل 6

أكتوبر هو: وسائل الدفاع المتحركة، أو ما كان يسمى ب «الوحش الخرافي الطائر» و«ذراع إسرائيل الطويلة» - أي سلاح الجو الإسرائيلي، و طبقا للبيانات المعلنة فإن نحو ستين في المائة من طيران إسرائيل الحربي وعلى وجه التحديد: 269 طائرة من الخمسمائة طائرة التي كانت تملكها إسرائيل قبيل 6 أكتوبر، يمكن اعتبارها من وسائل الدفاع الجوي المتحرك، وهي عبارة عن مائتي طائرة من طراز «فانتوم ف / 4 تي» القاذفة المقاتلة الاعتراضية، وستين طائرة من طراز «ميراج - 3/س» قاذفة مقاتلة اعتراضية، وبعضها مزود بصواريخ «جو/جو» من طراز «آر - 350»، هذا بالإضافة إلى تسع طائرات من طراز «سوبر/ ميستير»، المقاتلة الاعتراضية.

أين كان هذا العدد الضخم من الطائرات المقاتلة وقت تنفيذ الضربة «صدام»؟ وأين كان الطيار الإسرائيلي الأسطورة.. ولماذا عجز

عن التصدي للطيار المصري.. الذي طالما تطاولوا على قدراته وشجاعته وخبرته؟ .. بل أكثر من كل هذا.. أين اختفى الطيران الإسرائيلي من سماء المعركة.. وعقب الضربة «صدام» التي نفذت في الساعة 2.05 ظهر السادس من أكتوبر؟ - ولماذا لم يحاول هذا الطيران - الذي كان أسطورة - أن يقوم بدور في المعركة إلا في صباح اليوم التالي - يوم الأحد 7 أكتوبر، وبعد مضي أكثر من سبع عشرة ساعة، قضاها المقاتل البري الإسرائيلي في العراق، بلا حماية جوية تحميه من هول الضربات التي يكيلها له على الأرض أبطال العبور، ويصيبها فوق رأسه من الجو أبطال «صدام» الظافرة؟!!

تلك بإيجاز شديد، أهم الظروف التي واجهها - أو كان مفروضاً أن يواجهها - الطيار المصري المقاتل، أثناء قيامه بتنفيذ العملية «صدام»، التي كان من السهل أن تؤدي بالعملية كلها

للفشل، وبالرجال الذين كلفوا بها إلى الهلاك المحقق، لم تكن هناك دراسة جادة وعلى أعلى مستوى من الحسابات العلمية الدقيقة - قام بها المخطط الجوي المصري - أثناء التحضير المبدئي للخطة، بحيث تم التوصل إلى حل عملي حاسم، يضمن للطيار المصري المهاجم، أن يتخطى كل هذه العقبات التي كانت تنتظره على الجانب الإسرائيلي، عند تنفيذ الضربة.

إن ما قمنا به في العملية «صدام» كان من بدايته إلى نهايته، نتيجة طبيعية للحسابات الدقيقة وللفكر العسكري المتطور وللتدريب الجيد المتواصل، وللكفاءة النفسية والقتالية العالية المستوى، وكلها أمور أثبتنا - ظهر السادس من أكتوبر وما تلاه من أيام المعارك - امتلاكنا لناصرتها بأصالة واقتدار.

ومعنى هذا ببساطة شديدة وانطلاقاً من روح علمية خالصة أننا «مستعدون وقادرون» على أن نكرر ما قمنا به في السادس من

أكتوبر، كلما دعانا واجبنا القومي - كطيارين مقاتلين - إلى تكراره.

كنوع من الدفاع - السلبي - عن النفس، فقد حاول جنرالات الجو الإسرائيليون، أن يبرروا نجاح عمليتنا «صدام» بأنهم لم يفاجئوا بها، ولكن حكومتهم - التي جنحت إلى السلم - احترامًا للرأي العام العالمي، وتحاشيًا لاتهام إسرائيل ببدء الحرب، أمرتهم بضبط النفس واستدراج العرب للكشف عن نواياهم العدوانية.

مثل هذا التبرير الساذج، مردود عليه بأن إسرائيل منذ قامت عام 1948 لم يعرف عنها يومًا ما أنها احترمت الرأي العام العالمي - شعبيًا كان أو رسميًا - ولم يعهد فيها الخوف من اتهامها ببدء العدوان، لأن وجودها الذي قام على تشريد شعب بأكمله يعتبر في حد ذاته تجسيدًا دائمًا ومستمرًا للعدوان في أبشع صورته، والحقيقة التي حاول جنرالات إسرائيل

تجاهلها أو تعمدوا إخفاءها.. أنه رغم «درجة الاستعداد القصوى» التي وضع فيها سلاح الطيران الإسرائيلي قبيل المعركة ورغم كل ما تملكه إسرائيل من وسائل متقدمة - في مجال الدفاع الجوي - فإن الطيار المصري المقاتل نجح في إثبات وجوده، ونجح في فرض إرادته على جيش وطيران إسرائيل.

لقد تمكنا من شل ثلاثة ممرات رئيسية، وثلاثة ممرات فرعية بمطارات «رأس نصراني وتمادا والمليز»، ولم يتمكن العدو من إصلاحها قبل مرور ثمانٍ وأربعين ساعة.

وكررت قواتنا مهاجمة نفس المطارات، مما منع العدو من استخدامها لمدة طويلة، حتى بعد أن قام بإصلاحها كان العدو حذرًا في استخدامها، وقصر ذلك على نزول طائراته المصابة في الجو نزولًا اضطراريًا، وبذلك حرم العدو من ميزة كبرى نظرًا لقرب هذه المطارات من خط الجبهة.

وقد أسكتنا اثني عشر موقع صواريخ من طراز «هوك».. في «بالوظة - متلا - الطاسة - أبوسماره - شرم الشيخ - رأس نصراني - الجدي - أم مرجم. وتمكنا من إسكات موقعين للمدفعية البعيدة المدى «بالتل الأحمر، وشرق الشط».. وهاجمنا نقطة حصينة.

ودمرنا مركزين رئيسيين للقيادة «بأم مرجم»، وقد التقطت شبكات اللاسلكي في قواتنا، إعلان العدو انتقاله إلى مركز القيادة التبادلي، بعد أن فقد سيطرته على قواته - في وقت كان أحوج ما يكون إلى هذه السيطرة.

وأسكتنا مركزًا للإعاقة والشوشرة «بأم خشيب»، مما جعل طائراتنا تعمل بحرية تامة في سماء المعركة. وقد كان العدو يستخدم وسائل إعاقة محمولة جواً في طائرات هليكوبتر، ولكن العدو الجوي كان أجبن من أن يستخدمها بعد العملية «صدام»، وبقيت طائراتنا التي كانت متربصة لتدميرها لو



ظهرت في الجو - على أحر من الجمر انتظارًا لها، ولكنها للأسف لم تظهر، وحرّم العدو بهذا من أي محاولة لإعاقة طيراننا، أو الشوشرة على شبكة اتصالاتنا خلال العمليات. وأسكتنا مركز إرسال لاسلكي «بشرم الشيخ». ودمرنا موقعين للرادار. وهاجمنا نقطة قوية للعدو، وموقعين لمدفعية الميدان البعيدة المدى.

وكانت نسبة الخسائر في طائراتنا أقل بكثير جدًا مما كان متوقعًا، حيث إن التشكيلات المعادية التي اعترضت الطائرات المصرية، كانت تهدف إلى مجرد القيام بمحاولة بائسة تستهدف الإرباك وليس بغرض صد الضرب، وهذا نتيجة لتوافر عامل المفاجأة تمامًا من جانب القوات الجوية المصرية.

لقد سافر سبعة صحفيين إسرائيليين إلى أرض المعركة بعد بدايتها بوقت قصير، ومن ثم ألفوا كتابًا عن حرب «يوم الغفران».. قالوا فيه: «كان الموقف على أرض المعارك بعيدًا عن

أي وضوح.. اندلعت الحرب فعلاً على طول  
المائة والثمانين كيلو متراً بمحاذاة قناة  
السويس» والخمسة والسبعين كيلو متراً من  
خط وقف إطلاق النار بين إسرائيل وسوريا  
فوق هضبة الجولان.

«ففي الساعة الثانية بعد الظهر، انفجرت  
آلاف القنابل والدانات في جميع أنحاء الجبهة،  
وقامت موجات من قاذفات القنابل المصرية  
والسورية بغاراتها الجوية، وظهرت تسع  
طائرات من طرازي «ميج» و«سوخوي» -  
السوفيتية - فجأة في منطقة «شلومو» ب  
«شرم الشيخ»، وأخذت تقصف منشآت الميناء  
العسكري ومطار أوفيرا - الاسم العبري لشرم  
الشيخ، وبعد الهجوم الانقضاضي وبمجرد أن  
أخذ التشكيل الذي يتكون من الطائرات  
المصرية يستأنف ارتفاعه، اندفعت نحو السماء  
أعمدة النيران والدخان.

«وسارع جنود شرم الشيخ الذين فوجئوا بهذا الهجوم إلى مواقعهم، كان بعضهم يوشك أن يستحم في مياه الخليج الصافية، وكانوا لا يزالون بأردية الاستحمام. وبعد بضع دقائق ردد الهواء دوي المدافع الرشاشة التي حاولت عبثًا إسقاط الطائرات المصرية، لقد كان جانب من أجهزة الإطلاق غير قابل للعمل، ثم جاءت الموجة الثانية من الطائرات المعادية بعد لحظات، واستطاعت أن تقصف - دون أن يضايقها شيء تقريبًا - المطار، ومركز الاتصال في شرم الشيخ، ونتج عن الهجمات المتتالية الأربع سقوط عدة قنابل وخسائر مادية جسيمة.

«وفي الوقت نفسه، قصف عدد آخر من الطائرات المصرية مدينة البترول «أبورديس» القائمة على الضفة الشرقية بخليج السويس، وحرصت هذه الطائرات على تجنب إصابة آبار البترول ومضخات الحفر، وركزت ضربها على

مساكن الموظفين المدنيين في حقول البترول. وقد تسببت ضربة مباشرة على أحد المباني في مصرع ستة من الموظفين المدنيين في منطقة «شرم الشيخ».

بعد هذا النجاح العظيم الذي حققته القوات الجوية يوم السادس من أكتوبر، والذي وصفه الصحفيون الإسرائيليون السبعة أيضًا بأنه يماثل «بيرل هاربر».. استمد طيارونا من روح «صدام» زادًا روحياً، ضاعف من قدراتهم القتالية، وجعلهم يدخلون بكل ثقلهم، لمعاونة إخوانهم في معركة الشرف - من باقي أسلحة وأفرع قواتنا المسلحة - وتوجيه الضربات الجوية المتلاحقة، التي تقصم ظهر المقاتل البري الإسرائيلي الذي كان يومها يحاول عبثًا أن يتصدى بالمقاومة لإبطال العبور.

لقد سجلت تقارير غرف العمليات الرئيسة على الجانبين أنه بعد يوم 6 أكتوبر 1973 وبعد نجاح العملية «صدام»، نفذت القوات

الجوية عددًا كبيرًا من الطلعات للحصول على التفوق الجوي المحلي ولحماية قوات الجيوش الميدانية، وحماية أهداف الدولة الحيوية والمطارات، ومنع طائرات استطلاع العدو من القيام باستطلاع تحركات القوات المسلحة المصرية.

" ... كانت العملية  
 «صدام» بداية  
 الحصاد الطيب،  
 لشجرة مباركة،  
 وضع رجال القوات  
 الجوية المصرية  
 بذرتها عقب معارك  
 5 يونيو وتعهدوها  
 بالرعاية القائمة على  
 الاستفادة من  
 دروس النكسة،

والتزود      بالعلم،  
 والإقبال      على  
 التدريب المتواصل  
 ليل نهار، والرغبة  
 الصادقة في محو  
 عار الهزيمة..“

## تقرير عن البطولات

تعمدت ألا أصف ضربتنا الجوية المركزة «صدام» بأنها «معجزة عسكرية» يستحيل تكرارها، أو أنها «عبقرية نادرة الحدوث في مجال الحرب الجوية».. فإذا لم تكن كذلك.. فما هو الحجم الطبيعي لهذه الضربة التي كانت خير تمهيد لعمليات العبور التاريخي؟ وما المدلول الحقيقي الذي تعنيه هذه الضربة، سواء بالنسبة لسلاح الجو المصري أولاً، وبالنسبة لقواعد القتال الجوي الحديث ثانياً؟ وبالنسبة للإنسان المصري خاصة وأمتة العربية ثالثاً؟

لقد انتهى عصر المعجزات، وإذا كان هناك سبيل - في عصرنا الحاضر - إلى تحقيق المعجزات، فالطريق الوحيد، هو الإيمان بالعلم، واستيعاب تكنولوجيا العصر، وتطوير



المنجزات العلمية وحسن استخدامها.. والقول بغير هذا المنطق العلمي مجرد خيالات مريضة وأحلام يقظة كاذبة، قد تنجح في إشباع غرور الفرد أو المجتمع، ولكنها تتكشف في النهاية وعند لحظة المواجهة والاختبار الصعب، عن سراب مخادع، يفيد العدو ويكشف له مواطن الضعف في المقاتل الذي يفترض في نفسه الانفراد بصنع المعجزات، في عصر فتح العلم فيه أبواب الفرص المتكافئة على مصراعيها للجميع. من أراد الغلبة والفوز، فعليه بالعلم؛ لأن العلم وحده هو صانع معجزات العصر، وميزة معجزات العلم الحديث أنها قابلة للتكرار، كلما توافرت أسبابها ومقوماتها.

وإذا كان عدونا الجوي قد وقع في خيئة الوهم بأن عملية «طوق الحمامة» - التي نفذها ضدنا صباح 5 يونيو 1967 - كانت معجزة عبقرية نادرة التكرار.. فإننا - نحن الطيارين المقاتلين المصريين - قد رفضنا ذلك الزعم

المغرور حين صدره العدو للعالم عقب معارك 1967، ورفضنا الاستسلام لدواعي اليأس الذي كنا معرضين له - لو أننا سلمنا بأن ما فعله العدو يومها معجزة.. وانطلاقاً من هذا الرفض، وإيماناً منا بأن باب العلم مفتوح للجميع، سرنا على الدرب الموصل للهدف، بعد أن وضعنا أقدامنا على الطريق الصحيح الذي انتهى بنا إلى تحقيق الضربة «صدام».

واليوم - وبعد أن اعترف العدو قبل الصديق، بأن سلاحنا الجوي المصري أثبت وجوده العملي على مسرح العمليات الحربية - خلال حرب أكتوبر - على أفضل صورة للقوات الجوية؛ الحديثة، فإننا نقولها بكل ثقة بالنفس، وبكل احترام للعقل الإنساني - سواء في ذلك عقل الإنسان العربي، أو عقل الإنسان حيثما وجد في أي مكان في العالم - ونقولها أيضاً بكل عقلانية الإنسان المتحضر، الذي يؤمن

بتكنولوجيا العصر، ويحترم معطيات العلم الحديث.

إن «صدام» كانت بداية الحصاد الطيب، لشجرة مباركة.. وضع رجال القوات الجوية المصرية بذرتها عقب معارك 5 يونيو، وتعهدوها بالرعاية القائمة على الاستفادة من دروس النكسة، والتزود بالعلم، والإقبال على التدريب المتواصل ليل نهار، والرغبة الصادقة في محو عار الهزيمة، ودحض مزاعم العدو، وحماية الوجود العربي إنسانًا وحضارة وأرضًا - من الإحساس النفسي الخطر بأنه يعيش بلا غطاء جوي، تحت رحمة ما كان يسمى «ذراع إسرائيل الطويلة».

وضعت قيادة الجو المصرية الجديدة، خططها البعيدة المدى، لا على أساس الإعداد لضربة جوية مركزة، ينتقم بها سلاحنا الجوي من العدو فحسب، بل على أساس بناء قوات جوية عصرية، تمثل - بالواقع لا بالشعارات -

الغطاء الجوي المتناسك، الذي يحمي السماء المصرية من مغامرات العدو الجوي - كما تمثل هذه القوات الجوية الحديثة، الذراع القوية التي تستطيع أن تحمي المقاتل المصري - وشقيقه العربي - حماية مستمرة لا تتوقف كلما دعت ظروف الصراع «العربي - الإسرائيلي»، إلى تصعيد هذا الصراع من «الحرب الباردة» إلى «الحرب الساخنة» في ميادين المواجهة.

عمليتنا الهجومية الضخمة «صدام» كانت تجسيدًا ناجحًا لمبدأ «العلم والإيمان» الذي نادى به الرئيس القائد الأعلى محمد أنور السادات - وكانت استجابة فورية وناضجة لمبدأ أن الصراع الذي نواجهه مع العدو، هو في حقيقته «صراع حضاري»، والغلبة في نهايته للطرف الذي يثبت قدرته على التعامل مع حضارة العصر بأوسع معانيها، وأشمل ميادينها الروحية والمادية معًا.

كان الأخذ بـ «العلم» هو أساس التخطيط والتنفيذ في كل صغيرة وكبيرة في بنائنا الجديد لقواتنا الجوية، أما دعامة «الإيمان» فلم تكن تعوز المقاتل الجوي المصري - في يوم من الأيام - بدءًا من الإيمان بالله الذي وعد بنصره، وانتهاء بإيمان المقاتل الجوي المصري بحق وطنه المصري وأمتة العربية في الوجود الآمن المطمئن، وواجبه كمقاتل جوي حديث، في التصدي لكل من تسول له نفسه الاعتداء على «الأمن العربي» أو تعريضه للخطر.

ولو أن سلاح الجو المصري، ركز كل اهتماماته - خلال سنوات البناء والإعداد - في توجيه ضربة انتقامية مركزة ضد العدو، لاستطاع سلاح الجو الإسرائيلي، أن يستوعب «صدام» - مهما كانت قسوتها وضراوتها - ليوجه بعدها ضربات انتقامية وحشية ضدنا، تفوق في قوتها التدميرية ما تركته «طوق

الحمامة» من آثار على الجانب المصري صباح 5 يونيو 1967، ولو أن هذا حدث، لكان سلاح الجو المصري قد تسبب في إصابة الأمة العربية كلها بنكسة نفسية ومادية موجعة، تؤدي في النهاية إلى فرض السيطرة الجوية الإسرائيلية على الوطن العربي إلى الأبد.

ولكن قيادة الجو المصرية الجديدة - وهي تضع تخطيطها الأولي للعملية المصرية «صدام» كانت تضع في ذهنها بالدرجة الأولى، أن تكون هذه الضربة الجوية المركزة - التي تمثل أولى ضربات الانتقام الجوي من العدو مجرد بداية ناجحة لضربات جوية لها طابع الاستمرار في مسرح العمليات، ولها دورها الفعال سواء في التأثير المادي على سير المعارك الأرضية، أو التأثير النفسي على روح المقاتل المصري الذي بدأ يتمتع بالحماية الجوية من جهة، والتأثير النفسي المدمر على

روح المقاتل الإسرائيلي الذي يذوق لأول مرة طعم الضربات الجوية المعادية من جهة أخرى. في الندوة التي عقدها «أكاديمية ناصر العسكرية العليا» لدراسة حرب أكتوبر، أعلن الجنرال «بوفر» رأيه العلمي في دور قواتنا الجوية في هذه الحرب بقوله: «لقد كان الدرس المهم في حرب رمضان، هو أن القوات الجوية المصرية، قد أحسن انتشارها وحمايتها، فتمكنت من الاستمرار في العمليات، وحرمت الخصم بذلك من التمتع بميزة كبرى، هي التفوق الجوي، أو السيطرة الجوية».

هذا هو النص الحرفي لرأي «جنرال بوفر» وتقييمه للخطة التي وضعتها قيادة الجو المصرية، والأهداف التي سعت إلى تحقيقها واستطاعت أن تصل إليها بالفعل خلال معارك أكتوبر 1973:

**أولاً:** حماية القوات الجوية المصرية من التعرض لضربات انتقامية قد تنجح في

إخراجها من المعركة، كما حدث من قبل في عامي 1956 و1967.

**ثانيًا:** استمرار هذه القوات الجوية في المعركة، بصورة فعالة ومؤثرة، تحرم العدو من التمتع بميزة كبرى هي التفوق الجوي أو السيطرة الجوية التي كان يحرص على تحقيقها باستمرار، لأنها أمله الوحيد في فرض حصار نفسي على المقاتل العربي وعلى الأمة العربية جمعاء في مواجهة الحصار الجغرافي العربي الذي يحدق بالكيان الإسرائيلي المحدود، ويفرس فيه الإحساس الدائم بالخوف من الغرق في بحر الكثافة العربية.

وإذا كانت تشكيلات قواتنا الجوية، باعتراف خبير الاستراتيجية القتالية وفيلسوفها المعاصر «جنرال أندريه بوفر» قد نجحت في تحقيق هدف الاستمرار طوال المعارك وهو أخوف ما تخافه إسرائيل التي كانت تفاخر بل تعتمد على الانفراد بالسيطرة الجوية فإن



واجب الأمانة العلمية يقتضينا أن نتعرض بشيء من التفصيل عن دور هذه التشكيلات الجوية المصرية خلال المعارك، وبعد أن قام طيارونا المقاتلون بتوجيه ضربتهم الانتقامية الأولى «صدام».

وعندما نتحدث عن دور التشكيلات الجوية في حرب أكتوبر، فإننا نعني أسلحة الطيران بأنواعها المختلفة. ونتحدث عن البطولة والإقدام، والتضحية والفداء.. نتحدث عن الرجال الذين صنعوا التاريخ بجسارتهم وأرواحهم.. عن الطيارين والفنيين وأطقم وأفراد التشكيلات الجوية الذين ضحوا بأرواحهم لنصرة الوطن، ولرفعة شأن قواتهم الجوية.

إنهم المنفذون لأعمال القتال والبطولة.. العاملون في صمت.. المنفذون لما أمرتهم به قيادتهم.. الواثقون من أن قيادتهم تعمل وتخطط وتقودهم للنصر.. للعزة.. للكرامة.. إنهم

المنتظرون لساعة الصفر بشوق زائد، وعلى أحر من الجمر.. ليثاروا وليثبتوا المعدن الأصيل للطيار المصري.

أعني هنا تشكيلات القوات الجوية بأنواعها، وحدات المقاتلات، وحدات المقاتلات القاذفة، وحدات القاذفات، وحدات الاستطلاع، وحدات النقل والهليكوبتر.

من شاهد ما فعله هؤلاء الأبطال، خلال جميع المراحل التي سبقت استعدادهم للحرب، ليفخر بأبناء مصر، الذين عملوا بتفانٍ وإتقان في نظام دقيق، وتعاون وثيق.. لقد كان لهم هدف واحد محدد وواضح.. هو النصر.

وقد كان إعداد القوات على جميع المستويات، داخل وحداتهم لتنفيذ العملية الهجومية، يحتاج لوقت طويل وجهد مضنٍ.. يحتاج للتضحية والعرق والجهد.. يحتاج للعلم والمعرفة. ولقد أثبتت خبرة العمليات هذه الحقيقة.. فقد استغرق العمل الجاد الشاق عدة

سنوات، لإنجاح عملية، لن تستغرق سوى بضعة أيام.

نجاح طياري التشكيلات الجوية، في هذه الحرب، لم يكن محض مصادفة.. بل كان طبقاً لإعداد مسبق، وتجهيز مخطط، وتدريبات دقيقة تحت إشراف محكم.. وكان ذلك ما تمخضت عنه الدراسات العميقة والخبرات المكتسبة من نكسة 1967 وعمليات حرب الاستنزاف وما تلاها من أعمال قتالية محدودة.. تلك الخبرات القتالية التي اكتسبها القادة والضباط، على جميع المستويات، والتي تم تحليلها تحليلاً دقيقاً فأبرزت دروساً مستفادة، وعممت على جميع المستويات بالتشكيلات الجوية.

لقد تم تدريب الوحدات الجوية المختلفة تدريباً واقعياً وعملياً، وبنفس الأسلوب والتكتيك، المفروض استخدامه لتنفيذ المهام المخططة لكل وحدة في العمليات الحقيقية،

وذلك للوصول إلى أفضل الطرق ولمعرفة أوجه القصور والنقص.

وقد كان العامل الأول في هذا النجاح؛ الطيار المقاتل الذي ضحى وتفانى في سبيل إحراز النصر، وإبعاد وصمة العار التي ألصقت به ظلمًا وعدوانًا في نكسة 1967.. فقد كان الطيارون دائمًا بجانب طائراتهم في الدشم جاهزين في كل وقت، وعلى أعلى درجة من اليقظة والاستعداد في أي وقت تحدده لهم قيادتهم.

هنا يجدر الحديث عن تشكيلات القوات الجوية المصرية، كل نوع منها على حدة، حديثًا موضوعيًا، يخلو من ضجيج التفاخر والمبالغات التي لا تغني شيئًا أمام الواقع.

ولعل هذا الحديث الهادئ، يؤكد لعدونا الجوي، أن ما حدث يوم 6 أكتوبر، وما تلاه من أيام معارك العبور قابل للتكرار، لأن الرجال؛ نفس الرجال موجودون، يملأ صدورهم الإيمان

باللّٰه والوطن، ويملاً عقولهم العلم بفنون الحرب الجوية، ويملاً وجدانهم الشوق إلى تحقيق مزيد من الانتصارات.

وإذا كان العلم والخبرة والتدريب بجانب الإيمان، هي العناصر التي حققت للطيار المصري المقاتل النجاح الساحق في ضربة «صدام» يوم 6 أكتوبر؛ فإن نفس العناصر هي التي حققت لسلاحنا الجوي أن يستمر في إثبات وجوده المؤثر إلى جانب قواتنا المسلحة وضد قوات العدو البرية وسلاحه الجوي، بنفس المستوى من الكفاءة القتالية، طوال معارك رمضان، على النحو الذي نعرض له الآن.

منذ الدقائق الأولى لساعة الصفر يوم 6 أكتوبر، كانت مقاتلاتنا على أهبة الاستعداد لتنفيذ مهامها من أوضاع الاستعداد الجوي، ومن أوضاع المظلات، وقامت بتوفير الحماية الجوية لقواتنا البرية والأهداف الحيوية للدولة ولقواعدنا الجوية، وتركز استخدام المقاتلات

في الاتجاهات المحتملة لاقتراب طائرات العدو.

وعند تنفيذ قواتنا الجوية لضربتها المركزة الأولى، قامت مقاتلاتنا بتوفير الحماية الجوية لمقاتلاتنا القاذفة أثناء تنفيذها للضربة، وبلغ أسلوب الحماية، من الكفاءة والقدرة والتنسيق الفعال، المستوى الذي أكسب مقاتلاتنا احترام كل الخبراء والمحليين الدوليين.

لقد كان تعاونها وثيقًا إلى حد أعجز مقاتلات العدو عن الاقتراب من مقاتلاتنا القاذفة، منذ إقلاعها من مطارات تمرکزها، حتى وصلت إلى أهدافها وتحقيق قصفتها، ثم أمنت أعمال قتالها، حتى عادت سالمة إلى مراكزها المحددة لإعادة تجهيزها والتأهب للطلعات التالية.

لقد شاركت بعض مقاتلاتنا في تنفيذ الضربة المركزة، تنفيذًا مباشرًا، بقصفها أحد مطارات العدو، فأوقفت العمل به طوال يوم 6 أكتوبر، وهاجمت مركزًا للإرسال ومركزًا للقيادة،

وشلتها عن العمل تمامًا، بالإضافة إلى موقع مدفعية للعدو بعيدة المدى.

وطوال أيام المعارك وبعد الضربة المركزة الأولى أنيط بتشكيلات المقاتلات المصرية القيام بالمهام الآتية:

- 1 - توفير الحماية الجوية للقوات البرية والأهداف الحيوية بالدولة، ضد ضربات العدو الجوي وطائرات استطلاع، بالتعاون مع قوات الدفاع الجوي المصري.
- 2 - القتال من أجل الحصول على التفوق الجوي المحلي.
- 3 - تأمين أعمال قتال الأنواع الأخرى من طائراتنا، ضد تدخل مقاتلات العدو طوال فترة العمليات.
- 4 - تدمير قوات العدو المنقولة جواً.

ومع فجر اليوم التالي للعمليات «يوم الأحد 7 أكتوبر» كانت قواتنا الجوية على يقين من

أن العدو سيوجه هجماته الجوية ضد قواعدها الجوية، وكانت مقاتلاتنا جاهزة ومستعدة تمامًا، بالتعاون مع وسائل الدفاع الجوي.

بالفعل حدثت الهجمة الجوية المعادية الأولى في الساعة السابعة صباح يوم 7 أكتوبر، بقوة تزيد على ثمانين طائرة، جاءت على ارتفاعات منخفضة جدًا، إذ كان العدو يظن أنه قادر في عام 1973 على تحقيق النجاح الذي حققه عام 1967.. ولكنه فوجئ بأعداد ضخمة من مقاتلاتنا يقودها الطيارون المصريون الأبطال، تهاجمه بعنف من كل اتجاه، وتمكنت مقاتلاتنا بالتعاون الرائع مع وسائل دفاعنا الجوي من شل العدو ومنعه من تحقيق أي هدف من أهدافه، وأجبرته على التخلص من قنابله وصواريخه مع ذري الرياح في الحقول والصحاري، وعاد الجزء الذي نجا من طائرات العدو بالخيبة، مكثفياً بالفرار ذعرًا.



في هذه الضربة الانتقامية، كان العدو يوجه هجومه ضد سبعة مطارات وضد وسائل دفاعنا الجوي في العمق، ولكنه فشل في الوصول إلى أهدافه.. عدا عدد محدود من طائراته، أمكنها الوصول إلى مطارين فقط من مطاراتنا، وتلقفتها وسائل دفاعنا الجوي من صواريخ ومدفعية مضادة للطائرات، ولقنتها درسًا قاسيًا، لاذت على أثره الطائرات المعادية بالفرار.

ونفذ العدو هجمة جوية أخرى في «الساعة الواحدة والنصف من اليوم نفسه»، ولقنته مقاتلاتنا درسًا آخر، فلم تصل هذه المرة طائرة واحدة معادية إلى هدفها، وعادت كالقطيع المذعور دون تنظيم، مخلقة وراءها خسائرها الكبيرة من طائرات الفانتوم.

وكان منظر هذا الفرار واضحًا على شاشات الرادار. وانتهى اليوم الثاني من المعركة وقد ازداد طيارونا عزمًا وإيمانًا وثقة بأنفسهم،

وأحسوا باستعدادتهم لعزتهم وكرامتهم. وكانت تعليقاتهم تزداد تندرًا وتعجبًا من أسطورة السلاح الجوي الإسرائيلي، الذي كان البعض يقول إنه لا يقهر.

وظلت مقاتلاتنا الليلية على استعداد لصد أي محاولة للعدو ليلاً، ولكن مضى الليل بطوله، دون أن يشعر طيارونا حتى أو يحسوا بوجود أي هجمات جوية معادية.

وخلال اليوم الأول للعمليات، قامت مقاتلاتنا بتنفيذ مهامها الأخرى، من حماية قواتنا البرية وتأمين أعمال قتال مقاتلاتنا القاذفة، وباقي تشكيلات القوات الجوية الأخرى.. بنفس الروح العالية والعزم الأكيد.

وفي يوم الاثنين 8 أكتوبر، لم يجسر العدو على مهاجمة أيٍّ من مطاراتنا.. على عكس مقاتلاتنا، التي قامت بقتال العدو قتالاً مريزاً، بينما كان يحاول ضرب قواتنا البرية.

لكن العدو كرر محاولاته لضرب مطاراتنا يوم الثلاثاء 9 أكتوبر، غير أنه لم يَقوَ إلا على ضرب مطارين فقط.. وفشلت هجماته.

بعدئذٍ تركز مجهود مقاتلاتنا في صد الهجمات الجوية المركزة للعدو. التي تكثفت من اتجاه الشمال والشمال الشرقي والجنوب الشرقي، والتي كان العدو يحاول القيام بها بغرض شل قواعدنا الجوية ومطاراتنا، لإخراج قواتنا الجوية من المعركة، حتى يتسنى للعدو التعامل بحرية، باستخدام قواته الجوية ضد قواتنا البرية، وضد شبكة دفاعنا الجوي للقضاء عليها تدريجيًا من الأجناب «اتجاهي الشمال والجنوب».

لعبت المقاتلات أروع أدوارها في سد الثغرات التي أحدثها العدو في شبكة الدفاع الجوي، خصوصًا في قطاع بورسعيد، حتى استعادت كفاءتها القتالية، ثم في منطقة الثغرة في الدفرسوار، وعلى الجانب الأيمن

للجيش الثالث في فترات محددة، كما نجحت مقاتلاتنا في تنفيذ هذه المهمة، بصورة منقطعة النظير، بفضل وسائل الإنذار المتوافرة، ولم تستطع طائرات العدو إصابة طائرة واحدة من طائراتنا على الأرض، ولم يتعطل أيٌّ من مطاراتنا إلا لفترات محدودة للغاية، على الرغم من سبع محاولات حاولها العدو «حتى يوم الإثنين 15 أكتوبر» لقصف مطاراتنا، ولكنها فشلت جميعًا.

ولم تحدث إلا بعض خسائر طفيفة في ممرات قواعدنا الجوية، وسرعان ما حاصرها مهندسو المطارات وأفراد مجموعات إصلاح الممرات وإزالة القنابل، وأعادوا مطاراتنا لحالتها الطبيعية، وليس من المبالغة في شيء، إذا ما قلنا إن مطاراتنا جميعها وبلا استثناء ظلت صالحة للطيران طوال فترة العمليات.

وخلال الفترة «من 16 أكتوبر حتى 22 أكتوبر» قام العدو الجوي بتنفيذ ثلاث

محاولات فقط، وضد مطار واحد فقط في كل مرة. وكان من الواضح أن العدو قد أيقن وتأكد من فشله في إخراج قواتنا الجوية من المعركة الكبرى كما حدث في حرب 1967. واستمرت وحداتنا المقاتلة في تنفيذ مهامها بكفاءة عالية وبجرأة تفوق الوصف، طوال 22 يومًا في قتال شرس.

وبعد فشل العدو المتتالي، ومع تطور الجيب المعادي «الثغرة» في الدفرسوار، وبعد أن تم للعدو استعواض خسائر طائراته من أمريكا، حاول الحصول على التفوق الجوي المحلي بالمنطقة، لمعاونة قواته بالجيب وحمايتها، وضرب قواتنا البرية. إلا أنه وجد في مقاتلاتنا خصمًا عنيدًا.. منعه من تحقيق أهدافه، وقاتلته بإصرار وعزم، وكثرت في تلك الفترة المعارك الجوية وزادت وطأتها، حتى أن بعضها استمر لأزمة قياسية.

وصلت بعض المعارك لخمسين دقيقة مستمرة للمعركة الواحدة وبأعداد كبيرة من الطائرات، حيث جاوز عدد الطائرات المشتركة في إحداها الخمسين طائرة من كل جانب، ناضل فيها مقاتلونا نضالاً مشرفاً وأظهروا عزمًا أكيدًا على النصر.. حتى إن بعض الطائرات المصرية التي اشتركت في القتال، في بداية المعركة، نزلت لإعادة الملء في أزمئة قياسية، بينما بقي الطيارون في طائراتهم، وتم الإقلاع للاشتراك مرة ثانية في المعركة أو لتأمين عودة الطائرات من المعركة.

وقد حدث كل ذلك، والعدو يملك التفوق العددي في الطائرات، ولديه الفانتوم المعدلة التي دعمته بها أمريكا.. في حين لم يكن عند طيارينا إلا التفوق المعنوي والثقة بالنفس، والخبرة المتزايدة يوميًا بعد يوم بفنون القتال الجوي، والقدرة الرائعة على التحكم فيما كان متاحًا لهم من طائرات.

وقد قامت مقاتلاتنا خلال فترة الثغرة «من 18 حتى 24 أكتوبر» بعملها، تطبيقًا لمبدأ التركيز لتوفير الحماية الجوية للقوات البرية، للإبقاء على السيطرة الجوية المحلية، وذلك باستخدام أساليب وتكتيكات مستحدثة أربكت العدو، بحيث استطاعت مقاتلاتنا أن تلقن العدو الإسرائيلي درسًا لن ينساه في فن استخدام القوات الجوية.

وقد تجلى معدن الطيار المصري المقاتل للعالم أجمع بالأرقام القياسية التي تعداها بعض الطيارين، بتنفيذ سبع طلعات جوية في يوم واحد، وكررها بعضهم في أيام متتالية.

بلغ إجمالي المعارك الجوية أكثر من خمسين معركة، سيدخل جانب كبير منها في سجل الخلود في تاريخ قواتنا الجوية الباسلة، وفي تاريخ الحرب الجوية بوجه عام. ونفذ طيارو مقاتلاتنا عدة آلاف من الطلعات، أنهاوا بها المعركة، وحطموا بها أسطورة الطيران

الإسرائيلي، وخرجوا وهم أكثر خبرة وقدرة على القتال.

على الجانب الآخر.. كان مطلوبًا من «المقاتلات القاذفة» أن تحقق الأهداف التالية:

1 - خلق موقف جوي مناسب لقيام القوات البرية والبحرية والجوية، بتنفيذ مهامها في العملية الهجومية، وذلك عن طريق تنفيذ ضربات جوية مركزة بغرض:

( أ ) شل الممرات والممرات الفرعية لقواعد العدو الجوية ومطارات سيناء وفي العمق القريب بإسرائيل.

(ب) شل مراكز قيادة العدو ومراكز سيطرته في سيناء لإرباك نظام قيادته وسيطرته.

(ج) إسكات وسائل الدفاع الجوي المعادي في سيناء.

2 - التعامل مع احتياطات العدو، خصوصًا المدرعات المتقدمة من العمق التعبوي



للقيام بالهجوم المضاد ضد قواتنا، وكذا إسكات مدفعات العدو، خصوصًا البعيدة المدى.

3 - تقديم المعاونة الجوية بالنيران، لقوات الجيش الميدانية والقوات البحرية وقوات الاقتحام الرأسي.

4 - الاشتراك في تنفيذ مهام الدفاع الجوي طبقًا للموقف لصد هجمات العدو المركزة.

ولتحقيق هذه المهام على أكمل وجه، فقد تم تمركز تشكيلات المقاتلات القاذفة في القواعد الجوية والمطارات، بالأسلوب الذي يسمح لها بالمناورة في أقصر وقت.

وعندما اقتربت ساعة الصفر، كان منظر الطائرات المقاتلة رائعًا وهي تطل وتندفع من دشمة بنظام دقيق إلى ممرات الصعود، وتقلع في تشكيلات خاصة، متجهة للأهداف المحددة لها في الضربة الجوية المركزة الأولى «صدام».. التي تمت بنجاح منقطع النظير،

وبأكثر من مائتي مقاتلة قاذفة، ضد مطارات العدو ومراكز قيادته وسيطرته، ومراكز الإعاقة والشوشرة ووسائل دفاعه الجوي، ومدفعياته بعيدة المدى، ونقطه الحصينة في خط بارليف. لقد كان طيارو المقاتلات القاذفة الأبطال أهم عوامل نجاح هذه الضربة. وبانتهاء الضربة الجوية وعودة الطائرات لقواعدها الجوية، تسابق الجميع من طيارين وفنيين لإعادة تجهيز الطائرات في أزمدة قياسية لتنفيذ باقي مهام اليوم الأول.

ومنذ صباح اليوم الثاني للعمليات «7 أكتوبر»، أخذت مقاتلاتنا القاذفة تقصف بلا هوادة احتياطات العدو التعبوية المحددة بكل دقة بواسطة وسائل استطلاعنا المختلفة، وتلقي عليها حمولاتها بكل عنف، كما قامت بقصف عربات الأطقم وهي في طريقها إلى مواقعها.

ومن المعروف أن الجيش الإسرائيلي يعتمد بصورة كبيرة على نظام الاحتياطي بتكديس وتشوين معداته في أماكن محددة مجهزة لذلك ومطعمة بعدد قليل من الأفراد لصيانتها وسرعة تجهيزها بمجرد احتمال حدوث حرب، حيث ينتقل إليها أطقمها الأصلية الكاملة لاستخدامها في القتال.

واستمرت مقاتلاتنا القاذفة في القتال ضد هذه الاحتياطيات طوال أيام العمليات، سواء في أماكن تجمعها عند بدء تحركها أو أثناء تقدمها وفتحها طبقاً للموقف.. فأوقعت أفدح الخسائر في دبابات ومعدات وأسلحة هذه الاحتياطيات التعبوية والتكتيكية.

ونفذت مقاتلاتنا القاذفة مهامها في المعاونة الجوية للقوات البرية، بكفاءة منقطعة النظير، وتنسيق دقيق فعال، مع الجيوش الميدانية، وقد تم ذلك منذ أن بدأت قواتنا في عبور قناة السويس «في السادس من أكتوبر»، واستمرت

هذه المعاونة في جميع اتجاهات الهجوم، طبقًا للمجهود والمعدلات المخططة، بل جاوزتها حتى انتهى القتال «في 28 أكتوبر».

كان من نتائج هذه الطلعات أن حققت وحدات المقاتلات القاذفة أرقامًا قياسية في معدلات الإصابة والشلل والتدمير، فاقت المعدلات الدولية لأحدث أنواع الطائرات، التي تدرس في أكاديميات العالم العسكرية، خصوصًا وقد فاقت نتائج إصابة أهداف العدو الصغرى والمتحركة كالدبابات والمدفعية كل ما كان متوقعًا من دقة وتفوق.

لقد أعلن قائد الجيش الثالث أنه رأى بعينه مقاتلاتنا القاذفة وهي تهاجم مدرعات العدو بشراسة وبراعة فائقة، وكانت تصيبها بصواريخها وتجعلها شعلة من نار، وكيف أنها كانت تعيد الهجوم وتصيب أهدافًا أخرى، كأنها تتدرب في تبة ضرب النار، غير مهتمة وغير عابئة بمدافع العدو المضادة ووسائل دفاعه

الجوي التي كانت تفشل في الوصول إلى طائراتنا بسبب براعة طيارينا في المراوغة والإفلات من نيران العدو.

وكثيرًا ما اشتبكت مقاتلاتنا القاذفة - أثناء تأديتها لمهامها من أجل الحصول على السيطرة الجوية المحلية - بمقاتلات العدو، فكانت لها الند بالند، ورغم الفارق الكبير بين قدرات «الميراج»، و«الميج 17» مثلًا فإن الأخيرة قد تمكنت من إسقاط عدد من طائرات الميراج، وقد سبق أن نشرت الصحف الأجنبية في حينه صور هذه الطائرات الميراج وهي تتهاوى مشتعلة بنيران «الميج 17».

وكانت تشكيلات مقاتلاتنا القاذفة على أهبة الاستعداد دائمًا لقتال قوات الإبرار المعادية، بالتعاون مع المقاتلات ووسائل دفاعنا الجوي، فقد كان لدينا تشكيلات مدربة على أعلى مستوى للعمل لتنفيذ هذه المهمة، وقد وضح أن العدو - بعد أن عرف على أرض الواقع

المؤلم والمفاجئ بالنسبة له كفاءة طيارينا البواسل - لم يستطع أن يضحى بقواته، وإلا كان سيكتب لها الفناء.

وفي مرحلة قتال الجيب ( ثغرة الدفرسوار)، فأقل ما يوصف به عمل المقاتلات القاذفة، في هذه الفترة، أنه كان بطوليًا نادرًا، إذ كان لهذه المرحلة ملامح خاصة، لا بد من وقفة عندها، للحق وللتاريخ.

فبعد أن حققنا لإسرائيل خسائرها الضخمة في الطائرات والمعدات استنجدت بأمريكا التي أسرعت ووعوضت القوات الإسرائيلية عن كل ما خسرت من طائرات فانتوم معدلة وصواريخ وقنابل موجهة ذات كفاءة عالية، في الوقت الذي لم تعوض قواتنا الجوية بشيء من خسائرها مما ساعد القوات الإسرائيلية على التسلل إلى منطقة الثغرة بالدفرسوار.

وهنا ازداد الطيارون المصريون تمسكًا بإيمانهم، وصمموا على الصمود والتغلب على هذا التفوق الآلي بروحهم العالية، وكان القتال مستميتًا.. وكان التنسيق بين مقاتلاتنا القاذفة، ومقاتلاتنا، فعالًا ودقيقًا، وكانت ضرباتنا مركزة، اعترف العدو بعنفها، ونتيجة هذا القصف تم تدمير أعداد ضخمة من الدبابات المعادية، وفقد العدو أعدادًا كبيرة من القتلى، ومعبدين من معابره في منطقة الدفرسوار.

وفي مقال كتبه أحد مراسلي الصحف الإسرائيلية، أثناء تواجده بمنطقة الثغرة، ذكر العبارة التالية: (أما قصف المدفعية فشيء تعودنا عليه، وأما هذا القصف الجوي فشيء مفزع). حتى «موشي ديان» نفسه، كان سيلقى حتفه أثناء قصف مقاتلاتنا القاذفة لأحد المواقع في منطقة الثغرة، ونجا من الموت بأعجوبة، حيث كان في زيارة لهذه المنطقة في ذلك الوقت.

ونتيجة لتنفيذ المقاتلات القاذفة لمهامها، فقد تم تحقيق الخسائر التالية في جانب العدو:

1 - في ضربات السيطرة تم تحقيق الإصابات الآتية:

- شل الممرات الرئيسية والفرعية لمطارات «رأس نصراني، تمادا، رأس النقب، المليز». وتم قصف كل مطار أكثر من مرة.

- إسكات «16» موقع صواريخ هوك.

- تدمير مركز قيادة رئيسي.

- إسكات مركز إعاقة وشوشرة.

- إسكات ثلاثة مراكز إرسال لاسلكي.

2 - في باقي الطلعات الجوية تم الآتي:

- تدمير «307» دبابات و«123» عربة مدرعة.



- إسكات «4» مواقع مدفعية بعيدة المدى، وتدمير نقطتين حصينتين.
- إسكات «8» مراكز قيادة و«8» مواقع صواريخ.
- إشعال الحرائق في «3» مناطق شئون إدارية و«4» مستودعات تموين وقود، وتفجير مخزن ذخيرة.
- تدمير معبرين وإغراق لنش طوربيد.
- إسقاط «13» طائرة معادية في الاشتباكات الجوية.

لقد قامت المقاتلات القاذفة بتنفيذ جميع المهام التي كلفت بها، على أكمل وجه.. وتجلى بوضوح تفاني الطيارين في تنفيذ هذه المهام.. وفي بيان الخسائر التي أوقعوها بالعدو أصرح دليل على ذلك، وأوضح برهان على أن «صدام» لم تكن مجرد مغامرة أو ضربة حظ،

ولكنها كانت بداية موفقة لعمل مدروس على أساس علمي له صفة الاستمرار.

في جانب ثالث كانت المهام التي كلفت «القاذفات» بأدائها ملائمة لمزاياها العديدة وإمكانياتها الهائلة في ردع العدو. ومنذ بدأت العمليات، قامت قاذفاتنا التكتيكية بالاشتراك في الضربة المركزة الأولى.

ففي لحظة البداية، انطلقت قاذفاتنا الثقيلة من قواعدها الجوية وهي محملة بأطنان من وسائل الدمار المختلفة.. بين قنابل ومستودعات قنابل، بأوزان وأنواع مختلفة، واتجهت إلى أهدافها المحددة، حيث ألقت بوابل منها على هذه الأهداف المغارة فأحالتها إلى جحيم.. ولقد شلت المطارات التي هاجمتها قاذفاتنا لأوقات طويلة، وأبادت وشتتت تجمعات العدو المدرعة في أماكن تجمعها، حيث قامت بمهاجمة ودك مواقع

العدو الحصينة بعيارات قنابلها الثقيلة، فأحدثت بها خسائر فادحة.

وقذفت قاذفات الصواريخ رادارات العدو ومراكز سيطرته في شمال وجنوب سيناء، وأثبتت كفاءتها ومقدرتها العالية في إصابة الأهداف. واستمرت قاذفاتنا في تنفيذ مهامها طوال فترة العمليات، بقصف مطارات العدو واحتياطياته التعبوية، وأهدافه المختارة بالعمق، وإدارته ومراكز قياداته وسيطرته.

وأثناء مرحلة الثغرة، اشتركت قاذفاتنا في تدمير قوات ومعدات العدو المتسلل للجيب بالدفرسوار، بمئات الأطنان من القنابل، وأنزلت به خسائر بالغة ليلاً، سواء في معابره أو مناطق تجمعها أو مناطق التشوين والشئون الإدارية. وكان من أبرز ما حققته، تشكيلات القاذفات، من مهام خلال فترة العمليات برمتها ما يلي:

- قامت القاذفات التكتيكية بمهاجمة المواقع الحصينة شرق بورفؤاد.
- قامت القاذفات الثقيلة بضرب مطاري الطور ورأس النقب.
- قامت قاذفات الصواريخ بقصف رادارات العدو في «بير العبد - أم مرجم - بالوطة - شرم الشيخ»، كما قامت بقصف قوات العدو التي تسلت إلى منطقة الثغرة، وصبت قوتها من القنابل والصواريخ، ما يعادل في قوته التدميرية قوة التفجير النووي، التي أحدثتها قبلة هيروشيما الشهيرة التي أخرجت اليابان مهزومة من الحرب العالمية الثانية.

أنتقل الآن إلى الدور الذي لعبته المروحيات في حرب أكتوبر. وفقًا لخبرة القتال في حروب فيتنام وحرب الاستنزاف في الشرق

الأوسط، أصبحت طائرات «الهليكوبتر»، من أهم العناصر الرئيسية في الحرب الحديثة، وذلك لخصائصها المميزة، وإمكانياتها المتعددة التي تهيئها للقيام بمهام متعددة.

لذلك، حرصت قيادة القوات الجوية المصرية، في سنوات ما بعد حرب 1967 حتى نهاية عمليات أكتوبر 1973، على إعداد تشكيلات الهليكوبتر بشكل خاص، وتجهيزها للقيام بدور حيوي في المعركة.

ويدوي في العالم صدى المفاجأة «الضربة الجوية المركزة الأولى» التي بدأت بها القوات المسلحة المصرية حرب 6 أكتوبر العظيمة.

كان في تقدير قادة الحرب الجوية منذ البداية أن يكون استخدام التشكيلات الهليكوبتر على أوسع نطاق، وتكليفها باستثمار نجاح الضربة الجوية المكثفة بكل سرعة.

وبالفعل كان لتشكيلات الهليكوبتر دورها الفعال بعد ساعات قليلة من بدء المعركة. وفي

كتاب «كيبور»، يصف الصحفيون الإسرائيليون الذين وضعوا الكتاب - ما قامت به طائرات الهليكوبتر المصرية في اليوم الأول من العمليات قائلين: «في مساء 6 أكتوبر، قامت طائرات هليكوبتر مصرية عملاقة، بنقل كتائب بأكملها لإسقاطها خلف الخطوط الإسرائيلية، وكانت هذه الوحدات من الكوماندوز المصريين- شأنها في ذلك شأن قوات المشاة على طول القناة، مجهزة بالصواريخ المضادة للدبابات.. وقد أسقطت كتيبة من خيرة عناصر الصاعقة المصرية في منطقة شرم الشيخ، واحتلت كتيبة أخرى المواقع الإسرائيلية على طول خليج السويس من رأس سدر حتى حقول البترول في أبو رديس».

ذهل العدو لاستخدام القوات الجوية المصرية المكثف لطائرات الهليكوبتر، وفي أوقات كان من الصعب على مقاتلات العدو تدميرها. وقد قامت تشكيلات الهليكوبتر

المصرية بأداء المهام الآتية، طوال فترة الحرب:

1 - إبرار مجموعات الفدائيين من رجال الصاعقة المصرية داخل جبهة العدو في عمق سيناء شمالاً وجنوباً وعلى ساحل خليج السويس، بأعداد ضخمة من الطائرات، وتم ذلك اعتباراً من يوم 6 أكتوبر.

وقد أفلحت هذه القوات في القيام بمناوراتها وعملياتها التكتيكية ضد العدو.

2 - إبرار وحدات من القوات الخاصة خلف خطوط العدو في سيناء ومنطقة البحر الأحمر ومطار فايد يومي «16 و 18 أكتوبر».

3 - إمداد القوات الخاصة في منطقة البحر الأحمر أيام «8 و 11 و 12 و 14 أكتوبر»، ما سمح لهذه الوحدات بالاستمرار في قتال العدو، وإرباك خطوطه الخلفية.

4 - استطلاع العدو والتعامل مع دباباته في أيام «16 و17 و18 و27 أكتوبر».

5 - إمداد قوات الجيش الثالث الميداني، شرق قناة السويس، بجميع ما يلزمه من احتياجات، خلال الأيام الأخيرة من عملية «الثغرة» في الدفرسوار.. وذلك خلال يومي «25 و27 أكتوبر».

6 - قام تشكيل من طائرات الهليكوبتر بقصف مستودعات بترول «بلاعيم».

7 - قامت طائرات الهليكوبتر بدور فعال في تصحيح نيران المدفعية لصالح عمليات القوات البرية المصرية.

استمرت تشكيلات طائرات الهليكوبتر، تؤدي مهامها - طوال أيام العمليات - بثقة وشرف، رغم بعض الخسائر التي منيت بها، واستشهاد عدد من أبطالها الشجعان، الذين أبلوا أعظم البلاء.



ليس سراً أن أسجل الآن، أن أحدهم بلغت به الجسارة أن صوب مدافع طائرته الهليكوبتر، وعلى ما يعلمه من بطئها وثقل وزنها نحو طائرة فانتوم معادية فأسقطها. ولعل المعلقين العسكريين سيقفون طويلاً أمام هذا الإعجاز الذي وإن كان قد تحقق بمحض الصدفة، إلا أنه يعكس مدى ما كان عليه طيارونا من ثقة بالله.. وبأنفسهم.. وبطائراتهم.

وإلى جانب طائرات «الهليكوبتر» بمهامها المتعددة - فقد كان هناك تشكيل آخر لا يقل حيوية وفعالية، عنيت به قيادة الجو المصرية، وهي بسبيل إعادة البناء، وهو «تشكيلات المواصلات».. ورغم خصائص طائرات المواصلات التي لا تسمح لها بالاشتراك في الضربات التي كلناها للأعداء، فإن طائرات مواصلاتنا الثقيلة كان لها دور آخر، فقد كانت على أهبة الاستعداد منذ اللحظات الأولى..

للقيام بعمليات الإسقاط الثقيل خلف خطوط الأعداء عند تطوير المعركة.

كانت تشكيلات المواصلات كخلية نحل تعج بالعمل في انتظار الأمر.. كما كانت أعداد منها تقوم بتنفيذ مهام نقل القادة، وملاحقة نقل العتاد اللازم للتشكيلات التي تغير مكان تمركزها، ونقل الأفراد والوثائق وقطع الغيار اللازمة للتشكيلات. وعند حدوث ثغرة الجيب بدأ دور فعال لطائرات المواصلات في المشاركة في إمداد جيشنا الثالث بالعتاد والمؤن.

من المبادئ المعترف بها - سواء في مجال الاستراتيجية العسكرية، أو مجال النشاط الإنساني عامة - أن الفوز في معركة واحدة أو موقف واحد لا يحقق للطرف الفائز النصر النهائي في الصراع.. وعلى من يريد الوصول إلى النصر الكامل أن يأخذ بالأسباب التي تضمن له الاستمرار في الصراع - دفاعًا

وهجومًا - حتى ينهك عدوه تمامًا، ويصل به إلى مرحلة العجز الكامل عن المقاومة عجزًا نفسيًا وماديًا، وهنا فقط، يستطيع أن يعلن بأعلى صوته أنه انتصر.

من هذه القاعدة الأساسية في الاستراتيجية العسكرية، انطلقت قيادة الجو المصرية في تخطيطها لبناء سلاحنا الجوي، على أسس علمية تضمن لهذا السلاح الاستمرار في المعركة - مهما طال مداها - استمرارًا فعالًا بالدفاع والهجوم على السواء.

ومن المسلّم به أن لغة الأرقام لا تعرف الكذب لصالح فريق ضد فريق، والأرقام التي نسوقها الآن - ومن واقع تقارير غرف العمليات، طوال معارك أكتوبر - توضح مدى نجاح سلاح الجو المصري، في تحقيق عنصر الاستمرار بكفاءة عالية المستوى طوال المعارك.

بلغ حجم نشاط قتال طائرات الأعداء على الجبهة المصرية خلال فترة العمليات «6224»

طلعة طائرة، منها «670» طلعة ليلية، لأغراض قصف وتأمين قصف المطارات المصرية ووسائل الدفاع الجوي والتشكيلات البرية، تصدت لها جميعها قواتنا الجوية بشكل فعال، أعجز العدو الجوي عن تحقيق أهدافه من هذه الطلعات الهجومية.

وبناء على ما سجلته وسائل إنذارنا، واستنتاجًا من أقوال ووثائق الطيارين الأسرى، فقد حاول العدو تأمين سيناء بمظلات جوية - خلال فترة العمليات بثمانى مناطق مظلات نهارًا، بنحو «168» طلعة طائرة، وثلاث مناطق مظلات ليلاً بنحو «36» طلعة طائرة، تعرضت جميعها لطلعات هجومية من مقاتلاتنا.

وقدر إجمالي عدد طلعات الاستطلاع الجوي المعادي على الجبهة المصرية - خلال فترة العمليات - بنحو «64» طلعة، نفذت بنحو «118» طلعة طائرة، علاوة على «2» طلعة

استطلاع جوي نفذتها «4» طلعات طائرة استطلاع أمريكية، وتعرضت جميعها لعمليات قتال ناجح من طيارينا المقاتلين.

تلك بعض الأرقام الأمثلة، وأمام ما قامت به تشكيلاتنا الجوية من إنجازات، وما قام به طيارونا من بطولات، نجد ثروة ضخمة من الدروس المستفادة، التي يمكن أن تكون نبراسًا للأجيال القادمة، ونجد أنفسنا أمام حقائق لا بد من استيعابها لتكون ضوءًا على طريق المستقبل:

1 - لقد كانت ثقة الطيارين المصريين بأنفسهم وطائراتهم وسلاحهم تفوق الوصف، ومرجع ذلك إلى جودة تدريبهم، وبدا ذلك واضحًا في ارتفاع نسبة إصابتهم للأهداف، التي تجاوزت جميع المعدلات التي كانت متوقعة من قبل.

2 - كانت الروح المعنوية العالية التي اتسم بها الطيارون المصريون ورغبتهم الأكيدة في

الثأر، من منطلق نفي الاتهام الذي ألصق بالقوات الجوية المصرية على أساس غير سليم خلال معارك 1967 .

3 - حققت أعداد الطائرات المصرية التي كانت مخصصة للتعامل مع الأهداف المختلفة وبالتسليح المحملة به، نسب تدمير أعلى من التي كانت متوقعة.

4 - نجح أسلوب التوجيه الملاحي المصري في صد الهجمات الإسرائيلية باقتدار وكفاءة شهد بها الخبراء الدوليون، واعترف بها العدو نفسه.

5 - نجحت الطائرات المصرية في صد هجمات أعداد كبيرة من الطائرات المعادية، بمجموعات صغيرة من المقاتلات.

6 - لم يتمكن العدو من الشوشرة اللاسلكية على الطائرات المصرية، وبالتالي عجز عن إفساد عمليات التوجيه المصري لسلاحنا

الجوي أثناء قيامه بمهامه القتالية والهجومية.

7 - كان التنسيق مع قوات الدفاع الجوي مرناً وفعالاً، خصوصاً عند طلب تعديل أماكن مناطق المظلات طبقاً للموقف.

8 - كانت الطائرات طوال فترة العمليات صالحة بدرجة مشرفة، وضربت سرعة إعادة التزود بالوقود والتسليح أزمناً قياسية جديدة.

9 - نجحت المقاتلات المصرية في تنفيذ مهامها كمقاتلات قاذفة في كثير من الأحيان.

10 - ثبتت كفاءة الطائرة «الميج - 21» التي يقودها الطيار المصري الجديد في القتال الجوي، وتفوقها في المناورة على مختلف الطائرات المعادية سواء الفانتوم أو الميراج، وليس أدل على ذلك من نجاح طيارينا في مهاجمة مقاتلات العدو والاشتباك معها

والتفوق عليها، وخلق الظروف المناسبة للتخلص من الاشتباك عندما يلزم الأمر، بفضل نجاح الطيار المصري في الاستفادة الكاملة من خصائص هذه الطائرة.

11 - ثبتت يقظة الاستطلاع الجوي المصري الذي لاحق العدو عند إعادة تمركزه وعند تسلله في الثغرة.. ومن ثم كانت تتوالى ضربات التشكيلات الجوية المصرية لأهداف العدو المستطلعة بكل دقة وإحكام خلال فترة العمليات.

12 - ويعتبر من أهم الدروس البارزة التي لاتزال تحتفظ بقيمتها العسكرية:

( ا ) تنظيم التعاون بين القوات الجوية وبين القوات البرية والبحرية والدفاع الجوي، وتنسيق تعاملهم في تناغم عسكري تام.

(ب) نجاح حشد القوى الجوية على اتجاهات الضربة الرئيسية.



(ج) تحقيق المفاجأة في الضربة الجوية المركزة الأولى، والمحافظة على تأثيرها المستمر، لأطول فترة ممكنة ضد العدو.

(د) نجاح المركزية في القيادة، مع الاستخدام الموسع للوسائل الرادارية ووسائل الدفاع الجوي وطلعات الاستطلاع المركزية بمختلف وسائلها، سواء المراقبة بالنظر أو التصوير العالي أو التصوير المنخفض، أو الاستطلاع الإلكتروني.

(و) التركيز في استخدام القوات الجوية المصرية بما يحقق توفير المجهود الجوي على طول فترة العمليات.

هذه الأمثلة قليلة من كثير، وتدل في النهاية على مستوى عالٍ من التفكير العسكري، جاء نتيجة تجارب ماضية عديدة، وثمار التدريب العملي الجيد، ومحصلة الإيمان بالعلم والأخذ بأسبابه، لكي نصل في النهاية إلى تحقيق الاستمرار الذي يصل بنا إلى النصر الأخير.

كلمة السر ... مذكرات محمد حسني مبارك -



"... لا بد من وقفة  
 أمام التاريخ، ليس  
 فيها افتعال.. أو  
 تصنع، فأمام الموت  
 وأمام التضحية  
 بالنفس، لا بد من  
 وقفة إجلال أمام  
 موقف لا يُنسى؛  
 لبعده الإنساني أولاً،  
 ومدلوله الحضاري  
 والقومي ثانيًا..“

## خير أجناد الأرض

يقول الحديث النبوي الشريف: عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: «إذا فتح الله عليكم مصر، فاتخذوا منها جنداً كثيفاً، فإن فيها خير أجناد الأرض». فقال أبو بكر: «ولم يا رسول الله..؟»، قال: «لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة».

حيرت منجزات القوات الجوية المصرية في معركة السادس من أكتوبر - رغم قصر أمدتها نسبياً - كل من تصدى لتقييمها من المحللين والواقع الذي أجمعت عليه آراء المعلقين العسكريين وخبراء الحرب الجوية في الشرق والغرب، ابتداء من اليوم الثاني للمعركة، هو أن ما حققته وواصلت تحقيقه قواتنا الجوية

بنجاح، كان عملاً بطوليًا بكل مقاييس البطولة في السماء.

والبطولات يصنعها الأفراد.. وإذا أردنا أن نقيّم البطولات المصرية التي تمت في الجو، وقفنا حيارى أمام كونها بطولات أم مواقف إنسانية؟ أم من خوارق الأعمال؟ ثم تزداد حيرتنا.. هل هي بطولات فردية أم جماعية؟ وهل أتت عفواً - كما كان العدو سيزعم لو أنه في مكاننا - أم كانت أمراً من نتائج المستوى القتالي العالي الذي ينتهي إليه التدريب الجيد والأخذ بالعلم، واستيعاب تكنولوجيا الحرب الحديثة.

المواقف متعددة ومختلفة، بعضها راح ضحيته أبطال.. وبعضها لا يزال أصحابه أحياء، ولا يزال بعضهم سليم البنية، والبعض الآخر يحمل على جسده أوسمة البطولة في صورة عاهة أصيب بها أو جرح أو كسر عالجه الأطباء.

هي من وجهة نظري بطولات خارقة، فرضتها روح الفريق، التي عزف نشيدها الجماعي طيارونا المقاتلون أثناء معارك العاشر من رمضان، وساندهم فيها كل ضباط وأفراد وصف ضباط القوات الجوية على جميع تخصصاتهم.

ذلك المستوى شبه الأسطوري ليس استثناء حظي به الطيار الفرد الذي حقق البطولة، ولكنه هو القاعدة الجماعية بالنسبة لشباب قواتنا الجوية من المقاتلين الطيارين، الذين وصلنا بهم - تدريبًا وعلماً - إلى مستوى يحقق الاستمرار والقدرة المتجددة على تحقيق البطولات.

إذا أردنا أن نسجل تلك الأعمال البطولية جميعها؛ فإن الأمر سيحتاج إلى مجلدات ومجلدات حتى يمكن إعطاء كل ذي حق حقه. إن استعراض عدد من صور البطولة لا على سبيل الحصر، بل كمجرد نماذج لما حققه

مقاتلونا الطيارون خلال عمليات السادس من أكتوبر، والوفاء بالعهد الذي قطعه الرجال على أنفسهم، أن يكون لمصرهم الغالية - ولأمتهم العربية جمعاء - درع جوية تحميها.

ومن منطلق المنهج العلمي الذي التزمنا به، أقول إن العمل البطولي ليس مجرد حدث عادي نمر عليه مر الكرام، ولكن البطولات في حقيقتها أعمال ناجحة، لا بد أن يسبقها إعداد علمي، ولا يمكن وجود العمل الناجح من فراغ، بل يجب أن يسبقه تدريب مكثف وشاق وتضحيات، كما حدث في حرب الاستنزاف التي كانت خير جامعة عسكرية، تخرج فيها الطيار المصري المقاتل، ليكون على استعداد كامل لمواجهة خصمه.

ولا يمكن أن ننسى دور آلاف الرجال في كل التخصصات الأرضية وتفانيهم في عملهم. الأمر الذي كان خير مشجع للطيار في الجو على التضحية بالنفس، والإتيان بخوارق

الأعمال. وصدق الله العظيم حين قال في محكم آياته: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) [الأحزاب - الآية: 23].

وللحقيقة والتاريخ، فقد كانت القوات الجوية المصرية في معركة أكتوبر 1973 تمثل الفئة الأقل.. والقلة في العدد ليست وحدها المعيار الوحيد الذي توزن به الأمور في الحرب عامة، وفي الحرب الجوية بصفة خاصة، وليست هذه القلة عيبًا في قواتنا الجوية، فهي على العكس من ذلك، وسام شرف على صدرها، إذ كان عليها بطائرات من طراز سوخوي وميج 17 و21 أن تواجه عدوًا يعمل على طائرات أكثر تفوقًا في الأداء من طراز سكاي هوك وميراج وفانتوم.

وكان عليها أن تقاتل بمدافع وصواريخ وعتاد حربي - قد تكون ضمن ما يعتبر آخر صيحة فيما توصل إليه البشر من وسائل



الفتك والدمار - ولكنها دون ما تزود به العدو من وسائل مماثلة من أمريكا، ولم تكشف عن سرها لغير إسرائيل، عندما تلقت إسرائيل الضربة المصرية التي أوشكت أن تكون الضربة القاضية لولا ما تلقتة من معونات عسكرية عاجلة خلال المعارك.

وكان على قواتنا الجوية بطياريها الذين لم يتح لهم القدر فرصة الاختبار الحقيقي في معركة حقيقية، أن تواجه سلاح الجو المعادي، وأن تنتزع السيطرة الجوية من قوات جوية قوامها طيارون ممرسون، اكتسبوا خبراتهم في ميادين كوريا وفيتنام وغيرها، وعرفوا كيف يخرجون منها أحياء.

ولا بد من وقفة أمام التاريخ.. ليس فيها افتعال.. أو تصنع.. فأمام الموت.. وأمام التضحية بالنفس يصعب ذلك كله. لا بد من وقفة إجلال أمام موقف لا ينسى، لبعده

الإنساني أولاً، ولمدلوله الحضاري والقومي  
ثانيًا.

كنت أتلقى «التمام» من القواعد الجوية  
والمطارات، التي اشتركت في تنفيذ الضربة  
الأولى «صدام» - ظهر السادس من أكتوبر -  
وعلمت أن شهداء هذه الضربة الناجحة هما:  
المقدم طيار «... كمال» والرائد طيار  
«عاطف».. ورغم سعادتي البالغة بالنتائج  
الرائعة التي حققتها «صدام» ضد العدو، فقد  
كان ألمي بالغًا لفقد الطيارين اللذين كانا -  
رحمهما الله - من أكفأ طياري القتال المصريين.  
أسرعت بإبلاغ نتائج «صدام» للقيادة العامة  
للقوات المسلحة، وكنت أعلم أن الرئيس  
السادات - بوصفه القائد الأعلى - قد اتخذ  
مكانه على رأس هيئة القيادة في مركز  
العمليات الرئيس لقواتنا المسلحة قبل أن تبدأ  
عمليات السادس من أكتوبر، وكان علمي بهذه  
الحقيقة، سببًا في إحساسي بالحرص وأنا أبلغ

المغفور له المشير أحمد إسماعيل، بنتائج  
الضربة الجوية، وباسمي الشهيدين.. «...»  
كمال» و «عاطف السادات».

إن «عاطف السادات» هو في البدء والنهاية،  
طيار قاتل كغيره من رجال سلاح الجو  
المصري - له ما لهم من حقوق، وعليه ما عليهم  
من واجبات - وألما لفقده هو نفس الألم الذي  
يعتصرنا لفقد غيره من شهداء قواتنا الجوية،  
ولكن «أنور السادات» بشر في النهاية، ومن  
حقه أن يشعر بأحاسيس غيره من البشر،  
عندما يفاجأ الأخ الأكبر بنبا استشهاد أخيه  
الأصغر، الذي كان بالنسبة له في مكانة الابن  
العزیز.

لا شك أن هذا الإحساس بالحرج، والفهم  
الإنساني للطبيعة البشرية. والتقدير المرهف  
لحساسية الموقف، هو الذي دفع المشير إلى  
احتباس خبر استشهاد «عاطف السادات» عن  
شقيقه «أنور السادات» بضعة أيام. موقف

إنساني من المشير أحمد إسماعيل، لعله أراد به أن يجنب القائد الأعلى، امتحانًا صعبًا في اللحظة التي كان على الرئيس السادات أن يتحمل فيها مسئوليته التاريخية، وهو يقود خير الجنود وأشرف الرجال، في اللحظة التي يواجهون فيها قدرهم، وقدر أمتهم العربية وشعبهم المصري، ليجيبوا عن السؤال الرهيب الذي ظل يتردد - منذ عام 1967 - في أعماق الشخصية العربية، سؤال رهيب يقول «هل نحن موجودون، أم غير موجودين؟!».

وفي مواجهة هذا السؤال المصيري، فليس من الحكمة أن يتعرض القائد الأعلى لأي اهتزاز - حتى لو كان عاطفيًا تمليه الطبيعة البشرية، ورابطة التراحم الأسري بين الأخ الأكبر وأخيه الأصغر - وهكذا قرر المشير، أن يحتبس الخبر عن قائده الأعلى، حتى تتضح معالم الموقف العسكري على الجبهة تمامًا، وعندما سنحت الفرصة، أعلن المشير الخبر

لقائده الأعلى، ليجد نفسه أمام تصرف لا يصدر إلا عن إنسان له عمق أنور السادات، وشخصيته المتكاملة العناصر، العميقة الأبعاد.

حزن الرئيس - ما في هذا من شك - حين أبلغ بخبر استشهاد عاطف السادات في الضربة الأولى. ولقد كان حزن الأخ الأكبر «أنور» على أخيه الأصغر «عاطف» عميقًا.. ولكن لمحة الحزن التي أطلت من عينيه يومها - وشهداها كل الحاضرين في غرفة العمليات الرئيسة - خالطها، ثم طغى عليها في النهاية إشعاع من العاطفة الأبوية الشاملة التي ظلت كل المقاتلين، واحتضنت كل الشهداء، وأطلقها الرئيس في عبارته المؤثرة «كلهم أولادي».

تحول الموقف الإنساني في قمته العاطفية إلى موقف حضاري، يقفه رجل ناضج، يشعر بفقد أخيه، ويألم لخبر استشهاده، ولكنه في الوقت نفسه، يرتفع بانفعالاته فوق الموقف الأسري المحدود، إلى موقف قومي أكثر شمولاً

واتساعًا وعمقًا، يتحول فيه «عاطف السادات» إلى واحد من شهداء مصر كلها، الذين يظلمهم جميعًا القائد بأبوته، ويترابط معهم قائدهم الأعلى بوجدانه، باعتبار أن ما صنعه كل منهم سطر جديد في سجل الشرف المصري، والكرامة العربية.

لقد كانت فئتنا القليلة من الطيارين، تحكمها في كل معاركها عوامل تعتبر الطريق الصحيح إلى كل انتصار على أي فئة أخرى مهما كثرت، وفي مقدمة هذه العوامل؛ الإيمان بالله وبالوطن وبالقضية، والتدريب الذي بلغ أرقى المستويات، والأخذ بأسباب العلم، وروح الثأر لشهداء المعارك السابقة، والاعتزاز بالنفس المصرية التي سطرت في سجل تاريخ الانتصارات أزهى وأمجد الصفحات طوال عصور التاريخ.

بهذه العوامل أيضًا تمكن كل من المقاتلين الطيارين «ضياء...» و«إيهاب...» و«ثابت...»

و«عويس...» من إسقاط أعداد من طائرات العدو تعتبر أرقامًا قياسية في عصر عزت فيه الأرقام القياسية.

بهذه العوامل تمكن المقاتل الطيار «خميس...» من إسقاط الميراج مرتين بالميج 21، وتمكن المقاتل الطيار «عبدالعزيز...» الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره من إسقاط الفانتوم بطائرته السوخوي، وبكى كل من المقاتل الطيار «إيهاب...» و«نقولا...» فرحًا وهو يرى الفانتوم تسقط محترقة بنيران طائرته «الميج - 17».

وبهذه العوامل نجح مقاتلونا الطيارون في إدخال الرعب على نفوس طياري العدو، وتشتيت هجماتهم، وإرغامهم على إلقاء حمولاتهم في البحر أو في الصحراء، وإجبارهم على الفرار قانعين من الغنيمة بالسلامة.

بهذه العوامل تقدم طيارو السوخوي و«الميج - 17» بتظلمهم إلى قادتهم، طالبين الاشتراك في طلعات القتال الجوي بطائراتهم غير المخصصة للقتال الجوي، حتى لا يفوتهم شرف الاشتراك في المهرجان القتالي الذي أقامته قواتنا الجوية في سماء الدلتا وسيناء.

تركت هذه العوامل بصماتها على التصرفات الفردية لمقاتلي القوات الجوية، بعد أن بلغت روح القتال بينهم ذروة قل أن سمت إليها روح المقاتل طيار في غير سلاحنا الجوي الذي استعاد نفسه في معارك أكتوبر.

وفي الواقع، فقد تصاعدت روح القتال بين بعض الطيارين إلى حد أدخل القلق على نفوس قادتهم، وأرغمهم إلى مقاومته في الكثير من الظروف.

على سبيل المثال - لا الحصر - ففي السادس من أكتوبر، وأثناء الضربة الأولى المركزة التي حطمت روح الطيران الإسرائيلي وأعادته إلى



حجمه الطبيعي، أصيبت طائرة المقاتل الطيار «نجيب...» بدانة مدفع مضاد أطارت غطاء كابينة الطائرة وأصابته هو بجروح سطحية في وجهه، ولكنه لم يبلغ عن الحادث ولم يطلب العلاج، بل بدأ بمجرد هبوطه في قاعدته إجراءات التزود بالوقود والذخيرة ليشارك في باقي طلعات ذلك اليوم، ولم يكتشف أمره إلا بعد أن حققت الضربة أهدافها وسمح للطيارين بالقليل من الوقت والراحة قبل بدء المهمة التالية.

في نفس اليوم أيضًا - وفي نفس العملية - حدث نفس الشيء للمقاتل الطيار «فوزي...» أثناء عودته بعد ضرب مطار بير تماذا، ولكن أمره اكتشف لحسن الحظ فصدرت له الأوامر الصارمة بالراحة جبريًا، ولكنه بعد 24 ساعة تقدم بتظلم أقرب إلى الرفض منه إلى الرجاء، نوه فيه بأنه سيقضي ما بقي من حياته فاقداً احترامه لنفسه لمرور يوم وليلة من عمر

المعركة دون أن يفعل شيئًا، حتى إذا ما أجيب إلى طلبه، حرص بعد عودته من كل عملية على المشاركة في العملية التي تليها، وكأنما يعوض ما فاته من عمليات.

ثم حدث نفس الشيء وما أكثر ما حدث للمقاتل الطيار «حسن...» في الثامن من أكتوبر.. فبعد أن تمكن من إسقاط طائرة للعدو، أصيبت طائرته بصاروخ معادٍ أثناء عودته، فوثب بالمظلة وعاد سيرًا على قدميه إلى حيث التقطته قواتنا الأرضية وأعادته سالما إلى قاعدته قبل الغروب. وكان حتمًا أن يحال إلى القومسيون الطبي ليحدد المدة الكافية لعلاج الكدمات والجروح التي أصيب بها.. و أحيل فعلاً رغم إلحاحه في طلب إعفائه من ذلك، ولكنه لم يكف عن التوسل للأطباء حتى (يطلقوا سراحه) كما كان يقول، فأجيب إلى طلبه بعد 24 ساعة ليشارك في عدة

عمليات ناجحة قبل أن يحظى - بعد ذلك - بلقاء ربه شهيد إيمانه وحبه لوطنه.

لون آخر من ألوان الإصرار وروح القتال التي جعلت من مقاتلي القوات الجوية مضرِبًا للأمثال، فعندما رزق المقاتل الطيار «فهمي...» بمولودته الأولى، وبادرت قيادته بمنحه إذناً ليراها ويطمئن على سلامة الأم، رفض ابن السادسة والعشرين أن يبعد عن قاعدته ولو لساعات، خشية أن تفوته المساهمة في إحياء مهرجان الانتصارات الذي أقامه مع زملائه ابتداء من السادس من أكتوبر.

تمخض هذا التكالب على الاشتراك في العمليات، من جانب الطيارين، عن ابتكار الكثير من الحلول لبعض المشكلات، فالمخالفات الصغيرة مثلاً، التي لا تخلو منها قاعدة جوية أو غير جوية، أمكن القضاء عليها تمامًا، وبين الطيارين بالذات، بجزء طريف ابتكره أحد

قادة القواعد لينتشر بين القواعد جميعًا، هو (الحرمان من طلعة أو أكثر من طلعات القتال). وإذا كانت المشكلة الدقيقة التي طالما عانى منها القادة أثناء الحروب الجوية، والممثلة في حتمية اختيار الطيار المناسب للعملية المناسبة من حيث هي تدمير أهداف جوية أو اكتساح مدرعات أو ما إلى ذلك، باعتبار أن كل مقاتل طيار في قواتنا الجوية كان مناسبًا لكل عملية جوية، فقد بقيت مشكلة اختيار العدد المطلوب من المقاتلين للعملية، دون غيرهم من الراغبين في التصدي لها، طوال الأيام الأربعة الأولى، حتى ابتكر قادة القواعد حلًا طريفًا لهذه المشكلة بدورها.

ويتلخص الحل الذي تمتزج فيه روح الدعابة المصرية بجدية الحرب في استدعاء الطيارين جميعًا إلى غرفة عمليات القاعدة لتلقينهم تفاصيل العملية، في نفس الوقت الذي يجري فيه تجهيز العدد المطلوب فقط من الطائرات

للطلعة وهي داخل دشمة، حتى إذا ما انتهى التلقين وهرع الطيارون كلٌّ إلى دشمة، حظي البعض بالمهمة، وعاد الباقون ضاحكين حيث يجدون الدشم التي حددت لهم خالية بلا طائرات.

ولم يكن الابتكار لحل المشكلات وقفًا على القادة، فقد ابتكر المقاتلون الطيارون لأنفسهم حلاً لمشكلة المشكلات في القتال الجوي، هي مواجهة العدو والدخول في المعركة الجوية بلا ذخيرة.

الحل المبتكر جاء عفواً، وأما السبيل إليه فكان روح القتال الكامنة في طيارينا، وأما عن الدروس المستفادة السابقة في مجال الحرب الجوية عمومًا التي أوحى به فلم يكن هناك أيٌّ منها، إذ اهتدى طيارونا المصريون إليها في أول مناسبة برزت فيها المشكلة.

لقد ذكرت من قبل قصة الطيار «نجيب» التي تحدثنا عنها بالتفصيل عندما ووجه بنفاد

ذخيرته يوم 7 أكتوبر بعد أن فرغ من مهمته في تدمير «قول» إسرائيلي مدرع كان في طريقه لنجدة القوات الإسرائيلية المسحوقة في خط بارليف، ولكي يفلت «نجيب» من المقاتلات الإسرائيلية، التي أسرعت لنجدة القول الإسرائيلي المدرع، ناور في الجو، حتى «ركب» بتشكيله الطائرات المعادية، فأسرعت بالهرب، فرارًا من صواريخه التي لا وجود لها.

نجح «نجيب» في ابتكار حل فوري تمتزج فيه الشجاعة بالسخرية المصرية اللاذعة من العدو لأخطر ما يواجهه الطيار المقاتل في الجو، عندما تنفذ ذخيرته في مواجهة عدو مكتمل الذخيرة.

هذا النمط الاستثنائي من المغامرات في القتال الجوي، لم يصبح قاعدة بين مقاتلينا الطيارين في كل مناسبة، بل أخذ ألوانًا أخرى أبعد تطرفًا وجسارة، وأكثر إصرارًا على سحق العدو الجوي، وإلحاق أكبر قدر من الخسارة،

حتى في اللحظة التي يكون فيها العدو متمتعًا بظروف تجعله قريبًا من تحقيق أهدافه.

في الثامن عشر من أكتوبر خرج تشكيل من أربع طائرات بقيادة المقاتل الطيار «حيدر» ومعه كل من «محب ورضا وفتحي»، في مهمة لتدمير عدد من الأهداف الحيوية في عمق سيناء، لتعرضه أثناء العودة بعد أدائه لمهمته مقاتلات العدو، وهو على بُعد 40 كيلو مترًا شمال العريش، وإذا كان التشكيل المصري قد بوغت وهو بلا ذخيرة للدفاع، فقد كان في هذه المرة بلا وقود يكفي للمناورة الخداعية ثم العودة إلى قاعدته، ولذا أصدر قائد التشكيل، المقاتل الطيار «حيدر...» أمره إلى زملائه بمواصلة العودة إلى القاعدة دون اشتباك، وانفصل هو عن التشكيل واتجه رأسًا صوب العدو، وراح يشغله بالكر والفر وهو أعزل تمامًا، حتى تمكنت مقاتلات العدو منه

بعد عناء، فأسقطته شهيدًا مضحياً بحياته ثمناً  
لحياة زملائه.

إن كثيراً من الناس لا يعرف عن «العمليات  
الخاصة» إلا اسمها.. وقد لا يعرف الكثيرون  
أنها واجبات ينفرد كل منها بوضع خاص، سواء  
من حيث التعرض للمخاطر، أو من حيث الآثار  
المرتبة على النجاح أو الفشل في أداء  
العمليات الخاصة بالبر أو البحر.. مسؤوليات  
جسام تتطلب من المقاتل الطيار أسمى  
مستويات الإخلاص للعمل، والصدق في الأداء،  
والشجاعة في مواجهة الخطر.

تلك عناصر توافرت بغزارة في مقاتلينا  
الطيارين، طوال معارك أكتوبر التي قامت أكثر  
ما قامت على العمليات الخاصة، التي عُهد بها  
لسلاحنا الجوي، فأثبت كفاءة عالية في هذا  
النوع من عمليات القتال التي خضناها للمرة  
الأولى في تاريخنا.



سارت عمليات هذا السلاح الوليد قُدماً، بعملياتها الخاصة، مع العمليات الأخرى التقليدية، كالقتال والقذف الجويين. وفي السادس من أكتوبر، وبينما الضربة المركزة الأولى تفتح أبواب الجحيم وتصلي العدو ناراً من الجو، كانت عدة تشكيلات من تسع عشرة طائرة هليكوبتر ضخمة، بقيادة المقاتلين الطيارين «شمس...» و«رفيق...» و«زكي...» و«محمود...» و«سعيد...» و«عمر...» و«حسن...» و«سمير...»، تسقط جنود الصاعقة البواسل شمال قلعة الجندي وشرق رأس سدر ووراء الممرات، للعمل خلف خطوط العدو بما يربكه ويوقعه في الحيرة التي حطت من روحه.

تلك القوات التي تم إنزالها لا يزال العالم يتغنى بإنجازاتها، لأن معظمها لم يعد إلا بعد شهور ثلاثة من بدء العمليات، وقد كانت نقطة الانطلاق الأولى في هذه العملية البطولية، هي

نجاح طائراتنا في توصيل هذه القوات إلى أهدافها.

كان بديهيًا أن تجد هذه القوات الخاصة حاجتها من الذخيرة والغذاء والماء، وكان الحل عند سلاحنا الجوي الجديد.. «الهلينكووتر».. فعن طريق العمليات الخاصة أقام هذا السلاح جسرًا لإمداد قواتنا البرية الخاصة، حيثما تواجدت عبر طرق جوية عجز العدو عن اكتشافها، ابتداء من الثامن من أكتوبر، وفي تشكيلات سريعة الحركة بقيادة مقاتلين طيارين كانت خبرتهم بهذه العمليات الجليلة الأثر تتصاعد باستمرار، من أمثال المقاتلين الطيارين «عمر...» و«حسن...» و«بهي...» و«أبو شعبة...» و«سمير...» وغيرهم.

نوع آخر من العمليات الخاصة اضطلعت به طائراتنا الهلينكووتر، تجاوز مجرد إبرار القوات الخاصة وإمدادها، إلى تدمير الأهداف أيضًا،

ففي الحادي عشر من أكتوبر عندما تقرر الحد إلى أقصى درجة ممكنة من نشاط مدرعات العدو بحرمانها من البترول، عصب الحرب الميكانيكية.. انطلقت أربعة تشكيلات من طائرات الهليكوبتر بقيادة كل من المقاتلين الطيارين «شمس...» و«رفيق...» و«أحمد...» و«علي...» في الصباح، ثم تلتها أربعة تشكيلات أخرى بقيادة كل من «جلال...» و«محمد...» و«سيد...» و«محسن...» إلى حيث دمرت مستودعات البترول بسيناء، فحرمت العدو بهذه العملية التدميرية الناجحة من مصدر حيوي للوقود.

ونجحت تشكيلات الهليكوبتر في ليلة الثالث عشر من أكتوبر، بعد طلعتين متتاليتين، في إبرار عدد من عناصر الاستطلاع الذي تقرر توصيله في منطقة ما قرب مطار المليز، وكان لنجاح هاتين الطلعتين أكبر الأثر في العمليات التي تمت حتى اليوم، والتي قد تدعو إليها

الحاجة في المستقبل. والجدير بالتسجيل هنا، أن نجاح هاتين الطلعتين الليليتين تم، رغم عدم وجود الأجهزة الملاحية الدقيقة التي تساعد الطيار على الوصول إلى أهدافه ليلاً.

أما أعظم العمليات الخاصة التي حققتها طائراتنا الهليكوبتر، وأطولها أمداً في الواقع، فكانت عمليات إمداد الجيش الثالث شرق السويس بالأغذية والماء والذخيرة والأدوات الطبية وشحنات من المصاحف والأناجيل، بتشكيلات استغل فيها مقاتلونا ساعات الظلام ومعرفتهم الدقيقة بالتضاريس الأرضية التي تقوم سدًا في وجه رادارات العدو، بنجاح لم يكن كفيلاً بصمود هذا الجيش الباسل فقط بل أيضًا كان كفيلاً بتمكينه من كسر جميع هجمات العدو واكتساب أرض جديدة.

بمثل تلك الروح في القتال بين طيارينا، وذلك المستوى من التدريب والكفاءة، تمكن

هؤلاء الطيارون من تحقيق أعمال تعتبر قياسية في مجال الحروب الجوية. لم أذكر من قبل أرقامًا مقارنة.. لكنني أشير الآن إلى أنه بالنسبة لعدد الطلعات الجوية في اليوم الواحد، كان الرقم القياسي أربع طلعات حققها طيارو سلاح الطيران البريطاني، أثناء مطاردة قوات المحور وهي في انسحابها التاريخي من شمال إفريقيا. وقد تخطت قواتنا الجوية المصرية هذا الرقم، ولأكثر من مرة، بعدد من الطلعات، وصل إلى ست طلعات كان يحققها الطيار الواحد في اليوم الواحد، دون أي بادرة من بوادر الإجهاد أو الإرهاق. في مجال إسقاط الطائرات الأكثر تفوقًا أثناء القتال الجوي، بلغ طيارونا الذروة، لا في عدد ما أسقطوا من طائرات معادية أكثر تفوقًا من طائراتهم فحسب، بل على مدار حرب بدأت دون أن يدري أحد متى سيقدر لها أن تنتهي.

وعلى المعدل الفردي أيضًا، حقق العشرات من طيارينا أرقامًا قياسية في عدد إسقاط الطائرات المعادية الأكثر تفوقًا، التي تمكن كل منهم من إسقاطها، فرغم قصر أمد المعركة نسبيًا، تمكن أكثر من طيار مصري من إسقاط طائرتين أكثر تفوقًا خلال الفترة بين بدء ووقف القتال، بل تمكن المقاتل الطيار «وفائي...» من إسقاط ثلاث طائرات، وتمكن المقاتل الطيار «إمام...» من إسقاط خمس طائرات كلها من طراز فانتوم، أما ما يعتبر إعجازًا فكان فيما حققه المقاتل الطيار «سعيد...» عندما أسقط طائرتين معاديتين من طراز ميراج خلال طلعة واحدة، الأمر الذي لم يحققه غير اثنين من طياري الحلفاء طوال السنوات الخمس للحرب العالمية الثانية.

ثمة ما يعتبر قياسًا في أكثر من مجال من مجالات الحروب الجوية، ما تحقق على أيدي

الكثيرين من أبناء القوات الجوية المصرية  
البواسل.

من ذلك على سبيل المثال، ما كان ينتاب  
بعض الطيارين من فقدان الصبر، والاستجابة  
للحماس وروح القتال، عندما ينجح العدو في  
الوصول إلى إحدى قواعدنا الجوية، فما من  
مرة هوجمت القاعدة التي يعمل منها كل من  
المقاتلين الطيارين «ضيف الله...»  
و«المنصوري...»، إلا وهرعا إلى طائرتيهما  
وانطلقا تحت القصف، إلى حيث يشتبكان مع  
العدو الجوي في معركة إن لم تنته بإسقاطه،  
فبارغامه على التخلص من حمولته المدمرة  
بإلقائها فوق الحقول، والعودة هاربًا دون أن  
يحقق أهدافه ضدنا.

ولا أنسى ما دأب عليه كل من المقاتل الطيار  
«فهمي...» و«نصر...» و«عادل...»  
و«تحسين...» و«شكري...» من عدم فتح  
نيرانه على عدوه، بعد التمكن منه، إلا وهو

على أقرب مسافة ممكنة منه، لدرجة أن شظايا العدو في كثير من المرات إثر انفجارها في الجو، أصابت طائراتهم إصابات لم تعقها عن مواصلة الطيران.

معروف في مجال الحرب الجوية، أن كل طيار يطير في الجو، يقابله بين «18 و20» مهنة على الأرض، لها علاقة بطائرته، بين متخصصين في الإعداد الهندسي للطائرة، وآخرين لتأكيد سلامتها، وتحميل لأسلحتها، وتزويدها بالوقود والذخيرة، وصيانة أجهزتها المختلفة.

ويسهر على تأمين سلامة الطائرة ملاح لتوجيهها على شاشات الرادار، ومراقب جوي لتنظيم إقلاعها وهبوطها من برج المراقبة، وخلف هؤلاء مهندسون وميكانيكيون وعمال في مهن فنية عديدة يصلحون ما يصيب كل طائرة من أعطال.



وهناك آخرون قابعون في مخازنهم، لإمداد الأسراب والورث بما يلزمها من عتاد أو مهمات أو قطع غيار، وآخرون في مكاتبهم، يديرون دولا ب العمل في أجهزة التخطيط ووحدات التنفيذ.

كل هؤلاء كانوا بمثابة خلية النحل، لا يكل فرد فيها عن العمل، وشأن كل خلية لها طلائع.. يصنعون النصر بالتضحية بأرواحهم، ويعطون الحياة صفة الاستمرار بهذه التضحيات، فإن النصر لم يكن من صنع فرد أو أفراد، ولكنه بالدرجة الأولى كان من صنع روح الفريق، التي لعبت أروع أدوارها أمام التاريخ.

والحق يقال إن شحنة معنوية، وروحًا وطنية لبست كل ضابط وكل جندي وكل موظف وكل عامل عند اشتعال الشرارة، فكأن الجميع يستعذبون الكد والتعب ولا يفكرون في الراحة، وكان كل منهم لا يفكر في الأخذ، بل في العطاء، ولا يفكر في نفسه بل في غيره،

خصوصًا هؤلاء الطلائع من نسور الجو الذين  
 نشروا ستار الحماية فوق سماء المنطقة.  
 كان كل من هؤلاء يفكر في سلامة الطائرة،  
 وسلامة الطيار، وسلامة الممر قبل أن يفكر في  
 نفسه، ومن ثم شحذت هممهم، فجاءت نتيجة  
 الأعمال التي قاموا بها خلال المعارك وفق ما  
 نعرف الآن. وكما ذكرت المقاتلين الطيارين؛  
 فإنني أذكر بعضًا من بطولات غيرهم.. لا من  
 باب الفخر والإعجاب، ولكن من باب التذكرة  
 والاستفادة.. هذه التضحيات ستنير الطريق  
 للأجيال القادمة، وستظل على مر الأيام محل  
 فخر وإعجاب لكل من عاشوها أو عرفوها أو  
 قرءوا عنها.

إن دعامة هذا الفخر وأصحابه الأوائل، هم  
 هؤلاء الذين دفعوا حياتهم فداء لأمتهم، وفداء  
 لواجبهم وحماية لنا، فكانوا هم القدوة التي  
 غسلت العار وضربت الأمثال، وكانوا هم بناة  
 صرح النصر، سواء واجهوا نار العدو وهم

ثابتون في مواقعهم الأرضية، أو أثناء تحليقهم في السماء.

لقد ذهب هؤلاء الشهداء للقاء ربهم بعد أن رفعوا رأسنا عاليًا، وبعد أن أزاحوا روح اليأس التي كانت تتراقص في الآفاق، وأحلوا مكانها أملاً كان بريقها قد خبا، وأمجادًا أوشك تاريخها أن يندثر. وكان الشهداء هم العازفين الأوائل لسيمفونية النصر الذين لعبوا أدوارهم بأمانة يحسدهم عليها الأحياء.

وحسبنا وحسبهم ما وعدنا الله به في كتابه الكريم حين يقول: (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ). [آل عمران: الآيتان 169 و170].

ولا يزال بيننا أبطال على الأرض، ضربوا أروع الأمثال في إتقان العمل والتضحية بالنفس، وقيض الله لهم أن يستمروا في إثراء

الحياة. ولقد نجح الجميع؛ نسور الجو، وعمالقة الأرض في تأكيد روح الفريق التي سادت بين قواتنا المسلحة عمومًا، وأسلحتنا التي تعاملت مع العدو الجوي على وجه الخصوص.

أمام جدار الصواريخ المصرية المحكم.. وأمام دوريات الحراسة النشطة من المقاتلات المصرية..

وأمام يقظة مقاتلات الاعتراض.. وأمام كثافة أجهزة الدفاع الجوي ويقظتها.. طاشت كل هجمات الطائرات المعادية.. ومن ثم راحت قنابلهم تتساقط من حول المطارات دون أن تصيب شيئًا. وكم من آلاف القنابل تهاوت وانغرست في حقول فلاحينا الكادحين، أو ذهبت سدًى ودفنت في رمال الصحراء.

أمام كل ذلك، تزايدت شراسة هجمات الطائرات الإسرائيلية، خصوصًا على مطارات شمال وغرب الدلتا، وأصبح عاديًّا أن يقال إن كثافة الطائرات المعادية في أي غارة بين 40

و50 طائرة، أو بين 60 و80 طائرة في بعض الطلعات، يقابلها عدد مماثل من طائراتنا، تقاتلها وتجبرها على الفرار، في أعنف المعارك التي سجلها تاريخ الحروب الجوية.

كان الأعداء يستهدفون دشم الطائرات، وكانوا يستهدفون الممرات لتعطيلها توهماً منهم أنهم قادرون على تكرار ما حدث في 5 يونيو 1967، وتساقطت بعض القنابل على الممرات، وتساقط الكثير من صواريخ العدو وقنابله بعيداً عن الممرات والدشم.

ولكن لم يتعطل مطار واحد أكثر من ساعات معدودة، استكمل بعدها قدرته على الدفع بطائراته إلى سماء المعركة التي فوجئت بها إسرائيل. ولقد تمخضت خسة إسرائيل في لحظات اليأس عن استخدام القنابل الاهتزازية، التي تنفجر بمجرد حدوث أي حركة بجوارها، وأمام هذا اللاشرف، لعبت

البسالة المصرية دورها، حتى لا تهتز القنابل أو تنفجر أمام طائرة أو أمام دشمة بجوارها.

كمثال على بطولات أبنائنا أذكر رئيس الوحدة المسئول عن إزالة القنابل وتطهير الممرات منها، وهو يغادر مكتبه في القاهرة وينطلق إلى إحدى القواعد الجوية التي تساقطت فيها القنابل حول الممر، ليباشر التطهير بنفسه، ويظل يواصل الليل بالنهار لأن القنابل كانت تعد بالعشرات، وكان بعضها غائصًا في الطين على بُعد أمتار، فظل يواصل الحفر وراءها حتى تم نزع كل ما أسقطه العدو من قنابل، وتم تأمين المطار.

وقائد وحدة تطهير يتقدم نحو موقع سقطت فيه قنبلة، فتنفجر فيه لأنها كانت من النوع الاهتزازي، ويتقدم من يليه في الرتبة، فيلقى نفس المصير، ثم يتقدم من يليه، وهكذا.. حتى أصبحت الوحدة تحت قيادة ملازم.. وأخيرًا تم التطهير، دون أن تتوقف

العمليات؛ لأن الجميع كانوا مؤمنين بحتمية مبدأ جديد اسمه «الاستمرار».

وتقدم سائق وحدة ميكانيكية من الممر، وعرف أن عددًا من زملائه لقوا حتفهم وهم يطهرون الممر من قنابل اهتزازية، فيسرع بعربته نحو قنبلة باقية كانوا يشيرون إليها، ويلقى نفس مصيرهم، حتى لا يستمر تعطيل الممر عن الطيران. ويتمزق جسده، مع أجزاء العربة، وتتوقف حياة البطل الشهيد، لكي تستمر قواته الجوية في الحياة.

وخلف عدم تعطل أي مطار أكثر من بضع ساعات، كانت هناك عملية إعداد فوري واستعدادات وتحضيرات خاصة يطلق عليها مهندسو الممرات «الخلطة الساخنة»، والأسمنت سريع الشك.

لم يكن العدو يدري أن مصر كلها تحارب.. وأن مصر كلها تساند جيشها. كانت الخلطة الساخنة تُصنع في كل موقع وبجوار كل مطار،

وتقوم بتجهيزها شركات ومواقع عمل مدنية كانت على أهبة الاستعداد، وسواعد مدنية كان أصحابها لا يقلون فدائية واستعدادًا للبذل عن المقاتلين الرسميين.

وكانت أجهزة نقل متخصصة تعمل لإحضار هذه «الخلطة الساخنة» على وجه السرعة، لردم ما في الممرات من حفر، وفي كل قاعدة جوية أو مطار توجد وحدة لديها آلاتها ومعداتنا وضباطها وجنودها المسئولون عن إعادة تجهيز الممرات. هؤلاء ضربوا أروع أمثلة النشاط، ومواصلة الليل بالنهار، لجعل الممرات جاهزة لإقلاع الطائرات وهبوطها باستمرار، وخلال ثغرة «الدفرسوار» تركزت غارات الأعداء، على أحد مطارات شرق الدلتا، وتساقطت عليه مئات القنابل، وتعطلت ممراته أحيانًا، ولكن كان العدو يعطله ليلاً، ليصبح فيجده وقد عاد صالحًا، وأقلعت منه الطائرات



لتهاجمه. لقد كان مهندسو المطارات، يعملون ليلاً على أضواء العربات.

كم كانت تعوق أعمالهم القنابل المهتزة، ولكنهم كانوا دائماً ذوي عزيمة، وكان نتاج ذلك كله.. ممرات صالحة على الدوام، تضمن لسلاحهم الجوي تحقيق شبح يرعب إسرائيل اسمه «الاستمرار» في المعركة من بدايتها إلى نهايتها.

ولجأ العدو إلى وسيلة غير شريفة أخرى، هي إلقاء قنابل تحوي مئات من الكرات المعدنية، التي تتناثر في شتى الاتجاهات عند حدوث الانفجار، فتصيب عدداً كبيراً من الأفراد. مثل هذه القنابل أطلق عليها جنودنا اسم «قنابل الجوافة»، تشببها لكراتها ببذور هذه الثمار، ورغم أن عدداً كبيراً من الأفراد قد أصيب من جراء هذه القنابل، فإن حركة العمل في أي قاعدة أو مطار لم تتوقف ولو للحظات،

رغم أن مقتضيات كثير من الأعمال تقتضي العمل في العراق، بلا ملاجئ.

وذهب العدو إلى أسلوب تخويف الميكانيكيين الجويين المسؤولين عن صيانة الطائرات وتجهيزها في حظائرها ودشمها، بتعمد إلقاء عديد من قنابل الجواقة قريبا. كان هؤلاء هم محور الرحي في كل عملية جوية، وعلى أكتافهم قامت كل التجهيزات في سرعة وبراعة وإحكام، وبروح معنوية لا مطمع في مزيد عليها لأي سلاح جوي في العالم.

وعندما وجد كثير منهم أن بعض البلي المتناثر يمكن أن يصيب الطائرات داخل الدشم، تمخضت أذهانهم عن أفكار مبتكرة غاية في البساطة، تمثلت في بعض شكاير الرمل، وصناديق الخشب المملوءة بالرمال، وحموا بها الطائرات. ولقد ضرب كثيرون منهم أروع المثل في التضحيات.

والمقاتل «شبل...» الذي كان يتعاون مع لفيف من زملائه على إدخال إحدى الطائرات إلى دشمته، ليحكموا إغلاق الباب عليها حماية لها من قنابل الجوافة. ولكن القنابل لاحقتهم، وسقطت إحداها قرب الدشمة، فأصر المقاتل «شبل» على أن يتقدم زملاؤه حتى يغلقوا الباب على الطائرة وبقي هو ليسحب القبلة بحبل بعيدًا عن الطائرة.

منهم المقاتل «شاكر...» الذي لمح قبلة تتدحرج في منزلق نحو إحدى الدشم، دون أن تنفجر، فهَمَّ في سرعة خاطفة إلى التقاطها بيديه، وجرى بعيدًا عن الدشمة إلى أرض فضاء مجاورة ليلقي بها، وهو يعلم أن انفجارها موقوت، وما كاد يعطيها ظهره بعد أن أبعد الخطر، حتى دوى صوت الانفجار عاليًا، وهو لم يكد ينبطح على وجهه ليتفادى الشظايا إلا في اللحظة الأخيرة.

وأُسرع العملاق المصري «شبل» سليل «بناة الأهرام» ليؤمن وحدة الدفاع الجوي، التي تسهم بجهدتها الحيوي في خلق الشبح الذي أطار النوم من عيون جنرالات الجو الإسرائيليين.. شبح كانت العسكرية الإسرائيلية تسخر من احتمال وجوده يومًا ما، ولكن أحفاد بناة الأهرام صمموا على أن يتحول هذا الشبح المخيف إلى حقيقة رهيبة بالنسبة للعدو، اسمها: «استمرار القوات الجوية المصرية في المعركة».

أما المقاتل «شافعي...» فقد كان له هواية غريبة، وهي جمع قنابل الجوافة، ولقد أفلح في جمع ما يزيد على ستمائة قنبلة منها بعد نزع مفجراتها، وبذلك أصبح سرها معروفًا، ولم تهبه القنابل المهتزة ونجح في نزع طباط سبع منها. و ذاع صيته في المنطقة، إلى حد أن استدعته إحدى وحدات الدفاع الجوي القريبة

لتأمين قنبلة كبيرة زنة ألف رطل، سقطت بجوارها على عمق أكثر من مترين في الأرض. إن القوة التدميرية الحقيقية لأي سلاح جوي معاصر، لا تحسب بعدد الطائرات التي يملكها هذا السلاح، ولا بعدد الطيارين المقاتلين الذين يعملون على هذه الطائرات، ولكن قواعد الحرب الجوية الحديثة، تضع مقاييس مختلفة تمام الاختلاف عن الحسابات العددية المجردة لعدد الطائرات والرجال، تتمثل في الأسس التالية:

**أولاً:** عدد الطلعات الجوية التي يستطيع الطيار الواحد أن يحققها في اليوم الواحد من أيام القتال الجوي.

**ثانياً:** نسبة الإصابة التي يحققها الطيار المقاتل، ضد الأهداف المعادية في كل طلعة، ومدى ارتفاع هذه النسبة.

**ثالثًا:** انخفاض نسبة الخسائر بين طائرات السلاح - وطياريه - نتيجة لتوافر وسائل الدفاع الجوي - بالنسبة للطائرات - وارتفاع المستوى القتالي بالنسبة للطيارين.

**رابعًا:** براعة أطقم التشغيل الأرضي في قيامها بعمليات إعادة الملء والتموين في أزمته قياسية توفر الوقت للطائرة وطيارها المقاتل، وتساعد على الارتفاع بعدد الطلعات التي يمكن للطيار الواحد أن يحققها إلى أرقام قياسية جديدة.

**خامسًا:** سرعة أطقم الصيانة والتجهيزات الهندسية، في القيام بعمليات الإصلاح - سواء بالنسبة للطائرات، أو الممرات - يوفر الوقت، ويضاعف من عدد الطلعات الجوية.

ولهذا، فلم يكن غريبًا عليّ، وأنا أباشر مهمتي - كقائد للقوات الجوية خلال حرب أكتوبر - أن ألاحظ أن عمليات «التمام» التي كانت تتلقاها قيادة القوات الجوية لم يكن بينها في أي يوم

«بند» عدم صلاحية للطائرات بسبب تأخر الإصلاح لمدد طويلة. ومن ثم كانت نسبة صلاحية الطائرات على الدوام أعلى من المتوقع باستمرار.

وراء هذا كانت هناك عيون ساهرة، من مهندسي الصيانة وميكانيكي وعمال ورش الإصلاح، سواء في القواعد الجوية والمطارات أو في الورش الخلفية. هؤلاء واصلوا الليل بالنهار في إنجاز الإصلاحات، وليس في ذلك في حد ذاته بطولة لأن ذلك عملهم وواجبهم. ولكن عنصر البطولة يكمن في إنجاز هذه الإصلاحات في أوقات أقل ما توصف به أنها غاية في القصر إلى حد يصعب تصديقه.

لقد أنجزت إصلاحات وتفتيشات خلال أربع وعشرين ساعة فقط، وكان الزمن اللازم لها في وقت السلم سبعة أيام على الأقل.. وقد يظن البعض أن هذا تم على حساب مستوى الجودة في الإنجاز، ولكن الحقيقة أن سرعة الإصلاح

تمت بحساب دقيق قام به مهندسو الطيران المشرفون على الإصلاح، بتكثيف الأيدي العاملة وتطبيق مبدأ «رجل/ ساعة أكثر يعني وقتًا أقل».

ولم يكن تكثيف العمل بالشيء العسير، فقد كانت الروح والهمم المصرية عالية، والكل كان يضحى بساعات نومه وراحته، وكانت الأجسام طيبة لهذه الهمم العالية التي بلغ حماسها القمة مع نسمات النصر.

ولعله ليس سرًا أن أعلن أنه كان هناك تخطيط مسبق من قبل قيادة مهندسي الطيران لنبذ الوسائل التقليدية للإصلاح وقت المعركة، واستخدام وسائل مبتكرة بديلة.

فالثقوب الصغيرة التي أحدثتها الشظايا في الطائرة مثلًا، لم تكن تعالج بالسمكرة بل باستخدام لدائن لاصقة. ومعدات الرفع والتحميل التي لا تتوافر إلا في الورش الرئيسية المجهزة، أمكن ابتكار ما يقوم بعملها



داخل دشّم الإصلاح وورش المطارات بوسائل لا تتسم إلا بالبساطة، ولكنها تؤدي إلى تحقيق نفس الفاعلية المطلوبة والمؤدية إلى سرعة الإنجاز في أقصر حيز زمني ممكن.

وأذكر الآن أنه لم يحدث أن تعطلت طائرة لنقص في قطع الغيار اللازمة لإصلاحها، لأن مهندسي الإمداد كانوا على مستوى من اليقظة ومن التفتح لاستقبال البلاغات وإنجاز المطلوب يحسدون عليه.

لم يكونوا نمطيين، ولا تقليديين في وسائلهم، فاستخدموا مبدأ الدفع من الخلف للأمام بمناورة نادرة.

وصل بلاغ من إحدى القواعد ليلاً بأن طائرة غير سالحة، في حاجة إلى قطعة غيار صغيرة الحجم، وأن صلاحية الطائرة متوقفة عليها، وبعد أن تم صرف القطعة المطلوبة، تحرك أحد المقاتلين بها لتوصيلها، وكان لزاماً عليه أن ينتقل بعربة وعلى بعد أربعة كيلو مترات من

القاعدة، وتعطلت العربة فواصل الجري حتى بلغ القاعدة لتكون الطائرة سالحة قبل مطلع الشمس.

خلال عمل متصل ليل نهار في الإصلاح، لتكون صلاحية الطائرات دائماً في القمة، توالى ملحمة بطولات عمادها المهندسون والفنيون والميكانيكيون والعمال.

وقد سقطت قنبلة أمام باب دشمة كان المقاتل «حمدي..» يجري فيها إصلاح طائرة، فافتق ذهنه عن سحب الطائرة من الباب الخلفي للدشمة بواسطة عربة التزويد بالوقود. وعندما يحدث الانفجار، تكون نتيجته إتلاف بعض الجدران فقط.

والمقاتل «زناتي...» تسقط قرب ورشته قنابل صغيرة كثيرة العدد، ويعرف أنها ستنفجر بعد قليل، ولكنه يمضي في جمعها في خوذته بسرعة، ويسرع إلى إلقائها في حفرة حتى لا يتعطل إصلاح الطائرات.

أما المقاتل «أبوناسو...» فقد كان متخصصًا في إصلاح كوابل التليفونات، وتحت قصف من وابل القنابل لم ينثن عن إصلاح كل الكوابل الموصلة إلى الدشم، لتكون الطائرات دائمًا جاهزة لتلقي أوامر الإقلاع فور صدورها، وليستمر سلاحنا الجوي موجودًا في المعركة التي بدأها بضربة «صدام» وأنهاها بضربة التدمير الرهيبة التي كالتها قاذفاتنا الثقيلة ومقاتلاتنا القاذفة لقوات العدو التي تسلت من ثغرة «الدفرسوار».

بهذا استحقت قواتنا الجوية التقييم المنصف الذي أعلنه الفريق أول محمد عبدالغني الجمسي نائب رئيس الوزراء ووزير الحربية والقائد العام لقواتنا المسلحة عندما أعلن «أن القوات الجوية هي التي بدأت الحرب وهي التي أنهتها».

"باسم قواتنا  
 الجوية درع قواتنا  
 المسلحة التي تحمي  
 سماء مصر.. أقولها  
 لكل جنرالات  
 إسرائيل: لسنا  
 مثلكم طلاب حرب  
 لذات الحرب..  
 ولكننا طلاب سلام  
 عادل.. قادرون عليه

# بإذن الله وإرادة الشعب.

## كلمة أخيرة

أختم كتابي هذا، كما بدأت، بالحديث المباشر الذي أتوجه به إلى خصمنا القديم جنرال الجو الإسرائيلي «مردخاي هود».. مخطط عملية «طوق الحمامة» الإسرائيلية، التي نفذها طيارو إسرائيل ضد سلاح الجو المصري، صباح الاثنين الخامس من يونية عام 1967.

أتحدث إليه باسم قواتنا الجوية المصرية، وتعبيرًا عن واقع جديد يؤمن به الإنسان المصري، ومن خلفه جماهير أمتنا العربية كلها: أردت يا جنرال «هود» ومن خلفك كل جنرالات إسرائيل وقاداتها السياسيين أن تخلقوا من ضربة «طوق الحمامة» وما تبعها من عمليات عسكرية برية خاطفة عام 1967 عقدة «ماسادا» عربية، تترسب في عقل

المقاتل المصري والإنسان العربي عامة، بحيث يتحول هذا الإنسان إلى كائن مذعور، يطارده في يقظته ونومه على السواء، خوف دائم، من وحش خرافي اسمه «جيش إسرائيل الذي لا يُقهر».

هذا هو ما أردته يا جنرال من عمليتك المسروقة خططيًا من الفكر العسكري الأنجلوفرنسي، ولكن إرادة الله العادلة، كانت فوق إرادتك، وكان تصميم المقاتل المصري - ومن ورائه الشعب المصري وأمتة العربية - على تحويل الهزيمة إلى نصر، هو الطريق الصحيح الذي مضينا فيه عشية الخامس من يونية عام 1967، ليصل في نهايته إلى الساعة الثانية من بعد ظهر السادس من أكتوبر عام 1973.. وأظنك تعرف جيدًا - كما يعرف كل جنرالات إسرائيل - ماذا حدث في تلك الساعة التاريخية التي أعادت الأحداث في منطقة الشرق الأوسط إلى مسارها الصحيح.

وكان حلمك يا جنرال «هود» - وهو بلا شك حلم إسرائيل كلها - أن تؤدي هزيمة يونيو 1967، إلى عزل مصر عن شقيقاتها العربيات، وإيقاعها في مصيدة التمزق الداخلي، الذي ينتهي بها إلى الانسحاب نهائيًا من الساحة العربية، لكي تسارعوا أنتم لملء الفراغ المخيف الذي يخلقه انسحاب مصر من الساحة التي يدور فيها الصراع التاريخي بين أمة العرب والفكر العدواني الذي تتبنونه.

لا شك أنكم فوجئتم بمصر تزداد تماسكًا بانتمائها العربي، وتزداد إصرارًا على دورها التاريخي في الصراع الحضاري بين العرب بكل تراثهم الحضاري المشرف، وبكل واقعهم المندفع بكل آمال المستقبل نحو استيعاب حضارة العصر. ولقد أثبتت الحوادث بُعد نظر الإنسان المصري - وقصر نظركم في هذه النقطة بالذات.



كانت مؤسستكم العسكرية في تل أبيب - وهي المحرك الأول والمسيطر الحقيقي على كل ما يجري في إسرائيل - تفاخر بأن ما حصلتكم عليه من نصر سريع ورخيص - في يونيو 1967 - هو المقبرة التي دفن فيها إلى الأبد، وهم كان يسمى «التضامن العربي، ووحدة الصف العربي».. وانطلاقًا من هذا التفاخر الذي أملاه عليكم الغرور والاستهانة بعدوكم وعدم معرفتكم بالمكونات الأصيلة للإنسان العربي، وضعتكم كل مخططاتكم السياسية والعسكرية - بعد يونيو 1967 - على أساس أن مصر تقف وحدها في العراق بلا سند ولا عون.

ثم نجحتكم في زرع هذه الفكرة الخاطئة في رءوس مخططي السياسة الاستراتيجية، سواء في قيادة حلف الأطلنطي عمومًا، أو مخططي السياسة الأمريكية على وجه الخصوص، وكان هدفكم من هذا التضليل أن تقنعوا الغرب

عمومًا - والولايات المتحدة الأمريكية خصوصًا  
 - بأنكم تستطيعون أن تقوموا بدور كلب  
 الحراسة الأمين لمصالح الغرب في المنطقة  
 العربية التي يسحقها التمزق والخلاف، ولا أمل  
 إطلاقًا في قيام أدنى صور الوحدة بين  
 صفوف الأمة العربية.

وفي مواجهة هذا الوهم، كانت القيادة  
 السياسية المصرية الجديدة وعلى رأسها  
 الرئيس السادات - تتحرك سرًا وعلنًا من  
 منطلق مخالف تمامًا.. وفي أحلك ساعات  
 الصمود والإعداد الصامت للمعركة، لم يتخل  
 شعبنا المصري عن إيمانه بأمتة العربية.. ومن  
 هذا الإيمان العميق بوحدة التاريخ والمصير  
 العربي، وضع القائد الأعلى استراتيجيته  
 السياسية في المجال العربي، في صمت،  
 ونفذها في صبر لا يتقنه إلا فلاح مصري -  
 كأ نور السادات.

وجاءت الساعة الموعودة، فإذا بالعالم كله يفاجأ بالصف العربي الموحد، وبالإرادة العربية الموحدة، وبالأمة العربية تطفو بإرادتها على سطح السياسة الدولية كقوة كبرى، قادرة على صنع ما تريد، وعلى توجيه أحداث المنطقة، ورسم سياستها بنفسها. أستطيع أن أقول لك يا جنرال «هود» - ولكل زملائك من جنرالات إسرائيل وقاداتها السياسيين - إن هزيمتكم السياسية في هذه الناحية بالذات، لا تقل بشاعة عن هزيمتكم العسكرية في ساحة القتال ظهر السادس من أكتوبر 1973.

نجح العقل المصري - كمخطط سياسي استراتيجي على المستوى العالمي - في توجيه ضربة ساحقة لكل ما صنعتته الدبلوماسية الإسرائيلية وحاكته في الظلام من مؤامرات الدس والوقيعه بين الأشقاء العرب - سواء قبل 5 يونيو 1967 أو ما تلاه من أيام شرسة - وكانت هزيمتكم السياسية قد بلغت ذروتها

بالوقفة التاريخية للأمة العربية والتفافها الرائع حول المقاتل العربي الذي حطم كبرى العسكارية الإسرائيلية ومرغ أنفها في تراب معارك أكتوبر.

وقد أدى هذا النجاح الساحق للدبلوماسية المصرية الذي آزره النجاح العسكري، إلى نتيجة بالغة الخطورة بالنسبة لمستقبلكم السياسي على المستوى الاستراتيجي البعيد، حين اكتشف العالم كله - شرقًا وغربًا - أن العرب - خصوصًا في وقت المعارك المصيرية - ليسوا بالأمة الممزقة، وأنهم قادرون على التلاحم السريع، مهما كانت صورة الخلاف في الرأي طافية على السطح.

أنت مضطر يا جنرال «هود» إلى أن تقر أن عملية «طوق الحمامة» - التي نقلتها بلا تصرف عن العسكرية الأنجلوفرنسية عام 1967 - قد لقيت من الفكر العسكري المصري، ردًا بالغ الشراسة والضراوة، في الضربة الجوية

المصرية «صدام» التي نفذها الطيار المصري المقاتل في السادس من أكتوبر عام 1973 بنجاح ساحق، لا تستطيع أنت ولا غيرك التقليل من شأنه.

والفارق الوحيد بين العمليتين، الذي ستسلم به - بينك وبين نفسك على الأقل - هو أن الضربة الجوية المركزة «صدام» كانت ضربة خالصة المصرية في تخطيطها وتنفيذها، بعكس عمليتك المسروقة تخطيطًا وتنفيذًا.. وأن هذه الضربة المصرية الخالصة كانت ردًا عمليًا على كل ما روجته أجهزة الحرب النفسية - عقب 5 يونيو - عن تفوق العقل الإسرائيلي، وعجز العقل المصري.

لو أن نجاح قواتنا الجوية ضدكم، كان قد توقف عند حد هذه الضربة المركزة التي وجهها لكم الطيار المصري المقاتل لجاز أن تزعموا أنها كانت فلتة لن تتكرر.. ولكن استمرار الطيار المصري المقاتل في توجيه الضربات

الساحقة لكم طوال المعارك، سواء فوق مسرح العمليات أثناء زحف قواتنا المنتصرة أو خلال المعارك الجوية الرهيبة التي دارت فوق ثغرة «الدفرسوار» وفوق بورسعيد - وغيرهما من المعارك الجوية الكبرى التي لم يشهد تاريخ الحرب الجوية مثيلاً لها من قبل - كل هذا يؤكد لك ولمؤسستك العسكرية في تل أبيب - أن الضربة المصرية «صدام» كانت مجرد بداية لواقع جديد يعيشه سلاح الجو المصري، وعليكم أن تحسبوا له ألف حساب.

أخيراً.. باسم قواتنا الجوية - درع قواتنا المسلحة الذي يحمي سماء مصر - أقولها لك ولكل جنرالات إسرائيل:

لسنا مثلكم - طلاب حرب لذات الحرب.. ولكننا طلاب سلام عادل.. ونحن قادرون بإذن الله وبإرادة شعبنا المصري، وصلابة أمتنا العربية - على حماية هذا السلام العادل، وعلى ضرب كل من تسول له نفسه أن يعتدي على

هذا السلام القائم على العدل، أو يحوله إلى سلام مستضعف ذليل..

ولسنا - كما صور لكم الوهم - متخلفين حضاريًا، وليس مقاتلنا بالعاجز عن استيعاب أحدث أسلحة العصر والتعامل معها، والسيطرة الكاملة عليها، وتعرفون جيدًا ماذا فعلنا بكم في حرب أكتوبر التي كانت مجرد عينة لما يستطيع مقاتلنا المصري أن يوجهه لكم من ضربات ساحقة.

لن يعود الخامس من يونيو ليتكرر في حياتنا من جديد.. لأننا لن نسمح له بأن يعود أبدًا.. ولأننا قد قطعنا الطريق على عودته إلى الأبد.. لا بالكلام والشعارات العنترية، بل بالعلم والعمل الجاد، والتخلص إلى الأبد من الأخطاء التي صنعت لكم يونيو 1967، أكثر مما صنعتوه أنتم.

وسيبقى «أكتوبر» هو القاعدة والأساس في كل لقاء دموي قد تفكرون - بالطيش أو الغرور

- في الإقدام على إشعال نيرانه بيننا وبينكم.. لأن «روح أكتوبر العظيم» هي التي توجه حركتنا الآن، شعبًا وقيادةً، إلى المسار الصحيح.. وستبقى هذه الروح المضيئة - التي اکتویتم بنارها عام 1973 - هي المشعل الذي يحمله شعبنا ليضيء لنا معالم الطريق.. لا في المجال العسكري وحده، بل في كل مجالات العمل الوطني على أرض مصر الخالدة.

أقولها مخلصًا لوجه الله: حذار من أي طيش عسكري جديد.. وحذار من أي مغامرة عسكرية قد تفكرون في الإقدام عليها.. وحذار من أحلامكم التوسعية القديمة.. فلم يعد لكل هذا مجال.. ثق من هذا يا جنرال هود - وقلها لكل جنرالات إسرائيل وصقورها - إن كنت تعترف بشيء اسمه «قواعد الفكر العسكري الحديث».

قل لهم: لقد تغيرت معالم الصورة على الجانب المصري إلى الأبد.. قل لهم: إن يونيو لن يعود من جديد.. قل لهم إن أكتوبر سيكون هو



القاعدة التي تحكم أي لقاء دموي بين إسرائيل ومصر.. لأنكم تعرفون جيداً معنى أكتوبر.. وطعمه المر في حلوقكم.. ولأن روح أكتوبر العظيم، قد أطلقت المارد المصري الجبار فحطم قمقم الخطأ، وانطلق ليحمي أمته العربية، ويستأنف القيام بدور الرائد كحارس للحضارة على أرضه الخالدة.

ثق من كل هذا يا جنرال، وانقله عن شعبنا، إن كنت تخلص النصح إلى دولة إسرائيل.. وإن كنت في شك من كلامي.. فاقراً هذا الكتاب من البداية وأنا متأكد أنك ستقرأ كل حرف فيه.. وبعدها.. ستعرف أنني لم أقل لك غير الحقيقة.. لأنني أنتمي إلى شعب أصيل لا يعرف الكذب، ولا يسيغ التضليل - اسمه.. شعب مصر.

# السيرة الذاتية

للأستاذ: محمد الشناوي



ليسانس (امتياز مع مرتبة الشرف) - كلية  
دار العلوم، جامعة القاهرة.

ماجستير في «علم النفس» جامعة عين  
شمس.

مذيع تنفيذ «بالإذاعة المصرية».. ثم مقدم  
برامج (منوعات / ثقافية / جماهيرية / دينية)  
بالإذاعة المصرية.

مخرج «دراما» بالإذاعة المصرية.

صاحب فكرة ومؤسس الإذاعات المحلية  
«بالإذاعة المصرية» وأول مدير لإذاعة القاهرة  
الكبرى.

رئيس لجنة التخطيط الدرامي بالإذاعة  
المصرية (8 سنوات).

رئيس لجنة اختبار المذيعين بالإذاعة  
المصرية (4 سنوات).

- أولاً: في مجال «الدراما الإذاعية» كتب  
الأعمال الآتية:

- خمسين مسلسلاً درامياً أذيعت بإذاعات:  
البرنامج العام والشرق الأوسط وإذاعة الشعب  
وإذاعة القاهرة الكبرى.

- مائة سهرة درامية وبرامج خاصة لإذاعة  
البرنامج العام والشعب وصوت العرب والقاهرة  
الكبرى.

- ثانياً: في مجال «الدراما التلفزيونية» كتب  
الأعمال الآتية:

- «ألوان من الحب» مسلسل درامي تلفزيوني دبي.
- مسلسل «قضية عمري» تلفزيون دبي.
- مسلسل «الحقيقة - ذلك المجهول» تلفزيون دبي.
- «اللاعب والدمية» مسلسل درامي لصوت القاهرة.
- «لكل حقيقته» مسلسل درامي لصوت القاهرة.
- «حامل الكفن» مسلسل درامي للتلفزيون المصري.
- «المفسدون في الأرض» مسلسل درامي للتلفزيون المصري.
- «عذراء وادي فيران» مسلسل درامي لصوت القاهرة.

- «رئين الصمت» مسلسل درامي لصوت القاهرة.

- «الوزير الشاعر» مسلسل درامي للتلفزيون المصري.

- «فوتوجينيك» سهرة درامية للتلفزيون المصري.

- «الزوجة والسكرتيرة» سهرة درامية للتلفزيون المصري.

- «أسطورة كبريت» سهرة درامية للتلفزيون المصري.

- «حكاية محمود» سهرة درامية للتلفزيون المصري.

- «بطل رغم أنفه» سهرة درامية للتلفزيون المصري.

- «على الطريق» سهرة درامية للتلفزيون المصري.

- ثالثًا: في مجال «المسرح» كتب الأعمال الآتية:

- مسرحية «حراس الحياة».. قدمت على مسرح الطليعة وعرضت لمدة 5 مواسم.

- مسرحية «الشبك».. مسرحية شعرية.

- رابعًا: الأبحاث الإعلامية:

- «الإذاعات المحلية.. ودورها في تنمية المجتمع».. بحث مقدم لندوة الإعلام الإقليمي باتحاد الإذاعات العربية عام 1982.

- «نحو نظرية علمية.. في الإعلام الإسلامي».. بحث مقدم للمؤتمر الثامن عشر للجامعات الإسلامية ونشرته رابطة الجامعات الإسلامية في ملحق خاص بمجلتها العلمية.

- خامسًا: البرامج الدينية:

1 - في مجال الإذاعة:

- كتب 360 حلقة من البرنامج الديني الدرامي «صدق رسول الله».
- كتب وقدم برنامج «من شرفات التاريخ» بإذاعة القرآن الكريم.

## 2 - في مجال التلفزيون:

- «في رحاب آية» إعداد وتقديم 360 حلقة «إنتاج مطيع زايد».
- «كلمات ومواقف» تأليف درامي ديني، 30 حلقة «إنتاج راديو وتلفزيون العرب».
- سادسًا: التدريس في المعاهد الفنية:

- 1 - المعهد العالي للسينما بأكاديمية الفنون:
- عمل كأستاذ خارجي غير متفرغ (1973 - 1983):

- 1. قام بتدريس مادة «أدب القصة السينمائية».

2. قام بتدريس مادة «اللغة العربية وآدابها».

2 - المعهد العالي للفنون المسرحية  
بأكاديمية الفنون:

- عمل كأستاذ خارجي غير متفرغ (1973 - 1983):

1. قام بتدريس مادة «المسرح الشعري».

2. قام بتدريس مادة «اللغة العربية وآدابها».

3. قام بتدريس مادة «الفن الإذاعي».

3 - قام بالتدريس بكلية الضباط المتخصصين بأكاديمية الشرطة لمدة عشر سنوات.